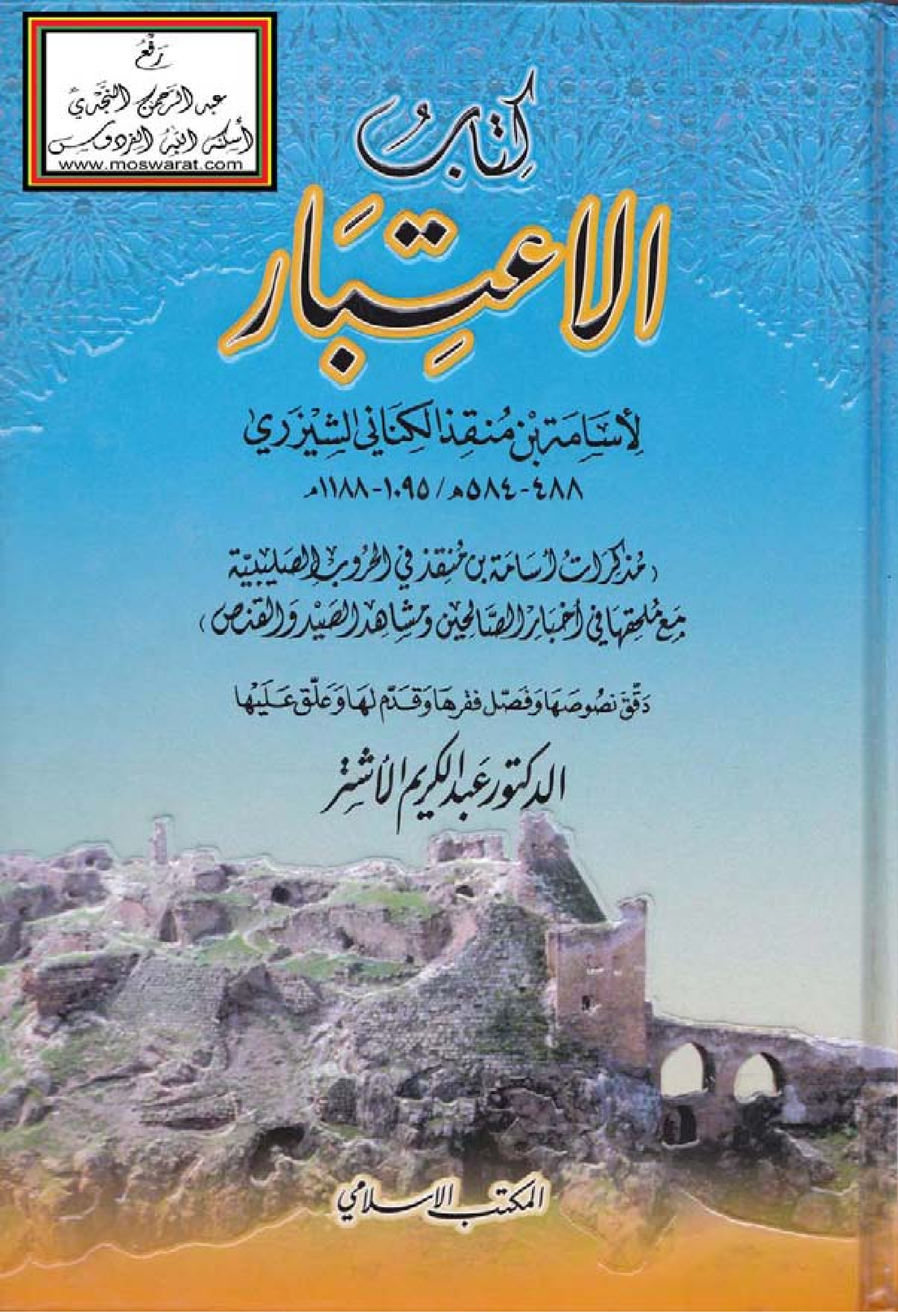
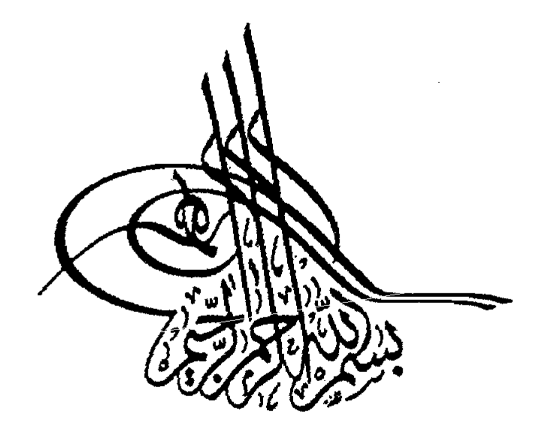

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
كتاب
الاعتبار
لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري
٤٨٨-٥٨٤هـ / ١٠٩٥-١١٨٨م
(مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية
مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص)
دقق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلق عليها
الدكتور عبد الكريم الأشتر
المكتب الإسلامي



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كتاب
الاعتبار



كتاب الاعتبار

لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري
٤٨٨-٥٨٤هـ / ١٠٩٥-١١٨٨م

(مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية
مع ملحقها في أخبار الصالحين ومشاهد الصيد والقنص)

دقق نصوصها وفصل فقرها وقدم لها وعلق عليها
الدكتور عبد الكريم الأشتر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية كاملة ومنقحة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

الإهـــداء

إلىٰ روح ابنتي الطبيبة الدكتورة عبير الأشتر التي وافتها المنية، بعد عذاب طويل (صباح يوم الاثنين ٢٩ شعبان ١٤٢٣هـ = ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٢م)، وأنا أعمل في هذا الكتاب، رحمها الله وأحسن إليها، تفضلاً منه وإحساناً، لقاء رفقها بالفقراء وإحسانها إليهم.

ع. أ.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا الكتاب

ربي لك الحمد والشكر في كل حال. نسألك نصرك علىٰ عدونا ومَن تابَعَهُ وآزَرَهُ، فقد ملأت عداوتهم ومظالمهم السهل والجبل، وتجاوزوا كل الحدود، حتىٰ وصلنا إلىٰ الحال التي يعرفها اليوم الصغير والكبير، والقاصي والداني.

وبعد... فقد سبق لي أن نظرت، قبل سنة ١٣٨٤هـ، أي منذ أربعين سنة تقريباً، في كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ الكناني، بتحقيق فيليب حِتّي، قبل قيامي بطبع كتابه القيّم الآخر «المنازل والديار». فوجدتُ الكتابين يرميان عن قوس واحدة، وإن اختلفا في الشكل: التزام الوطن وقضيته، ومحبة أرضه، والدفاع عن مقدساته الغالية إلىٰ آخر رمق.

ثم اطلعت من بعد علىٰ صورةٍ أخرىٰ مختارة من كتاب «الاعتبار»[(١)] رجع فيها الأخ الصديق الدكتور عبد الكريم الأشتر، إلىٰ الأصل الذي أقام أسامة بن منقذ كتابه عليه، وهو مذكراته في حروب الإفرنج التي سمّاها الأوروبيون: الحروب الصليبية، وما تقدمها من فصول حياته،

(١) صدرت في دمشق عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م.

منذ نشأته في قلعة شَيْزر التي كان بنو منقذ يملكونها إقطاعاً من أيام صالح بن مِرداس الذي ملك الأمر في حلب، من بعد الحمدانيين.

وكان أسامة ألحق بهذه المذكرات، بعد أن اكتمل له إملاؤها وكتب خاتمتها، ملحقاً ضمّنه بعض حكايات الصالحين، وصوراً من مشاهد الصيد التي حضرها مع أبيه، في سهل الغاب القريب من شيزر وما حولها، ومع رجال عصره وغلمانهم. فوقف الأستاذ الدكتور الأشتر آنذاك جهده علىٰ الأصل الذي بنىٰ عليه أسامة كتابه، من دون هذا الملحق، بقصد أن تتوثق الصلة النافذة العمق، البالغة التركيز، بما نحن فيه هذه الأيام، من صور المواجهة المفروضة بين الشرق الإسلامي وأكثر الغرب الأوروبي ـ الأمريكي، علىٰ اختلاف معاني المواجهة واختلاف ميادينها، وبقصد أن يعمّق من أثر الإحساس بتفوقنا الثقافي والحضاري العام يومذاك، في دعم موقفنا وتقوية قدرتنا علىٰ انتزاع النصر، في آخر الطريق[1].

كانت دمشق، تلك الأيام، في حكم السلاجقة[2] الأبطال، رحمهم الله وجزاهم عن الإسلام وأهله خير الجزاء علىٰ ما قاموا به من جلائل الأعمال. فكانت صحبة أسامة بن منقذ لعماد الدين زنكي وابنه العظيم نور الدين محمود الشهيد، ووزير الأتابكة البوريين علىٰ دمشق معين الدين

---

(١) كانت (عكّة) آخر مدينة استعدناها من الصليبيين سنة ٦٩٠هـ، علىٰ يد الملك الأشرف خليل ابن السلطان المنصور قلاوون (سلطان مصر والشام). وقد شارك شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الفتح. انظر: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للحافظ عمر بن علي البزاز، بتحقيقي. طبع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤١٣هـ = ٢٠٠٢م، الصفحة ٦٢.

(٢) انظر في المفيد من أخبارهم: كتاب «التاريخ الإسلامي ـ العهد المملوكي» الجزء السابع، للأستاذ محمود شاكر: طبع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

أُنُر، بعض صفحات عمله الدائب لتحرير الأرض واسترداد المقدسات.

وقد أملىٰ أسامة كتاب «الاعتبار» في دمشق، في عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو ابن تسعين سنة (٥٧٨هـ، علىٰ ما يقول في خاتمة الكتاب)، وأغلب الظن أنه جمعه مما كان يدوّنه من الحوادث والأخبار في جزازات ودفاتر، فإنه يتعذر علىٰ مَن بلغ التسعين أن يتذكر هذا القدْر الهائل من جزئيات تلك الوقائع[1].

علىٰ أن الله ﷻ متَّع أسامة بن منقذ، حتىٰ أواخر حياته، بما كان رسول الله ﷺ يدعو به: «... ومتّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا»[2]، حتىٰ وصل إلىٰ السادسة والتسعين (٩٣ سنة ميلادية). وقد شهد قبل وفاته بعام واحد (٥٨٣هـ) تحرير بيت المقدس والمسجد الأقصىٰ. وكانت وفاته في دمشق رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة، ودُفن شرقيّ الصالحية.

في «الاعتبار» صوَّرَ الكثير من عادات أهل الشام وفلسطين في غمرة تلك الحروب، في مختلف أحوالهم، وصوّر أجزاءً من طبيعة الشام، وأحوال الناس في مصر وعاداتهم أيام الفاطميين، وصورِ التعامل، في دولتهم، بين السلطة والشعب.

لهذا كله طلبت من أخي الدكتور عبد الكريم الأشتر أن يقوم أبناء أخيه، أولادي، وقد أصبح لهم المكتب الإسلامي، بطبع الكتاب،

---

(١) انظر: كتاب «السنوات المتأخرة من العمر» للدكتور عز الدين إبراهيم مصطفىٰ ـ طبع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

(٢) انظر: «صحيح سنن الترمذي ـ باختصار السند» برقم ٤٧٨٣، أو «الكلم الطيب» لابن تيمية برقم ٢٢٥، أو «مشكاة المصابيح» برقم ٢٤٩٢، أو «صحيح الجامع الصغير» برقم ١٢٦٨. وهي كلها طبع المكتب الإسلامي في بيروت، في السنوات ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م، و١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، و١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، و١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م علىٰ الترتيب.

عسىٰ أن يكون حافزاً لهذا الرعيل من المجاهدين، بقية السيف، ممن تبقىٰ من أهل القتال والاستشهاد، في هذا الزمن الذي ضاعت فيه سيوف أصحاب السيوف، فاكتفوا بأن يكونوا مع القاعدين والوسطاء والسماسرة.

فقام، جزاه الله خيراً، بإعادة النظر إعادة شاملة فيه، فألحق به ملحقه في فصلين، لتكتمل صورة الكتاب في عين القارئ. وأعاد كتابة مقدمته، في ضوء ما جَدّ من الأحداث، ونقَّحه وزاد زيادة كبيرة في شروحه وتحقيقاته، وفي التعليق والتتبع والضبط.

والأمل في شبابنا اليوم، بعد أن نفضوا عنهم غبار الخوف الذي غطّىٰ علىٰ عقول العدد الأكبر من أهلنا خلال القرنِ الماضي، أن يكون لهم الحافز علىٰ اقتفاء خطىٰ مَن سبقهم، فينتزعوا النصر الذي انتزعه آباؤهم، من قبل.

وانظر، أخي القارئ، ختاماً، في ما يقوله الدكتور الأشتر في مقدمته للكتاب: «إن غاية ما أبتغيه من نشر هذا الكتاب مرة أخرىٰ، في طبعته الكاملة هذه، أن تقع الإفادة منه في هذه الأيام الحرجة التي نواجه فيها غزواً استيطانياً جديداً يُذكّر بغزو الإفرنج أيام الحروب الصليبية، فيُعين نشر نصوصه علىٰ إشاعة الإصرار علىٰ دحره في نفوس الناس، عامة الناس، وتقوية روح المقاومة، وبَثّ الثقة فيهم، والاعتبار بما تم لنا تحقيقه تلك الأيام. واستخلاص الدروس منه».

أسأل الله أن يرحم أسامة بن منقذ، ويحسن جزاء الدكتور عبد الكريم، ويوفّق ولديّ بلالاً وعلياً إلىٰ ما يرضيه؛ إنه سبحانه، وليّ كل خير.

والحمد لله رب العالمين.

بيروت ـ غرّة رجب ١٤٢٣هـ

الموافق ١/٨/٢٠٠٢م

زهير الشاويش



مقدمة

١

بنو منقذ، من كنانة، ينتهون بنسبهم، علىٰ ما ذكر مؤرخوهم، إلىٰ يعرب بن قحطان. أسرةٌ كبيرة(١) من الأسر الحاكمة في تاريخ العرب والإسلام. كانت لها أملاك في حماة وحلب، قبل أن يُقطعها صالح بن مِرداس (٤١٥هـ)، الذي مَلَكَ الأمر في حلب، من بعد الحمدانيين، إقطاعاً في جوار قلعة شَيْزَر(٢) الأثرية، شمالي حماة، علىٰ ضفة العاصي الغربية، في موقعٍ حصين يحكم وادي العاصي، ويُسيطِر علىٰ الطريق الداخلية التي سلكَها أكثر المغيرين علىٰ سورية من الشمال، منذ القديم، وسلكَها أكثر الإفرنج أيضاً، أيام الحروب الصليبية.

فليسَ غريباً، أن يكون لهذه القلعة تاريخٌ مُوغِلٌ في القِدَم، منذ ما قبل الألف الثانية ق.م وبعدها، لما بيّنا من خطر موقعها وحصانتها وقُربِها من حماة وأفامية(٣) وإشرافها علىٰ سهل الغاب، عند قلعة

---

(١) انظر تسلسل أفرادها في «معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي» لزامباور ص ١٦٥.

(٢) يسميها الأوروبيون اليوم SIZARAR ومؤرخو الحملات الصليبية CAESAREA (قيصرية) لمن يريد أن يتتبع كلامهم عليها في المصادر الغربية.

(٣) Apamée بناها السلوقيون، ووسعها سلوقس نيكاتور، وسماها باسم زوجه الفارسية. احتلها الصليبيون، واسترجعها نور الدين بن زنكي سنة ٥٣٤هـ = ١١٣٩م. انظر: («معجم البلدان» ١/ ٢٢٧ و٤/ ٢٣٣).

المضيق[1] التي بُنِيَت قريباً منها أيضاً. ولبروز هذه القلعة وارتفاعها سمّىٰ العرب الهضبة التي تقوم عليها: عُرف الديك. وزاد من مَنَعتها أنَّ العاصي يُحيط بها من أكثر جهاتها. ثم إنهم حفروا خندقاً في الصخر يقطعها عن البرّ، وأقاموا فوقه جسراً يصلها به ويقطعها عنه، حين يريدون.

كان فتْح العرب المسلمين لشيزر في فتوح الشام، بعد أن دخلوا حمص وحماة (سنة ١٧هـ = ٦٣٨م) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ﵁. وكانوا يعرفونها، فإن امرأ القيس ذكرها لهم في شعره، وهو في طريق رحيله إلىٰ ديار الروم، علىٰ ما يقول الرواة[2]. ثمَّ دارَت من حولها، بعد ذلك، معارك كثيرة بينهم وبين البيزنطيين، حين أخذَ الضعف يغلب علىٰ الدولة الإسلامية في عهد الحمدانيين، قبل مجيء الإفرنج (سنة ٤٩٠هـ). وقد استخلصها البيزنطيون لأنفسهم أحياناً، واستردّها المسلمون أحياناً. ثم وقعت في أيدي البيزنطيين زمناً طويلاً، أواخر عهد الحمدانيين (سنة ٣٨٨هـ)، هجرها فيه أهلها، فأقام البيزنطيون فيها أسقفية، حتىٰ استردَّها (سنة ٤٧٤هـ) عزّ الدولة سديد الملك، أبو الحسن علي، جَدّ أسامة، بمالٍ دفعه إلىٰ ديمتري الأسقفّ الذي كان فيها، بعد أن أُقطع بنو منقذ الإقطاع الذي ذكرناه، في جوارها، وضمّها إليه.

وكان بعض الأمراء من بني منقذ تمكَّنَ من الاستيلاء علىٰ بعض الحواضر القريبة (مثل كفَر طاب)، قبل سديد الملك، وضمّها إلىٰ الإقطاع أيضاً. وبنىٰ قريباً من الجسر الذي أقاموه فوق العاصي، عند حدود «المدينة» التي أُقيمَت بالقرب منها، حِصناً يُنسب إليهم، سمّوه:

---

(١) تقع علىٰ بعد ٤٥ كم من حمص، بالقرب من بقايا مدينة أفامية. انظر المصوّرات.

(٢) من قصيدته الرائية التي يقول فيها:

تقطّعُ أسباب اللُّبانة والهوىٰ ... عشيّة جاوزنا حماة وشيزرا

انظر: («معجم البلدان» ٣/ ٣٨٣).

حصن الجسر، ليحرسه ويَحصِن به حصن شيزر، ويمدّ حدود سلطته إلىٰ العاصي. فلمّا استردَّ سديد الملك القلعة و«البلدة»[1] التي تضمّها، قاربَ ملك الأسرة أن يتحول إلىٰ إمارة صغيرة (انبسطت سلطتها أحياناً فشملت أفامية وكفَر طاب واللاذقية) كُتِبَ لها أن تلعب دوراً مذكوراً في حروب الإفرنج[2] الصليبيين، من بعد.

جاءَ بعد سديد الملك (ت ٤٧٩هـ) ابنه عز الدولة أبو المرهف نصر (ت٤٩١هـ)، فأخو نصر مجد الدين مرشد (ت٥٣١هـ)، والد أسامة. وكان ورِعاً زاهداً في السُلطة، فتنازلَ عنها لأخيه الأصغر[3] عزّ الدين أبي العساكر سلطان، عمّ أسامة، (سنة ٥٠٤هـ). كان عمر أسامة يومها ستة عشر عاماً، وقد مضىٰ علىٰ مجيء الإفرنج ونشوب الحروب الصليبية أربعة عشر عاماً. وفي ولاية سلطان هذا وولده محمد بعده، وقعَت الأحداث التي قُدِّرَ لأُسامة أن يكونَ مِن شهود أكثر فصولها إثارة، في الثلث الأول من حياته الطويلة، ويَصِفُها في كتاب «الاعتبار»، إلىٰ جانب الأحداث والوقائع الكثيرة التي شهدها في الموصل ودمشق ومواطن أخرىٰ سيأتي بيانها بعد، مع الزنكيين، وفي مصر، في السنوات الأخيرة من حكم الفاطميين، وفي حصن كَيْفا[4]

---

(١) يُفرقون بين «البلدة» التي تقع بيوتها ضمن القلعة، و«المدينة» التي تقوم قريباً من الجسر.

(٢) الإفرنج، في الأصل، هي التسمية المنقولة عن اللاتينية لقبائل الـ FRANCS الجرمانية التي استوطنت فرنسة في القرن الخامس وأسست فيها الممالك الأولىٰ. وأطلقت التسمية علىٰ الأوروبيين إجمالاً من بعد الحروب الصليبية. من هنا سماها المؤرخون العرب: «حروب الإفرنج».

(٣) كان له أخ ثالث بمصر، مقرَّب من الفاطميين، هو أبو المتوَّج مقلَّد تاج الأمراء: («معجم الأنساب والأسرات الحاكمة» لزامباور. ص١٦٥).

(٤) يأتي التعريف بها وبالأُرتُقيين، في موضعه، بعد قليل.

أيام الأُرْتُقيين، قبل استقراره الأخير في دمشق إلىٰ جانب الناصر صلاح الدين الأيوبي.

كانت شيزر آنذاك عُرضةً لِغزوات الأعراب من بني كلاب المقيمين في أطراف حلب، والإسماعيلية (ويسميهم في الكتاب: الباطنية) الذين كانوا قريبين منها، والروم البيزنطيين، والإفرنج الصليبيين، في وقتٍ واحد. فكانت تصدّ هذه الغزوات بما لها من مَنَعة موقِعِها ومَنَعة حصونها وخنادقها، وعزيمةِ رجالِها، وشجاعَةِ أُمَرائِها، وقُدرَتِهِم علىٰ تعبئةِ الناس ودَفْعهِم إلىٰ القِتال، علىٰ ما يَصِفُ أسامة في هذا الكتاب. وكانت من حولها أيضاً، في سهل الغاب، آجام تعجّ بالأسود والفهود وحمرَ الوحش. وسطٌ تُحدق به وبساكنيه الأخطار، من كل طرف.

٢

نشأَ مؤيِّد الدولة أبو المظفر أُسامة في رعايةِ أبيه مجد الدين مرشد، وعمه عز الدين سلطان، فدرسَ اللغة والنحو والأدب دراسة مستفيضة علىٰ بعض شيوخ زمانه[١]، وقرأ الشعر وحفِظَ قدْراً كبيراً منه[٢]. ووعىٰ القرآن وتفاسيره والحديثَ وكتُبَه، واطّلع علىٰ التاريخ والسِّيَر، وعلّمهُ أبوه النجوم ومواقعها. وتمرَّسَ بأساليب القتال والصيد، وعاينها، علىٰ أيدي الفرسان. وكان علىٰ حظٍّ ممتاز من حِدّة الذهن وروعة البديهة وشجاعة القلب وخِفَّة الحركة. فكانَ ربما أقدَمَ علىٰ ما لا يُقدِمُ عليه

---

(١) من شيوخه: ابن المنيرة محمد بن يوسف الذي صنّف في النحو، ونقد الشعر، وغريب القرآن، وذكره أسامة في الفقرة ١٠٠، وأبو عبد الله الطليطلي النحوي، والمحدّث علي بن سالم السِّبِنْسي. وسيأتي الكلام عليهم بعد.

(٢) روىٰ السمعاني الحافظ عن أسامة قوله: إنه كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية وحدها. وفي «الاعتبار» أمثلة دالّة علىٰ ما كان يحفظ. انظر: («بغية الطلب» لابن العديم ورقة (٢٠٥ظ). من المصور المحفوظ لديّ، وارجع إلىٰ المراجع).

غيره من ركوب الخطر، إضافة إلىٰ ما وعىٰ في الدرس والتحصيل، في مجتمع الحصن الأدبي الذي كان الشعراء والأدباء يتوافدون عليه، ليمتدحوا أمراءه.

كان عمّه عز الدين سلطان، في أول أمره يُعِدّه للإمارة من بعده، فكان يدفعه في المضايق الصعبة، ويندبُه للمهام الكبيرة، ويمتحِنُ صبرَهُ وبداهتَهُ في مواجهة المواقِف الحرِجة. ولم يكُن لِعمّه ولدٌ يخلُفه. فلمّا رُزِقَ الولدَ أحسَّ أُسامة بالحرج وخَشِيَ علىٰ نفسه من عمّه، علىٰ ما يقول في الكتاب. وكانت جدته لأبيه تحبه، فكانت تُحذّره من عمه[1]، ووقع له أن هجم علىٰ الأسد يوماً في سهلِ الغاب، فغلبه واحتزَّ رأسَه ودخلَ به شيزر. فاستعظمَ عمّه هذا الفِعل، ثُمَّ كأنَّما زَيَّنَ له أن يُغادِرَ شيزر، فغادرِها حيناً (سنة ٥٢٢هـ) إلىٰ الموصل، ملتحقاً بعسكر نور الدين بن زنكي، وشارك في بعض المصافّات. ثم لمّا مات أبوه (سنة ٥٣١هـ) غادرها مُكْرهاً، في السنة التالية (٥٣٢هـ)، إلىٰ دمشق، فأقامَ فيها ـ وكانت في حكم الأتابكة البوريين ـ ثماني سنين، نَعِمَ فيها برعاية الأمير معين الدين أُنُر وزيرهم علىٰ دمشق.

ثم اقتضَت الحال بعدها أن يرحَلَ إلىٰ مصر[2] (سنة ٥٤٠هـ)، أيام الحافظ لِدين الله الفاطمي. فَشَهِدَ الأحداثَ الأخيرة الدامية في عمرِ الدولة الفاطميّة، واتصلَ بأسرارها ورجالها. وبقي فيها تسع سنين، وغادرها (سنة ٥٤٩هـ) عائِداً إلىٰ البلاط النوري في دمشق. ولَحِقَ به أهله وأولاده، بعد أن أخذ لهم الأمان من الإفرنج. ولكن الإفرنج أغاروا علىٰ مركبهم ونهبوا ما فيه، وجرّدوا النساء من حليِّهن، وأخذوا

(١) آخر الفقرة ١٥٤. وفي شعر أسامة ما يشير إلىٰ ما شاب علاقته بعمّه من انقباض بدت بوادره منذ عهد أبيه مرشد («الكامل» لابن الأثير ١١/ ٢٢٠)

(٢) سيأتي، من بعد، ما قيل في أسباب هذا الترحُّل. وأكبر الظن أن العلاقة ساءت بينه وبين صديقه معين الدين أُنُر.

الكُسىٰ والجوهر، وأخذوا معها قدراً عظيماً من كُتبِ أسامة، تبلغ أربعة آلاف مُجلَّدٍ من الكتب الفاخرة. فكان فقْدُ الكُتبِ أعظَمَ في نفسهِ من كُلِّ شيء. وقال في ذلك جملته التي نقرؤها في الكتاب: «فإنَّ ذهابَها حزازة في قلبي ما عِشْتُ»(١).

وكانَ من قَدَر شيزر بعدها أن دَهمَها زلزالٌ عنيف (سنة ٥٥٢هـ = ١١٥٧م) هدَّ أركانها ودمّرها تدميراً، وقضىٰ علىٰ أهلها، فلم يبقَ من بني منقذ أحدٌ ممن كانوا فيها(٢). ونجا أُسامة وولده لِبعدِهم عنها في دمشق!

فكأن ما وقع لأهله من الإبادة، وما جرىٰ له في مصر والشام، وما شهد من النكبات والوقعات(٣) والأحداث العظام التي شملت حركته فيها ساحة المنطقة كلها (من أخباره أنه سافر إلىٰ أرمينية وملطية)، دفع به (سنة ٥٥٩هـ) إلىٰ الاعتكاف في حصن كَيْفا(٤)، علىٰ نهر دجلة،

(١) أفاد من هذه المكتبة المنهوبة مؤرّخهم وليم الصوري (ت نحو ١١٩٠م، أو قبلها)، المؤرّخ الصليبي، وكان يحسن العربية، وذكر نسبتها إلىٰ أسامة. انظر الفقرة (٤٩). يقول عنه فيليب حِتّي: «إنه كتب أفضل بيان في العصور الوسطىٰ للحروب الصليبية»، «تاريخ العرب المطول» ص٧٨٩.

(٢) أصاب الزلزال، إلىٰ جانب شيزر، حماة وحمص وكفَر طاب والمعرة وقلعة الحصن. ووقع خلال حفل خِتان كان محمد تاج الدولة، ولد عز الدين سلطان، يقيمه. لم ينج من الكارثة سوىٰ زوج محمد تاج الدولة، أم الطفل، انتُشلت من تحت الردم، نهض بعد ذلك نور الدين بن زنكي (الشهيد) بإعادة إعمار شيزر. (المصدر السابق نفسه).

(٣) في عسقلان وبيت جبريل وسيناء والموصل وديار بكر. وفي حصار قلعة حارم سنة ٥٥٧هـ ـ وكانت في أيدي الإفرنج ـ في صحبة نور الدين بن زنكي، وأظهر فيها أسامة شجاعة لفتت أنظار المؤرخين. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١١/ ٢٨٠).

(٤) تقع اليوم في تركية (ولاية ماردين)، أصبحت في القرن السادس الهجري عاصمة الأُرتُقيين من التُّركمان (ذرية سُقمان بن أُرتُق، أخي إيلغازي) =

فعكف فيها علىٰ الكتابة والتأليف. وأغلب الظن أن عدداً مما وصل إلينا من كتبه، أو من أسمائها، كان مما كتبه في تلك الأيام، ومن بينها كتاب سماه «المنازل والديار»[1] ملأه برثاء أهله الذين ذهب بهم الزلزال، ونقل فيه مقداراً من شعره، وزاد عليه كثيراً من محفوظه.

ثم استدعاه السلطان صلاح الدين الأيوبي (سنة ٥٧٠هـ) إلىٰ دمشق، بعد أن استولىٰ عليها من النوريين؛ وكان مرهف، ابن أسامة، من جلسائه، فلعله طلب منه أن يستدعي إليه أباه من معتكفه في حصن كيفا، ففعل. ورعاه صلاح الدين، وأقطعه ضيعة في أطراف المعرة وأملاكاً في دمشق، وأخذ يستشيره في أمره، ويكتب إليه أحياناً بأخباره حين كان يخرج إلىٰ قتال الإفرنج. وفي خاتمة «كتاب الاعتبار» إقرار جميل وافٍ بهذه الرعاية علىٰ ما يجد القارئ بعد، وقد صاغ هذه الخاتمة صياغة تشبه صياغات العصر المصنوعة، وتختلف عن لغة الكتاب في جملته، دليل أنه كتبها لهذا الغرض وحده، بعد أن جُمع الكتاب.

في هذه الأيام إذن، وقد نيّف أسامة علىٰ التسعين، أو بلغها، أخذ يسترجع ماضيه ويستعيد حوادثه وذكرياته، ويستذكر صحبته لرجال العصر

= العاملين في خدمة السلاجقة، وهي بلدة فيها قلعة عظيمة مشرفة علىٰ دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. يقوم علىٰ دجلتها جسر لم ير ياقوت أعظم منه، فيما رأىٰ من البلاد. ابتلعتها المياه اليوم، فلم يبق منها أثر. انظر: («معجم البلدان» ٢/ ٢٦٥).

(١) منه مخطوطة ربما كانت بخط أسامة نفسه، نهض بتصويرها أحد المستشرقين الروس، (أنس خالدوف) في دار النشر للآداب الشرقية في أكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي ١٩٦١م. وطبعها المكتب الإسلامي في دمشق ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وتقديم: زهير الشاويش. ثم طبعت في مصر ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م بتحقيق مصطفىٰ حجازي.

من المسلمين والإفرنج، وما وقع له معهم في ساحات الحرب وأيام الهُدَن، فكان من حصيلتها «كتاب الاعتبار» الذي نحن في صدده اليوم.

ثم إنّهُ ظلَّ يعيش في دمشق، ويُلقي بعض الدروس في مدارسها، ويَغشىٰ مجالسها العلمية، حتىٰ توفي (سنة ٥٨٤هـ)، بعد أن أكرمه الله بشهود تحرير بيت المقدس (سنة ٥٨٣هـ) علىٰ يد صلاح الدين، ودُفِنَ في سفح جبل قاسيون شرقي الصالحية، علىٰ الجانب الشمالي من نهر يزيد. وكان قبره معروفاً إلىٰ أيام ابن خَلِّكان، فقد زاره وقرأ عنده شيئاً من القرآن(١).

٣

ليس في كتُب أسامة(٢)، علىٰ كثرتها وتعدُّد فنونها، ما يعدل «كتاب الاعتبار»، فهو أروعها وأكثرها إثارة. كتبه، علىٰ ما رأينا، في المرحلة التي يكتمل فيها لمثله، في موضوعه، سعة التجربة واختمار النضج وعمق الإدراك وطول المعاناة ووفرة الذكريات. يُخَيَّل إلىٰ القارئ وهو

---

(١) يمكن الرجوع والتوسع في ترجمة أسامة إلىٰ المراجع القريبة التي يحيل عليها «أعلام الزركلي» ١/ ٢٨٢.

(٢) أُحصِيَت له كتب تجاوز عددها الثلاثين. منها: كتاب «البديع في نقد الشعر»، و«أزهار الأنهار»، وكتاب «القضاء»، وكتاب «الشيب والشباب»، وكتاب «ذيل يتيمة الدهر»، وكتاب «المنازل والديار»، و«لباب الآداب»، و«النوم والأحلام»، و«القلاع والحصون»، و«أخبار النساء»، وكتاب «العصا»، وكتاب «مناقب عمر بن عبد العزيز»، و«نصيحة الرعاة»، و«التجائر المربحة والمساعي المنجحة». و«كتاب البدريين» في خمسة مجلدات، فضلاً عن ديوان شعر، وكتاب «الاعتبار» الذي نحن في ذِكرِه، وكتب أخرىٰ. والعجب أن يبلغ من غزارة النتاج هذا المبلغ مع ما عرفنا من اضطراب حياته واضطراب عصره. ولعل السر يكمن في ما رزق من طول العمر (٩٦ عاماً هجرياً = ٩٣ عاماً ميلادياً). إضافة إلىٰ خصب التكوين.

يقرؤه، أنَّ أسامة كان يسترجع فيه، علىٰ غير نسق تاريخي منظم، صور حياته ويقلّب النظر فيها، ويستخلص عِبَرها، علىٰ نحو ما يتفق لمن يكون في مثل سنّه، في بعض مجالس السمر، فكأنه كان يُحدِّث به سمّاره في دمشق، في مراحل عمره الأخيرة، ويحكي لهم ما وقع له، فيكتبه بعضهم عنه. فإن فيه، من عفوية التعبير وبساطة الأداء، ما يصل أحياناً إلىٰ حدّ الدارجة الشائعة في شمالي الشام، تلك الأيام، بما فيها من قوة الاسترسال والبعد عن تقصد التجويد، لصالح الاقتراب من الواقع الحي. وفيه من تداخل الذكريات وغَلبة بعضها علىٰ بعض، ومن تدخّل المحفوظات وحرارة الروح، ما لا يكون مثله إلّا في مجالس السَّمَر وتدفّق أطراف الحديث، دون الاحتفال بترتيبها الزمني أو التاريخي. ولا يبعد أن يكون أسامة أعادَ النظرَ فيه من بعد، وجمع أوراقه بعضها إلىٰ بعض، فخرجَ، علىٰ نحوٍ ما، في صورة الكتاب التي نعرفها اليوم.

ويبدو واضحاً أنَّ تسمية الكتاب بـ«الاعتبار»، وقعَت من غَلَبة المساق الذي حَكَمَ أحاديثه في هذه المجالِس، وهو استخلاص العبرة منها، والانتهاء بها إلىٰ «أنَّ ركوب أخطار الحروب لا ينقص الأجلَ المكتوب. والعمر موقَّتٌ مُقدَّر، لا يتقدَّم أجله ولا يتأخَّر. والنصر في الحرب من الله، لا بِترتيبٍ وتدبير، ولا بِكثرةِ نفيرٍ ولا نصير»[1].

علىٰ أنَّ قيمة الكتاب تبدو في حسن تصويره لمجتمعه الذي كان يضطرب اضطراباً عنيفاً بما يلقىٰ من كثرة الفتن، وتفرُّق الأهواء، وغَلَبة الأطماع، واختلال الأمن، وفشوّ بعض التيارات الفكرية المتطرفة فيه، ثم بوصف ما يرزح تحته من ثِقَل غزو الإفرنج، واتّساع أذاه، ونهوض الناس له، ففي هذا الجانب يبدو الكتاب وثيقةً حية من وثائق حروب

(١) تكرَّرَ هذا المعنىٰ في الكتاب غير مرة. انظر: الفقرة الأخيرة مثلاً رقم (٢٠٠).

الإفرنج ـ وهي أطول حروب التاريخ إلىٰ اليوم ـ لا نعرف لها شبيهاً. فإن أسامة لم يكن يعبأ فيه بأخبار المعارك والتأريخ لها، علىٰ نحوِ ما نعرف في كتب التاريخ التي أرَّخت لها، ولكنه كان يُصوِّر ـ عن طريق السرد الحكائي واستحضار الوقائع والمواقف ـ حياة الناس التي تجري تحت سطح الأحداث الدامية. ويقف عند الصور العميقة المؤثّرة منها، وما كان يقع لهم داخل بيوتهم، وفي مواطن جِدِّهم ولَهوِهم، وما كانوا يقولونه لأنفسهم وهم يُواجِهون الموت، أو هم يُعامِلون هذا العدوّ الغريب الذي جاءَهُم من الأرض الكبيرة (أوربة، كما كانوا يُسمّونها) ويتكلَّم لغةً غريبةً لا يفهمونها، ويبدو فظّاً غليظاً لم تصقله الحضارة[1]، جهماً ضخماً لا تسعه العين.

وفي الكتاب مِنْ وصفِ أحوال الحياة والناس آنذَاك في بلاد الشام خاصة، وصور العادات في الأفراح والأحزان فيها، وصور الطبيعة في بعض مناطقها الشمالية، ما يجعله وثيقةً اجتماعيةً أيضاً.

فَلِهذا ترجمَهُ الغربيّون إلىٰ الفرنسية والإنجليزية والألمانية غير مرّة،

---

(١) انظر، ما في هذا المعنىٰ، بعض التفصيلات في كتابي: «فواصل صغيرة في قضايا الفكر والثقافة العربية: البحث الثامن: مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية» ص ١١١ ـ ١٢٨. وانظر أيضاً بحثاً مخطوطاً موثَّقاً للدكتور راتب سكر بعنوان (صور الأوروبيين في أدب أسامة بن منقذ) أورد فيه بعض شهادات المثقفين الغربيين من معاصريه (مثل وليم الصوري) علىٰ تفوق الحضارة العربية الإسلامية، وشهادات بعض الباحثين الغربيين اليوم في افتقار الغرب، في القرن الثاني عشر، إلىٰ أشياء ثقافية كثيرة «في حين كانت حركة الإسلام في الشرق تجمع الفكر الديني الإسلامي، مع التطبيق العملي العلمي» (ومثل المستشرق الألماني كارل بروكلمان) القائل في أسامة وأحكامه: «إنه ليبلغ غاية عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه علىٰ المسلمين والنصارىٰ جميعاً». و(زيغريد هونكه) و(ويل ديورانت) وتفضيل الناس الطب الإسلامي تلك الأيام.

منذُ وقتٍ طويل. ثم ترجموه إلىٰ الروسية والبولونية والدنماركية أيضاً. ولعله تُرجِمَ إلىٰ لُغَاتٍ أخرىٰ من بعد.

ثم إنه يُعَدُّ من كُتب السيرة الذاتية النادرة في المكتبة العربية. وهو بهذه المنزلة وثيقةٌ أدبيّة قلَّ مثيلها فيه، لِمُجمَلِ الخصائِص التي ذكرناها مِنْ قَبْل. وهي، إلىٰ هذا، تنفع في بعض الدراسات اللغويّة لاتِّصالها باللهجاتِ الدارجة في الشام في عصرها، وبأساليب تركيبها اللُّغَويّ، وما داخلها من اللغات الأخرىٰ الشرقية والغربية، والطُرق التي اتّبعوها في تعريب الألفاظ المتداولة.

ومن هنا يتهيأ لدارسي تاريخ التبادل الثقافي والنمو الاجتماعي لهذه المنطقة، أن يجدوا في الكتاب صوراً دالة من عملية المثاقفة التي تمت بين شعوبها من ناحية، وبينها وبين شعوب الإفرنج من ناحية أخرىٰ.

كما يجدون صوراً للنمو الاقتصادي الذي أصاب حياتها، من وفرة غلات الأرض (من الزروع والقطن والزيتون في كفر طاب مثلاً: الفقرة ١٨٩) وتطور أساليب استثمارها (نظام السقاية وانتشار النواعير: الفقرة ١٧٧، والأرحاء، أعني الطواحين العاملة علىٰ مياه العاصي: الفقرة ١٨٩)، إضافة إلىٰ غنىٰ الطبيعة الذي نقرأ أخباره ونستطلع صوره في غابات سهل الغاب وأجماته، وغاب الروج، بين حلب والمعرة (الفقرة ٨٤) وأساليب الصيد ودرْس طباع الحيوان فيها، وفي المواطن الأخرىٰ التي حدّث عنها صاحب الكتاب.

ويتهيأ أيضاً لدارسي التاريخ الحضاري العام، لهذه المنطقة التي جال فيها أيضاً، الإلمام بالنظم الإدارية القائمة فيها، ونظم التعامل بين الناس، وبينهم وبين السلطة ورجالها، وتنوع أنواع السلاح وأساليب المواجهات العسكرية، وما يسميه أسامة التحرّز والتحصين والترهيب والتخييل. وأنواع الألبسة العسكرية، وسياسة الأحصنة والخيول في أوقات السلم والحرب، وتنظيم الحصون والقلاع والبيوت، والمدن

وأسوارها. وأثر التبادل الحضاري الذي تم في هذه الميادين كلها.

٤

وللكتاب، في الأصل، ملحق فيه طرف من أخبار الصالحين، أُلحقت بالكتاب إلحاقاً، فليس لها صلة به ولا بموضوعه، علىٰ الإطلاق. وهو صغير مكوّن من بضع صفحات، تتبعها صفحات أخرىٰ تتعلق بأخبار الصيد والقنص، حكىٰ فيها أسامة بعض حكايات مشاهد الصيد التي حضرها في شيزر، مع أبيه وأهله وغلمانه، وفي الموصل، مع أتابك عماد الدين زنكي وغلمانه، وفي دمشق ومصر وديار بكر وغيرها، مع كبار رجال عصره. فهذه الأخبار أيضاً لا تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوع الذي يدور عليه الكتاب في جملته، إلا من حيث صلتها بحياة أسامة.

وقد أقر هو نفسه، بإلحاقه هذا الملحق بكتاب «الاعتبار»، بعد أن انتهىٰ منه، وبعد أن كتب خاتمته، فقال في آخره: «قال أسامة بن مرشد بن علي بن مقلَّد بن نصر بن منقذ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين: هذه طرف أخبارٍ حضرت بعضها وحدثني ببعضها من أثق به، جعلتها إلحاقاً في الكتاب، إذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم، وبدأت فيها بأخبار الصالحين، رضي الله عنهم أجمعين».

فعلىٰ الكتاب إذن، كما هو في أصل وضعه (مذكرات أسامة في حروب الإفرنج)، تقوم شهرته وقيمته الأولىٰ. فلهذا قصدت، في أول الأمر، أن أظهره كما هو في أصل وضعه، وأقف عنده، وأسلّط الأنظار عليه، كما فعلت في الطبعة المبدئية الأولىٰ (١٤٠١هـ = ١٩٨٠م). ثم رأيت، في هذه الطبعة الثانية، أن ألحق به الملحق بفصليه لتكتمل نسخة الكتاب في يد القارئ كما وصلت إلينا.

وكانت نسخة الكتاب المخطوطة هي النسخة الوحيدة التي عادَ إليها، علىٰ طول ما يزيد قرن من الزمان (١٨٨٤هـ ـ ١٩٨٧م)، محقِّقو الكتاب

الثلاثة الذين سبقوني إلىٰ نشره[1]. وهي النسخة الوحيدة المعروفة إلىٰ اليوم، والمحفوظة في مكتبة دير الأسكوريال بإسبانية[2].

أما أنا فقد انصرفتُ في نشرتي إلىٰ ترتيب مقاطع الأخبار، حسب مضامينها بداية ونهاية، ترتيباً خاصاً بي، وسمَّيْتُها «الفقرات»، من دون أن أُدخِلَ عليها شيئاً من عندي، واخترتُ لها أرقاماً متسلسلة يسهلُ الرجوع إليها، في وقت الحاجة، للوقوعِ علىٰ الخبر الذي نُريده. ووضعتُ لها عنوانات[3] رأيتُ أنها، بوجودها في رأس الفقرة، تكون أدلَّ علىٰ حقائِقِها ومقاصِدِ الكاتِب منها. وتوسَّعتُ، ما أمكن، في

---

(١) هرتويغ ديرنبورغ Hartwig Derenbourg (١٨٨٤م ـ لايدن)، والدكتور فيليب حِتّي (١٩٣٠م ـ مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة)، والدكتور قاسم السامرائي (١٩٨٧ ـ الرياض). وطبعته، في النصف الأول منها خاصة، وفيما يتصل بتتبع نصوص الكتاب الضائعة، ومصادر التعريف بأعلامه، كبيرة النفع. ولو كان بذل في تقليب النظر في بعض القراءات، وضبط ألفاظ النصوص، في الإجمال، وأسماء الأعلام فيها، وفي التعليقات والشروح جهداً أوفىٰ، بلغت نشرته مدىٰ أبعد. وقد أشرت أحياناً، في نشرتي هذه، إلىٰ بعض ما رأيت. وعذره أحياناً أنه لم يكن من أبناء المنطقة الشامية.
أما طبعة ديرنبورغ وطبعة حِتّي فهما كلتاهما دونها بمراحل كبيرة. والفضل في الأولىٰ أنها نبّهت إلىٰ الكتاب، وفي الثانية أنها أعانت علىٰ نشره ووفرته للقارئ العربي. علىٰ أن المسافة بين نشرة حِتّي ونشرة السامرائي تبلغ ما يقرب من ستين سنة.

(٢) النسخة (رقم ١٩٤٧) مخرومة من أولها، تنقصها أكثر من عشرين ورقة. والأوراق الأولىٰ فيها بللٌ طَمسَ بعض سطورها. وقد نُسخت عن مخطوط قديم كُتب بعد وفاة أسامة بسنوات قليلة، وقُرئ علىٰ ولده مرهف، فأجاز روايته ووقَّع عليه سنة ٦١٠هـ. ولكن كاتب النسخة المنقولة هذه لم يُعْن بتنقيط الحروف دائماً، ولم يكن، فيما يبدو، يملك الأدوات التي تدنيه من فهم النص في بعض جمله.

(٣) في مطلع الفقرة، ضمن قوسين مُرَكَّنين.

الشرح والتفسير. واكتفيت، في التعريف بالأعلام، بما يفي بحاجة القارئ منه في فهم الظرف، دون إغراقٍ في إيراد أسماء كتب التراجم. وأكملتُ (داخل أقواس مركّنة)، وفي مواضِعَ قليلة جداً، بعضَ ما سقطَ من الكلمات في ظني، مما يقتضيه سياقُ النص، ودللتُ عليه. وضبطْتُ ألفاظاً كثيرة تقتضي الضبط، وتوسعت في الضبط علىٰ غير مثال سابق، لأقرب نصوص الكتاب من كل قارئ، مهما بلغ من تحصيل الثقافة التاريخية والأدبية العامة.

ورأيت أخباراً قليلة جداً هي، في الأصل، نصوص محفوظة أو منقولة من بعض الكتب، لا صلة لها البتّة بالموضوع الأصل، فتركتها في مواضعها ودللت عليها من بداية الخبر بنجمات ثلاث (***) حتىٰ يتتبع القارئ خيوط الخاطر الذي أملاها، في مواضعها، ويقدّر بواعثها النفسية ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية.

٥

إنَّ غايةَ ما أبتغيهِ من نشر الكتاب مرة أخرىٰ، في طبعته الكاملة هذه، بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادَةُ منه في هذه الأيام الحرِجة التي نُواجِهُ فيها غزواً استيطانياً جديداً يُذَكِّر بِغزوِ الإفرنج أيام الحروب الصليبية، في عصرِ أُسامة، فَيُعينُ نشر نصوصه، علىٰ إشاعَةِ الإصرارِ علىٰ دحرِه في نفوس الناس، عامة الناس، وتقوِيَةِ روحِ المقاومة فيهم، وبَثِّ الثِّقة، والاعتبارِ بما تَمَّ لنا تحقيقه تلك الأيام. واستخلاص الدروس منه.

ذلك أنَّ الكتاب، في جملته، يُعدّ فوق مزاياه الفنية، وثيقةً حيّة قلّ نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوُّق الحضاري العام في القرون الوسطىٰ، وخطرِه في ردِّ غزو الإفرنج ديارنَا أيام تلك الحروب. أعني التفوُّق في الأسلوب الذي كنا نتناول به حياتنا ونظمها في السياسة والاجتماع

والتربية والعمل، وتتحقَّق فيه نظرتنا إلىٰ الإنسان والوجود، وما ينتج عنها من نتاج العقل والمادة والروح، إذ لم يكن عند هؤلاء الغزاة، علىٰ ما يبدو في الكتاب، ما نتعلم منه، وقد كانوا، في كثرتهم الغالبة، عساكر وفلاحين يعيشون في قلاع وحصون مفردة[1].

ويشخص لنا أسامة، في جملة الكتاب، فارساً عربيّاً مُسلِماً، يحفظ تقاليد الفتوّة الإسلامية، في أحسن مظاهرها وأقواها (الشهامة والإقدام والجرأة والالتزام الخُلُقي)، ويُخلص، في الجملة لمعاني انتمائها ومعايير سلوكها، ويَغار عليها. بصيراً بأحوال المعارِك، قادِراً علىٰ فهم ملابساتها وتحمُّل تبِعاتها، وفيّاً لِقومه وأرضه ودينه، عميق الإحساس بالروابط التي تشدّه إليها وتضعه في مواضِع الدفاع عنها، دون التعصب الأعمىٰ لها، مزهوّاً بِها، عاقِلاً جريئاً أنيساً متواضِعاً في نفسه، رحيماً متحرراً في أحكامه، مرِحاً، يُحسن ذوق الكلمة وفهمها، ويضعها مكانها من تراث قومه، ويصلها به شعراً ونثراً. حلو المسامرة، كريم النفس واليد، يُمثّل في الجملة، لأهم صفات الرجال الكبار الذين يراهم ينتسبون، بحق، إلىٰ أمّته، ويُظهِر أمضىٰ أسلحتها في المعترك الذي خاضوه: إيمانهم بالله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار، إلىٰ جانب إحساسهم بِتفرُّدِ شخصيّتهم الذي جمَعَهم علىٰ اختلاف الأصول والمنابِت، ووقفهم من الغزو والغُزاة موقِفَ المُؤمِنِ بالنصر، القادِرِ علىٰ صنع أسبابه، علىٰ امتداد المعركة الطويلة، وعلىٰ ما عانوا فيها من تمزُّق الشمل وتخاذُل القيادات وتغليب مصالحها الذاتية الضيقة، أحياناً كثيرة، قبلَ أن يشغلَ الساحة البطلُ الذي تهيَّأت الظروف لظهوره في ليالي المحنة الحالِكة.

---

(١) انظر مثلاً قول المؤرخ ابن الأثير (معاصر أسامة) فيهم: «كان الصليبيون شرذمة من الوافدين من كل بلد، يستبيحون الأقوات والحرمات بلا رادع، ويستهينون بالمقدسات الدينية»، («الكامل في التاريخ» ١١/٢٠١).

وبلغ أسامة من قوة هذا الإحساس حداً لم يكن يرىٰ معه، في الإفرنج الغزاة، أكثر من «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل!»[(١)] ويرىٰ أنَّ مَن تبلَّدَ منهم (أي: سكنَ بلاد المُسلِمين وعاشرَهُم) «أصلح من القريبي العهد ببلادهم، لكنهم شاذ لا يُقاس عليه»[(٢)]! ويبلغ أن يسخر من أحكامهم وفقههم[(٣)] وطبّهم[(٤)]، ويدين قسوة قلوبهم، وبداوة طباعهم، وجفاء أخلاقهم. ويعجب من ضعف غيرتهم علىٰ أعراضهم وقِلّة نخوتهم: «يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجلٌ آخر، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقِفٌ ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوَّلت عليها خلّاها مع المتحدِّث ومضىٰ!»[(٥)] «ما فيهم غيرةٌ ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلّا من النخوة والأَنَفة من سوء الأحدوثة!»[(٦)].

ويصور، إلىٰ جانب هذا، مشاهد رائعة من ثباتِ قومِه رجالاً ونساءً، ومن تماسُكِهم وتدافُعِهم علىٰ الفِداء وطَلَبِ الشهادة، وشَغَفِهم بالمغامرة واستِهانتهِم بالخطر، وإيمانهم بقدرتهم علىٰ انتزاعِ النصر[(٧)]، حتىٰ لَيناموِن بأسلحتهم[(٨)]، ويندفعون إلىٰ القتال لأول بادرة، ويُطعَنُ أحدهم بالقُنطارية[(٩)]، فيُمسِك بها وهي في فخذه، يأخذ الإفرنجي يجذبها

---

(١) الفقرة ١٦١ من الكتاب. يريد أنها الشجاعة البهيمية المستندة إلىٰ القوة والقدرة علىٰ البطش، المنفكة عن غاياتها ومقاصدها الإنسانية.

(٢) انظر: الفقرة ١٧٥، والفقرة ١٦٥ أيضاً.

(٣) الفقرة ١٧٣، ١٧٤. (٤) الفقرة ١٦١، ١٦٢.

(٥) الفقرة ١٦٧.

(٦) الفقرة ١٦٨، وانظر أيضاً: آخر الفقرة ١٦٩.

(٧) انظر الفِقَر: ٧٤، ٧٥، ٩٢، ١١٠، ١١٣، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٨، ١٨٣.

(٨) الفقرة ١٢٠.

(٩) نوع ثقيل من حديد الرماح Kontarion قد تنسب إلىٰ الوزن المعروف =

ليأخذها، والمطعون يجذبها ليأخذها، فترجع في فخذه، «حتىٰ قوّرت فخذه، واستَلَب القُنطارية بعد أن أتلفَ فخذه، ومات بعد يومين!»[1] وأتقنوا استخدام السلاح وأساليب القتال وحاجاته (الترهيب والتخييل والتمسك الدائم، بالحذر وحضور القلب)[2] واستجابوا لحاجات العصر وتكتيكات المعارك والهُدَن[3].

٦

علىٰ أن هذه الحياة الطويلة التي أمضاها الرجل في جهاد متصل، وملأ بها جانباً ملحوظاً من تاريخ العصر وثقافته ومآسيه وأحداثه السياسية والعسكرية المشتبكة، (وكان المسلمون من السلاجقة «الزنكيون» والأُرتُقيون والبوريّون والفاطميون والأيوبيون والعرب يشغلون ساحتها تجاه الصليبيين)، ونقل مؤرخوه أخبارها ووقائعها في تقدير بالغ، حتىٰ عدّه بعضهم واحداً من أبطال الإسلام، لم تَنْج مما يصيب الرجال الطامحين الذين يشغلون ساحة واسعة من أحداث عصورهم المضطربة الموّارة بالفتن والمؤامرات والأطماع، من أن يصيبهم رشاشها. فمن الصعب أن يسلم الإنسان، مهما بلغ امتيازه ووعيه وتحرّزه، من أن يجد نفسه منساقاً إلىٰ الدخول في مضايق تدفعه إليها ظروف آنيّة مفروضة، يتعذر، وسط ضجة الأحداث الدامية وتراخي القرون الممتدة، فرزها وجلاؤها. وليس سهلاً أن ينخلع من مرحلته الزمنية فلا يتأثر مثلاً، بما تأثر به أسامة، في تصديق بعض

= (القنطار). وهو مئة رطل! أو شيء قريب من هذا. والكلمة ـ في الأصل ـ يونانية، معناها: قناة الرمح، وترد في فِقَر الكتاب كثيراً.

(١) آخر الفقرة ١٠٨.

(٢) الفِقَر: ١٠١ و١٢١ و١٢٢ و١٧٩ و١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ و١٩١.

(٣) الفِقر ١٠٢ ـ ٧.

خرافات عصره الشائعة ونقْلها، أو يتملص من الوقوع في بعض شباك الأحداث والمؤامرات والأطماع الدائرة التي يجول في أروقتها.

ولكن معنًى واحداً لا يصحّ أبداً أن يتطرق الشك إليه، وهو إخلاص هذا الرجل ذي الامتياز الساطع، البالغ الروعة، المتعدد المواهب، للرسالة التي نذر حياته لها: تحرير الأرض ورد الغزاة، والأخذ بنصيبه من تحمل تبعات الأخطار ومواقفها المروّعة، في ميادين الحرب والسلم والسياسة والتخطيط جميعاً.

ولننظر الآن فيما يلي:

كتب السيد محمد علي العبد (من الكويت) تعليقاً نشرته مجلة (العرب) التي تصدر في الرياض[1]، اتهم فيه أسامة باقتصاره في عمله علىٰ نفع نفسه، والإفادة من أموال الفاطميين، والإساءة إلىٰ نور الدين ابن زنكي، ومهادنة الإفرنج وموادعتهم. فردّ عليه في المجلة نفسها[2] عبد الرحمٰن بن شعيل (من السعودية). وعاد السيد محمد علي العبد فكتب رداً مفصلاً علىٰ الرد: اختار فيه، قريباً مما ذهب إليه كتاب محدثون آخرون[3]، مواقف لأسامة أدانها في «هربه» من مصر، «وطرده» من الشام[4].

ثم كتب محمد نور أفاية (من المغرب) في جريدة (الحياة) التي تصدر في لندن (بتاريخ ٩/١٠/١٩٩٩) مقالة بعنوان (صور الإفرنجي في «كتاب الاعتبار») حلل فيها شخصية أسامة ومرجعيات هويتها الفكرية،

---

(١) (الجزء ١، السنة الثالثة، ١٣٨٨هـ = ت١ ـ أكتوبر ١٩٦٨م، ص٨٤ ـ ٩٠).
(٢) (ملحق الجزء ٣ ـ رمضان ١٣٨٨هـ = ك١ ـ ديسمبر ١٩٦٨م).
(٣) الدكتور سامي الدّهان «قدماء ومعاصرون» والدكتور شاكر مصطفىٰ «بين الأدب والتاريخ». انظر: قائمة المراجع.
(٤) (الجزء ٦ ـ ذو الحجة ١٣٨٨هـ = آذار ١٩٦٩م، ص٣٩ ـ ٤٣).

بوصفه «مؤمناً متشبعاً بالقيم الكبرىٰ للإسلام وبأطره المعيارية الجوهرية في الوجود والسلوك والعلاقات». ورأىٰ أن «جدلية الصراع والتساكن فرضت عليه التعامل مع الإفرنج بهدف الصلح أو التفاهم أو التحالف. . . وإقامة روابط تميزت بالمودة والمعاشرة» وإن لم يفرّط، آخر الأمر «بالأساس الثقافي الذي يؤسس لهويته واختلافه».

فردّ عليه جمعة الحلفي (من العراق) في الجريدة نفسها (بتاريخ ٢١/ ١١/ ١٩٩٩) بمقالة جعل عنوانها «صورة المثقف الخائن في سيرة أسامة بن منقذ»، أخذ فيها عليه ما رأىٰ عنده من توسيع مدىٰ الرؤية في الحكم علىٰ الأشخاص برغم اختلاف الأديان والثقافات والأجناس. . . بوصفه، عند نفسه، «مسلماً يحمل نظرة كلية إلىٰ الإنسان مهما كان اختلافه».

فمن هنا لم يجد أسامة، في رأي الحلْفي، «حرجاً في التعامل مع الإفرنج. . . وأصبح وسيطاً نافذاً بين المسلمين والإفرنج». ثم اتهمه بممالأة معين الدين أُنُر، والوقوف إلىٰ جانبه لحمايته من مواجهة حاكم حلب زنكي، رافع راية الجهاد، وبزيارة القدس المحتلة ثلاث مرات، بتكليف من أُنُر، لعقد معاهدة تعاون مع الإفرنج لحماية دمشق من هجوم زَنكي المتوقع، وشنِّ حملة مشتركة معهم لاحتلال قلعة بانياس التي كان يحكمها أحد أتباع زنكي، وتسليمها إلىٰ ملك القدس!

ورأىٰ الحلفي في علاقة أسامة مع قادة الجيش الصليبي وقادة فرسان الهيكل[1]، ومع الإفرنج عموماً، وزيارة المدن التي كانوا يحتلونها (مثل: طبرية وعكا وبانياس) بمهام سياسية موكولة إليه، مع معين الدين أُنُر، نزوعاً براغماتياً للعب دور المثقف المتخادم مع السلطة، إضافة إلىٰ مؤامراته في كواليس الدويلات الإسلامية المتصارعة، ومن ضمنها:

---

(١) سيأتي في الكتاب التعريف بهم، وبفرسان مستشفىٰ القديس يوحنا (الاسبتارية) وبغيرهم. انظر: الفقرة (١٦٥ ح ٤).

«التآمر علىٰ صديقه «أُنُر» و«تدبير مقتل الخليفة الفاطمي الحافظ[1]» و«التآمر علىٰ عمه سلطان». وانتهىٰ إلىٰ أن المرجعية الوحيدة التي كان ينبغي أن تحكم علاقة أسامة بالإفرنج «هي في الرجوع إلىٰ الأصل: جعل التحرير والجهاد مقياس الإيمان». فإن «احترام الآخر لا يعني احترام المحتل». وقد رأينا أسامة نفسه، كما يقول الحلفي، يشتم المحتلين في «الاعتبار»! (انتهىٰ كلامه).

أقول: مهما تكن دوافع هذه التهم، فإن فيها إنكاراً لحقائق المرحلة التاريخية القائمة علىٰ الأرض، وفي ضمنها مرجعية تعامل صلاح الدين، محرر القدس نفسه، مع رتشرد قلب الأسد في التجريدة الثالثة، وتغليب الوجه الإنساني في تعامله مع الإفرنج، حتىٰ لقد اقترح رتشرد زواج أخته من أخي صلاح الدين (الملك العادل)، وتوقيع صلاح الدين معاهدة الصلح الآنيّة معهم (سنة ٥٨٨هـ) علىٰ أن يكون الساحل للاتين الأوربيين، والداخل للمسلمين، ومن ثم تعامُل المسلمين معهم علىٰ العموم: عقد المعاهدات والاتفاقات لتنظيم التجارة، وتأمين المواصلات، في مراحل الهدنة والمسالمة لا غير.

في التهم أيضاً: إنكار لحقائق النشأة التي نشأها أسامة في شيزر، وحقائق الحياة التي أمضاها في جهاد الإفرنج، وانعكست صورها في شعره ونثره علىٰ السواء، في جملة الوقائع والمصافّات التي حضرها. وفيها إنكار لحقائق صحبته للزنكيين ولصلاح الدين، ونظرة هؤلاء المحررين عموماً إليه، وإنكار لشهادة المؤرخين الذين عايشوه (السمعاني، والعماد الأصفهاني، وابن عساكر) أو عايشوا ابنه مرهفاً (ياقوت الحموي)، وما قالوه جميعاً فيه، وما قاله المؤرخون عموماً[2]، حتىٰ (ابن الأثير) الذي أشار إلىٰ موقفه في مصر من مقتل

---

(١) الصحيح الخليفة (الظافر). انظر: ص٥٨ ح٤.

(٢) راجع عرضاً مركزاً لأقوال المؤرخين في أسامة بن منقذ، في مؤلفات القرنين =

ابن السّلار. وفيها، بعد هذا كله، وقوف عارض علىٰ إشارات تاريخية مجهولة المصادر، تحتاج إلىٰ تقصّ ودرس واستيعاب للأسباب. ثم إن في سرد هذه التهم، في كلام الحلفي وغيره، ما يشير إلىٰ انتقاد أسباب تناقضات تاريخية لا يسهل تفسيرها، وقعت في المواقف والأقوال (التآمر علىٰ معين الدين أُنُر الذي اتهمه من قبل بممالأته، مثلاً، وشتم أسامة المحتلين في «كتاب الاعتبار» وفي شعره أيضاً)!

فإذا تجاوزنا هذا كله، ذكرنا ما وفرتْ له صلاته بالإفرنج وفرسانهم وأمرائهم وملوكهم (بوهمند، وتانكرد، وفُلْك) من «اطلاع عميق ـ كما يقول بروكلمان ـ علىٰ أنماط حياتهم السياسية والعسكرية والثقافية»، وهو ما يكوّن مادة صورتهم التي نقف عليها في «كتاب الاعتبار» ونقرأ إدانتها فيه (انظر الفِقَر ١٦١ ـ ١٧٥).

ومما قلناه جميعاً، يتضح سبب خلو هذه الصورة التي عرضها أسامة في الكتاب، عرضاً صريحاً بيّناً، من أي إحساس بالرغبة في التكتم أو التخفي أو الكذب أو التنقص (الفقرة ١٦٥ مثلاً).

عجباً! ألم تلفت هذه الحقيقة الساطعة، علىٰ بساطتها، نظر متهميه؟

٧

وبعد، فقد كان يمكن أن تُستخلص في النهاية من هذه المواجهة غير المسبوقة تاريخياً، في شمولها وحدَّتها وطولها، بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الأوربي، وهي آخر المواجهات العامة التي كنا فيها الأكفياء الموسومين بالقدرة والامتياز، قبل أن يشيل بنا الميزان، بعد توقف العثمانيين، وسقوط الأندلس نهائياً في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ويتحول لقاؤنا به، من بعد نهضته الشاملة، وإقامة مؤسساته

= السادس والسابع الهجريين: بحث كتبه الدكتور راتب سكر، ونشرته مجلة جامعة البعث في حمص. ارجع إلىٰ قائمة المراجع.

الصناعية والتحول الاجتماعي الذي رافقها، في نهاية عصر التنوير، إلىٰ معارك خاسرة في معظم الأحيان، ومن ثم إلىٰ الدخول في عصر الاستعمار الغربي، إثر حملة نابليون علىٰ مصر.

أقول: كان يمكن أن تُستخلص من هذه المواجهة الشاملة التي فرضها الغرب علينا يومذاك (وتستّرت بالدين، إذ هي في حقيقتها حرب استعمارية استيطانية ذات أولويات سياسية واقتصادية توسعية، وإن رسموا فيها الصليب علىٰ صدورهم، ودعوا أنفسهم حُجّاجاً، واستمدوا وقودها من العواطف الدينية)، قيم أخرىٰ تبشر بالسلام والتعايش القائمين علىٰ الحوار وتبادل الأفكار وقبول الآخر. فقد انعقدت، في غمرة هذا الصدام الدامي، علاقات رسمية وروابط إنسانية وهُدَن واتفاقات اقتصادية وزيارات ودعوات وعقود زواج، ومخالطات في الأسواق والحمامات والبيوت والمزارات[1] كانت تتسع مع الأيام، ويتم فيها تبادل الهدايا والطُّرَف، وتعرّف كل طرف علىٰ سمات الحياة التي يحياها الطرف الآخر وصفاتِ ثقافته، ويثمر الاحتكاك بالأسرىٰ والرهائن، في أزمنة الهدوء (وقد زادت كثيراً علىٰ أزمنة الحرب، كما لاحظ بعض المؤرخين)، مزيداً من النفوذ في ضميره العام، بحيث يلزم أن تكون الوراثات التي يخلفها مثل هذا الصدام الطويل بين الطرفين، مختلفة تماماً عن وراثات اليوم المقيتة، **وإن لم يكن هذا يعني، في أي وقت من الأوقات، بالنسبة إلينا، تراخياً في التمسك بثوابت التحرير، وبالسعي الحثيث إلىٰ إدراك مقاصدنا المشروعة في آخر الطريق، وعلىٰ امتداد الزمان.**

لكن ما خلّفته هذه المواجهة علىٰ أرض الواقع، من المرارات

---

(١) في «الاعتبار» صور معبّرة عن هذه المخالطة. انظر: الفقرة (١٦٠ وما بعدها، مثلاً).

والأحقاد، لم تستطع القرون الطويلة التالية، فيما يبدو، أن تخفف من حرارته. ففي زعمائهم من يذكّرنا إلىٰ اليوم، بالحروب الصليبية Les Croisades! وفيهم من يضع الإسلام، وهو آخر الديانات السماوية، في موضع العدو المفرد، في حين يسالمون الديانات الأخرىٰ حتىٰ الوثنية منها، ويمالئون علينا من ينكر عليهم نبوة السيد المسيح ﷺ وبتولة أمه العذراء. وتؤلَّف فيهم كتب ترمينا بكل نقيصة، وتتوعدنا بالقتل والطرد من بلادهم، ومن بلادنا أيضاً! بدعوىٰ أنهم يتعرضون منا اليوم «لحربٍ صليبية جديدة»! ويكذّبون دعوتنا إلىٰ ما أصبح يعرف، هذه الأيام، بحوار الحضارات وقبول التعددية فيها لصالح البشرية قاطبة. وينصبون، في مواجهتها، مفهوماً أُحادياً للعولمة يقوم علىٰ إملاء إرادتهم علينا، وصهرنا في اقتصادهم وثقافتهم وأسلوبهم في تناول الأفكار وفهمها وتقويمها، وطمس هويتنا وسماتنا الحضارية، والتهوين من قدراتنا المادية والعلمية والروحية الأصيلة، علىٰ امتداد الزمان.

ويكاد ما يقع اليوم من الأحداث في أكثر أنحاء الأرض القريبة والبعيدة، وفي فلسطين بوجه خاص، يُكتب عندهم في صفحة هذا المفهوم، حتىٰ كأن المواجهة التي بدأت فصولها الأولىٰ من قبل حروب الإفرنج، منذ بزوغ الدعوة الإسلامية، بين العرب والروم، وفي الفتوح الإسلامية، في إفريقية والأندلس، استمرت بعدها دون توقف. فصار التهجم علىٰ العرب والإسلام والمسلمين وطمس كل منجز علمي أو حضاري أنجزناه، مما تكاد تتفق فيه خاصتهم وعامتهم علىٰ السواء. وصارت الصيحة إلىٰ ما سماه بعضهم «وحدة الثقافة اليهودية المسيحية»، في مواجهة الإسلام وثقافته، صيحة مسموعة عملياً، في كثير من محافلهم!

هل يتبقىٰ أمامنا إذن، والحال علىٰ ما نرىٰ، إلا خيار واحد: أن نعمل

علىٰ تصحيح عملية التوازن المعرفي المختلّة بيننا وبينهم، أعني المزيد من امتلاك أدوات المعرفة العلمية الحديثة، والقدرة علىٰ إنتاجها في جميع الميادين، مع ما تستلزمه من وضوح الرؤية، والتمكن من أسباب النمو الثقافي والاجتماعي، مثل إشاعة الحريات المسؤولة، وقبول التعددية ونفي التفرد، سعياً وراء الخروج من دائرة الإحساس بالإحباط والعَوَز الحضاري الذي يعززونه فينا كل يوم، من دون أن نخسر هويتنا الثقافية ونفرط بثوابتها، علىٰ نحو ما أفلحت اليابان في تحقيقه، وشعوب آسية المسلمة في أندونيسية وماليزية، وشعوب أخرىٰ في القارة الآسيوية نفسها.

وإلىٰ أن نصل إلىٰ هذا القصد الذي لم نفتقده من قبل، علىٰ نحو ما يُظهر كتاب «الاعتبار»، (وينبغي أن نعمل في الوصول إليه ليل نهار، إذ ربما كنا فيه علىٰ سباق حقيقي مع الزمن)، لا مفرَّ من تقوية قدرتنا علىٰ الثبات في مواقعنا، في مواجهةٍ مستمرة قد تطول عشرات السنين، وتبدو نذرها القاتمة في سمائنا لكل ذي عينين، واستنفار قوانا وطاقاتنا المادية والفكرية، وتنمية مواردنا، لدعم صمودنا علىٰ هذا المدىٰ الطويل.

فعند هذا الذي نقوله يبدو هاماً نشر هذه المذكرات التي كتبها أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار»، نشرة مضبوطة النص قدر الإمكان، مفصّلة، مشروحة المقاصد، سهلة التناول، تحتفظ، مع هذا، بالصورة التي اختارها الكاتب لها، في تصوير جهاد قومه ومواقفهم الصعبة من رد الغزاة واسترداد المقدسات، وتطهير الأرض نفسها التي تعاني اليوم من آلام الاغتصاب وقيود الاحتلال، ما عانته من قبل، وتقع فيها أعتىٰ المواجهات بيننا وبين القوىٰ التي تمثل لحقائق ذلك الغزو القديم، منذ ما يزيد علىٰ تسعة قرون، مما نقرأ أخباره ونتملىٰ صوره في السرد الحكائي الآسر وأمثلته الناطقة في هذا الكتاب، ونتتبع، في الوقت نفسه، مشاهده الدامية وأخباره المروعة، علىٰ الشاشات الصغيرة وفي نشرات الأخبار وصور وكالاتها العالمية، سواء بسواء.

فلو ملكنا، أمام هذا الواقع التي تفرض علينا مواجهته، أن ننشط في نشر مثل هذا النوع الحي من أدب المقاومة الذي عرفناه في تاريخنا، حتىٰ ندخل به كل بيت، ونخاطب به جميع الناس، لكان ينبغي ألا نقصّر فيه أبداً[1].

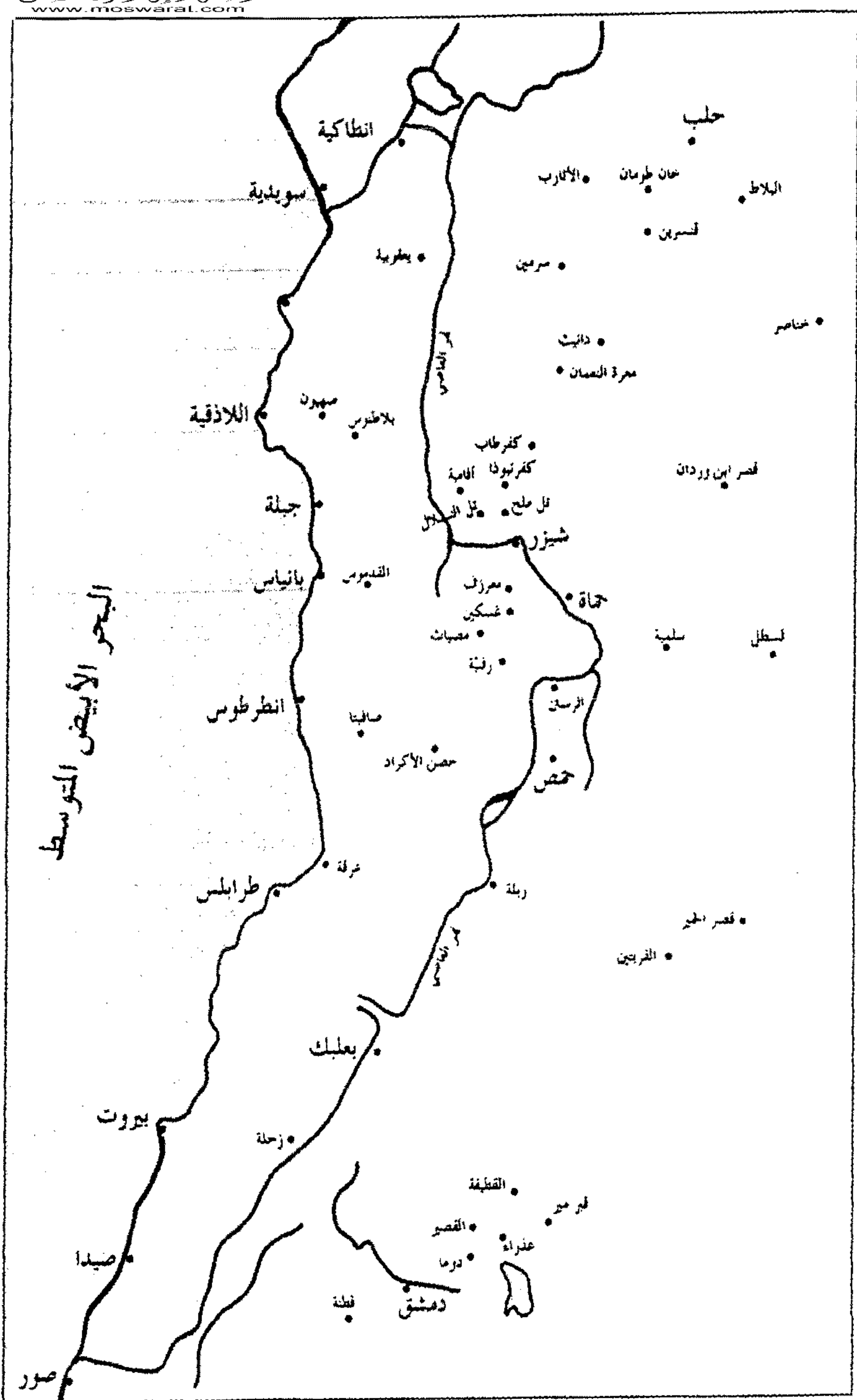
والله هو المسؤول والمرجّىٰ أن يصل بالعمل إلىٰ أبعد غاياته. فحسب الإنسان أن يعمل ويبذل وسعه في التماس الصواب.

حلب ٦/٦/١٤٢٣هـ
١٤/٨/٢٠٠٢م

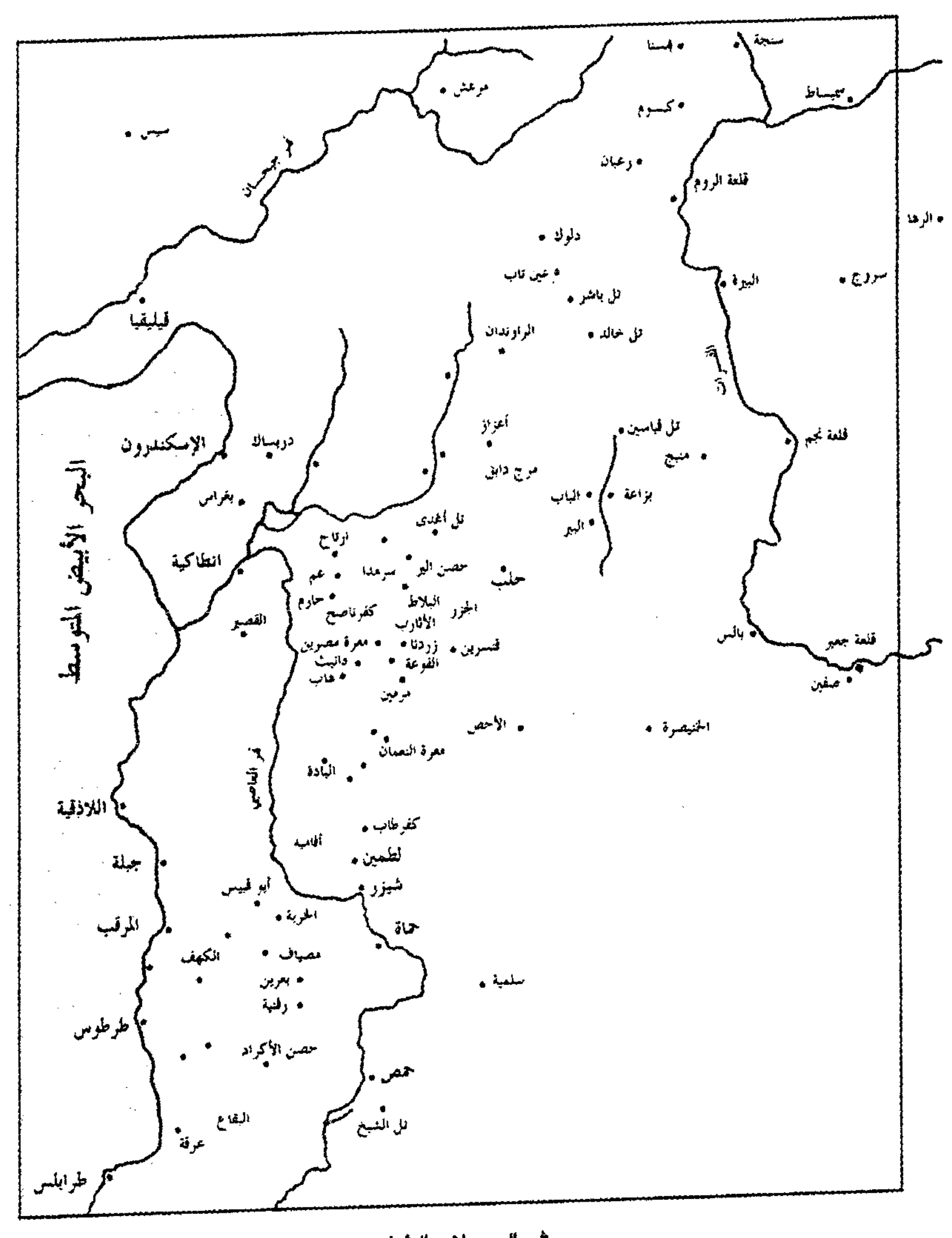
عبد الكريم الأشتر

---

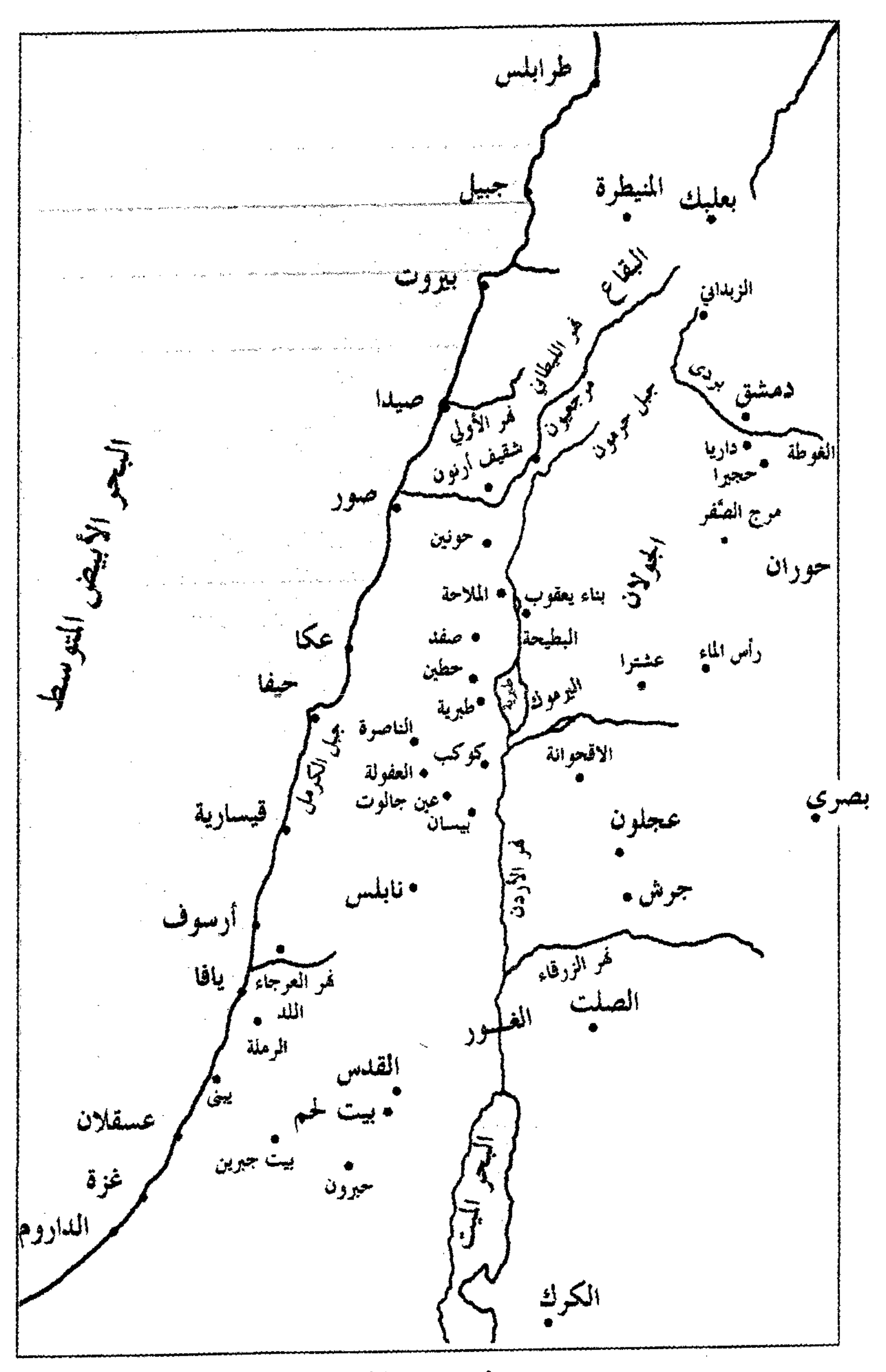
(١) أذكر أن للإخوة الدكتور سهيل زكار وأخيه المرحوم عبد الجبار زكار، في إخراج النشرة السابقة. وللأخ الدكتور صلاح كزارة عضو مجمع اللغة العربية المراسل في حلب يد لا تنسىٰ في إخراج هذه النشرة، فقد أمدني بالكتب والصحف، وحثّني علىٰ إخراج نص الكتاب كاملاً. وللأخ الدكتور محمود فاخوري والأستاذ محمد عدنان قيطاز الحمويين، فضل العون والمراجعة والتثبت والتحقيق فيما رجعت فيه إليهما. وللأخ الدكتور راتب سكر فضل إمدادي بدراساته وبحوثه جزاهم الله أحسن ما يجزي العلماء العاملين المحتسبين.



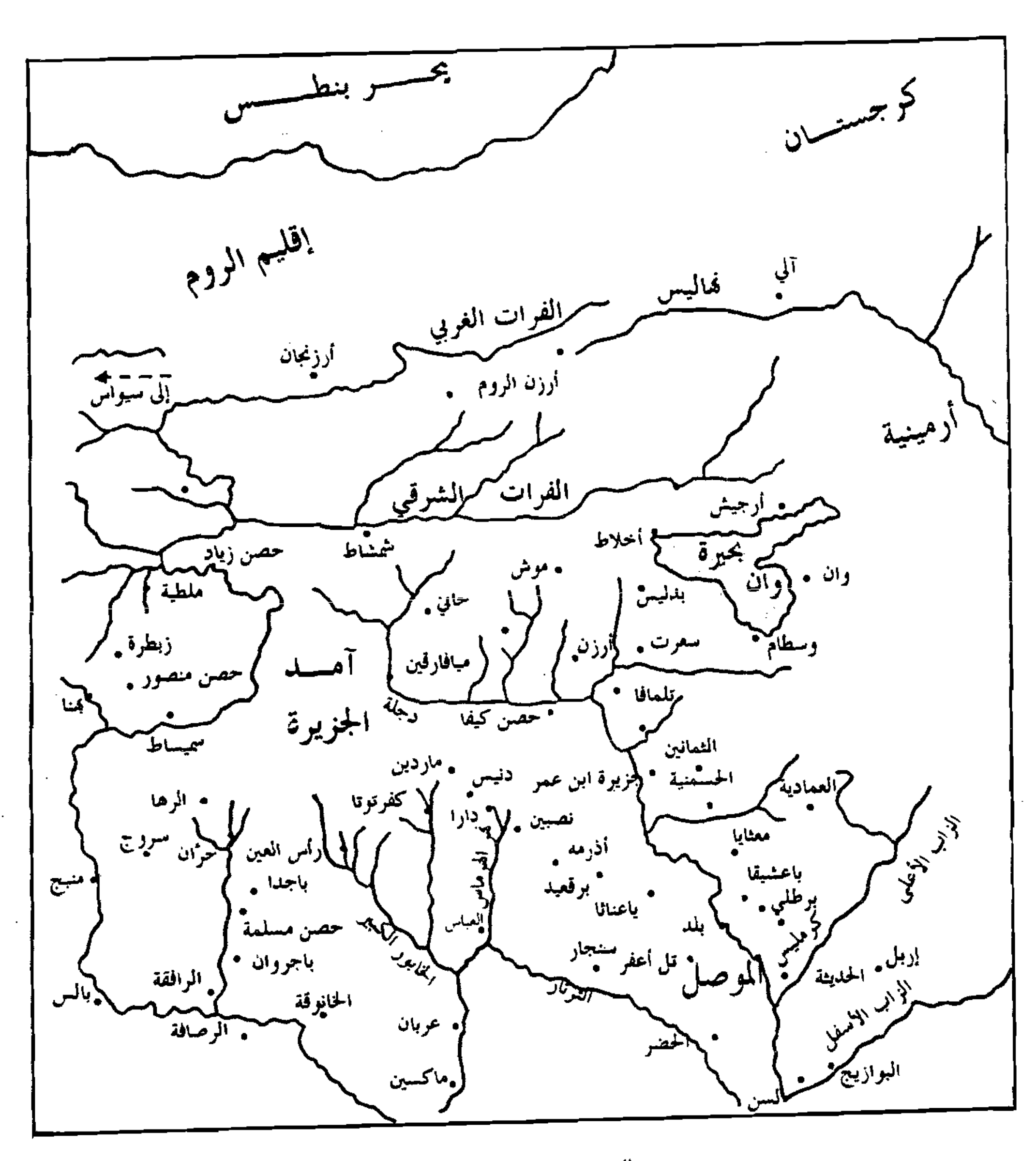
شيزر وما حولها



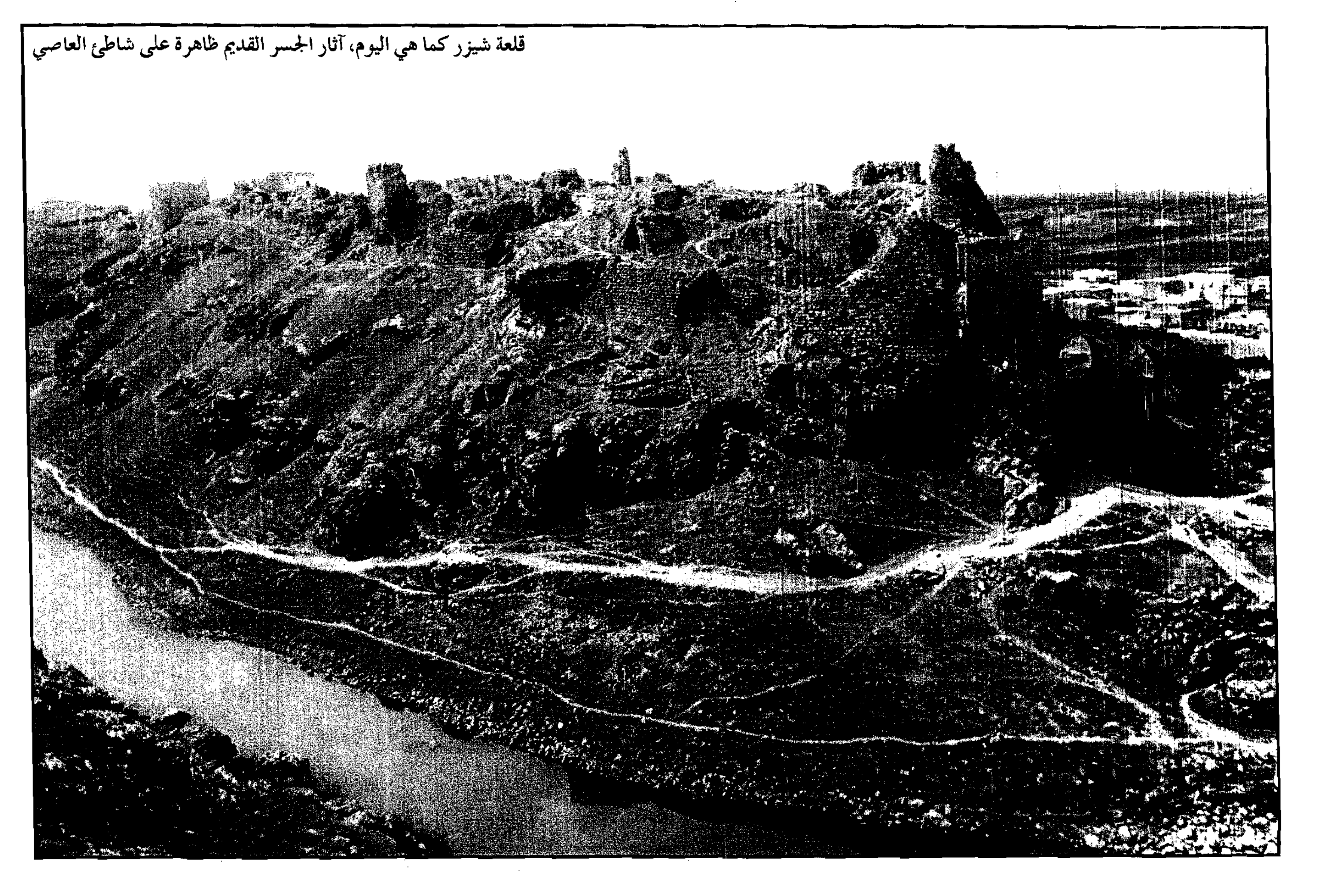
شمالي بلاد الشام



جنوبي بلاد الشام

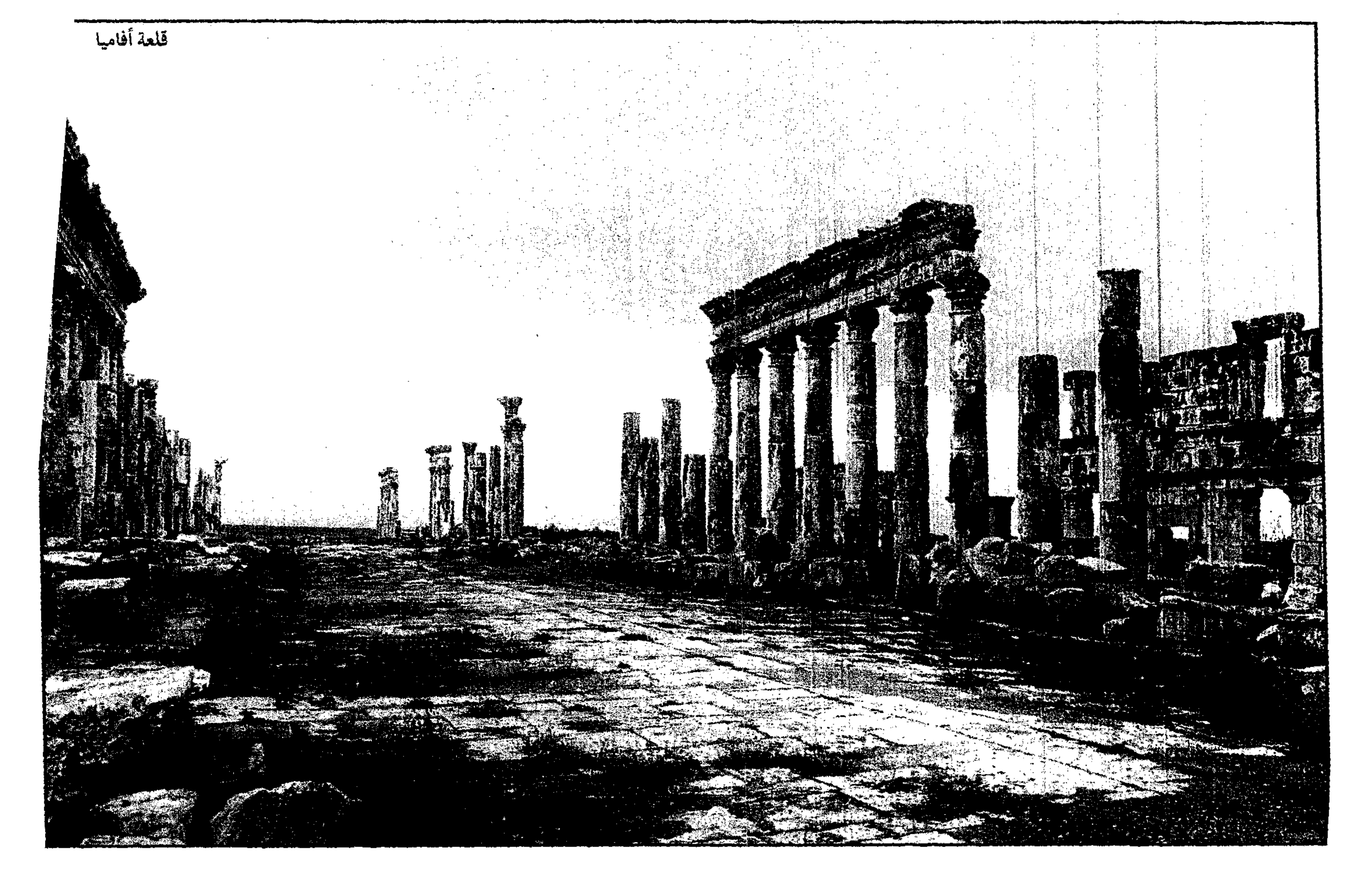


الجزيرة وما حولها

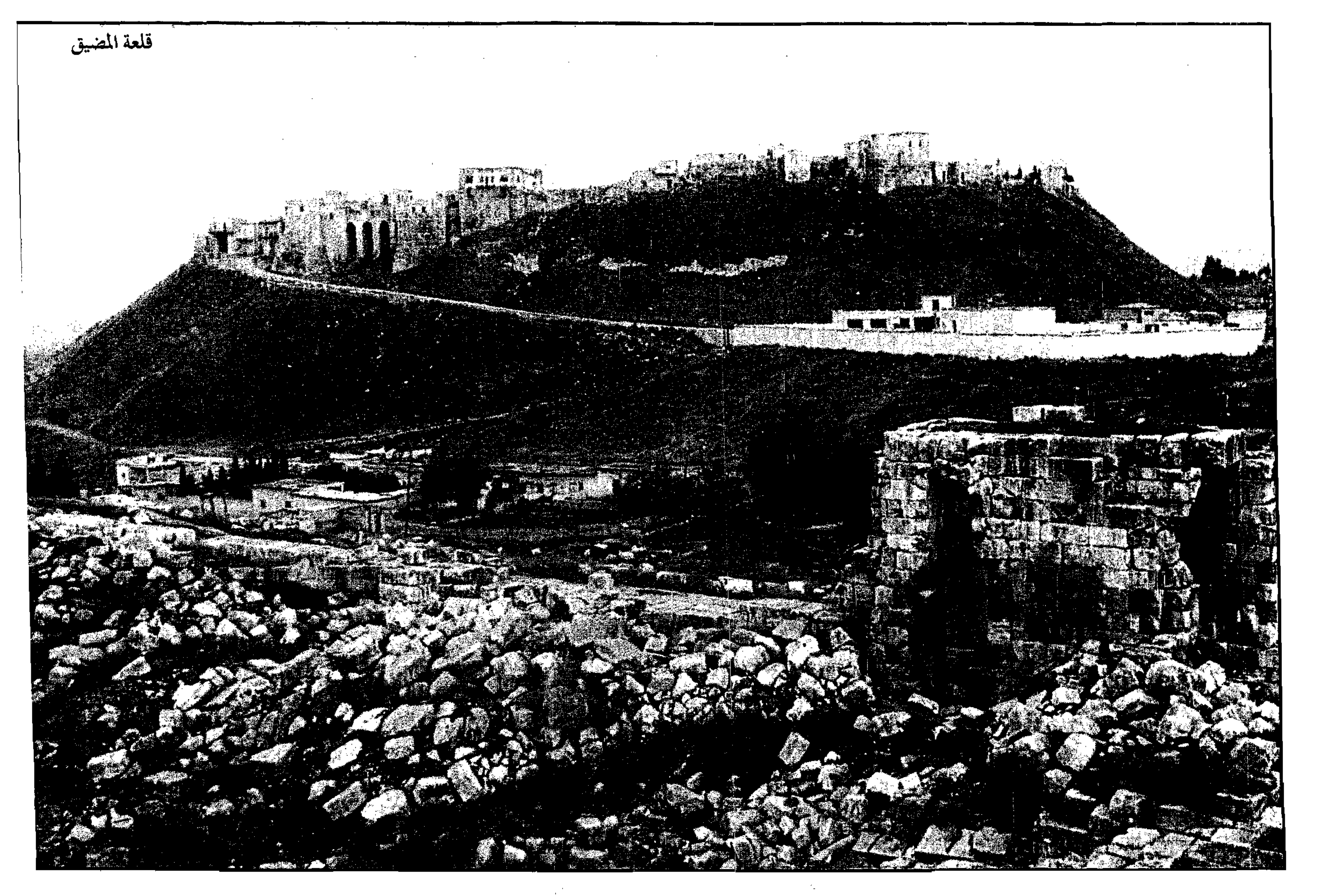


قلعة شيزر كما هي اليوم، آثار الجسر القديم ظاهرة على شاطئ العاصي



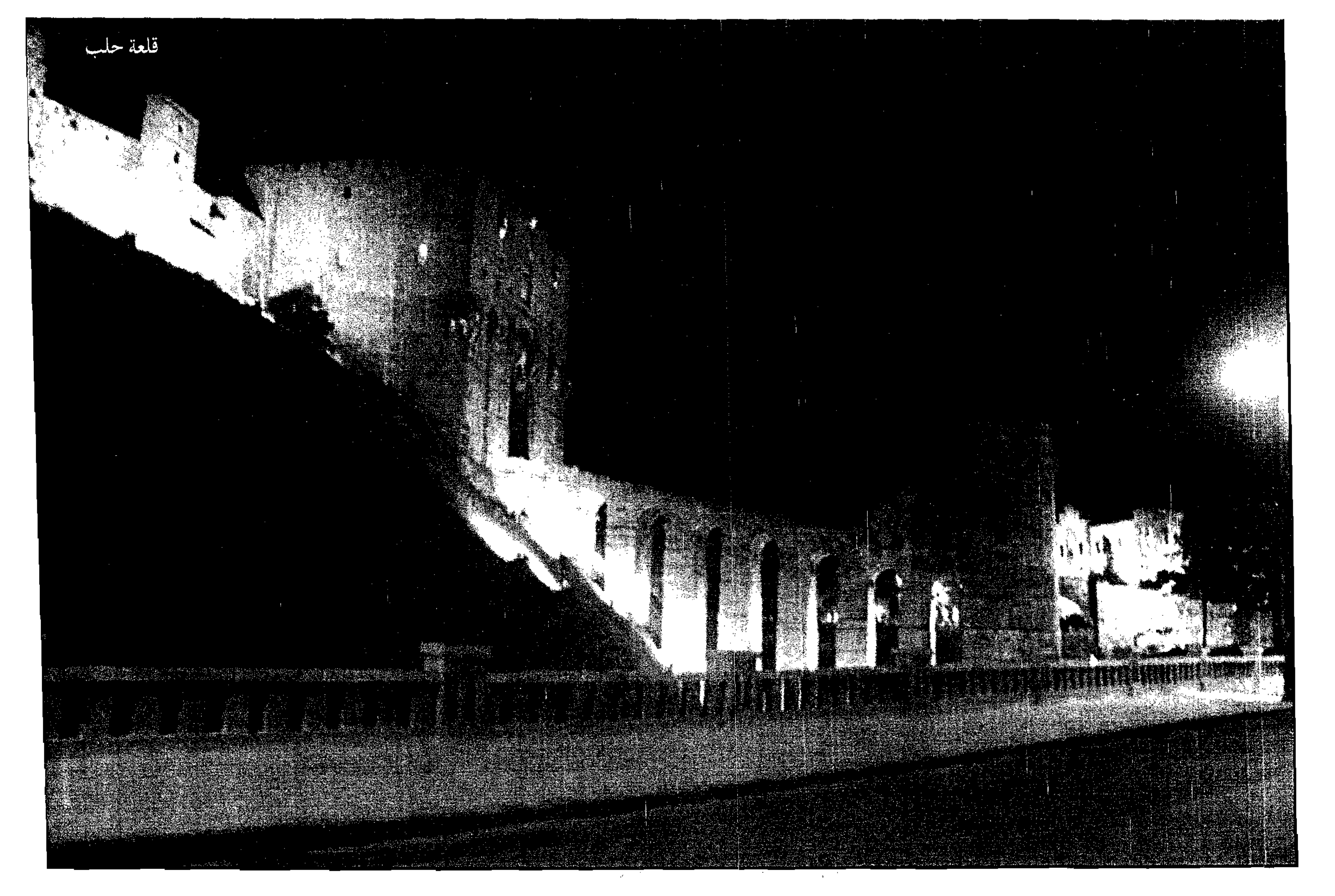


قلعة أفاميا



قلعة المضيق


قلعة الحصن



قلعة حلب

نموذج رقم (١) الورقة (١و) من المخطوطة

يشك . وكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية اجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا
وعاشروا المسلمين فمن جفا اخلاقهم قبحهم الله اني كنت اذا زرت البيت المقدس
دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة فكنت اذا دخلت
المسجد الاقصى وفيه الداوية وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه
يوما فكبرت ووقفت في الصلاة فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي الى الشرق
وقال كذا صلي فتبادر اليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني وعدت انا الى
الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال كذا
صلي فعاد الداوية دخلوا اليه واخرجوه واعتذروا الي وقالوا هذا غريب وصل
من بلاد الافرنج في هذه الايام وما راى من يصلي الى غير الشرق فقلت حسبي من الصلاة
فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة
الى القبلة . ورايت ______ واحدا منهم جا الى الامير معين الدين رحمه الله
وهو في الصخرة فقال تريد تبصر الله صغيرا قال نعم فمشى بين ايدينا حتى ارانا صورة
مريم والمسيح عليه السلم صغير في حجرها فقال هذا الله صغير تعالى الله عما
يقول الكافرون علوا كبيرا وليس عندهم شي من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو
وامراته يلقاه رجل اخر ياخذ المراة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج
واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى
ومما شاهدت ______ من ذلك اني كنت اذا جيت الى نابلس انزل في دار رجل
يقال له معز داره عمارة للمسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ويقابلها من جانب
الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار ياخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه
ويقول فلان التاجر قد فتح بتية من هذا الخمر من اراد منها شيا فهو في موضع كذا
وكذا واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة فجا يوما ووجد رجلا
مع امراته في الفراش فقال له اي شي ادخلك الى عند امراتي قال كنت تعبان
دخلت استريح قال فكيف دخلت الى فراشي قال وجدت فراشا مفروشا
نمت فيه قال والمراة نائمة معك قال الفراش لها كنت اقدر امنعها من فراشها

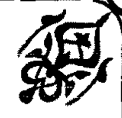
نموذج رقم (٢) الورقة (٤١ظ) من المخطوطة

قال وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت انا وانت فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ۞
ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من اهل المعره في حمام لوالدي
رحمه الله قال فتحت حماما في المعره اتعيش فيها فدخل اليها فارس منهم وهم
ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام فمد يده جذب مئزري من وسطي
ورماه فراني وانا قريب عهد بحلق عانتي فقال سالم فتقدمت منه فمد يده على عانتي وقال
سالم جيد وحق ديني اعمل لي كذا واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك
الموضع فحلقته ثم مرر يده عليه فاستوطاه فقال سالم بحق دينك اعمل
للداما والداما بلسانهم الست يعني امراته وقال لغلامه قل للداما تجي فمضى الغلام
احضرها وادخلها فاستلقت على ظهرها وقال اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر
وزوجها قاعد ينظر الي فشكرني ووهب لي حق خدمتي ۞ فانظروا الى هذا الاختلاف
العظيم ما لهم غيره ولا نخوه وفيهم الشجاعه العظيمه وما تكون الشجاعه الا
من النخوه والانفه من سو الاحدوثه ۞ ومما يقارب هذا اني
دخلت الحمام بمدينه صور فجلست في خلوه فيها فقال لي بعض غلماني في الحمام امراه معنا
فلما خرجت جلست على المصاطب واذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد
لبست ثيابها وهي واقفه مع ابيها ولم اتحقق انها امراه فقلت لواحد من اصحابي
بالله ابصر هذه امراه هي واردت ان يسال عنها فمضى وانا اراه رفع ذيلها
وتطلع فيها فالتفت اليه ابوها وقال هذه ابنتي ماتت امها وما لها من يغسل راسها
فادخلتها معي الحمام غسلت راسها فقلت صدقت هذا لك فيه ثواب ۞
ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبريه وكان مقدما
فيهم واتفق انه رافق الامير معين الدين رحمه الله من عكا الى طبريه وانا معه فحدثنا في الطريق
قال كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجئنا الى قس كبير من
قسوسنا فقلنا تجي معنا حتى تبصر الفارس فلان قال نعم ومشى معنا ونحن نتحقق انه
اذا حط يده عليه عوفي فلما راه ۞ قال اعطوني شمع فاحضرنا له قليل شمع
فلينه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحده في جانب انفه فمات الفارس

نموذج رقم (٣) الورقة (٤٢و) من المخطوطة

واحسن من السمح ولم يملك الشجر الذي في السطوط ان احمد صاف على السماكي
من الشأن ابعد في جواسيم السمكة وهي لا يحرك ولا يسعى وما حولها والطالع فكان
يكون من حسنا عليهم له حسا على الصيد بالبزاة وبوالي المطر والهوا عاسا اياما وفي
في متن الى الجبرتم امسك المطر كطعنا ماعا م الساريار دوفا للولد الفراخ جيات
مده للصيد وهم لماس وكف المطر ما بركه لرلي وكسانا نذكر بالامر من حيا
الى الصحراء وشبه ابواب السما بالمطر فقلنا لعاتم ان زعمت انها طابت وتحت
ثم اخرجنا في هذا المطر فقال ما كان لكم عون نصر الغيم ولا وزلنا المطر كسم
ملم لي يكثر في الجينك مابي طيبه ولا صاحبه وكان هذا عاتم صانع حلد
في اصلاح الشواهين والبزاة خبير بالجوارح طريف الحديث طيب العشرة
من رأي من الجوارح ما لم يعرف وما لا يعرف حسن حاتم ومالي الصيد حتى سرنا
فرأينا عند الرجا الحلالي شيئا واذا الركي مطروح على الارض من اعلام
طلبه واذا هو ميت وهو جار ما يرد لعدف راه حاتم ذلك الاذا انطاده
الذيق منه حاحد واذا جاءت الركي بعوب وهذا الرجل فقال عاتم
الجوارح ما العوسو للحو الركي للصوت جاحد ... اصلا عنه وما ...
ونعي الله سبحانه اي ضرب للحرمه اذ لك رحمه الله لحاه جارح من الاحمر
احمر المنسر والرجلين دون عسه حمر وهو من احسن الجوارح وقالوا هذا الذي راي
عد من الا اياما فلابل ودرص السمور المنسره وطار ه وخرج الوالد
رحمه الله يوما الى صيد الغزلان وانا معه صغير وصل الى الفاطر واذا
فيه مجد حرابيه يقطعوا الطريق عليهم وكفهم وسلبهم الى يوم من
لا اعد يوصلونهم الى الحلس يشعرون احد الاخسف من بعضهم وسرنا
في الصيد واذا فانه حمر وحسن ملك للوالد امولاي ما اشتريت حمر الرحمن
من السوم عرابركا الضل صهم بعال العلا وحي دس سعرا من جود الكحل
وكسب ... الحسنا ... الحربه ... قصر بسط العانه
... منها جارا وضرب الاخيه من الخف فلا اعلم له شيئا

نموذج رقم (٤) الورقة (٦٥و) من المخطوطة

كتاب الاعتبار

لمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر
أسامة بن منقذ الكناني الشيزري

٤٨٨-٥٨٤هـ / ١٠٩٥-١١٨٨م

(مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية)




١

[معركة قِنّشرين مع الإفرنج سنة ٥٣٠هـ]

[١و](١) ولم يكن القتل في ذلك المصافّ(٢) في المسلمين كثيراً. وكان وصل من الإمام الراشد بن المسترشد(٣) رحمهما الله، ابن بشر(٤) رسولاً إلىٰ أَتَابِك(٥) يستدعيه. فحضرَ(٦)، ذلك المصافّ وعليه جَوْشَنٌ(٧) مذَهّب، فطعنه فارس من الإفرنج، يقال له: ابن الدقيق(٨)، في صدره،

---

(١) في نقاط التعليق إشارة إلىٰ ضياع أوراق من الكتاب تقدر بأكثر من عشرين ورقة.

(٢) المصف: موضع الصف، وموقع القتال، والجمع مصاف، وشُهر استعمال الجمع في موضع المفرد. وفي بعض التواريخ إشارة تدل علىٰ أن أسامة حضر هذه المعركة، وكانت إقامته لا تزال في شيزر.

(٣) الخليفة العباسي (٥٢٩ ـ ٥٣٠هـ) وقد خُلع ثم قُتل سنة ٥٣٢هـ. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١١/ ٦٢، و«زامباور» ص ١٠).

(٤) هو أبو بكر بن بشر الجزري، من جزيرة ابن عمر، ذكره ابن الأثير. («الكامل» ١١/ ٢٢).

(٥) لقب تركي فارسي معناه والد الأمير. وكان يطلق أيضاً علىٰ قائد الجيش أو رئيس أركانه، وهو هنا عماد الدين زنكي بن آقْسُنْقُر (ت سنة ٥٤١هـ) أتابك الموصل، ووالد نور الدين محمود الشهيد (ت سنة ٥٦٩هـ). انظر: («زامباور» ص ٣٤١).

(٦) يعني: ابن بشر رسول الخليفة الراشد.

(٧) الجوشن: الدرع، يستر الصدر ويلبس علىٰ الظهر، مثل الزَّرَد. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٩٣ ـ ٤).

(٨) من فرسان الإفرنج المُغْلَمين، اسمه في المصادر الإسلامية: فيليب بن الدقيق، واسمه في اللاتينية Bendect أو Benedectus، والمسلمون، شأنهم =

أخرج الرمح من ظهره رَحِمَهُ ٱللَّهُ. بل قُتل من الإفرنج خَلْقٌ كثير.

وأمر أَتابك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فجُمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن، فكانت قدر ثلاثة آلاف رأس.

٢

[الروم والإفرنج يحاصرون شَيْزَر سنة ٥٣٢هـ]

ثم إن ملك الروم(١) عاد خرج إلىٰ البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة. واتفق هو والإفرنج، خذلهم الله، وأجمعوا علىٰ قصد شيزر ومنازلتها(٢). فقال لي صلاح الدين(٣): «ما ترىٰ ما فعلَه هذا الولد المُثْكَل؟» يعني: ابنه شهاب الدين أحمد(٤). قلت: «وأيّ شيء فعل؟» قال: «أنفذَ إليّ يقول: أبصرْ من يتولىٰ بلدك». قلت: «وأيَّ شيء عملت؟» قال: «نَفّذْت إلىٰ أتابِك أقول: «تسلّمْ موضعك»(٥). قلت: «بئس ما فعلت!» أما يقول لك أتابِك: «لما كانت لحماً أكلها، ولما صارت عظماً رماها عليّ؟» قال: «فأيَّ شيءٍ أعمل؟» قلت: «أنا أجلس فيها، فإن سلّم الله تعالىٰ كان بسعادتك، ويكون وجهك أبيض عند

= شأن الأمم الأخرىٰ، يحرفون الأسماء الإفرنجية ليقربوها من خصائص نطقهم. وستمر بنا في الكتاب أمثلة كثيرة منها. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١١/ ٣٥٣).

(١) جان كومنينوس Comnenus حكم من سنة ١١١٨ إلىٰ ١١٤٣م (٥١٣ ـ ٥٤٨هـ).

(٢) في هذه السنة (٥٣٢هـ ـ ١١٣٨م) ضرب جان كومنينوس شيزر بالمنجنيقات، من جبلٍ في شرقها، عشرة أيام متوالية، بعد أن حاصرها زمناً («الكامل» لابن الأثير ١١/ ٥٧).

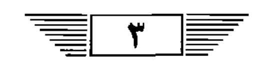
(٣) صلاح الدين الغسياني، من أمراء السلاجقة: كان وقتئذ صاحب حماة يعمل في خدمة عماد الدين زنكي أتابك الموصل. صورته في بعض أنحاء الكتاب غاية في القسوة والظلم وانتفاء الرحمة انظر: الفقرات (١٩٤ وما بعدها).

(٤) كان علىٰ بعلبك نيابة عن أبيه صلاح الدين الغسياني.

(٥) يعني: حماة التي كان صاحبها لأتابك عماد الدين زنكي.

صاحبك. وإن أُخذ الموضع وقُتلنا كان بآجالنا، وأنت معذور». قال: «ما قال لي هذا القول أحد غيرك».

وتوهمتُ أنه يفعل ذلك، فَحَفَلْتُ[1] الغنمَ والدقيقَ الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصَر. فأنا في داري المغربَ ورسولهُ جاءني قال: «يقول لك صلاح الدين: نحن بعد غدٍ سائرون إلىٰ الموصل، فأعملْ شغلك للمسير». فورد علىٰ قلبي من هذا همٌ عظيم وقلت: «أتركُ أولادي وإخوتي وأهلي في الحصار وأسير إلىٰ الموصل؟» فأصبحتُ ركبتُ إليه وهو في الخيام، استأذنتُه في الرواح إلىٰ شَيْزَر لأُحضر لي نفقةً ومالاً نحتاج إليه في الطريق، فأذن وقال: «لا تبطئ». فركبتُ ومضيت إلىٰ شَيْزَر. فبدا منه ما أوحش قلبي ....[2] فنفّذَ إلىٰ داري، فرفع كلَّ ما فيها من الخيام والسلاح والرَّحْل وقبض علىٰ......[3] وتتبع أصحابي، فكانت نكبة كبيرة رائعة.



[أسامة في دمشق]

فاقتضت الحالُ[4] مسيري إلىٰ دمشق، ورُسُل أتابِك تتردد في طلبي إلىٰ صاحب دمشق[5]. فأقمتُ فيها ثماني سنين. وشهدتُ فيها عدةَ

---

(١) حَفَلَ الشيءَ: جمعه.

(٢)(٣) كلام غامض في الأصل، لعله يعني: إثارة الشك في نية الغسياني نحو أسامة. وكان الغسياني صاحب مكر وعسف.

(٤) لمغادرته النهائية (سنة ٥٣٢هـ) شيزر إلىٰ دمشق أسباب تتعلق ـ كما أشرت في الحاشية السابقة ـ بما وقع بينه وبين عمه سلطان من الوحشة، بعد وفاة أبيه مرشد (٥٣١هـ) (ارجع إلىٰ المقدمة).

(٥) جمال الدين محمد بن بوري بن طُغْتُكين (وترد طُغْدُكين). والغالب علىٰ أموره معين الدين أُنُر مملوك جده طُغتُكين. وكان البوريون، وهم أتراك أيضاً، من أتابكة دمشق. انظر: («زامباور» ص ٣٤٠).

حروب. وأجزل لي صاحبها رحمه الله العطيّة والإقطاع، وميّزني بالتقريب والإكرام، يضاف ذلك إلىٰ اشتمال الأمير معين الدين[1] رحمه الله عليَّ، وملازمتي [١ظ] له ورعايته لأسبابي.

٤

[سفره إلى مصر]

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلىٰ مصر[2]، فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر علىٰ حمله. وفرّطتُ في أملاكي ما كان نكبةً أخرىٰ. كل ذلك والأمير معين الدين رحمه الله محسنٌ مُجمل كثير التأسُّف علىٰ مفارقتي، مُقرٌّ بالعجز عن أمري، حتىٰ إنه أنفذ إليّ كاتبه الحاجب مَحمود المسترشدي رحمه الله قال: «والله لو أن معي نصفَ الناس لضربت بهم النصف الآخر، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين، وما فارقتك. لكن الناس كلهم قد تمالؤوا عليَّ وما لي بهم طاقة. وحيث كنتَ فالذي بيننا من المودة علىٰ أحسن حالة»[3].

فعن ذلك أقول[4]:

معينَ الدين كم لك طَوق مَنٍّ	بجيدي، مثلُ أطواق الحمَام
تعبّدني لك الإحسان طوعاً	وفي الإحسان رقّ للكرام
فصار إلىٰ مودتك انتسابي	وإن كنتُ العِظاميّ العِصامي
ألم تعلم بأني لانتمائي	إليك رمىٰ سواديَ[5] كلُّ رامِ

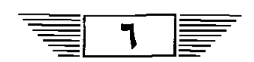
(١) معين الدين أُنُر المذكور في الحاشية السابقة. وكان أسامة علىٰ مودة معه.
(٢) ستأتي الإشارة إلىٰ هذا بعد.
(٣) في الموقف الذي غادر عليه أسامة دمشق غموض، يحاول أن يَجلوه في الأبيات التالية. ويبدو أن لصلته بمعين الدين أُنُر ودخول الناس بينهما، أثراً فيه إن لم تكن هي السبب.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص٢١٩. (٥) يريد: شخصه.

ولولا أنتَ لم يُصحَب شِماسي[1] لـقـسـرٍ دون إعـذار الـحـسـام
ولـكـن خـفـتُ مـن نـار الأعـادي عـلـيـك، فكـنـتُ إطـفـاء الضِّرام!



[أسامة في مصر]

فكان وصولي إلىٰ مصر يومَ الخميس الثاني من جمادىٰ الآخرة، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. فقربني الحافظ لدين الله[2] ساعة وصولي. فخلع عليَّ بين يديه، ودفع لي تخْت[3] ثياب ومائة دينار، وخوّلني دخول الحمّام، وأنزلني في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش[4]، في غاية الحسن، وفيها بُسْطُها وفُرشها، ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس. كل ذلك لا يُستعاد منه شيء. وأقمت بها مدةً إقامةً في إكرام واحترام وإنعام متواصل، وإقطاع زاج[5].



[فتنة في عسكر الفاطمية وعبيدها]

فوقع بين السودان، وهم في خَلْق عظيم، شرٌّ وخُلْف، بين الريحانية، وهم عبيد الحافظ، وبين الجُيوشيّة والإسكندرانية والفَرْحيّة[6]. فكان الريحانية في جانب، وهؤلاء كلهم في جانب،

---

(١) شدة الممانعة والرفض.
(٢) الخليفة الفاطمي من سنة ٥٢٤ إلىٰ سنة ٥٤٤هـ، بعد مقتل الآمر بأحكام الله. انظر: («زامباور» ص ١٤٥).
(٣) أي: خزانة الثياب.
(٤) أمير الجيوش: لقب الوزير بدر الجمالي (ت٤٨٧هـ)، وإليه ينسب حي الجَمالية في القاهرة. والأفضل ابنه. انظر: («زامباور» ص ١٤٩).
(٥) زجّاه: ساقه ودفعه. وزجا الخراجُ: تيسرت جبايته.
(٦) طوائف من السودان: «خطط المقريزي» ٢/ ٣. والجُيوشية: نسبة إلىٰ أمير =

متفقين علىٰ الريحانية، وانضاف إلىٰ الجُيوشيّة قوم من صبيان الخاص[1]. فاجتمع من الفريقين خَلْق عظيم. وغاب عنهم الحافظ، وترددت إليهم رُسُله. وحَرص علىٰ أن يصلح بينهم. فما أجابوا إلىٰ ذلك، وهم معه في جانب البلد. فأصبحوا التقَوا في القاهرة، فاستظهرتْ الجُيوشيّة وأصحابها علىٰ الريحانيّة، فقتلتْ منهم في سُوَيْقَة [٢و] أمير الجيوش ألفَ رجل، حتىٰ سدّوا السُّوَيقة، ونحن نَبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلىٰ مصر.

وظن الناس لما قُتل الريحانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم، وكان مريضاً علىٰ شفا[2]، فمات رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد يومين، وما انتطح فيها عنزان![3].

٧

[خروج ابن السّلار على الظافر]

وجلس بعده الظافر بأمر الله[4]، وهو أصغر أولاده. واستوزر نجمَ الدين ابن مَصَال، وكان شيخاً كبيراً. والأمير سيف الدين أبو الحسن

= الجيوش بدر الجمالي، المتقدم ذكره. انظر: («صبح الأعشىٰ» للقلقشندي ٣/ ٤٨٢، و«زامباور» ص ١٤٩).

(١) أي الحرس الفاطمي (حرس الخليفة الخاص)، وعدده خمسمائة جندي. (القلقشندي ٣/ ٤٨١). وانظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» الخاصكية، ص ١١٤).

(٢) شَفا كل شيء: حَرفه. يريد: علىٰ شفا الموت.

(٣) مثل يضرب للأمر الذي لا يهتم به أحد.

(٤) قتل هذا الخليفة الفاطمي بعد ذلك سنة ٥٤٩هـ، ويروي ابن الأثير («الكامل» ١١/ ١٩١) أنه كان لأسامة دور في مقتله. انظر: («زامباور» ص ١٤٩).

علي بن السّلار[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ ذاك في ولايته، فحشد[٢] وجمع وسار إلىٰ القاهرة، ونفّذ إلىٰ داره. فجمع الظافرُ بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة، ونفّذ إلينا زِمامَ القصور[٣] يقول: «يا أمراء! هذا نجم الدين وزيري ونائبي، فمن كان يطيعني فليطعْه ويمتثل أمره» فقال الأمراء: «نحن مماليك مولانا، سامعون مطيعون». فرجع الزِّمامُ بهذا الجواب.

فقال أمير من الأمراء، شيخ يقال له: لَكْرون: «يا أمراء! نترك عليَّ بن السَّلار يُقتل؟» قالوا: «لا والله!» قال: «فقوموا». فنفروا كلهم وخرجوا من القصر، شدّوا علىٰ خيلهم وبغالهم وخرجوا إلىٰ معونة سيف الدين بن السّلار. فلما رأىٰ الظافر ذلك، وغُلب عن دفعه، أعطىٰ نجم الدين بن مَصَال مالاً كثيراً وقال: «اخرج إلىٰ الحَوْف[٤] اجمع واحشد، وأَنْفِقْ فيهم، وادفع ابن السّلار». فخرج لذلك.

٨

[أسامة يحارب في صف ابن السّلار]

ودخل ابن السّلار القاهرة. ودخل دار الوزارة. واتفق الجند علىٰ طاعته، وأحسن إليهم. وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره. وأفرد لي موضعاً في الدار أكون فيه.

وابن مَصال في الحَوْف قد جمع من لَواتَة[٥]، ومن جُند مصر[٦]، ومن السودان والعربان، خَلْقاً كثيراً. وقد خرج عباس، ركنُ الدين، وهو ابن

---

(١) كان يلي الإسكندرية والبحيرة. (٢) يقصد علي بن السلار.

(٣) يريد: الرجل الذي يتولىٰ أمور خدّام القصور. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٧٣).

(٤) منطقة شمالي الدلتا، وهما حوفان: شرقي وغربي، وفيهما قرىٰ كثيرة («معجم البلدان» ٢/ ٣٢٢).

(٥) قبيلة بربرية أصلها من المغرب.

(٦) يعني: القاهرة، وهو استعمال دارج إلىٰ اليوم.

امرأة علي بن السّلار[1]، ضرب خِيَمه في ظاهر مصر. فغدت سريّة من لَوَاتَة ومعهم نسيب لابن مَصال، وقصدوا مخيّم عباس. فانهزم عنه جماعة من المصريين، ووقف هو وغلمانه ومن صَبَر معه من الجند ليله مُحابِسَهم.

وبلغ الخبر إلىٰ ابن السّلار، فاستدعاني في الليل، وأنا معه في الدار، وقال: «هؤلاء الكلاب ـ يعني: جند مصر ـ قد شغلوا الأمير ـ يعني: عباساً ـ بالفوارغ، حتىٰ عدا إليه قوم من لَواتَةَ سباحةً فانهزموا عنه. ودخل بعضهم إلىٰ بيوتهم بالقاهرة، والأمير مُواقِفُهم». قلت: «يا مولاي! تركب إليهم في سَحَر، وما يُضحي النهار إلا وقد فَرَغْنا منهم إن شاء الله تعالىٰ». قال: «صواب. أَبْكِرْ في ركوبك». فخرجنا إليهم من بُكرة، فلم يسلم منهم إلا مَن سَبَحتْ به فرسه في النيل. وأُخذ نسيب ابن مَصال، ضُربت رقبته.

٩

[الظافر يقرّ بالهزيمة ويولّي ابن السّلار الوزارة]

[٢ظ] وجَمَع[2] العسكرَ مع عباس وسيّره إلىٰ ابن مَصال، فلقيه علىٰ دِلاص[3] فكسرهم، وقُتل ابن مَصال، وقُتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألفَ رجل. وحملوا رأس ابن مَصال إلىٰ القاهرة. ولم يبق لسيف الدين[4] من يُعانده ولا يُشاققه[5]. وخلع عليه الظافر خِلَع الوِزارة، ولقّبه المَلك العادل، وتولىٰ الأمور.

---

(١) يقول ابن الأثير («الكامل» ١١/ ١٨٥): «إن عباساً قدم من المغرب، وتعلّم الخياطة. فلما تزوج ابن السّلار بأمه، أحبه وأحسن تربيته فجازاه بأن قتله وولي بعده!»

(٢) ابن السّلار.

(٣) بلدة في صعيد مصر.

(٤) علي بن السّلار.

(٥) الصحيح: يشاقّه. فك الإدغام علىٰ الشائع في الدارجة.

١٠

[ابن السّلار ينجو من مكيدة الظافر]

كل ذلك والظافر منحرف عنه، كارهٌ له، مضمر له الشر. فعمل علىٰ قتله، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم، ممن استمالهم وأنفق فيهم، أن يهجموا داره[١] ويقتلوه. وكان شهر رمضان[٢]، والقوم قد اجتمعوا في دارٍ بالقرب من دار الملك العادل، ينتظرون توسُّط الليل وافتراقَ أصحاب العادل، وأنا تلك الليلة عنده.

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا، وقد بلغه[٣] الخبر من بعض المُعامِلين عليه[٤]، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون. وكانت الدار ـ لِما أراده الله من سلامة بعضهم ـ لها بابان: الواحد قريب من دار العادل، والآخر بعيد. فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب، قبل وصول أصحابهم إلىٰ الباب الآخر، فانهزموا[٥] وخرجوا من ذلك الباب. وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحوُ عَشَرة رجال، كانوا أصدقاء غلماني، نخبئُهم. وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين، ومن ظُفر به منهم قُتل.

١١

[أسامة ينقذ أحد السودان]

ومن عجيب ما رأيت في ذلك اليوم: أن رجلاً من السودان الذين

---

(١) كذا ترد في الكتاب، في غير موضع. (٢) من سنة ٥٤٥هـ.

(٣) يعني: بلغ العادل ابن السّلار.

(٤) لعلها محرّفة من «العاملين»، ويعني: العيون والجواسيس، من العاملين علىٰ ابن السَّلار.

(٥) يعني: غلمان الظافر.

كانوا في العَمْلة[١] انهزم إلىٰ عُلْو داري، والرجال بالسيوف خلفه. فأشرف علىٰ القاعة من ارتفاع عظيم. وفي الدار شجرة نَبْق[٢] كبيرة، فقفز من السطح إلىٰ تلك الشجرة فثبت عليها، ثم نزل ودخل من كُمّ[٣] مجلس قريب منه، فوطئ علىٰ منارة نحاس[٤]، فكسرها، ودخل إلىٰ خَلْف رَحْلٍ[٥] في المجلس اختبأ فيه. وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه، فصِحتُ عليهم، وأطلعت إليهم الغلمان دفعوهم. ودخلت إلىٰ ذلك الأسود فنزع كساءً كان عليه وقال: «خُذه لك» قلت: «أكثر الله خيرك! ما أحتاجه». وأخرجته، وسيّرت معه قوماً من غلماني، فنجا.

١٢

[رجل يزوّر التواقيع تضرب رقبته]

وجلستُ في صُفّةٍ[٦]، في دهليز داري. فدخل عليَّ شاب سلّم وجلس. فرأيته حَسَن الحديث، حَسَن المحاضرة. هو يتحدث، وإنسان استدعاه، فمضىٰ معه. ونفّذتُ خلفه غلاماً يُبصر لماذا استُدعي. وكنت بالقرب من دار العادل. فساعةَ ما حضر ذلك الشاب بين يديْ العادل أمر بضرب رقبته، فقُتل. وعاد الغلام وقد استَخبر عن ذنبه فقيل له: «كان يزوّر التواقيع». فسبحان مقدِّر الأعمار وموقِّت الآجال.

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان.

---

(١) بمعنىٰ الوقعة الكبيرة التي عُمِلَت. ما تزال الكلمة دارجة إلىٰ اليوم في معنىٰ الفِعْلة، وفيما يشبهها.

(٢) حَمْل شجرة السدر، تثمر حباً صغيراً، واحدته: نبقة.

(٣) اصطلاح: يعني دخل من دِهليز ضيق إلىٰ المجلس. والكُم في الأصل: مدخل اليد ومخرجها من الثوب.

(٤) لعله يريد: حاملاً للشمع، مصنوعاً من النحاس، وكانت تسمىٰ (منائر).

(٥) ما يكون علىٰ الجمل مثل السرج للفرس.

(٦) ج. صُفَف: الموضع المظلّل.

[أسامة يعود إلى الشام في مهمة رسمية]

[٣و] وتقدم إليّ الملك العادل[١] رحمه الله بالتجهيز للمسير إلىٰ الملك العادل نور الدين[٢] رحمه الله وقال: «تأخذ معك مالاً وتمضي إليه لينازل طَبَرِيّةَ، ويَشْغَل الفرنج عنا، لنخرج من هٰهنا نخرّب غَزّةَ». وكان الإفرنج، خذلهم الله، قد شرعوا في عمارة غزة[٣] ليحاصروا عَسْقَلان[٤]. قلت: «يا مولاي! فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه، أيَّ شيءٍ تأمرني؟» قال: «إن نزل علىٰ طبريّة فأعطه المال الذي معك. وإن كان له مانع فَدَيْوِن[٥] من قَدِرت عليه من الجند، واطلع إلىٰ عسقلان أَقِمْ بها في قتال الإفرنج، واكتب إليّ بوصولك لآمرك بما تعمل».

ودفع إليّ ستة آلاف دينار مصرية، وحِمْل جَمَلٍ ثياب دَبيقيٍّ[٦]، وسقلاطون[٧] ومُسَنْجَب[٨]، ودمياطي[٩]، وعمائم. ورتّب معي قوماً من

---

(١) سيف الدين علي بن السَّلار.

(٢) نور الدين محمود الشهيد، ابن أتابك عماد الدين زنكي، خلفه سنة ٥٤١هـ. انظر: («زامباور» ص ٣٤١).

(٣) شرع بغدوين (بلدوين الثالث Baldwin) ملك القدس في عمارة غزة سنة ٥٤٤هـ، أو بعدها قليلاً.

(٤) مدينة كنعانية قديمة، جنوبي الساحل الفلسطيني، كانت موقعاً عسكرياً كبيراً أيام حروب الإفرنج. استولوا عليها سنة ٥٤٨هـ ـ ٥٨٣هـ («معجم البلدان» ٤/ ١٢٢).

(٥) أي دوّن أسماءهم في الديوان (سجل الجند).

(٦) يقصد: من قماش دبَيقي: نسبة إلىٰ دبيق، بلدة في مقاطعة دمياط من الدلتا، اشتهرت بجودة أقمشتها. («معجم البلدان» ٢/ ٤٣٨).

(٧) ثياب كتان موشاة، اشتهرت بغداد بصنعها (يونانية).

(٨) فرو يتخذ من جلود السنجاب.

(٩) شهرت دمياط، في العهد الفاطمي، بصناعة الأقشمة الحريرية والكتانية =

العرب أدلّاء. وسرت وقد أزاح علّة سفري بكل ما أحتاجه من كثير وقليل.

١٤

[توهم ظهور الإفرنج في الجَفْر]

فلما دنونا من الجَفْر[١] قال لي الأدلّاء: «هذا مكانٌ لا يكاد يخلو من الإفرنج». فأمرت اثنين من الأدلّاء، ركبا مَهْرِيّيْن[٢]، وسارا قُدّامَنا إلىٰ الجفر فما لبثا أن عادا، والمَهاري[٣] تطير بهما، وقالا: «الفرنج علىٰ الجفر». فوقفت، وجمعت الجمال التي عَليها ثَقَلي[٤]، ورفاقاً من السُّفّارة[٥] كانوا معي، ورددتهم إلىٰ الغرب. وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت: «تقدموا وأنا في إثْركم». فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم. فعاد إليّ واحد منهم وقال: «ما علىٰ الجفر أحد، ولعلهم أبصروا عُرباناً». وتنازع هو والأدلّاء. فنفّذتُ من ردَّ الجمال وسرت.

١٥

[أسامة يحسن إلى عُرْبان الجَفْر]

فلما وصلت الجفر، وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود، فأخذناه. وتفرق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر

= المقصبة. («معجم البلدان» ٢/ ٤٧٢).

(١) بين مصر وفلسطين، والجفر في الأصل: البئر. («معجم البلدان» ٢/ ١٤٤ـ ٥، وهي في الجفار).

(٢) المَهريّة: نجائب تسبق الخيل، منسوبة إلىٰ مَهرة بن حيدان من عرب اليمن. وتوصف بسرعة الجري. جمعها: المَهاري والمَهارىٰ.

(٣) الجمع بدل المثنىٰ، في الاستعمال الدارج.

(٤) الثقل: المتاع والحشم.

(٥) يعني: رفاق السفر.

وامرأتين وصبياناً. فجاءت امرأة منهن مَسَكَت ثوبي وقالت: «يا شيخ! أنا في حَسَبك[1]». قلت: «أنتِ آمنة، ما لكِ؟» قالت: «قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة[2]». قلت لغلماني: «من كان أخذ شيئاً يرده». فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين. قالت: «هذا الثوب!» وأحضر آخر قطعة سِنْدَرَوس[3] قالت: «هذه الخرزة». قلت: «فالحمار والكلب؟» قالوا: «الحمار قد ربطوا يديه ورجليه، وهو مَرميٌّ في العشب، والكلب مفلوت[4] يعدو من مكان إلىٰ مكان».

فجمعتهم، ورأيت بهم من الضُرّ أمراً عظيماً، قد يبست جلودهم علىٰ عظامهم. قلت: «أيش أنتم؟» قالوا: «نحن من [٣ظ] بني أُبَيّ». (وبنو أُبَيّ فرقة من العرب من طيّئ لا يأكلون إلا المَيْتة. ويقولون: «نحن خير العرب، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زَمِن[5] ولا أعمىٰ!». وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم). قلت: «ما جاء بكم إلىٰ هٰهنا؟» قالوا: «لنا بحَسْمىٰ[6] كُثول[7] ذُرة مطمورة جئنا نأخذها». قلت: «وكم لكم هنا؟» قالوا: «من عيد رمضان لنا هٰهنا، ما رأينا الزاد بأعيننا» قلت: «فمن أين تعيشون؟» قالوا: «من الرِّمّة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القَطَف (شجر بتلك الأرض) ونتقوَّت به». قلت: «فكلابكم وحُمُرُكم؟» قالوا: «الكلاب نطعمهم[8] من عيشنا، والحُمُر تأكل الحشيش». قلت: «فلمَ

(١) الحسب: الدين والشرف والفِعال الصالحة. يريد: أنها مستجيرة به.
(٢) تريد: قطعة من المعدن، أو غيره مما يستعمل لزينة النساء.
(٣) صمغ الشجر، أو المعدن الشبيه بالكهرمان (فارسية).
(٤) عامية، فصيحها: مفلَت، والفعل: أفلَت.
(٥) الزَمِن: المبتلىٰ بآفة بينة، وتكون دائمة.
(٦) إلىٰ الجنوب من بادية الشام، وهي «حسماء» أيضاً.
(٧) يريد: أكواز الذرة.
(٨) يريد: نطعمها، علىٰ الدارجة.

لا دخلتم[1] إلىٰ دمشق؟» قالوا: «خِفنا الوباء». ولا وباء أعظم مما كانوا فيه! وكان ذلك بعد عيد الأضحىٰ.

فوقفتُ حتىٰ جاءت الجِمال، وأعطيتُهم من الزاد الذي كان معنا، وقطعت فُوطة كانت علىٰ رأسي أعطيتها للمرأتين. فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد.

وقلت: «لا تقيموا هـٰهنا يَسْبُوكم[2] الإفرنج».

١٦

[من ذكريات الطريق: فطنة دليل]

ومن طريف ما جرىٰ لي في الطريق: أنني نزلت ليلةً أصلّي المغرب والعِشاء قَصْراً وجَمْعاً. وسارت الجمال. فوقفتُ علىٰ رَفْعَة من الأرض وقلت للغلمان: «تفرقوا في طلب الجمال وعودوا إليَّ، فأنا ما أزول من مكاني». فتفرّقوا، وركضوا كذا وكذا فما رأوهم[3]. فعادوا كلهم إليّ، وقالوا: «ما لقيناهم، ولا ندري كيف مَضَوا». فقلت: «نستعين بالله تعالىٰ، ونسير علىٰ النّوء»[4]. فسرنا ونحن قد أشرفنا، من انفرادنا عن الجمال في البرية، علىٰ أمر صعب.

وفي الأدلّاء رجل يقال له: جُرَيّة[5]، فيه يقظة وفطنة.

فلما استبطأنا علمَ أنّا قد تُهنا عنهم. فأخرج قدّاحة وجعل يقدح، وهو علىٰ الجمل، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا. فرأيناه علىٰ البعد فقصدنا النار حتىٰ لحقناهم. ولولا لطف الله، وما أُلْهِمَه ذلك الرجل، كنا هلكنا.

---

(١) يريد: لِمَ لم تدخلوا. وأسامة يكثر من هذا الاستعمال. انظر مثلاً: الفقرة (٢٦).
(٢) علىٰ الدارجة المعروفة، كأنه أضمر شرطاً وجاء بجوابه: «إن أقمتم . . . يسبوكم».
(٣) لعله يريد الجمال، ومن عليها من راكبيها.
(٤) النوء: النجم يميل إلىٰ الغروب، ويطلع من المشرق نجم يقابله.
(٥) تصغير: جرو (جروة).



١٧

[من ذكريات الطريق أيضاً: هَرَبُ أحد البغال بخُرج الدنانير]

ومما جرىٰ لي في تلك الطريق أن الملك العادل[١] رَحِمَهُ اللَّهُ قال لي: «لا تُعْلم الأدلاء الذين معك بالمال». فجعلت أربعة آلاف دينار في خُرْج، علىٰ بغل سَروجي[٢] مجنوب[٣] معي، وسلمتُه إلىٰ غلام. وجعلت ألفي دينار ونفقةً لي وسَرفْسار[٤] دنانير مغربية في خُرْج علىٰ حصان مجنوب معي، وسلمته إلىٰ غلام. فكنت إذا نزلت جعلت الأخراج في [٤و] وسط بساط ورددت طرفيه عليها، وبسطت فوقه بساطاً آخر، وأنام علىٰ الأخراج، وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي. يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما. فإذا شدّاهما علىٰ الجنائب ركبتُ، وأيقظت أصحابي تَهمّمْنا[٥] بالرحيل.

فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل[٦]. فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب، أخذ الخُرج وطرحه علىٰ وركي البغل، ودار يريد يشده بالسُّموط[٧]. فزلّ البغل وخرج يركض وعليه الخُرج. فركبتُ حصاني، وقد قدّمه الرِّكابي، وقلت لواحد من غلماني: «اركب! اركب!» وركضت خلف البغل فما لحقته، وهو كأنه حمار وحش، وحصاني قد أعيا من الطريق. ولحقني الغلام فقلت: «اتبع البغل كذا»

---

(١) سيف الدين علي بن السلار.

(٢) نسبة إلىٰ مدينة سَروج، من نواحي منبج. («معجم البلدان» ٣/ ٢١٦).

(٣) سهل الانقياد، يسير إلىٰ جانب من يقوده. وأسامة قد يسمي بهذه الصفة الخيل علىٰ العموم.

(٤) سَر أفسار: فارسية، معناها: العِنان. ولعل الصواب: «وسَرَفْسار ذهب ودنانير....

(٥) تهمم الشيء: طلبه. وجاء في الكتاب متعدياً بالباء، كأنه حمله علىٰ: هَمَّ.

(٦) صحراء سيناء. (٧) سيور تتدلىٰ من السرج.

فمضىٰ وقال[1]: «والله يا مولاي! ما رأيت البغل، ولقيت هذا الخُرج قد شِلْته[2]». فقلت: «الخُرج كنت أطلب، والبغل أهون مفقود».

ورجعت إلىٰ المَنْزِلة[3]، وإذا البغل قد جاء يركض. دخل في طُوالة[4] الخيل، ووقف. فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار.

١٨

[أسامة في عسكر الشام يُدَيْوِن[5] أسماء ثمانمائة فارس ويأخذهم للإغارة على الإفرنج]

ووصلنا في طريقنا إلىٰ بُصرىٰ[6]، فوجدنا الملك العادل نور الدين رحمه الله علىٰ دمشق. وقد وصل إلىٰ بُصرىٰ الأمير أسد الدين شيركوه[7] رحمه الله. فسرت معه إلىٰ العسكر، فوصلته ليلة الاثنين. وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به. فقال لي: «يا فلان! أهل دمشق أعداء[8]، والإفرنج أعداء، ما آمَنُ منهما إذا دخلتُ بينهما». قلت له: «فتأذن لي أن أُدَيْوِن من محرومي الجند[9] قوماً آخذهم وأرجع، وتُنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك؟» قال: «افعل». فدَيَونْتُ إلىٰ الاثنين الآخر ثمانمائة وستين فارساً،

---

(١) يعني: وقال حين عاد...
(٢) التقطته. علىٰ الدارجة.
(٣) المكان الذي نزلوا فيه.
(٤) حيث تشد الخيل بالطِّوَل (الحبل) ويطول لها لترعىٰ. وليست في اللغة بهذا المعنىٰ، ويسمىٰ كذلك مكان وضع طعام الخيل والبغال في مكان معين لها، ويكون من الطين أو الخشب.
(٥) يسجل أسماءهم في ديوان العسكر (السجل)، وترد في النص غير مرة.
(٦) أي: بصرىٰ الشام.
(٧) شيركوه: عم صلاح الدين الأيوبي.
(٨) يريد أنهم يدينون بالولاء لغيره من البوريين الأتابكة في دمشق.
(٩) يعني: الجند الذين حُرموا من الجراية لسبب من الأسباب.

وأخذتهم سرت في وسط بلاد الإفرنج، ننزل بالبوق ونرحل بالبوق[1].

١٩

[أسامة وفرسانه في البتراء]

وسيّر معي نور الدين الأميرَ عينَ الدولة الياروقي[2] في ثلاثين فارساً. فاجتَزْت في طريقي بالكهف والرَّقِيم[3]. فنزلت فيه، ودخلت صليت في المسجد. ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه. فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معي، يقال له: بَرْشَك، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق. قلت: «أي شيء تعمل في هذا؟ صلِّ بَرَّا[4]».

قال: «لا إلـٰه إلا الله، أنا [ابن] حرام إذن حتىٰ لا أدخل في ذلك الشق الضيق!» قلت: «أيَّ شيءٍ تقول؟» قال: «هذا الموضع [٤ظ] ما يدخل فيه ولد زنىٰ. ما يستطيع الدخول». فأوجب قولُه أن قمت دخلت في ذلك الموضع صلّيت وخرجت، وأنا ـ الله يعلم ـ ما أصدّق ما قاله. وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا.

ومعي في الجند بُراق الزّبيدي، معه عبد له أسود ديّن كثير الصلاة، أدق ما يكون من الرجال وأَذَبُّهم[5]. فجاء إلىٰ ذلك الموضع، وحرِص بكل حِرْصٍ علىٰ الدخول، فما قدِر يدخل. فبكىٰ المسكين وتوجع وتحسّر، وعاد بعد الغَلَبَة عن الدخول.

---

(١) يعني: الإيعاز بالنزول والارتحال، بنفخة البوق (النفير).
(٢) أمير تركي، كان سابقاً في خدمة عماد الدين زنكي، والد نور الدين الشهيد.
(٣) في البتراء. راجع سورة الكهف، الآية ٨. وتقع جنوب شرقي عَمّان وهي الآن خرائب فيها آثار مسجد، وبني فيها منذ سنوات مسجد ومدرسة. قيمتها السياحية اليوم كبيرة. راجع: («معجم البلدان» ١/ ٣٣٥).
(٤) يريد خارج الشق. علىٰ الدارجة في اللفظ، والأصل موجود في اللغة.
(٥) الأذبّ: الطويل. وقرأها السامرائي: (وأذبلهم).

[وصول أسامة وفرسانه إلى عسقلان ومواجهتهم الإفرنج]

فلما وصلنا عَسْقَلان سَحَراً، ووضعنا أثقالنا عند المصلىٰ. صبّحونا[١] الإفرنج عند طلوع الشمس. فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت، والي عسقلان[٢]، فقال: «ارفعوا، ارفعوا أثقالكم». قلت: تخاف لا يغلبونا[٣] الإفرنج عليها؟» قال: «نعم». قلت: «لا تخف، هم يرونا في البرّية ويعارضونا[٤]. إلىٰ أن وصلنا إلىٰ عسقلان ما خفناهم، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟».

ثم إن الإفرنج وقفوا علىٰ بُعد ساعة. ثم رجعوا إلىٰ بلادهم. جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخِيَم، يريدون منازلة عسقلان. فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان. فدُرْتُ علىٰ سِرْب الرَّجّالة وقلت: «يا أصحابنا! ارجعوا إلىٰ سُوركم ودعونا وإياهم، فإنْ نُصرنا عليهم فأنتم تلحقونا. وإن نُصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سُوركم». فامتنعوا من الرجوع. فتركتهم ومضيت إلىٰ الإفرنج، وقد حطّوا خيامهم ليضربوها. فاحْتَطنا بهم، وأعجلناهم عن طيّ خيامهم. فرمَوها كما هي منثورة، وساروا راجعين.

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الفضوليين أقوام ما عندهم مَنَعَة ولا غَناء. فرجع الإفرنج حملوا علىٰ أولئك فقتلوا منهم نفراً. فانهزمت

---

(١) يريد: صبَّحنا الإفرنج. علىٰ الدارجة.

(٢) للخليفة الفاطمي، وكان متقدماً في دولتهم. وعسقلان: مدينة كنعانية قديمة، تقع جنوبي الساحل الفلسطيني. كانت موقعاً عسكرياً كبيراً أيام حروب الإفرنج. يرد ذكرها كثيراً في الكتاب. ارجع إلىٰ الفقرة (١٣).

(٣) يريد: تخاف أن يغلبنا الإفرنج عليها. علىٰ الدارجة.

(٤) يشير إلىٰ ما تقدم: من أنهم كانوا يسيرون بالبوق، ويرحلون بالبوق.

الرَّجّالة الذين رددتُهم فما رجعوا، ورموا تِراسَهم[1]. ولقينا الإفرنج فرددناهم، ومضوا عائدين إلىٰ بلادهم، وهي قريبة من عسقلان.

وعاد الذين انهزموا من الرَّجّالة يتلاومون، وقالوا: «كان ابن منقذ أخْبَرَ منّا. قال لنا: ارجعوا، ما فعلنا، حتىٰ انهزمنا وافتضحنَا».

٢١

[أسامة ورجاله يقاتلون الإفرنج في بيت جبريل، وينجون بسبب احتراز الإفرنج في الحرب]

وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جملة من سار معي من دمشق، هو وأصحابه، إلىٰ عسقلان. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فرسان المسلمين، يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة علىٰ بيت جبريل[3] وقتالها. فوصلناها وقاتلناهم. [٥و] ورأيت، عند رجوعنا علىٰ البلد، غلّة كبيرة. فوقفت في أصحابي وقدحنا ناراً وطرحناها في البيادر. وصرنا ننتقل من موضع إلىٰ موضع. ومضىٰ العسكر تقدَّمني. فاجتمع الإفرنج ـ لعنهم الله ـ من تلك الحصون، وهي كلها متقاربة، وفيها خيل كثيرة للإفرنج، لمغاداة عسقلان ومراوحتها[4]. وخرجوا علىٰ أصحابنا.

فجاءني فارس منهم يركض وقال: «قد جاء الإفرنج». فسرت إلىٰ

---

(١) مفردها: ترس، وهو معروف. ويصنع من الخشب أو الحديد. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٧٥ ـ ٦).

(٢) أخو أسامة الأكبر. ذكره أسامة هنا لينبئ باستشهاده من بعد في قتال غزة. انظر: الفقرة (٢٣) الآتية. راجع: («زامباور» ص ١٦٥).

(٣) أو (بيت جبرين): في منتصف الطريق بين غزة والقدس. مدينة عامرة، بنىٰ اليهود عليها اليوم مستوطنة كبيرة كما فعلوا بأكثر القرىٰ. انظر: («معجم البلدان» ١/ ٥١٩).

(٤) الغدوّ في الصباح، والرَّواح في المساء.

أصحابنا، وقد وصلهم أوائل الفرنج، وهم، لعنهم الله، أكثر الناس احترازاً في الحرب. فصعدوا علىٰ رابية وقفوا عليها، وصعدنا نحن علىٰ رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء أصحابنا المنقطعون، وأصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة. ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة، وعسكرنا قد تَقَدَّمَنا منهزمين.

وما زال الإفرنج وقوفاً علىٰ تلك الرابية إلىٰ أن انقطع عبور أصحابنا. ثم ساروا إلينا فاندفعنا بين أيديهم، والقتال بيننا، لا يجدّون في طلبنا. ومن وقف فرسه قتلوه. ومن وقع أخذوه. ثم عادوا عنا. وقدّر الله سبحانه لنا بالسلامة، باحترازهم. ولو كنا في عددهم ونُصرنا عليهم، كما نُصروا علينا، كنا أفنيناهم.

٢٢

[هجوم أسامة ورجاله على بلدة يُبْنى البحرية]

فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر، هجمنا[١] فيها مدينةَ يُبنىٰ[٢]، وقتلنا فيها نحو مائة نفس. وأخذنا منها أُسارىٰ.

٢٣

[عودة أسامة إلى مصر، واستشهاد أخيه الأمير عز الدولة في قتال غزة]

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستدعيني.

---

(١) يريد: هاجم، وترد هكذا في الكتاب مرات، كما في السابق.

(٢) فرضة بحرية في فلسطين، قريبة من عسقلان، انظر: («الملحوظات علىٰ الموسوعة الفلسطينية» ص١٠٩، و«معجم البلدان» ٥/٤٢٨).

(٣) علي بن السّلار، وزير الفاطميين.

فسرت إلىٰ مصر، وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعسقلان. فخرج عسكرها إلىٰ قتال غزة فاستُشهِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبّادهم.

٢٤

[ابنِ السّلار يقتله حفيد امرأته، بالاتفاق مع الظافر]

وأما الفتنة التي قُتل فيها الملكُ العادل ابنُ السّلار رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان جَهّز عسكراً إلىٰ بِلْبِيس[١]. ومقدَّمه[٢] ابن امرأته ركن الدين عباس ابن أبي الفتوح ابن تميم بن باديس، لحفظ البلاد من الإفرنج. ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فأقام مع أبيه في العسكر أياماً. ثم دخل إلىٰ القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور. فأنكر عليه ذلك، وأمره بالرجوع إلىٰ العسكر، وهو يظن أنه دخل القاهرة للّعب والفرجة [٥ظ] وللضجر من المُقام في العسكر.

وابن عباس قد رتّب أمره مع الظافر. ورتب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم علىٰ العادل في داره، إذا أبرد[٣] في دار الحُرَم ونام، فيقتله. وقرّر مع أستاذ من أستاذي دار[٤] العادل أن يُعلمه إذا نام. وصاحبة الدار، امرأة العادل جدّته؛ فهو يدخل إليها بغير استئذان.

---

(١) (بِلْبِيس) إلىٰ الشمال الشرقي من القاهرة في الطريق إلىٰ فلسطين، وهي آخر حد مصر. يلفظونها اليوم بفتح أولها وكسر الباء. («معجم البلدان» ١/ ٤٧٩).

(٢) المقدَّم: رتبة عسكرية تعني: المُقَدَّم علىٰ الجند. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٣٢٢).

(٣) أبرد: دخل في آخر النهار.

(٤) أستاذ الدار: (من الفارسية: أُستادار) مديرها الأول والأمين علىٰ مسكن السلطان ومتولي شؤونه ونفقاته. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٢٨).

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه. فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه، ومعه ستة نفر من غلمانه، فقتلوه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقطع رأسه وحمله إلىٰ الظافر، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل! لكنهم في دار السلام[1]، وهو قُتل في دار الحُرَم.

فخرجوا من الدار، ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس، إلىٰ أن رُفع رأس العادل علىٰ رمح. فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين: فرقة خرجت من باب القاهرة إلىٰ عباس لخدمته وطاعته، وفرقة رمت السلاح وجاؤوا إلىٰ بين يدي نصر بن عباس، قبّلوا الأرض، ووقفوا في خدمته!

٢٥

[عباس يتولى الوزارة، وأسامة ينتصر لابن عباس، أمام أبيه]

وأصبح والده عباس، دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة. وخلع عليه الظافر وفوّض إليه الأمر. وابنه نصر مُخالطه ومُعاشره. وأبوه عباس كارهٌ لذلك، مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعضَ الناس ببعض حتىٰ يفنوهم ويحوزوا كل ما لَهم، حتىٰ يتفانَوا. فأحضراني ليلةً وهما في خَلوة يتعاتبان، وعباس يردد عليه الكلام، وابنه مطرق، كأنه نَمِر، يرد عليه كلمة بعد كلمة، يشتاط[2]

(١) لعله يريد: ما سُمّي بعد، أيام الأتراك العثمانيين: السلاملك (دار السلام ـ دار الضيافة)! أو لعلها دار الوزارة التي بناها الأفضل بن بدر الجمالي، وسميت في عهد الأيوبيين: الدار السلطانية. انظر: (معاني «الدار» في «التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٢٧). وفيما يتصل بمقتل ابن السّلار: انظر: («زامباور» ص ١٥٠).

(٢) يشتد غضبه ويقوىٰ (اشتاط عليه).

منها عباس، ويزيد في لومه وتأنيبه. فقلت لعباس: «يا مولاي الأفضل! كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمله، ما أتبرّأ من خطئه ولا صوابه[1]. أي شيء هو ذنبه؟ ما أساء إلىٰ أحد من أصحابك، ولا فرّط في شيء من مالك، ولا قدح في دولتك. خاطر بنفسه حتىٰ نلت هذه المنزلة. فما يستوجب منك اللائمة». فأمسك عنه والده، ورعىٰ لي ابنه ذلك.

٢٦

[ابن عباس يأتمر على قتل أبيه مع الظافر، وأسامة يَثنيه عن عزمه]

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله علىٰ قتل أبيه، ويصير في الوزارة مكانه! وواصله بالعطايا الجزيلة. فحضرتُه يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية[2] فضة فيها عشرون ألف دينار. ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع [٦و] ما لا رأيتُ مثله مجتمعاً قبله. وأغفله أياماً وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار. وأغفله أياماً، وبعث إليه ثلاثين بغل رَحْلٍ[3]، وأربعين جملاً بعُددها وغرائرها[4] وحبالها. وكان يتردد بينهما رجل يقال له: مرتفع بن فحل. وأنا مع ابن عباس، لا يَفسح

---

(١) تدل إشارة أسامة إلىٰ احتمال اشتراكه في تدبير مقتل ابن السَّلار! أسرار كثيرة تكتنف علاقات هؤلاء الناس بعضهم ببعض، تشير إليها تواريخ تلك المرحلة! انظر: («الكامل» لابن الأثير ١١/ ١٨٤) علىٰ أن أسامة يعود في الفقرة (٣١) إلىٰ نسبة تدبير القتل إلىٰ ابن عباس وحده.

(٢) معروفة بهذا الاسم إلىٰ اليوم. ويبدو أن مصدرها الصين، في الأصل.

(٣) يقصد: البغل برحله. والرحل: كل ما يجعل علىٰ ظهر البعير.

(٤) الغِرارة: الجُوالَق (شوال) والجمع: غرائر.

لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً، أنام ورأسي علىٰ رأس مخدته.

فكنت عنده ليلة، وهو في دار الشابورة[1]، وقد جاء مرتفع بن فحل، فتحدث معه إلىٰ ثلث الليل، وأنا معتزل عنهما. ثم انصرف. فاستدعاني وقال: «أين أنت؟» قلت: «عند الطاقة أقرأ القرآن؛ فإني اليوم ما تفرغت أقرأ». فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك. ويريدني أقوّي عزمه علىٰ سوء ما قد حمله عليه الظافر. فقلت: «يا مولاي! لا يستزلّك الشيطان وتنخدع لمن يغرّك. فما قتْل والدك مثل قَتْلِ العادل. فلا تفعل شيئاً تُلعن عليه إلىٰ يوم القيامة». فأطرق، وقاطعني الحديث، ونمنا.

٢٧

[عباس يستميل ابنه ويقرر معه قتل الظافر فيقتله ابنه في داره]

فاطّلع والده علىٰ الأمر، فلاطفه واستماله، وقرر معه قتل الظافر. وكانا[2] يخرجان في الليل متنكريْن، وهما أتراب، وسنُّهما واحدة. فدعاه إلىٰ داره[3]، وكانت في سوق السُّيوفيين، ورتّب من أصحابه نفراً

---

(١) كانت ملاصقة لدار الذهب ودار الفُلْك أيام الفاطميين، حسب تواريخ العصر. وللشابورة معان عدة تعود كلها في جذر اللغات السامية (شبر) إلىٰ: السور أو البوق أو الإيمان أو الحسن والبهاء، أو الأرض المثلثة. انظر: («موسوعة حلب المقارنة» ٥/٨)، ويبدو أن الحي الذي كانت فيه الدار، ينسب في تسميته إلىٰ بعض هذه المعاني. وفي شأن «دار الذهب» بالفسطاط، انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٢٩).

(٢) الظافر ونصر ابن عباس. وفي «الكامل» لابن الأثير ١١/١٩١: أن الظافر كان يحبه ومتهم به. وفيه أن أسامة حرّض عباساً أباه علىٰ قتل الظافر!

(٣) أي: دعا ابنُ عباس الظافرَ إلىٰ داره.

في جانب الدار. فلما استقر به المجلس. خرجوا عليه فقتلوه. وذلك ليلة الخميس سلْخ المحرم، سنة تسع وأربعين وخمسمائة. ورماه في جُبّ في داره. وكان معه[1] خادم له أسود لا يفارقه، يقال له: سعيد الدولة، فقتلوه.

٢٨

[مبايعة ابن الظافر بالخلافة]

وأصبح عباس جاء إلىٰ القصر، كالعادة، للسلام يوم الخميس. فجلس في خزانة في مجلس الوزارة، كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام. فلما جاوز وقت جلوسه استدعىٰ زِمامَ القصر[2] وقال: «ما لمولانا ما جلس للسلام؟» فتبلّد الزمام في الجواب. فصاح عليه وقال: «ما لك لا تجاوبني؟» قال: «يا مولاي! مولانا ما ندري أين هو؟» قال: «مثل مولانا يضيع؟ ارجع فاكشف الحال». فمضىٰ ورجع وقال: «ما وجدنا مولانا». فقال عباس: «ما يبقىٰ الناس بلا خليفة. ادخل إلىٰ الموالي إخوتهِ يخرج منهم واحد نبايعه». فمضىٰ وعاد وقال: «الموالي[3] يقولون لك: نحن ما لنا في الأمر شيء. والده عزله عنا[4] وجعله في الظافر. والأمر لولده بعده». قال: «أخرجوه حتىٰ نبايعه».

وعباس قد قتل الظافر[5]، وعزم علىٰ [٦٦ظ] أن يقول: «إخوته قتلوه»،

---

(١) مع الظافر.

(٢) أمين القصر، بلغة اليوم والمفوّض في الإشراف علىٰ خدمه. انظر: الفقرة (٧)، وراجع: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٧٣).

(٣) يقصد المولىٰ الذي يواليه الناس ويتبعونه.

(٤) يعني: أن والد الظافر (الحافظ) عزل الأمر عنا. والأمر: هو الخلافة هنا.

(٥) رواية أسامة تنفي اشتراكه في تدبير مقتل الظافر، علىٰ ما ورد في بعض تواريخ العصر: («الكامل» لابن الأثير ١١/ ١٨٤). انظر أيضاً: الفقرة (٢٥).

ويقتلهم به! فخرج ولد الظافر، وهو صبي محمول علىٰ كتف أستاذ من أستاذي[1] القصر، فأخذه عباس، فحمله. وبكىٰ الناس. ثم دخل به، وهو حامله، إلىٰ مجلس أبيه، وفيه أولاد الحافظ: الأمير يوسف، والأمير جبريل، وابن أخيهم الأمير أبو البقاء.

٢٩

[الإجهاز على أسرة الحافظ]

ونحن في الرواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلىٰ القاعة، وصوت السيوف علىٰ إنسان. فقلت لغلامٍ لي أرمني: «أبصر مَن هذا المقتول؟» فمضىٰ ثم عاد وقال: «ما هؤلاء مسلمون! هذا مولاي أبو الأمانة (يعني: الأمير جبريل) قد قتلوه، وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه!» ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه، ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه. وأبو البقاء، ابن أخيه، مع نصر بن عباس. فأدخلوهما[2] في خزانة القصر وقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرد!

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي، لما جرىٰ فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالىٰ وجميع الخلق.

٣٠

[بَوّاب المجلس يموت من الخوف]

وكان من طريف ما جرىٰ ذلك اليوم: أن عباساً لما أراد الدخول إلىٰ المجلس وجد بابه قد قُفل من داخل. وكان يتولىٰ فتح المجلس وغَلْقَه

(١) حفاظ القصر والناهضون بشؤونه (في الفارسية: استدار). انظر: الفقرة (٢٤). وما تزال وظائف هؤلاء الرجال متداخلة في مصادرها شيئاً ما.

(٢) يقصد: أدخلوا الأمير يوسف وابن أخيه أبا البقاء، من أسرة الحافظ.

أستاذ شيخ، يقال له: أمين المُلْك[1]. فاحتالوا في الباب حتىٰ فتحوه.
ودخلوا فوجدوا ذلك الأستاذ خلف الباب، وهو ميت، وفي يده المفتاح!

٣١

[أسامة يُعين عباساً على قمع الثورة في القاهرة]

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونُصر فيها عباس علىٰ جند مصر، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رَحِمَهُ اللهُ ما فعل، جَفَت[2] عليه قلوب الناس، وأضمروا فيها العداوة والبغضاء. وكاتَبَ مَن في القصر من بنات الحافظ فارسَ المسلمين أبا الغارات طلائع بن رُزِّيك[3] رَحِمَهُ اللهُ: يستصرخون[4] به. وحشد وخرج من ولايته[5] يريد القاهرة. فأمر عباس فعمّرت المراكب، وحُمل فيها الزاد والسلاح والخزانة، وتقدم إلىٰ العسكر بالركوب والمسير معه. وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين[6]. وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة، وقال لي: «تقيم معه».

---

(١) يقصد بالأستاذ: أستاذ دار؛ أمين من أمناء القصر (استدار: فارسية). انظر: الفقرة (٢٨). وأمين المُلْك وظيفة صاحب المجلس الذي يَجلس فيه الخليفة. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٥١).

(٢) جفا عليه: ثقل. والمصدر: جفاء وجفاءة.

(٣) يلقب بالملك الصالح، كان شاعراً، ويعرف بغاراته علىٰ الإفرنج. أصبح من بعد وزيراً للفائز (ت٥٥٦هـ)، ولأسامة صلة وثيقة به. انظر: الفقرة الآتية (٣٣) وفي كتاب «المنازل والديار» مراسلات شعرية بينهما! صفحة أخرىٰ من صفحات التاريخ الإسلامي المشوشة في هذه المرحلة.

(٤) هكذا وردت في الأصل. ولعله يريد: بنات الحافظ ومن معهن من الأتباع، أو لعله ساقها علىٰ الدارجة.

(٥) كانت ولايته علىٰ الأشمونيين (منية ابن الخصيب في الصعيد ـ «المنيا» اليوم ـ). («خطط المقريزي» ٢/ ٣٠).

(٦) يعني سنة ٥٤٩هـ.

فلما خرج من داره متوجهاً إلىٰ لقاء ابن رُزِّيك، خامر عليه الجند[1] وغلّقوا أبواب القاهرة. ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة: خيّالتهم تقاتلنا في الطريق. ورجّالتهم يرموننا [٧و] بالنشاب والحجارة من علىٰ السطوحات. والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات. ودام بيننا وبينهم القتال من ضحىٰ النهار إلىٰ العصر. فاستظهر عليهم عباس، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا، ولحقهم عباس إلىٰ أرض مصر، فقتل منهم من قتل، وعاد إلىٰ داره وأمْره ونهيه.

وأمر بإحراق البَرْقيّة[2] لأنها مجمع دور الأجناد. فتلطّفتُ الأمر معه وقلت: «يا مولاي! إذا وقعت النار أحرقتْ ما تريد وما لا تريد، وبَعَلَتْ[3] عن أن تطفئها». ورددتُ رأيه عن ذلك.

وأخذتُ الأمان للأمير المؤتمَن ابن أبي رمادة[4]، بعد أن أمر[5] بإتلافه، واعتذرت عنه، فصفح عن جرمه.

٣٢

[عباس يقصد الخروج إلى الشام]

ثم سكنت تلك الفتنة، وقد ارتاع منها عباس، وتحقق عداوةَ الجند والأمراء، وأنه لا مقام له بينهم. وثبت في نفسه الخروج من مصر. وقصْد الشام إلىٰ الملك العادل نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستنجد به. والرسل بين

---

(١) تغيرت قلوبهم عليه، وخالطها الحقد وإضمار الشر.

(٢) حي تقيم فيه فرقة أصل أفرادها من بَرقة، وكان يقع في شرقي القاهرة. («خطط المقريزي» ٢/ ١٢).

(٣) بعَل عليه الأمر بعولة: امتنع عليه.

(٤) يبدو أنه كان زِمام القصر (أمين القصر) المشرف علىٰ تدبير شؤونه، انظر: الفقرة (٢٨).

(٥) عباس.

من في القصور[1] وبين ابن رُزِّيك مترددة. وكان بيني وبينه رَحِمَهُ الله مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر. فنفّذ إليّ رسولاً يقول لي: «عباس ما يقدر علىٰ المقام بمصر، بل هو يخرج منها إلىٰ الشام، وأنا أملك البلاد. وأنت تعرف ما بيني وبينك، فلا تخرج معه. فهو بحاجته إليك في الشام، يرغّبك ويخرجك معه. فالله الله لا تصحبْه! فأنت شريكي في كل خير أناله». فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك، أو توهمه، لما يعلمه بيني وبين ابن رُزِّيْك من المودة.

٣٣

[عباس يحتجز رهائن من أهل أسامة ليضمن مسيره معه إلى الشام]

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر، وقَتَله الإفرنج[2]، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رُزِّيْك ما توهمه، أو بلغه، أحضرني واستحلفني بالأيْمان المغلّظة التي لا مَخْرج منها: أنني أخرج معه وأصحبه. ولم يقنعه ذلك حتىٰ نفّذ في الليل أستاذ داره[3] الذي يدخل علىٰ حُرَمه، أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلىٰ داره، وقال لي: «أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق، وأحملهم مع والدةِ ناصر الدين[4]».

واهتم بأمر سفره: بخيله وجِماله وبغاله. فكان له مئتا حصان، وَحِجْرَة مجنوبة[5] علىٰ أيدي الرَّجّالة، كعادتهم بمصر، ومئتا بغل رَحْلٍ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله.

---

(١) من أهل الخليفة الفاطمي. (٢) انظر: مقتله في الفقرة (٤٠) الآتية.

(٣) لقب يعني: المضطلع بشؤون الدار، انظر: الفقرة (٢٨) ويرد في فقرات أخرىٰ.

(٤) يعني: زوجه، أم ولده ناصر الدين.

(٥) الحِجْرة من الخيل: الأنثىٰ الفتية الكريمة، والمجنوبة والجنيبة: التي يقودها قائدها ويسير إلىٰ جانبها دون أن يركبها.





[عباس يستطلع النجوم قبل رحيله]

وكان كثير اللّهَج بالنجوم. وهو معوِّلٌ علىٰ المسير بالطالع، يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة[(١)]. فحضرتُه وقد دخل عليه غلام يقال له: عنبر الكبير، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها، فقال له: «يا مولاي! أي شيء مرجو من مسيرنا إلىٰ الشام؟ خذ خزائنك وأهلك وغلمانك ومن [٧ظ] تبعك وسر بنا إلىٰ الإسكندرية نحشد من هناك ونجمع، ونرجع إلىٰ ابن رُزِّيْك ومن معه. فإن نُصرنا عدت إلىٰ دارك وإلىٰ ملكك. وإن عَجَزنا عنه عدنا إلىٰ الإسكندرية، [أو] إلىٰ بلد نحتمي فيه ويمتنع علىٰ عدونا». فنهره وخطّأ رأيه. وكان الصواب معه.

٣٥

[أسامة يطلب من عباس أن يُفرِّغه لتجهيز نفسه للسفر]

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بُكْرة. فلما حضرت عنده قلت: «يا مولاي! إذا كنتُ عندك من الفجر إلىٰ الليل، فمتىٰ أعمل شغل سفري؟» قال: «عندنا رسلٌ من دمشق، تسيّرهم وتمضي تعمل شغلك».

٣٦

[الناس يتنكرون لعباس]

وكان قبل ذلك أحضر قوماً من الأمراء واستحلفهم أنهم لا يخونونه ولا يُخامرون عليه. وأحضر جماعة من مقدَّمي العرب، من درماء وزُريق

---

(١) أي سنة ٥٤٩هـ.

وجُذام وسِنْبِس وطلْحة وجعفر ولَواتَة[١]، واستحلفهم بالمصحف والطلاق علىٰ مثل ذلك. فما راعنا، وأنا عنده بُكرة الجمعة؛ إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلينا، ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بالأمس. فأمر بشدِّ دوابه فَشُدَّت، وأوقفتْ علىٰ باب داره. فكانت بيننا وبين المصريين كالسد لا يصلون إلينا لازدحام الدواب دوننا.

فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير الذي كان أشار عليه بذلك الرأي، وهو زمامهم[٢]، صاح عليهم وشتمهم، وقال: «روحوا إلىٰ بيوتكم». فسيّبوا[٣] الدواب، ومضىٰ الركابيّة والمُكاريّة والجمّالون. وبقيت الدواب مهملة، ووقع فيها النهب.

فقال لي عباس: «اخرج أحضر الأتراك، وهم عند باب النصر[٤]، والكتّاب ينفقون فيهم». فلما جئتهم واستدعيتهم ركبوا كلهم، وهم في ثمانمائة فارس، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال. وركب المماليك، وهم أكثر من الأتراك، وخرجوا أيضاً من باب النصر. ورجعتُ إليه عرَّفته.

٣٧

[الناس ينهبون ما تصل إليه أيديهم من مال عباس وأسامة]

ثم اشتغلت بإخراج أهلي الذين كان حَمَلَهُم إلىٰ داره؛ فأخرجتهم، وأخْرجت حُرَم عباس. فلما خلت الطريق، ونُهبت تلك الدوابّ بأجمعها، وصل المصريون إلينا فأخرجونا، ونحن في قِلّة، وهم في خَلْق كثير.

---

(١) أسماء بعض القبائل العربية؛ إلا (لَواتة) فهي بربرية (ومنها الرحالة ابن بطوطة).
(٢) يعني: زعيمهم.
(٣) تركوها، وأطلقوها.
(٤) أحد أبواب القاهرة.

فلما خرجنا من باب النصر، وصلوا إلىٰ الأبواب أغلقوها، وعادوا إلىٰ دورنا نهبوها. فأخذوا من قاعة داري أربعين غِرارة جِمالية مُخاطة[1]، فيها من الفضة والذهب والكِسْوات شيء كثير. وأخذوا من إصطبلي ستة وثلاثين حصاناً، وبغلة سَروجية[2] بسروجها وعُدّتها كاملة، وخمسة وعشرين جملاً. وأخذوا من إقطاعي، من كُوم إشفين[3] مئتي رأس بقر للتنّائين[4]، وألف شِيّة[5]، وأهراء[6] غَلّة.

٣٨

[قبائل العرب تمعن في قتالهم وتتبعهم]

ولما سِرْنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس، وقاتلونا من يوم الجمعة، [٨و] ضحىٰ النهار إلىٰ يوم الخميس، العشرين من ربيع الأول. فكانوا يقاتلونا[7] النهار كله، فإذا جَنَّ[8] الليل ونزلنا أغفلونا إلىٰ أن ننام. ثم يركبون في مائة فارس، ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا، ويرفعون أصواتهم بالصياح. فما نَفَر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه.

٣٩

[أسامة يقع عن ظهر الحصان ويصاب في رأسه]

وانقطعتُ يوماً عن أصحابي وتحتي حصان أبيض هو أردأ خيلي، شدّه

---

(١) الصحيح: مخيطة، والغِرارة: كيس الخيش والجمع: غرائر.

(٢) نسبة إلىٰ سَروج، إلىٰ الشمال الغربي من منبج، في شمال سورية. («معجم البلدان» ٣/ ٢١٦).

(٣) بلدة صغيرة في القليوبية بالصعيد. (٤) المقيمون في المكان. تنأ: أقام.

(٥) الشيّة: الشاء: اسم جمع للغنم. الواحدة: شاة للذكر والأنثىٰ.

(٦) الهُرْي: صومعة الحبوب، الجمع: أهراء.

(٧) علىٰ الدارجة. (٨) أظلم: جَنّاً وجنوناً وجِناناً.

الركابي ولا يدري ما يجري، وما معي من السلاح غير سيفي. فحمل عليَّ العرب فلم أجد ما أدفعهم به، ولا يُنجيني منهم حصاني. وقد وصلتْني رماحهم. قلت: «أثب عن الحصان، وأجذب سيفي، وأدفعهم». فجمعتُ نفسي لأثب فتتعتع الحصان، فوقعت علىٰ حجارة وأرضٍ خشنة، فانقطعتْ قطعة من جلدة رأسي، ودُخت حتىٰ ما بقيت أدري بما أنا فيه. فوقف عليَّ منهم قومٌ، وأنا جالس مكشوف الرأس، غائب الذهن، وسيفي مرميٌّ بجهازه. فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال: «هات الوزن»[1]، وأنا لا أدري ما يقول. ثم أخذوا حصاني وسيفي.

ورآني الأتراك فعادوا إليّ، ونفّذ لي ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفاً. وسرت وأنا لا أقدر علىٰ عصابةٍ أشدّ بها جراحي. فسبحان من لا يزول ملكه!

وسرنا وما مع أحد منا كفُّ زاد. وإذا أردتُ أشرب ماء ترجّلْت وشربتُ بيدي. وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري علىٰ كرسيّ، وعرضوا عليَّ ستةَ عَشَرَ جملٍ رَوَايا[2]، وما شاء الله سبحانه من القِرَب والسطائح[3].

وعجزتُ عن حمل أهلي. فرددْتُهم من بِلْبِيس إلىٰ عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رُزِّيك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأحسن إليهم، وأنزلهم في دارٍ، وأجرىٰ لهم ما يحتاجونه. ولما أراد العرب الذين يقاتلوننا الرجوعَ عنا جاؤونا يطلبون حَسَبَنا[4] إذا عُدْنا.

---

(١) يعني: المال.

(٢) الروية: كل دابة يستقىٰ عليها الماء، والجمع: روايا.

(٣) السَّطيحة والسَّطيح: المزادة التي يحفظ فيها الماء القليل.

(٤) ما يرضون به من كلمة الشرف والدين، بأن نحفظهم إذا عدنا إليهم. والكلمة من مصطلح ذلك العصر.

٤٠

[الإفرنج يهاجمونهم ويقتلون عباساً وجمعاً من أهله وأصحابه ويأسرون أناساً فيهم نجم الدولة أخو أسامة]

وسرنا إلىٰ يوم الأحد، ثالث وعشرين ربيع الأول، فصبّحونا الإفرنج في جمعهم علىٰ المويْلِح[1]، فقتلوا عباساً وابنه حسام الملك، وأسروا ابنه ناصر الدين، وأخذوا خزانته وَحُرَمَه، وقتلوا مَنْ ظفروا به، وأخذوا أخي نجم الدولة، أبا عبد الله محمداً رَحِمَهُ اللهُ أسيراً. وعادوا عنا ونحن قد تحصَّنّا عنهم في الجبال.

٤١

[أعراب بني فُهَيد يتصدَّون للقافلة في وادي موسىٰ]

فسرنا في أشدَّ من الموت، في بلاد الفرنج، بغير زاد للرجال، ولا عَلَف للخيل، إلىٰ أن وصلنا [٨ظ] جبال بني فُهَيد[2] لعنهم الله، في وادي موسىٰ[3]. وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلىٰ أرض فسيحة ورجال وشياطين رجيمة، مَنْ ظفروا به منا منفرداً قتلوه.

وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين. فسألت: «مَنْ هـٰهنا من أمراء بني ربيعة؟» قالوا: «منصور بن غُدَفل». وهو صديقي. فدفعت لواحد دينارين وقلت: «امض إلىٰ منصور قل له:

---

(١) محطة في الصحراء، علىٰ الطريق بين مصر وفلسطين، إلىٰ الشمال من العَقَبة. وهي غير «مويلح» الحجاز.

(٢) قوم من الأعراب (من زَبيد اليمنية الأصل).

(٣) قريب من معان، تقع فيه سَلْع عاصمة الأنباط (البتراء). انظر: («معجم البلدان» ٥/٣٤٦) وارجع إلىٰ الفقرة (١٩).

صديقك ابن منقذ يسلّم عليك، ويقول لك: صِلْ إليه بُكْرةً». وبتنا في مبيت سوء من خوفهم.

فلما أضاء الصبح أخذوا عُدَّتهم ووقفوا علىٰ العين وقالوا: «ما ندعكم تشربون ماءنا، ونهلك نحن بالعطش». وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها! وإنما قصدهم أن ينشبوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا. فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن غُدَفل وصل، فصاح عليهم وسبّهم فتفرقوا. وقال: «اركب!» فركبنا ونزلْنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعتُ فيها وأوعر. فنزلنا إلىٰ الوطا سالِمين، وما كدنا نسلم. فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه، وعاد.

وسرنا حتىٰ وصلنا بلد دمشق، بمن سلم من الإفرنج وبني فُهَيد[١]، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة[٢]. وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله ﷻ وحسن دفاعه.

٤٢

[من ذكريات الوقعة: حكاية السرج الغَزّي]

ومن عجيب ما جرىٰ لي في تلك الوقعة: أن الظافر كان أرسل إلىٰ ابن عباس رهواراً[٣] صغيراً مليحاً إفرنجياً. وكنتُ قد خرجتُ إلىٰ قرية لي، وابني أبو الفوارس مُرْهَف عند ابن عباس، فقال: «كنا نريد لهذا الرهوار سَرْجاً مليحاً من السُّروج الغَزِّية[٤]». فقال له ابني:

(١) يقصد: بمن سلم من أصحابه من غارات الإفرنج وتهديد بني فُهيد.
(٢) سنة ٥٤٩هـ.
(٣) هو الرَّهوان: البِرْذون اللين الظهر في السير (رَهوار: فارسية). ويسمىٰ الآن (الإكديش).
(٤) نسبة إلىٰ مدينة غزّة: وسروجها يومذاك مشهورة.

«قد وجدته، يا مولاي، وهو فوق الغَرض»[1]. قال: «أين هو؟» قال: «في دار خادمك والدي، له سَرْج غزّي مليح». قال: «أنفذ أحضره». فأرسل رسولاً إلىٰ داري أخذ السرج، فأعجبه وشدَّ به علىٰ الرَّهوار. وكان السّرْج طلَع معي من الشام علىٰ بعض الجنائب[2]، وهو منبّت مُجرىٰ[3] بسوادٍ في غاية الحسن، وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالاً[4].

ووصلتُ أنا من الإقطاع. فقال لي ناصر الدين: «أذْلَلْنا عليك، وأخذنا هذا السّرْج من دارك». فقلت: «يا مولاي! ما أسعدني بخدمتك!».

فلما خرج علينا الإفرنج بالمُويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال علىٰ الجمال، أخذت العرب خيلهم. فلما رجع الإفرنج بقيت الخيل سائبة. فنزل الغلمان علىٰ [٩و] الجمال، واعترضوا الخيل، وأخذوا منها ما ركبوه. فكان علىٰ بعض الخيل التي أخذوها ذلك السّرج الذهب الذي أخذه ابن عباس!

وكان حسام الملك، ابن عم عباس، وأخو عباس ابن العادل[5]، قد سلما فيمن سَلِم منا. وقد سمع حسام الملك خبر السّرج فقال، وأنا أسمع: «كل ما كان لهذا المسكين (يعني ابن عباس) نُهب. فمنه ما نهبه الإفرنج، ومنه ما نهبه أصحابه». قلت: «لعلك تعني السَّرج الذهب؟» قال: «نعم». فأمرتُ بإحضاره وقلت: «اقرأ ما

---

(١) يريد: فوق المطلوب.

(٢) الجنيبة: الدابة تُقاد ولا تركب. أو العِدْل، يكون إلىٰ جنب الدابة.

(٣) التنبيت: الخياطة المتصلة في الوسط، والسواد مجرىٰ علىٰ الدائر.

(٤) لعل المقصود: وزن الذهب عليه.

(٥) الوزير ابن السَّلار.

عليه. اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي؟ ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري؟» وكان اسمي مكتوباً علىٰ دائر السرج بالسواد، ووسطه مُنَبَّت. فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت.

٤٣

[أسامة يعود[١] فيسترجع ذكرى نكبة وزير آخر من وزراء الحافظ الفاطمي: الأفضل بن الولَخْشي]

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه، وعواقبِ البغي وكفر النعمة، كان اتعظ بما جرىٰ قبله للأفضل رضوان بن الولَخْشي[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ. كان وزيراً، فقام الجند عليه بأمر الحافظ، كما قاموا علىٰ عباس. فخرج من مصر يريد الشام. ونُهبت داره وحُرَمه، حتىٰ إن رجلاً، يعرف بالقائد مقبل[٣]، رأىٰ مع السودان جارية فاشتراها منهم، وبعثها إلىٰ داره. وكانت له امرأةٌ صالحة، فأَطلعتْ الجاريةَ إلىٰ حُجرة في عُلْو الدار، فسمعتْها تقول: «لعل الله يُظفرنا بمن بغىٰ علينا وكفر نعمتنا!» فسألتْها: «من أنتِ؟» فقالت: «أنا قَطْر الندىٰ بنت رِضوان». فنفّذتْ المرأة إلىٰ زوجها القائد مُقبل، أحضرتْه، وهو علىٰ باب القصر، في خدمته. فعرَّفتْه حال البنت. فكتب إلىٰ الحافظ مطالعة، فعرَّفه بذلك. فنفّذ من خُدّام القصر من أخذَها من دار مقبل ورفعها إلىٰ القصر.

---

(١) حتىٰ نهاية الفقرة (٤٦).

(٢) وزير الحافظ الفاطمي. قتل في القاهرة من بعد سنة ٥٣١هـ. انظر: («زامباور» ص ١٤٩).

(٣) القائد: من كان تحت إمرته مائة رجل.

٤٤

[أسامة يَسفر لدى الوزير رضوان ويقنعه بالالتحاق بالأمير معين الدين أُنُر في دمشق]

ثم إن رضوان(١) وصل إلىٰ صَلْخد(٢)، وفيها أمين الدولة طُغدكُينُ أتابك رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فأكرمه وأنزله وخدمه. وملك الأمراء أتابِك زنكي بن آقْسُنْقُر(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ بعلبك يحاصرها. فراسل رضوان، واستقرّ أنه يمضي إليه. وكان رجلاً كاملاً كريماً شجاعاً كاتباً عارفاً، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه. فقال لي الأمير معين الدين(٤) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٥): «هذا الرجل إن انضاف إلىٰ أتابِك دخل علينا منه ضرر كثير!» قلت: «فأي شيءٍ ترىٰ؟» قال: «تسير إليه لعلك تردّ رأيه عن قصْد أتابِك، ويكون وصوله إلىٰ دمشق، وأنت ترىٰ فيما تفعله في هذا رأيك».

فسرت إليه، إلىٰ صَلْخَد، واجتمعت به وبأخيه الأوحد، وتحدثت معهما. فقال لي الأفضل رضوان: «فَرَط الأمر مني، ورهنتُ قولي عند [٩ظ] هذا السلطان بوصولي إليه، ولزمني الوفاءُ بقولي». قلت:

---

(١) ما زال أسامة، في هذه الفقرة والفقرات التالية (حتىٰ نهاية ٤٦ و٤٧)، يسترجع ذكرىٰ الفضل بن الوَلَخْشي التي بدأها في الفقرة السابقة (٤٣)، وكان صاحب صلخد (صرخد) لما وصلها: كُمُشتكين أمين الدولة الأتابكي، ولعل أسامة الذي أملىٰ الكتاب في سن التسعين اختلط الأمر عليه.

(٢) قرية في جنوب سورية، هي أقرب مركز قضاء. فيها آثار أيوبية وصليبية، تذكر باسم (صرخد) أيضاً. («معجم البلدان» ٣/ ٤٠١).

(٣) عماد الدين زنكي، والد نور الدين محمود الشهيد. وهو الذي راسل رضوان ودعاه إليه، علىٰ ما سيأتي بعد. انظر: (بني زنكي، في «زامباور» ص ٣٤١).

(٤) أُنُر: وزير دمشق للأتابكة البوريين. وقد سبق ذكره.

(٥) الترضي يكون عن الصحابة في تقاليد الذاكرين، والترحم علىٰ من بعدهم.

«أقْدَمَكَ الله علىٰ خير! وأنا أعود إلىٰ صاحبي، فإنه ما يستغني عني، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي» قال: «قل». قلت: «إذا وصلتَ إلىٰ أتابِك، معه من العسكر ما يُنفذ نصفه معك إلىٰ مصر ويُبقي نصفه يحاصرنا به؟» قال: «لا». قلت: «فإذا هو نزل علىٰ دمشق وحاصرها وأخذها، بعد المدّة الطويلة، يقدر، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم، يسير معك إلىٰ مصر، قبل أن يجدد بَرْكه[1] ويقوّي عسكره؟» قال: «لا». قلت: «ذلك الوقتَ يقول لك: نسير إلىٰ حلب نجدد آلة سفرنا. فإذا وصلتم إلىٰ حلب قال: نمضي إلىٰ الفرات نجمع التُّرْكُمان. فإذا نزلتم علىٰ الفرات قال: إن لم نُعَدِّ الفرات ما يجتمع لنا التُّرْكمان. فإذا عدَّيتم تشوّف[2] بك، وافتخر علىٰ سلاطين الشرق، وقال: هذا عزيز مصر[3] في خدمتي. وتتمنىٰ ذلك الوقت أن ترىٰ حجراً من حجارة الشام فلا تقدر عليها. وتذكر حينئذ كلامي، وتقول: نصحني ما قَبِلتُ». فأطرق مفكراً لا يدري ما يقول. ثم التفت إليّ وقال: «ماذا أعمل، وأنت تريد ترجع؟». قلت: «إن كان في مُقامي مصلحة، أقمت». قال: «نعم». فأقمت.

وتكرر الحديث بيني وبينه، حتىٰ استقرَّ وصوله إلىٰ دمشق، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار: نصفها نقْد، ونصفها إقطاع. ويكون له دار العقيقي[4]، ويَخرج لأصحابه ديوان[5]. وكتب لي خطّه بذلك، وكان

---

(١) آلة السفر وما يستحضره المسافر من متاع وسلاح وذخيرة، وهي في الأصل: جماعة الإبل الباركة.

(٢) تشوّف: تزين.

(٣) أصبح (العزيز) لقباً لحكام مصر، من بعد الخليفة الفاطمي العزيز (ت٣٨٧هـ).

(٤) غير معروفة اليوم، ولا يعرف موقعها داخل السور.

(٥) أن تدوّن أسماؤهم في الديوان ليترتب لهم ما يأخذونه منه.

كاتباً حسناً، وقال: «إن شئتَ سِرتُ معك[1]». قلت: «لا، أنا أسير ومعي الحَمام[2] من هٰهنا. فإذا وصلتُ وأخليتُ الدار ورّتبت الأمرَ، طيّرت إليك الحمام، وسرت أنا في الوقت، ألقاك في نصف الطريق، وأدخل بين يديك». فتقرَّر ذلك. وودعته وسرت.

٤٥

[الوزير رضوان يعود إلى مصر فيحبسه الحافظ، ويفرّ من الحبس]

وكان أمين الدولة[3] يشتهي مصيره[4] إلىٰ مصر، لما قد وعده به وأطمعه فيه. فجمع له من قَدَر عليه، وسيّره بعد مفارقتي له. فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك، ونهبوا ثَقَله. والتجأ هو إلىٰ حي من أحياء العرب. وراسل الحافظَ وطلب منه الأمان، وعاد إلىٰ مصر. فساعةَ وصوله إلىٰ مصر أمر به الحافظ، فحُبس هو وولده.

واتفق طلوعي إلىٰ مصر[5] وهو في الحبْس، في دار في جانب القصر. فنقب بمسمار حديد أربعةَ عشر ذراعاً وخرج ليلة الخميس، وله من الأمراء نسيب قد عَرَف أمره، فهو عند القصر ينتظره، ومُصْطَنَع[6] له من لَواتَةَ[7]. ومشَوا إلىٰ النيل، عَدَّوا إلىٰ الجيزة. واختبطت القاهرة

(١) إلىٰ دمشق.
(٢) الحمام الزاجل الذي يتخذ لتطيير الرسائل.
(٣) طُغدُكين أتابك، المذكور في الفقرة السابقة.
(٤) يعني: مصير الوزير رِضوان، لما وعد هو به أمين الدولة طُغدُكين. وقد تكون: مسيره.
(٥) سنة ٥٣٩هـ، علىٰ ما سبق في الفقرة (٥).
(٦) يعني: تابعاً يُصطَنع بالمعروف.
(٧) قبيلة بربرية من المغرب (منها الرحّالة ابن بطوطة ت٧٧٩هـ)، كانت لها صلات بالفاطميين الذين كانوا في المغرب قبل انتقالهم إلىٰ مصر.

لهروبه. [١٠و] وأصبح في مَنْظَرة[١] في الجيزة والناس يجتمعون إليه، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله. ثم أصبح بُكرة الجمعة عدّىٰ إلىٰ القاهرة والعسكر المصري مع قيْمَاز[٢]، صاحب الباب، مدّرعين[٣] للّقاء. فلما وصلهم هزمَهم ودخل القاهرة.

٤٦

[الحافظ الفاطمي يوعز لحرسه بقتل الوزير رضوان]

وكنت قد ركبت، أنا وأصحابي، إلىٰ باب القصر، قبل دخوله البلد، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد. فرجعت نزلتُ في داري. ونزل رِضوان في الجامع الأقْمر[٤]. واجتمع إليه الأمراء، وحملوا إليه الطعام والنفقة. وقد جمع الحافظ قوماً من السودان في القصر، شربوا وسكروا. وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوان. فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان، وتفرقوا. وخرج هو من الجامع، وجد حصانه قد أخذه الرِّكابي وراح! فرآه رجل من صبيان الخاص[٥] واقفاً علىٰ باب الجامع، فقال: «يا مولاي! ما تركب حصاني؟» قال: «بلىٰ». فجاء إليه يركض وسيفه في يده. فأومأ كأنه يميل للنزول، وضربه بالسيف، فوقع. ووصله[٦] السودان قتلوه.

---

(١) موضع يُرقب منه ما يجري من حوله.

(٢) تاج الملوك قيماز (وتكتب أحياناً: قايماز)، ولقبه (صاحب الباب) يطلق عادة علىٰ الوزير الثاني. وتسمىٰ وظيفته: الوزارة الصغرىٰ، وينظر أحياناً في المظالم. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٢١٢).

(٣) ادّرع: لبس درعه. والمراد هنا: التأهب للّقاء.

(٤) والأنور بباب البحر. انظر: (القلقشندي ٣/ ٤٨٣).

(٥) الحرس الفاطمي الخاص بالخليفة وعددهم خمسمائة، وقد تقدمت الإشارة إليه. انظر أيضاً: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٢١٩).

(٦) يريد: وصلوا إليه. ويرد علىٰ هذه الصورة في مواضع أخرىٰ من الكتاب.

وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً! فقد كان فيه مُعْتَبَر وواعظ لولا نفاذ المشيئة[1].

٤٧

[أسامة يشفي أحد جرحى الموقعة بالفصاد]

وأصاب ذلك اليومَ رجلاً من أصحابنا الشاميين جراحٌ كثيرة. فجاءني أخوه وقال: «أخي تالف. وقد وقع فيه كذا وكذا جُرح سيوفٍ وغيرها. وهو مغمور[2] ما يفيق». قلت: «ارجعْ افصدْه، فأنا أخبَر منك بالجراح. وليس له دواء غير الفِصاد». فمضىٰ غاب عني ساعتين، ثم عاد وهو مستبشر. قال: «أنا فَصَدتُه، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب، وذهب عنه البؤس[3]». قلت: «الحمد لله! ولولا أني جرّبت هذا في نفسي عدة مِرار[4] ما وصفته لك».

٤٨

[أسامة يفضل البقاء في الشام، ويرسل في طلب أسرته من مصر][5]

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين[6] رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكاتَبَ الملكَ الصَّالح[7]

---

(١) يعود إلىٰ قوله في مطلع الفقرة (٤٣): «ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه... كان اتعظ بما جرىٰ قبله للأفضل رضوان...».

(٢) يريد: مغمىٰ عليه.

(٣) لعله يريد: البأس، وهو الشدة.

(٤) تجمع المرّة علىٰ: مِرار، ومِرر، ومُرور.

(٥) يصل أسامة هنا ما انقطع من الفقرة (٤٢) وهو في طريقه إلىٰ دمشق، بعد مغادرته مصر.

(٦) نور الدين الشهيد، ابن أتابك زنكي عماد الدين. انظر: (بني زنكي، في «زامباور» ص ٣٤١).

(٧) طلائع بن رُزِّيك وزير الفاطميين (ت ٥٥٦هـ). انظر: («زامباور» ص ١٥٠ والفقرة ٣١ ح ٣).

في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر، وكان محسناً إليهم. فردّ الرسولَ واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج. وكتبَ إليّ يقول: «ترجع إلىٰ مصر، وأنت تعرف ما بيني وبينك. وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلىٰ مكّة، وأُنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أُسوان[1] إليك، وأَمدُّك بما تتقوّىٰ به علىٰ محاربة الحبشة (فأسوان ثغر من ثغور المسلمين)[2]، وأسيّر إليك أهلك وأولادك».

ففاوضتُ الملك العادلَ واستطلعتُ أمره، فقال: «يا فلان! ما صدّقتَ متىٰ تخلص من مصر وفتنها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا [١٠ظ] أُنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج[3]، وأسيّر من يُحضرهم». فأنفذَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ أمان الملك وصليبَه[4] في البر والبحر.

٤٩

[ملك الإفرنج يخون عهده، وينهب أموال أسامة وكتبه]

وسيّرتُ الأمان مع غلام لي، وكتابَ الملك العادل وكتابي إلىٰ الملك الصالح. فسيّرهم، في عُشاري[5] من الخاص[6]، إلىٰ دمياط[7]. وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصّىٰ بهم. وأقلعوا من دِمياط

(١) في أقصىٰ الصعيد، وأصل التسمية فرعونية، وكانت سوقاً تجارية. انظر: («معجم البلدان» ١/ ١٩١).

(٢) لعل هذه الجملة من شرح أسامة لكتاب الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك.

(٣) بلدوين الثالث: Baldawin III ملك القدس.

(٤) لعله يريد: القَسَم علىٰ الصليب أو ما يعني هذا.

(٥) نوع من المراكب الإسلامية. لعلها تتسع لعشرة جنود.

(٦) من مراكب الحرس الخاص بالخليفة.

(٧) تقع علىٰ زاوية من البحر الأبيض المتوسط والنيل. احتلها الصليبيون عدة مرات، ذكرت من قبل في الكتاب. انظر: («معجم البلدان» ٢/ ٤٧٢ ـ ٤).

في بَطْسة[١] من بُطْس الإفرنج. فلما دنوا من عكا، والملك ـ لا رحمه الله ـ فيها، نفّذ قوماً في مركب صغير كسروا البَطسة بالفؤوس، وأصحابي يرونهم، وركب ووقف علىٰ الساحل، نهبَ كل ما فيه[٢]!

فخرج إليه غلام لي سباحة، والأمان معه. وقال له: «يا مولاي الملك! ما هذا أمانك؟» قال: «بلىٰ! ولكن هذا رَسْم[٣] المسلمين: إذا انكسر لهم مركب علىٰ بلد نهبه أهلُ ذلك البلد!» قال: «فتَسبِينا؟» قال: «لا». وأنزلهم ـ لعنه الله ـ، في دار، وفتش النساء حتىٰ أخذ كلَّ ما معهم[٤]. وقد كان في المركب حَلْي أُودعه النساء، وكِسْوات وجوهر، وسيوف وسلاح، وذهب وفضة، بنحوٍ من ثلاثين ألف دينار. فأخذ الجميعَ، ونفّذ لهم خمسمائة دينار، وقال: «توصّلوا بهذه إلىٰ بلادكم!» وكانوا رجالاً ونساءً من خمسين نَسَمة!

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل، في بلاد الملك مسعود[٥]: رَعبان وكَيْسون[٦]. فهوّن عليّ سلامةُ أولادي وأولاد أخي وحُرَمِنا ذهابَ ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلّد من الكتب الفاخرة. فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عِشت[٧].

---

(١) البَطسة: المركب. وقد يضم أولها في بعض المعاجم الحديثة.
(٢) واضح أنه يقصد البَطسة (المركب).
(٣) الأمر الذي رسموه لأنفسهم. (٤) يقصد النساء والرجال معاً.
(٥) سلطان قونية: ركن الدين مسعود بن قَليج أرْسْلان السَّلجوقي و(أرْسْلان = أصلان) تعني في التركية: الأسد. والملك العادل هنا هو نور الدين الشهيد بن زنكي. انظر: («زامباور» ص ٢١٥).
(٦) من قلاع ذلك الزمان، في شمالي حلب، لحماية الحدود. وفي («معجم البلدان» ٤/ ٤٩٧): كيْسوم.
(٧) سبق أن ذكرت (في المقدمة) أن مؤرخ الإفرنج وليم الصوري انتفع بهذه الكتب، وكان يحسن العربية. انظر المقدمة.

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتُفني الأموال. والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها، مضافةً إلىٰ نكبات نُكبتها، سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال وأُجحفَتْ[1] بهلاك المال.

٥٠

[أسامة يستذكر بعض عجائب ما رآه في الحروب: أَنَفة الفارس جمعة]

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا أُحصيها[2]. وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره. وما النسيان بمستنكَر لمن طال عليه ممرّ الأعوام، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام.

فمن ذلك ما شاهدته من أَنَفة الفرسان وحمْلهم نفوسَهم علىٰ الأخطار: أننا كنا التقينا، نحن وشهاب الدين محمود بن قَراجا، صاحب حماة ذلك الوقت[3]. وكانت الحرب بيننا وبينه [١١و] ما تَغِبّ[4]، والمواكب واقفة، والطراد بين المتسرّعة[5]. فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له: جمعة[6]، من بني نُمَير، وهو يبكي. فقلت له: «ما لك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء!» قال: «طعنني سَرْهَنْك[7] ابن أبي منصور». قلت: «وإذا طعنك سَرْهنك! أي شيء يكون؟» قال: «ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك! والله إن الموت

---

(١) أُجْحفَت النفس: أصابها نقص كبير. (٢) يعود بالضمير علىٰ (الحروب).

(٣) يجيء غير مرة ذكر صاحب حماة شهاب الدين محمود بن قراجا (ت ٥١٨هـ). ويلزم أن يكون اللقاء قبلها وقبل محاصرة (أفامية).

(٤) ما تنقطع. (٥) أوائل الجيش.

(٦) سيرد ذكره كثيراً، وكان من أشجع الفرسان.

(٧) سرهنك: فارسية، معناها: في الأصل: الزعيم، وهي هنا اسم ذلك الفارس.

أسهل عليّ من أن يطعنني. لكنه استغفلني واغتالني». فجعلت أسكِّنُه وأهوّن الأمر عليه. فردّ رأس فرسه راجعاً. فقلت: «إلىٰ أين يا أبا محمود؟» قال: «إلىٰ سرهنك. والله لأطعنَنّه أو لأموتنَّ دونه!».

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن يقابلني. ثم عاد وهو يضحك. فقلت: «ما عملت؟» فقال: «طعنته والله. ولو لم أطعنه لفاضت روحي». فحمل عليه في جمع من أصحابه فطعنه وعاد. فكأن هذا الشعر عَنىٰ سَرْهَنْك وجمعة بقوله:

لله درك ما تظن بثائر حَرّان[1] ليس عن التِّرات[2] براقد
أيقظتَه ورقدتَ عنه، ولم ينم حَنَقاً عليك، وكيف نوم الجاهد[3]؟
إن تُمكنِ الأيام منك، وعلَّها يوماً، يَكِلْ لك بالصُّواع[4] الزائد[5]

وقد كان سَرْهنك هذا من الفرسان المذكورين، مقدَّماً في الأكراد، إلا أنه كان شاباً. وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدميّة في الشجاعة.

❁ ❁ ❁

وذكرت بفعلة سَرْهنك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر[6] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأبي مُسَيْكة الإيادي[7].

---

(١) عطشان. والأنثىٰ حَرّىٰ.
(٢) جمع تِرة: الثأر.
(٣) المُجهَد الذي بلغ غاية الجَهد.
(٤) الإناء الذي يُشرب فيه.
(٥) ليست الأبيات في ديوان أسامة.
(٦) الأشتر النخعي (ت٣٧هـ) عامل الإمام علي علىٰ مصر وقائده وأثيره، شهد معه وقعة الجمل ويوم صفّين. اتصف بالشجاعة والثبات والكرم. وله شعر جزل. أُصيبت عينه يوم اليرموك أيضاً. يقول فيه عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو كان حديداً لكان قيداً. ولو كان حجراً لكان صلداً، علىٰ مثله فلتبك البواكي». انظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٦/ ١٣١).
(٧) من قبيلة إياد بن نزار بن معدّ. وكانت بعض القوىٰ من قبائل العرب انضمت إلىٰ بني حنيفة في الرِّدة.

وذلك أنه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق، رضوان الله عليه، وعزم الله سبحانه له[1] علىٰ قتالهم، جهَّز العساكر إلىٰ قبائل العرب المرتدين، فكان أبو مُسَيكة الإيادي مع بني حَنيفة[2] وكانوا أشد العرب شوكة. وكان مالك الأشتر في جيش أبي بكر ﷺ، فلما تواقفوا برز مالك بين الصفين وصاح: «يا أبا مُسَيكة!» فبرز له، فقال: «ويحك يا أبا مُسَيكة! بعد الإسلام وقراءة القرآن رجعت إلىٰ الكفر؟» فقال: «إياك عني يا مالك! إنهم يُحَرِّمون الخمر ولا صبر عنها». قال: «فهل لك في المبارزة؟» قال: «نعم». فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف، فضربه أبو مُسَيكة فشق رأسَه وشَتَر عينه[3] [١١ظ] وبتلك الضربة سُمِّي: الأشتر.

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلىٰ رحله. واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون. فقال لأحدهم: «أدخِل يدك في فمي»! فأدخل إصبعه في فمه، فعَضَّها مالك، فالتوىٰ الرجل من الوجع، فقال مالك: «لا بأس علىٰ صاحبكم. يقال: إذا سلمت الأضراس سلم الرأس، احشوها - يعني الضربة - سَوِيقاً[4] وشُدُّوها بعِمامة». فلما حشَوها وشدُّوها، قال: «هاتوا فرسي!» قالوا: «إلىٰ أين؟» قال: «إلىٰ أبي مُسَيكة!» فبرز

---

(١) يريد: شدّد الله عليه في الأمر.

(٢) من بكر بن وائل، من ربيعة، وبنو حنيفة بن لُجيم من أضخم قبائلها. كانت تسكن اليمامة من أرض نجد (هي واحة العارض اليوم). منها مسليمة الكذاب (أبو ثمامة) متنبئ حروب الرِّدة وقتيلها سنة ١٢هـ. قاد جيش المسلمين فيها خالد بن الوليد بعد عكرمة بن أبي جهل ﷺ. يذكر المؤرخون أن جيش مسيلمة من بني حنيفة كان يعد أربعين ألف مقاتل. استشهد في المعركة عدد كبير من الصحابة ﷺ، ما تزال بعض قبورهم ماثلة في أرض المعركة إلىٰ اليوم.

(٣) الشَّتَر: انشقاق الجفن وانشقاق الشفة أيضاً.

(٤) السَّويق في الأصل: طعام يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.

بين الصفين وصاح: «يا أبا مُسَيكة!» فخرج إليه مثل السهم، فضربه مالك بالسيف علىٰ كتفه فشقها إلىٰ سرْجه فقتله. ورجع مالك إلىٰ رَحْله فبقي أربعين يوماً لا يستطيع الحَراك. ثم أبلّ[1] وعوفي من جرحه ذلك.

٥١

[من عجائب ما شاهده في تلك الوقعات أيضاً: سلامة المطعون طِعنةَ الهلاك]

ومن ذلك: ما شاهدته من سلامة المطعون، وقد ظُن أنه قد هلك، أننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قَراجا[2]، وقد جاء إلىٰ أرضنا وكَمَن[3] لنا كميناً. فلما تواقفْنا، نحن وهو، انتشرت خيلنا. فجاءني فارس من جندنا يقال له: علي بن سلام النُّميري، وقال: «أصحابنا قد انتشروا. إن حملوا عليهم أهلكوهم». قلت: «احبس عني إخوتي وبني عمّي حتىٰ أردَّهم». فقال: «يا أمراء! دعوا هذا يردّ الناس ولا تتبعوه، وإلا حملوا عليهم قلعوهم». قالوا: «يمضي». فخرجت أُناقِل حصاني حتىٰ رددتُهم. وكانوا مُمسكين عنهم ليستجرّوهم ويتمكنوا منهم.

فلما رأوني قد رددتُهم حملوا علينا. وخرج كَمينهم وأنا علىٰ فُسحة من أصحابي. فرجعتُ مُباريَهم[4]، أريد أحمي أعقاب أصحابي. فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد حَدِبَ[5] من وراء أصحابي، من قِبْليِّ الطريق، وأنا في شماليّه. فجئناهم. فتسرّع فارس

---

(١) عوفي من مرض أو إصابة.

(٢) صاحب حماة، المذكور سابقاً. انظر الفقرة السابقة.

(٣) ترد في الكتاب متعدية. والصحيح: أكمن، ولكنها حتىٰ اليوم تستعمل عند العامة علىٰ هذا النحو.

(٤) يعني: يعارضهم ويراوغهم في القتال. من: المباراة.

(٥) يريد: لفّ من ورائهم، وانحدر من فوقهم.

من خيلهم يقال له: فارس بن زمام، رجل عربي فارس مشهور، وجازَنا يريد الطعنَ في أصحابنا، فسبقني إليه ابن عمي فطعنه، فوقع هو وحصانه، وفقعَ الرمحُ فَقْعةً سمعتها أنا وأولئك.

وكان الوالد رحمه الله أرسل رسولاً إلىٰ شهاب الدين. فأخذه[1] معه لما جاء لقتالنا. فلما طُعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد، نفّذ الرسولَ من مكانه بجواب ما سار فيه، ورجع إلىٰ حماة. فسألت الرسول: «هل مات فارس بن زمام؟» قال: «لا، والله، ولا فيه جرح!» قال[2]: «ليث الدولة طعنه، وأنا أراه، فرماه ورمىٰ حصانه. وسمعت قعقعة كسر الرمح. لما غَشِيَه ليث الدولة من يساره مال علىٰ جانبه الأيمن، وفي يده قُنطارِيَّته[3]. فوقع حصانه [١٢و] علىٰ قُنطارِيته، وهي علىٰ وَهْدة، فانكسرتْ[4]. وتذنّب ليث الدولة برمحه[5]، فوقع من يده. والذي سمعتُ: قعقعةُ قُنطارِية فارس بن زمام. ورمحُ ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين، وأنا حاضر، وهو صحيح ما فيه كَسْر، ولا في فارس جرح»! فعجبتُ من سلامته، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصلٍ، كما قال عنترة:

الخيلُ تعلمُ والفَوارسُ أنني فرّقتُ جَمْعَهمُ بطعنة فيصلِ

ورجع جميعهم. وكمينُهم ما نالوا منه ما أرادوه.

والبيت المقدم من أبيات لعنترة بن شداد يقول فيها:

---

(١) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة المشار إليه.

(٢) يتابع الرسول كلامه.

(٣) يونانية معناها: قناة الرمح Kontarion. وتطلق علىٰ الرمح كله، وسترد كثيراً من بعد، ووردت من قبل.

(٤) الوهدة: الحفرة والمنخفض، وقعت القنطارية فيه فانكسرت.

(٥) أمسكه من نهايته وأرخاه إلىٰ الأرض.

إني امرؤ من خير عبسٍ منصباً ... شطري، وأحمي سائري بالمُنْصُل[1]
وإذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت ... أُلفيتُ خيراً من مُعَمٍّ مُخْوَلِ[2]
إن المنية لو تُمثّل مُثِّلَت ... مثلي، إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرّقت جمعهم بطعْنة فيصل[3]
ودعَوا: نزالِ[4]! فكنت أول نازلٍ ... وعلامَ أركبه إذا لم أنزل؟

٥٢

[ومثله أيضاً ما وقع لأحد فرسان الإفرنج على يد أسامة في أول قتال يحضره، في أفامية]

ومثل ذلك ما جرىٰ لي في أفامية[5]. فإن نجم الدين[6] بن إيلغازي بن أُرتُق رَحِمَهُ اللهُ كسر الإفرنج علىٰ البَلاط[7]، وذلك يوم الجمعة خامس جمادىٰ الأولىٰ، سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وأفناهم، وقُتل صاحب أنطاكية روجار[8] وجميع فرسانه. فسار إليه عمي عز الدين أبو

---

(١) المنصِب: الحسب. والمُنصُل: السيف. يقول: شطره من أبيه يحفظه نسبه إليه، وشطره من أمه يعوّضه السيف.

(٢) الإحجام هنا: الجُبن. والتلاحظ: كناية عن التردد. يشير إلىٰ أن شجاعته تعوّض هجنة نسبه فهو خير من «كريم الأعمام والأخوال».

(٣) الفيصل: الرجل المقدام الذي يفصل بين القوم ويفرقهم.

(٤) نَزالِ: اسم فعل بمعنىٰ: انزل، للنجدة والعون. والأبيات في «ديوان عنترة» ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠. علىٰ أن البيت الأخير مقحم علىٰ الأبيات، وهو من شواهد النحاة.

(٥) شمالي شيزر، مدينة سلوقية. وانظر المقدمة.

(٦) أمير ماردين. من بني أُرتُق (فرع ماردين). انظر: («زامباور» ص٣٤٥).

(٧) شرقي الأثارب، بين مرعش وأنطاكية («معجم البلدان» ١/ ٤٧٧). انظر: الخريطة الملحقة.

(٨) Roger. ويلزم أن يكوّن مصور تاريخي دقيق مفصل للحروب الصليبية ومادتها من الإفرنج في مجموع حملات هذه الحرب الثماني. كما يلزم عمل =

العساكر سلطان رحمه الله. وتخلف والدي رحمه الله في حصن شيزر، وقد وصّاه أن يسيّرني إلىٰ أفامية بمن معي بشيزر من الناس، ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية. وكان قد هَدَف[1] من العرب إلينا خلق كثير.

فلما سار عمي نادىٰ المنادي بعد يُوَيْمات من مسيره. وسرت في نفر قليل، ما يلحق عشرين فارساً، ونحن علىٰ يقين أن أفامية ما فيها خيّالة، ومعي خلق عظيم من النهّابة والبادية. فلما صرنا علىٰ وادي أبو الميمون[2]، والنهّابة والعرب متفرقون في الزرع، خرج علينا من الإفرنج جمع كثير. وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً. فكشفونا عن الوادي. فاندفعنا بين أيديهم إلىٰ أن وصلْنا الناسَ الذين في الزرع ينتهبونه. فضجوا ضجة عظيمة. فهان عليَّ الموت لهلاك ذلك العالَم[3] [١٢ظ] معي. فرجعت علىٰ فارس في أولهم قد ألقىٰ عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً. ثم استقبلتُ خيلهم المتتابعة فولّوا، وأنا غرّ في القتال، ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم. وتحتي فرس مثل الطير، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم، ثم أجتنّ[4] عنهم.

وفي آخرهم فارس علىٰ حصان أدهم، مثل الجمل، بالدرع وَلامة[5] الحرب، أنا خائف منه لا يكون جاذباً لي[6] ليعود عليَّ، حتىٰ رأيتُه ضرب حصانه بمهمازه فلوّح بذنبه. فعلمت أنه قد أعيا. فحملت عليه

= خريطة تاريخية مفصلة دقيقة لمواطن الأحداث وما يلحق بها.

(١) هدف إليه: بمعنىٰ: أوىٰ وأسرع وتجمّع.

(٢) هو Bohemond II ويدعىٰ: بومند أحياناً علىٰ طريقة آبائنا يومذاك في تعريب الكلمات الإفرنجية.

(٣) يريد: الخَلْق والناس. علىٰ الدارجة.

(٤) اختبئ.

(٥) درع الزرد.

(٦) يقصد: أن يستجرني إليه.

طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع، وخرجتُ من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس. ثم تراجعتُ وجذبتُ رمحي وأنا أظن أني قتلته، فجمعت أصحابي وهم سالمون.

وكان معي مملوك صغير يجر فرساً لي دهماء مجنوبة[١]، وتحته بغلة مليحة سُروجية[٢]، وعليها مركوب[٣] ثقيل فضة. فنزل عن البغلة وسيّبَها، وركب الحِجْرة[٤] فطارت به إلىٰ شيزر. فلما عدت إلىٰ أصحابي، وقد مسكوا البغلة، سألت عن الغلام، فقالوا: «راح». فعلمت أنه يصل شيزر ويَشْغَل قلب الوالد. فدعوتُ رجلاً من الجند وقلت: «تسرع إلىٰ شيزر تُعرّفُ والدي بما جرىٰ».

وكان الغلام لمّا وصل أحضره الوالد بين يديه وقال: «أي شيء لقيتم؟» قال: «يا مولاي! خرج علينا الإفرنج في ألف. وما أظن أحداً يسلم إلا مولاي». قال: «كيف يسلم مولاك دون الناس؟» قال: «رأيته قد لبس[٥] وركب الخضراء[٦]»... وهو يحدثه، وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين. ووصلتُ بعده. فاستخبرني رحمه الله فقلت: «يا مولاي! كان أولَ قتال حضرته. فلما رأيتُ الإفرنج قد وصلوا إلىٰ الناس هان عليَّ الموت. فرجعتُ إلىٰ الإفرنج لأُقتلَ أو أحميَ ذلك العالَمَ[٧]». فقال رحمه الله متمثلاً:

يَفِرّ جبان القوم عن أُمّ رأسه ويحمي شجاعُ القوم من لا يُلازمه

(١) الدهماء: السوداء أو الدكناء. والمجنوبة: السهلة الانقياد.
(٢) نسبة إلىٰ سَروج، إلىٰ الشمال الشرقي من منبج قرب حَرّان، وترد كثيراً في الكتاب، انظر: الخريطة.
(٣) يبدو أنه السرج أو ما يشبهه، مما يركبه الراكب. وليس في اللغة بهذا المصطلح.
(٤) الكريمة من أنثىٰ الخيل، وهي في المعجم: (حِجْر)، وترد في الكتاب غير مرّة.
(٥) عدة الحرب.
(٦) الفرس الدكناء.
(٧) الناس، علىٰ الدارجة، كما سبق.

ووصل عمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عند نجم الدين إيلغازي[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أيام. فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرتْ عادته فيه. فجئتُه فإذا عنده رجل من الإفرنج. فقال: «هذا الفارس قد جاء من أفامية يريد يُبصر الفارس الذي طعن فيليب[٢] الفارس، فإن الإفرنج تعجبوا [١٣و] من تلك الطعنة، وأنها خرقت الزرديّة من طاقتين وسَلِم الفارس!» قلت: «كيف سلم؟» قال ذلك الفارس الإفرنجي: «جاءت الطعنة في جلدة خاصرته». قلت: «نعم! الأجَل حصن حصين». وما ظننتُه يسلَم من تلك الطعنة.

قلت: يجب علىٰ من وصل إلىٰ الطعن أن يشد يده وذراعه علىٰ الرمح إلىٰ جانبه، ويدع الفَرَسَ يعمل ما يعمله في الطعنة. فإنه متىٰ حرك يده بالرمح، أو مدَّها به، لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية.

٥٣

[ومثله أيضاً ما وقع لأحد فرسان المسلمين]

وشاهدت فارساً من رجالنا يقال له: ندىٰ بن تليل القُشَيري. وكان من شجعاننا. وقد التقينا نحن والإفرنج، وهو مُعَرَّىٰ[٣] ما عليه غير ثوبين، فطعنه فارس من الإفرنج في صدره، فقطع هذه العصفورة التي في الصدر[٤]، وخرج الرمح من جانبه. فرجع وما نظنّه يصل منزله حياً. فقدَّر الله سبحانه أنْ سَلِم وبَرَأ جرحه. لكنه لبث سنة إذا نام علىٰ ظهره لا يقدر يجلس إن لم يُجلسْه إنسان بأكتافه[٥]، ثم زال عنه ما كان يشكوه. وعاد إلىٰ تصرّفه وركوبه كما كان.

---

(١) أمير ماردين، وقد سبق ذكره. انظر: («زامباور» ص ٣٤٥).
(٢) Philip.
(٣) يقصد: بغير درع.
(٤) لعلها أن تكون مما يُعلَّق في الصدر، أو تكون عقدة عظم القص. ولم أصل إلىٰ تحقيقها المقنع.
(٥) بصيغة الجمع، علىٰ الدارجة.

قلت: فسبحان من نَفَذَت مشيئته في خلقه. يُحيي ويُميت وهو حيّ لا يموت. بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير.

٥٤

[ورجل جسيم يموت من وخزة الإبرة]

كان عندنا رجل من المُصْطَنَعة[١]، يقال له: عَتّاب، أَجْسَمُ ما يكون من الرجال وأطولُهم. دخل بيته فاعتمد علىٰ يده، عند جلوسه، علىٰ ثوب بين يديه، كانت فيه إبرة، دخلتْ في راحته فمات منها. وبالله لقد كان يئن في المدينة فيُسمع أنينه من الحِصْن[٢] لِعِظَم خَلْقه وجهارة صوته. يموت من إبرة، وهذا القشيري يدخل في صدره قُنطارية تخرج من جنبه لا يُصيبه شيء!.

٥٥

[قوة نفس «الزَمَرْكل» من لصوص المسلمين]

نزل علينا صاحب أنطاكيّة[٣]، لعنه الله، بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين. فركبْنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا[٤]. فجاؤوا نزلوا منزلاً كانوا ينزلونه، وهجعوا في خيامهم. فرجعنا نحن إلىٰ آخر النهار. ثم ركبنا، ونحن نظن أنهم يقاتلونا، فما ركبوا من خيامهم.

وكان لابن عمي ليث الدولة، يحيىٰ، غَلَّة قد نَجَزت، وهي بالقُرْب

---

(١) الذين يُصطنعون بالمعروف، ولعله يريد: الصنّاع أو العمال.

(٢) حصن شيزر، والمدينة: تقوم قريباً من الجسر. يفرقون بينها وبين البلدة التي تقع بيوتها ضمن القلعة. وانظر المقدمة.

(٣) خرج أبو ميمون بومند الثاني Bohemond II سنة ٤٩٣هـ إلىٰ حصن أفامية، فنزل عليه وأتلف زرعه. والأمر يقتضي، كما قلت من قبل، عمل خريطة تاريخية لوقعات حروب الإفرنج وأسماء قادتها وعسكرها وأهم ما وقع فيها.

(٤) يقاتلونا، علىٰ الدارجة. ووردت بعدها علىٰ هذه الصورة.

من الإفرنج. فجمع دوابّ يريد يمضي إلىٰ الغَلّة يحملها. فسرنا معه في عشرين فارساً مُعَدِّين، وقفنا بينه وبين الفرنج إلىٰ أن حمل الغلة ومضىٰ. فعدلتُ، أنا ورجل من مُوَلَّدينا[1]، يقال له: حسام الدولة مسافر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ كَرْم رأينا فيه [١٣ظ] شخوصاً، وهم علىٰ شط النهر[2]. فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها، والشمس علىٰ مَغيبها، فإذا شيخ عليه، مِعْرَقة[3] امرأة ومعه آخر. فقال له حسام الدولة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رجلاً جيداً كثير المزاح: «يا شيخ! أيَّ شيءٍ تعمل هٰهنا؟» قال: «أنتظر الظلام واسترزق الله تعالىٰ من خيل هؤلاء الكفار!» قال: «يا شيخ! بأسنانك تقطع عن خيلهم؟» قال: «لا، بهذه السكين!» وجذب سكيناً من وسطه، مشدودة بخيط، مثلَ شُعلة النار، وهو بغير سراويل! فتركْناه وانصرفنا.

وأصبحت من بُكرة ركبتُ أنتظر ما يكون من الإفرنج، وإذا الشيخ جالس في طريقي علىٰ حَجَر والدم علىٰ ساقه وقدمه، وقد جَمَد. قلت: «يَهْنِئك السلامةُ! أيَّ شيء عملت؟» قال: «أخذت منهم حصاناً وتُرساً ورُمحاً. ولحقني راجل، وأنا خارج من عسكرهم، طعنني نفّذ القُنطارية في فخذي. وسبقتُ بالحصان والتُّرس والرمح». وهو مستقلّ[4] بالطعنة التي فيه كأنها في سواه. وهذا الرجل يقال له: الزَّمَرْكَل، من شياطين اللصوص.

٥٦

[حكاية أخرى عن الزَّمَرْكل]

حدثني عنه الأمير معين الدين[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «أَغَرتُ، زمان مُقامي

---

(١) أمة من غير العرب. (٢) العاصي.

(٣) ما تلبسه المرأة، مما يباشر الرأس، علىٰ ما يبدو. والمعروف اليوم من لباس الرأس: العرقية.

(٤) استقل الشيء وبالشيء: عده قليلاً.

(٥) معين الدين أُنُر، وزير دمشق للأتابكة البوريين. وقد سبق ذكره في مواضع أخرىٰ.

بحمص، علىٰ شيزر، وعُدتُ آخرَ النهار نزلتُ علىٰ ضيعة من بلد حماة، وأنا عدو لصاحب حماة. قال: فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه[1] وجاؤوني به. فقلت: يا شيخ! أَيْش أنت؟ قال: يا مولاي! أنا رجل صعلوك. شيخ زَمِن[2] (وأخرج يده وهي زَمِنة) قد أخذ لي العسكر عنزين، جئت خلفهم لعلَّ أن يتصدقوا عليَّ بهما. فقلت[3] لقوم من الجَندارية[4]: احفظوه إلىٰ غد. فأجلسوه بينهم وجلسوا علىٰ أكمام فروة كانت عليه. فاستغفَلَهم في الليل، وخرج من الفروة، وتركها تحتهم وطار. فَعَدَوا في إثره، سبقهم ومضىٰ. قال: وكنت قد نفّذت بعض أصحابي في شغل. فلما عادوا وفيهم جَندار يقال له: سومان، قد كان يسكن بَشَيْرَز. فحدثته حديث الشيخ. قال: واحسرتي عليه! لو كنتُ لحقته كنتُ شربتُ دمه. هذا الزَّمَرْكل. قلت: «فأيُّ شيء بينك وبينه؟ قال: نزل عسكرُ الفرنج علىٰ شيزر، فخرجت أدورُ به[5] لعلّ[6] أَسرق حصاناً منهم. فلما أظلم الظلام مشيَتُ إلىٰ طُوالة[7] خيل؛ وإذا هذا جالس بين يدي. فقال لي: إلىٰ أين؟ قلت: آخذ حصاناً من هذه الطُّوالَة. قال: [١٤و] وأنا من العِشاء أنظرها حتىٰ تأخذ أنت الحصان! قلت: لا تهْذِ. قال: لا تَغْتَرَّ. والله، ما أدعك

(١) قبضوا عليه.

(٢) الزَّمِن: المبتلىٰ بآفة بيّنة. ولعلها تكون دائمة.

(٣) الكلام يعود إلىٰ الأمير معين الدين.

(٤) يعني: رجال السلاح (فارسية: جان + دار)، وهم ـ في الأصل ـ من خواص الأمير وحراسه. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٢).

(٥) يقصد: بعسكر الفرنج.

(٦) يريد: لعلّي. وتستعمل في دارجة اليوم قريباً من هذا.

(٧) حيث تشد الخيل بالطِوَل (الحبل) أو يطوّل لها لترعىٰ، وهي هنا دكة خشب يوضع فيها طعام الدواب. وليست في اللغة بهذا المعنىٰ. وردت من قبل في الفقرة (١٧).

تأخذ شيئاً»! فما التفتّ إلىٰ قوله ويَمَّمْتُ إلىٰ الطُّوالَة. فقام وصاح بأعلىٰ صوته: وافَقْري! واخيبة تعبي وسهري! وصيَّح حتىٰ خرج عليَّ الإفرنج. فأما هو فطار. فطردوني حتىٰ رميت نفسي في النهر، وما ظننتُ أني أسلم منهم. ولو لحقتُه كنت شربت دمه. وهو لصّ عظيم. وما تبع العسكرَ إلا يسرق[1] منه».

٥٧

[حكاية الحصان المسروق من خيل الإفرنج]

ومن عجيب ما اتفق في السرقة: أن رجلاً كان بخدمتي يقال له: علي بن الدّودَوَيْه، من أهل مثكير[2]. نزل يوماً الإفرنجُ، لعنهم الله، علىٰ كفَرطاب[3]، وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[4] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فخرج هذا، عليّ بن الدّودَوَيه، دار بهم، وأخذ حصاناً ركبه وخرج به من العسكر يركض، وهو يسمع الحِسَّ[5] خلفه، ويعتقد أن بعضهم قد ركب في طلبه، وهو مُجِدٌّ في الركض، والحِسّ خلفه، حتىٰ ركض قدْر فرسخين والحِسّ معه: فالتفتَ يُبصر ما خلفه في الظلام، وإذا بغلةٌ كانت تألف الحصان قد قطعتْ مِقْوَدها وتبعتْه. فوقف حتىٰ شدَّ فُوطته في رأسها وأخذها. وأصبح عندي في حماة

---

(١) ليسرق.

(٢) لعلها: مدكين أو مذكين: من ضياع كفَرطاب. لا تُعرف اليوم. وربما كان الرجل من أصل فارسي، لصيغة اسمه.

(٣) إلىٰ الشمال الغربي من حماة. انظر الخريطة. يرد ذكرها كثيراً في الكتاب، وأصل الاسم في الآرامية: كُفَرطاب: القرية الطيبة. («موسوعة حلب المقارنة» للأسدي ٦/ ٣٧٧).

(٤) كان يعمل في خدمة أتابك عماد الدين زنكي. ورد ذكره من قبل. في أول الكتاب: الفقرة (٢).

(٥) الحركة والصوت الخفي.

بالحصان والبَغْلة. وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها.

وكنت يوماً عند أتابِك[1] وهو يحاصر رَفَنِيّة[2] وقد استدعاني فقال لي: «يا فلان! أيُّ شيء من حصانك الذي خبّيته[3]؟» وكان قد بلغه خبر الحصان. قلت: «لا والله يا مولاي! ما لي حصان مُخَبّا. حُصني كلها في العسكر». قال: «فالحصان الإفرنجي؟» قلت: «حاضر». قال: «أَنفِذ أحضِره». أنفذت أحضرتُه. وقلت للغلام: «امضِ به إلىٰ الإصطبل». قال أتابِك: «أتركه الساعةَ عندك». ثم أصبح سبَق به فسبَق، وردَّه إلىٰ إصطبلي. وعاد استدعاه من الغد وسبَق به فسبَق. فحملتُه إلىٰ إصطبله.

٥٨

[الموت لفراغ الأجل]

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة[4]: كان عندنا رجل من الجند يقال له: رافع الكلابي، وهو فارس مشهور. اقتتلْنا نحن وبنو قَراجا[5]، وقد جمعوا لنا من التُّركُمان وغيرهم وحشَدوا. وباسطناهم

---

(١) عماد الدين زنكي بن آقسنقر، أتابك الموصل. انظر: (بني زنكي في «زامباور» ص ٣٤١).

(٢) يقال لها: رفنيّة تدمر، بين حمص وحماة، إلىٰ الغرب. ورفنية اليوم خراب (بَعْرين - يبرين اليوم في تحقيق بعض الحمويين).. انظر: (الخريطة، و«معجم البلدان» ٣/ ٥٥).

(٣) خبأته، علىٰ التخفيف كما هو في الدارجة.

(٤) الأجل.

(٥) قوم شهاب الدين محمود بن قراجا، صاحب حماة الذي سبق ذكره غير مرة، معروف بالظلم وإيثار الحرام. كان بينه وبين قوم أسامة اقتتال يشير إلىٰ بعض مواقعه في الكتاب، ثم اصطلحوا من بعد. توفي سنة ٥١٧هـ.

في فُسحة من البلد. ثم تكاثروا علينا فرجعْنا وبعضنا يحمي بعضاً. وهذا رافع في مَن يحمي الأعقاب، وهو لابس كَزاغَند[١]، وعلىٰ رأسه خُوذة بلالثام. فالتفتَ لعله يرىٰ فيهم فرصة [١٤ظ] فينحرف عليهم، فضربه سهم كَشما[٢] في حلقه ذَبَحه. ووقع مكانه ميْتاً.

٥٩

[موت شهاب الدين محمود لهذا السبب]

وكذلك شاهدتُ شهاب الدين محمود بن قَراجا[٣] وقد انصلح ما بيننا وبينه، وقد نفّذ إلىٰ عمّي يقول له: «تأمر أسامة يلقاني، هو وفارس واحد، إلىٰ كَرعة[٤]، لنمضي نبصر موضعاً نكمُن فيه لأفامية ونقاتلها». فأمرني عمي بذلك، فركبتُ ولقيتُه وأبصرْنا المواضع.

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره، وأنا علىٰ عسكر شيزر، وهو في عسكره. وسرنا إلىٰ أفامية. فلقينا فارسهم وراجلهم في الخَراب الذي لها، وهو مكان لا تتصرَّف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصولِ الحيطان الخراب[٥]. فعجِزنا عن قلعهم من ذلك المكان. فقال لي رجل من جندنا: «تريد تكسرهم؟» قلت: «نعم». قال: «اقصد بنا باب الحصن»[٦]. قلت: «سيروا». وندِم القائل، وعلم أنهم يدوسونا

---

(١) فارسية (كَزاكَند): سترة سميكة تقوم مقام الدرع.
(٢) الكَشْم: كالجَدْع والصَّلْم. والمعنىٰ هنا: سهم غير مَريش (لا ريش له).
(٣) صاحب حماة يومذاك. سبق ذكره في الفقرة السابقة، وجاء ذكره من قبل.
(٤) من قرىٰ المنطقة ما بين رفينة وأفامية، أو من مواضعها، لا تعرف اليوم. وقد يكون أصابها التحريف.
(٥) يشير إلىٰ آثار أفامية السُّلوقية، قرب قلعة المضيق. يكثر ذكرها في الكتاب. (ارجع إلىٰ أول المقدمة، وانظر الصورة).
(٦) يريد قلعة المضيق، بجانب أفامية.

ويجوزون إلىٰ حِصنْهم. فأراد أن يردَّني عن ذلك، فأبَيْتُ وقصدت الباب.

فساعة ما رآنا الفرنج قاصدين الباب، عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا. ترجل الفرسان داخل باب الحصن وأطلعوا خيلهم إلىٰ الحصن، وصفّوا عوالي قُنطاريّاتهم في الباب، وأنا وصاحبٌ لي من مولّدي أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمه: رافع بن سُوتَكين، وقوف تحت السور، مُقابلَ الباب، وعلينا شيء كثير من الحجارة والنِّشاب. وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم، علىٰ حَوْف[1] الأكراد. فقد طُعن صاحب لنا يقال له: حارثة النميري، نسيب جمعة، في صدر فرسه، طعنة معترضة. ونزلت القُنطارية في الفرس فتخبطتْ[2] حتىٰ وقعت القُنطارية منها، ووقعتْ جلدة صدرها جميعاً، فبَقيت مُسْبَلَة علىٰ أعضادها. وشهاب الدين بمعزل عن القتال. فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عَظم زَنده، فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة. فجاءني رسوله يقول: «لا يزولُ مكانك حتىٰ تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد. فأنا قد جُرحتُ وكأني أحس الجرح في قلبي. وأنا راجع فاحفظ أنت الناس». ومضىٰ. ورجعتُ أنا بالناس، نزلتُ علىٰ برج خريبة[3]، وكان الإفرنج لهم عليه دَيْدَبان يكشِفنا إذا أردنا الغارة علىٰ أفامية.

ووصلتُ العصر إلىٰ شيزر، وشهاب الدين في دار والدي يريد يحلّ جرحه ويداويه، وعمي قد منعه وقال: «والله ما تحلّ جرحك إلا في

---

(١) الحَوْف: الناحية أو الجانب. (٢) الفرس.

(٣) لا يُعرف اليوم (في الأصل ارتباك في كتابة الاسم). ويلزم أن يكون علىٰ مقربة من ساحة الأحداث التي تجلوها الفقرة. ومن حولها خُرُبات كثيرة بفعل الحروب وقذائف المنجنيقات. انظر بعض أسمائها في: («قلعة شيزر» لكامل شحادة ص ٣٤).

دارك». قال: «أنا في دار والدي»، يعني الوالد رحمه الله قال: «إذا [١٥و] وصلتَ دارك وبَرَأ جرحُك، دارُ والدك بحكمك»[١].

فركب المغربَ وسار إلىٰ حماة. فأقام الغد وبعدَ الغد. ثم اسودَّت يده وغاب عنه رشده ومات. وما كان به إلا فراغ الأجل.

٦٠

[من الطعنات: طعنة تقدّ الأضلاع]

وشاهدت من الطعنات العظيمة، طعنةً طَعنها فارس من الإفرنج، خذلهم الله، فارساً من أجنادنا يقال له: سابه[٢] بن قُنيب، كلابي[٣]، قَطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار، وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن، وضرب شفارُ الحربة مِرْفَقَه ففصله كما يفصل الجزار المفصل! ومات لساعته.

٦١

[ومن الطعنات العظيمة أيضاً: طعنة تقطع الزَّرد]

وطعن رجل من أجنادنا، كردي، يقال له: ميّاح، فارساً من الإفرنج، أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله. ثم إن الإفرنج أغاروا علينا بعد أيام، وميّاح قد تزوج. وخرج وهو لابس[٤]، وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس[٥]، قد تشهّر به. فطعنه فارس من الإفرنج فقتله رحمه الله «يا قُرْب مَأتمه من العُرس»[٦].

---

(١) واضح قصد عم أسامة في إبعاد شهاب الدين عن داره، حتىٰ لا يتهم بقتله، إذ كانت بين قوم شهاب الدين (من بني قراجا التركمان) وقوم أسامة عداوة قديمة.

(٢) الاسم هكذا في الأصل.

(٣) من بني كلاب.

(٤) درعه.

(٥) يقال للرجل والمرأة: عروس. وقد تكون: العرس.

(٦) يلزم أن يكون عجز بيت شائع من الشعر، لم أعرف قائله.

فذكرت به الخبر عن النبي ﷺ، وقد أُنشد قول قيس بن الخَطيم[1]:

أجالدهم يوم الحفيظة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق[2] لاعب

فقال النبي ﷺ للحاضرين من الأنصار، رضي الله عنهم: «هل حضر أحد منكم يوم الحديقة؟»[3] فقال رجل منهم: «أنا حضرته يا رسول الله! وحضره قيس بن الخَطيم وهو قريب عهد بالعُرس، وعليه مُلاءة حمراء، فوالذي بعثك بالحق، لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه».

٦٢

[ومن الطعنات العظيمة: طعنة تنفذ من الصدر]

ومن عجائب الطعن أن رجلاً من الأكراد، يقال له: حَمَدات، كان قديم الصُّحبة، قد سافر مع والدي، رحمه الله، إلىٰ أصبهان، إلىٰ دَركاه[4] السلطان مَلِكْشاه[5] فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد. فقال له عمي عز الدين رحمه الله: «يا حَمَدات! قد كبرتَ وضعُفتَ. ولك علينا حق وخدمة. فلو لزمتَ مسجدك (وكان له مسجد علىٰ باب داره) وأثبتْنا أولادك في الديوان، ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحِمْل دقيق، وأنت في مسجدك». قال: «أفعلُ يا أمير». فأُجريَ له ذلك مُديدة.

ثم جاء إلىٰ عمي وقال: «يا أمير! والله، ما تطاوعني نفسي علىٰ

---

(١) شاعر الأوس (من الأنصار). أدرك الإسلام ولم يسلم (ت٢هـ). كان فارساً معلماً، في الجاهلية. وانظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٥/ ٢٠٥، والبيت في «ديوانه» ص٨٨).

(٢) المخراق: المنديل الملفوف علىٰ هيئة ما يضرب به. والجمع: مخاريق.

(٣) يوم من أيام المواجهة بين الأوس والخزرج في الجاهلية، شارك فيه الشاعر. ويروىٰ البيت (أجالدهم يوم الحديقة) ولعله هو الصحيح والوارد في الأصل.

(٤) فارسية (دَركاه): بَلاط، ديوان. ومعناها، في الأصل: الباب والسُّدّة. وفي أصبهان انظر: («معجم البلدان» ١/ ٢٠٦).

(٥) السَّلجوقي جلال الدولة ابن ألب أرْسلان المتوفىٰ سنة ٤٨٥هـ. انظر: («زامباور» ص ٣٣٣).

القعود في البيت. وقتْلي علىٰ فرسي أشهىٰ إليّ من موتي علىٰ فراشي».
قال: «الأمر لك». وأمر [١٥ظ] بردّ ديوانه عليه كما كان.

فما مضىٰ إلا الأيام القلائل حتىٰ أغار علينا السَّرْداني[1] صاحب طَرابُلُس. ففزَع[2] الناس إليهم، وحَمَدات في جملة الرَّوع[3]. فوقف علىٰ رقعة من الأرض مستقبلَ القِبْلة. فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيّه. فصاح إليه بعض أصحابنا: «يا حَمَدات!» فالتفت رأىٰ الفارس قاصِدَه. فردَّ رأس فرسه شمالاً، ومَسَكَ رمحه بيده وسدَّده إلىٰ صدر الإفرنجي، فطعنه نفَّذ الرمح منه. فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رَمَقه. فلما انقضىٰ القتال قال حمدات لعمي: «يا أمير! لو أنّ حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟».

فأذكرني قول الفِنْد الزِّمّاني[4]:

أيا طعنةَ ما شيخٍ كبيرٍ يَفَنٍ[5] بالي
تفَتّيتُ[6] بها إذ كـره الشِّكَّةَ[7] أمثالي

---

(١) كونت Cerdagne واسمه William Jourdain وهو ابن أخت سان جيل الذي يسميه المسلمون: (صنجيل): Raymond de saint gilles.

(٢) الفَزَع هنا: الإغاثة. وفي الحديث الشريف في وصف الأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفَزَع وتقلّون عند الطمع». وفزَع إليه: لجأ واستغاث.

(٣) الكلمة غير مقروءة بوضوح. أما الرَّوع: فهو الخوف والذعر، ومثله الفَزَع أيضاً. وأغلب الظن أنها: الفَزَع بالمعنىٰ المتقدم في الحاشية السابقة، أو هي الفزْع من فَزَع القومَ فَزْعاً: أغاثهم ونصرهم.

(٤) اسمه: شهل بن شيبان. شاعر جاهلي من بكر بن وائل. شهد حرب البسوس بين بكر وتغلب، وقد ناهز المئة (ت٧٠ق.هـ). انظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٣/ ٢٦٠).

(٥) اليفَن: الشيخ الكبير الفاني.

(٦) تفتّىٰ: صار فتىً واتخذ سبيل الفتوة.

(٧) سلاح المقاتل الذي يلبسه أو يحمله. يقال: رجل شاكّ السلاح وشاكي السلاح (مقلوب شائك). والبيتان في مجموع شعره ص٢٠ ـ ٢١.

وكان الفِنْد قد كبر وحضر القتال، فطعن فارسين مقترنين فرماهما جميعاً.

٦٣

[ومن الطعنات العظيمة: طعنة ترمي فارسين وفرسين]

وقد كان جرىٰ لنا مثل ذلك: وهو أن فلاحاً من العَلاة[١] جاء يركض إلىٰ أبي وعمي، رحمهما الله. قال: «شاهدتُ سُربة[٢] إفرنج تائهين قد جاءوا من البريّة. لو خرجتم إليهم أخذتموهم». فركب أبي وعمّاي وخرجوا بالعسكر إلىٰ السُّربة التائهة، وإذا به السّرداني، صاحب طَرابُلُس، في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي[٣]، وهم رماة الإفرنج. فلما رأوا أصحابنا ركبوا خيلهم وأطلقوا علىٰ أصحابنا هزموهم، وتمّوا[٤] يطردونهم. فأحرف[٥] عليهم مملوك لوالدي، يقال له: ياقوت الطويل، وأبي وعمّي، رحمهما الله، يريانه. فطعن فارساً منهم إلىٰ جانبه فارس آخر، وهما يتبعان أصحابنا. فرمىٰ الفارسين والفرسين!

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلّات، لا يزال قد فعل فعلة يجب

---

(١) منطقة مرتفعة قريبة من حماة وشيزر. يرد ذكرها كثيراً في الكتاب، وما يزال يتردد علىٰ الألسنة إلىٰ اليوم. بالاسم نفسه.

(٢) الجماعة من الرجال يغيرون ويرجعون. وأسامة يوردها ويورد معها في الكتاب كلمة: سَرِيّة. فلعله يريد الثانية هنا، إذ المقصود: جماعة الجند.

(٣) تعريب Turcopole وهم جند في خدمة الإفرنج، آباؤهم من الترك أو العرب، وأمهاتهم من اليونان. ذكرهم بعض مؤرخي العصر من العرب والإفرنج. وسماهم ابن العديم: «كافرترك»: («بغية الطلب» ٢/ ٢٦٤).

(٤) علىٰ الدارجة، ومعناها: بقوا.

(٥) مال، مثل: انحرف. وليست في المعجم بهذا المعنىٰ. وسترد في الكتاب من بعد (الفقرة ٦٦ مثلاً).

تأديبه عليها! فكلما همّ والدي به وبتأديبه، يقول عمي: «يا أخي! بحياتك هبْ لي ذنبه، ولا تنس له تلك الطعنة!» فيصفح عنه لكلام أخيه.

٦٤

[ظَرف حَمَدات الكردي، صاحب الطعنة النافذة]

وكان حَمَدات، الذي تقدم ذكره، ظريف الحديث. حدثني والدي رَحِمَهُ اللهُ قال: «قلت لحَمَدات ونحن سائرون في طريق أصبَهان سَحَراً: أمير[١] حَمَدات! أكلت اليوم شيئاً؟ قال: نعم يا أمير، أكلتُ ثَريدة! قلت: ركبنا في الليل وما [١٦و] نزلنا ولا أوقدنا ناراً. من أين لك الثَّريدة؟ قال: يا أمير! عَمِلتُها في فمي! أخلِط في فمي الخبز وأشرب عليه الماء يصير كالثريدة!».

٦٥

[والد أسامة ينجو في معاركه، لامتداد الأجل]

وكان الوالد رَحِمَهُ اللهُ كثير المباشرة للحرب، وفي بدنه جراح هائلة. ومات علىٰ فراشه. وحضر يوماً القتال وهو لابس[٢] وعليه خُوذة إسلامية بأنف. فزرقه[٣] رجل بحربة (وكان معظم قتالهم مع العرب[٤] ذلك الزمان) فوقعت الحربة في أنف الخُوذة فانطوىٰ، وأدمىٰ أنفه ولم يؤذه. ولو كان قدَّر الله، سبحانه، أن يميل المِزراق علىٰ أنف الخُوذة كان أهلكه.

---

(١) يبدو أنه يقولها للمداعبة. إن لم تكن وقعت خطأ.

(٢) عُدّة الحرب.

(٣) ضربه بالمزراق، وهو الحربة أو الرمح القصير، وجمعه: مزاريق.

(٤) يقصد: الأعراب، من حول حماة.

وضُرب مرة أخرىٰ بنشّابة في ساقه، وفي خُفّه دِشْني[1]. فوقع السهم في الدِّشْن فانكسر فيه، ولم يجرحه. هذا لحسن دفاع الله تعالىٰ.

٦٦

[نجاة والد أسامة من طعنتين مهلكتين، في واقعته مع صاحب أفامية]

وشهد رَحِمَهُ اللهُ الحرب يومَ الأحد تاسع وعشرين شوال، سنة سبع وتسعين وأربعمائة، مع سيف الدولة خلَف بن مُلاعب الأشهبي صاحب أفامية، بأرض كفَرطاب[2]. فلبس جَوْشَنَه؛ وعجِل الغلام عن طرح كُلّاب[3] الجوشن من الجانب. فجاءه خُشْت[4] فضربه في ذلك الموضع الذي أخلَّ الغلام بستْره، فوق بِزّه الأيسر، خرج الخُشْت من فوق بِزّه الأيمن! فكانت أسباب السلامة، لما جرت بها المشيئة، من العجب، والجرح، لما قدره الله سبحانه، من العجب. فطَعَن رَحِمَهُ اللهُ في ذلك اليوم فارساً، وأحرَف حصانَه[5]، وثنىٰ يده برمحه وجذبه من المطعون. فحدثني قال: «حَسَسْتُ[6] شيئاً قد لذع زَندي، فظننته من حرارة صفائح الجوشن. إلا أن رمحي سقط من يدي، فرددتها، فإذا قد طُعنتُ في يدي. وقد استرختْ لقطع شيء من الأعصاب».

---

(١) شيء يشبه أن يكون حديداً. وفي الفارسية: دِشْنَه «الخنجر».

(٢) إلىٰ الشمال الغربي من حماة، بينها وبين المعرة. انظر: الخريطة. يرد ذكرها كثيراً في الكتاب. وخلَف بن مُلاعب قتلته الباطنية من بعد، سنة (٤٩٩هـ) يرد ذكره بعد في فقرات الكتاب. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١٠/٤٠٨).

(٣) حديدة معوجّة الرأس يُنشل بها الشيء أو يُعَلَّق.

(٤) فارسية. معناها: الحربة. والجمع: خشوت.

(٥) مال به. ووردت من قبل في صورة أخرىٰ في الفقرة (٦٣).

(٦) في معاجم اللغة: حَسَّ الشيءَ حسيساً: أدركه بإحدىٰ الحواس. وكذلك: أحسَّ.

فحضرتُه رَحِمَهُ اللَّهُ وزيد الجرائحي يداوي جرحه، وعلىٰ رأسه غلام واقف. فقال: «يا زيد! أَخرِجْ هذه الحصاة من الجُرح». فما كلّمه الجرائحي. فعاد فقال: «يا زيد! ما تبصرُ هذه الحصاة؟ ما تُزيلها من الجرح!» فلما أضجره قال: «أين الحَصاة؟ هذا رأس عَصَب قد انقطع». وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصىٰ الفرات.

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرىٰ. وسلّم الله حتىٰ مات علىٰ فراشه رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الاثنين ثامن شهر رمضان، سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة.

٦٧

[والد أسامة ينسخ القرآن بخطه ثلاثاً وأربعين مرة]

وكان يكتب خطاً مليحاً، فما غيّرَتْ تلك الطعنة من خطه. وكان لا ينسخ سوىٰ القرآن. فسألته يوماً فقلت: «يا مولاي! كم كتبتَ خِتْمة[١]؟» قال: «الساعةَ تعلمون». فلما حضرَتْه الوفاة قال: «في ذلك الصندوق مَساطر كتبتُ علىٰ كل مِسطرة خِتمة ضعوها [١٦ظ] (يعني المساطر) تحت خدّي في القبر». فعددناها فكانت ثلاثاً وأربعين مِسْطرة. فكان كتب بِعِدّتها خِتمات. منها خِتمة كبيرة كتبها بالذهب، وكتب فيها علوم القرآن: قراءاته، وغريبه، وعربيته، وناسخه ومنسوخه، وتفسيره، وسبب نزوله، وفقهه؛ بالحبر والحُمرة والزُّرقة، وترجمه[٢]: بالتفسير الكبير. وكتب خِتْمة أخرىٰ بالذهب، مجرَّدة من التفسير. وباقي الختمات بالحِبْر، مذهبّة الأعشار والأخماس والآيات، ورؤوس السور ورؤوس الأجزاء.

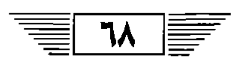
وما يقتضي الكتابُ ذكر هذا. وإنما ذكرته لأستدعيَ له الرحمة ممن وقف عليه.

---

(١) القرآن الكريم كله إذ يختم كله في القراءة.

(٢) يعني: سماه.




٦٨

[غلام لعم أسامة يفدي مولاه بنفسه]

أعود إلىٰ ما تقدم(١):

وفي ذلك اليوم(٢)، أصاب غلاماً كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر رحمه الله يقال له: موفق الدولة شمعون، طعنةٌ عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان رحمه الله. واتفق أن عمي أرسله رسولاً إلىٰ الملك رضوان بن تاج الدولة تُتُش(٣)، إلىٰ حلب. فلما حضر بين يديه قال لغلمانه: «مِثْل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليهم». وقال لشمعون: «حَدِّثْهم حديثك أيام والدي(٤)، وما فعلتَه مع مولاك(٥)». فقال: «يا مولانا! بالأمس حضرتُ القتال مع مولاي، فحَمَل عليه فارس يطعنه. فدخلتُ بينه وبين مولاي لأفديَه بنفسي، فطعنّي(٦) قطع من أضلاعي ضلعين. وهي(٧)، ونعمتِك، عندي في قِمَطْرة»(٨). فقال له الملك رضوان: «والله، ما أعطيك الجواب حتىٰ تُنفذ تُحضر القِمَطْرة والأضلاع». فأقام عنده، وأرسل من أحضر القِمَطْرة وفيها عظمان من أضلاعه. فعجب رضوان من ذلك وقال لأصحابه: «كذا اعملوا في خدمتي!».

---

(١) من ذكر الحرب والطعنات العظيمة، والنجاة منها لامتداد الأجل.
(٢) يوم المعركة التي شهدها أبوه مع خلف بن مُلاعب، صاحب أفامية، سنة ٤٩٧هـ. انظر: الفقرة (٦٦).
(٣) تاج الدولة أبو سعد ابن ألب أرْسْلان السَّلجوقي، صاحب حلب. انظر: («زامباور» ص ٣٣٤).
(٤) يقصد: والده تاج الدولة السَّلجوقي. وسيعود إلىٰ خبره في الفقرة التالية (٦٩).
(٥) سيأتي ذكر هذه الواقعة في الفقرة التالية (٦٩).
(٦) طعنني. علىٰ الدارجة.
(٧) يريد: الضلعين، علىٰ الدارجة أيضاً.
(٨) القِمَطر: ما يتخذ لحفظ الأشياء والكتب. وورد مؤنثاً علىٰ هذه الصورة.

[الواقعة التي سأل عنها الملك رضوان بن تاج الدولة]

فأما الأمر الذي سأله عنه[١] أيام والده تاج الدولة: فإن جدّي، سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيّر ولده عزّ الدولة نصراً رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ خدْمة تاج الدولة، وهو مُعسكرٌ بظاهر حلب. فقبض عليه[٢] واعتقله، وَوَكلَ به من يحفظه. وكان لا يَدخل إليه سوىٰ مملوكه هذا، شمعون. والمُوكَلون حول الخيمة. فكتب عمي إلىٰ أبيه[٣]، رحمهما الله، يقول: «تُنفذ لي في الليلة الفلانية (وعيّنها) قوماً من أصحابه (ذكرهم)، وخيلاً أركبها إلىٰ الموضع الفلاني». فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون، خلع ثيابه فلبسها مولاه، وخرج علىٰ المُوكَلين في الليل، فما أنكروه ـ ومضىٰ إلىٰ أصحابه وركب وسار. ونام شمعون في فراشه.

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السَّحَر بوضوئه فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الزهّاد القائمين [١٧و] ليلهم، يتلون كتاب الله تعالىٰ. فلما أصبحوا، ولم يروا شمعون دخل كعادته، دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون، وعِزُّ الدولة قد راح! فأنهَوا ذلك إلىٰ تاج الدولة. فأمر بإحضاره. فلما حضر بين يديه قال: «كيف عملت؟» قال: «أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح، ونمت أنا في فراشه». قال: «وما خشيت أن أضرب رقبتك؟» قال: «يا مولاي! إذا ضربتَ رقبتي وسلِمَ مولاي، وعاد إلىٰ بيته، فأنا السعيد بذلك. ما اشتراني ورباني إلا لأفديَه بنفسي».

فقال تاج الدولة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحاجبه: «سلِّم إلىٰ هذا الغلام خيل مولاه

---

(١) انظر: الفقرة السابقة (٦٨).

(٢) يعني: قبض تاج الدولة علىٰ عز الدولة نصر بن سديد الملك عم أسامة.

(٣) يعني: كتب عم أسامة عز الدولة إلىٰ أبيه هو، جد أسامة سديد الملك.

ودوابّه وخيامه وجميع بَرْكه[1]، وسيّره يتبع صاحبه». وما أنكر عليه وما أحنقه ما فعل في خدمة مولاه. فهذا الذي قال له رضوان: «حدّث أصحابي ما عملته أيام والدي مع مولاك».

٧٠

[عم أسامة يُطعن في جفن العين ويُشفى]

أعود إلىٰ حديث الحرب المقدَّم ذكرها مع ابن مُلاعب[2]. وجُرح عمي عز الدولة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك اليوم، عدّة جراح. منها: طعنة طُعِنَها في جفن عينه السفلاني[3]، من ناحية المأق[4]. ونشب الرمح في المأق، عند مؤخر العين، فسقط الجفن جميعه، وبقي معلقاً بجلده، من مؤخر العين. والعين تلعب لا تستقرّ. وإنما الجفون التي تُمسك العين. فخاطها الجرائحي[5] وداواها فعادت كحالها الأوّلة[6]: لا تعرف العينَ المطعونة من الأخرىٰ.

٧١

[شجاعة والد أسامة وعمه]

وكانا[7]، رحمهما الله، من أشجع قومهما. ولقد شهدتهما يوماً وقد

---

(١) عدة السفر وآلته. في الأصل: جماعة الإبل الباركة.

(٢) يعود إلىٰ الكلام الذي تركه في الفقرة (٦٦)، ورأس الفقرة (٦٨).

(٣) السفلي.

(٤) طرَف العين مما يلي الأنف، وفيها لغات كثيرة أيضاً منها: المؤق.

(٥) الطبيب الجراح، ولها وجود في بعض المعاجم الحديثة: انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٣).

(٦) الأولىٰ. وهي هكذا في بعض الدارجات العربية. وترد في مواضع أخرىٰ من الكتاب علىٰ هذه الصورة.

(٧) يريد أسامة: والده، وعمه عز الدولة المذكور في الفقرة السابقة رقم (٧٠).

خرجا إلىٰ الصيد بالبُزاة، نحو تلّ المَلَح[١]. وهناك طير ماء كثير. فما شعرنا إلا وعسكر طَرابُلُس قد أغار علىٰ البلد، ووقفوا عليه[٢]. فرجعنا. وكان الوالد [قائماً] من إثر مرض. فأما عمي فخفّ بمن معه من العسكر، وسار حتىٰ عبَر من المخاض إلىٰ الإفرنج، وهم يرونه. وأما الوالد فسار والحصان يَخُبّ به، وأنا معه صبي، وفي يده سفرجلة يمتصّ منها. فلما دنونا من الإفرنج قال لي: «امض أنت ادخل من السُّكْر»[٣]. وعبر هو من ناحية الإفرنج.

٧٢

[والده لا يرتاع في مواقف الخطر، ويهتم بالنجوم]

ومرة أخرىٰ شاهدته وقد أغارت علينا خيل محمود بن قَراجا[٤] ونحن علىٰ فُسحة من البلد[٥]، وخيلُ محمود أقرب إليه منا. وأنا قد حضرتُ القتال ومارست الحرب. فلبست كَزاغَندي[٦]، وركبت حصاني، وأخذت رمحي، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ بغلة. فقلت: «يا مولاي! ما تركب حصانك!» قال: «بلىٰ». وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل.

---

(١) يقع علىٰ بعد ٦ كم من شيزر، بين مُحَرْدة والسّقيلبية، علىٰ طريق الغاب. واسمه الشائِع اليوم: تل المَلَح. انظر: الخريطة. يقول بعد الفقرة (٧٣ ح٣): «إنه كان مكمناً للإفرنج»

(٢) تلك حملة الكونت برتراند Bertrand سنة ٥٠٤هـ. وكان عمر أسامة يومذاك خمسة عشر عاماً.

(٣) ما يسد به النهر.

(٤) صاحب حماة من بني قراجا التُّرْكمان، وقد مر ذكره من قبل، في مواضع كثيرة. وكان بينه وبين قوم أسامة قتال، قبل أن يصطلحوا.

(٥) القسم الواقع ضمن القلعة، من شيزر، وهو الحصن. أما القسم الواقع علىٰ النهر، قرب الجسر فهو المدينة، في مصطلح الناس آنذاك.

(٦) سترة سميكة تقوم مقام الدرع (فارسية: كَزاگند)، وترد كثيراً في الكتاب.

وأنا، لخوفي عليه، ألحّ عليه في ركوبه حصانَه، إلىٰ أن وصلنا إلىٰ البلد، وهو علىٰ بغلته. فلما عاد أولئك وأمِنّا، قلت: «يا مولاي! ترىٰ العدو وقد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك[1] [١٧ظ] وأنا أخاطبك فلا تسمع!» قال: «يا ولدي! في طالعي أنني لا أرتاع».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ له اليد الطولىٰ في النجوم، مع ورعه ودينه وصومه الدهر، وتلاوة القرآن.

وكان يُحرِّضني علىٰ معرفة علم النجوم فآبىٰ وأمتنع. فيقول: «فاعرف أسماء النجوم: ما يطلع منها ويغرب». فكان يُريني النجوم ويعرّفني أسماءها.

٧٣

[إقدام الرجال في مواقع الخطر: صورة من مكائد الإفرنج]

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب: أنّا أصبحنا وقت صلاة الصبح، رأينا سُربة[2] من الإفرنج، نحواً من عَشَرة فوارس، جاؤوا إلىٰ باب المدينة[3] قبل [أن] يفتح. فقالوا للبواب: «أيّ شيء اسم هذا البلد؟» والباب خشب، بينهما[4] عوارض، وهو[5] داخل الباب. قال: «شيزر». فرموه بنشاب من خلل الباب، ورجعوا وخيلهم تَخُبّ بهم. فركبنا؛ فكان عمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول راكب وأنا معه، والإفرنج

(١) الخيل السهلة القياد. ويسمي بها أسامة الخيل علىٰ العموم.
(٢) جماعة الخارجين من المعسكر للإغارة. والجمع: سُرَب.
(٣) انظر الحاشية رقم (٥) من الصفحة السابقة (١٢٣).
(٤) لعله يريد: أن الباب مركب من خشبتين بينهما عوارض.
(٥) أي: البوّاب.

رائحون غير منزَعجين فلحقنا منَ الجند نَفَر. فقلت لعمي: «علىٰ أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم أقلعهم[1] وهم غير بعيدين». قال: «لا (وكان أخبَرَ مني بالحرب) في الشام إفرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة!».

ودعا فارسين من الجند علىٰ فرسين سوابق[2]، وقال: «امضيا اكشفا تلّ المَلَح[3]»، وكان مكمناً للإفرنج. فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه. فاستقبلْنا متسرِّعيهم[4] نريد الفرصة فيهم، قبل ركود الحرب، ومعنا جمعة النميري[5] وابنه محمود. وجمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم، فصاح جمعة: «يا فرسان الخيل! ولدي!» فرجعنا معه في ستة عشر فارساً. طعنّا ستة عشر فارساً من الفرنج، وأخذنا صاحبنا من بينهم. واختلطنا نحن وهم حتىٰ أخذ واحد رأس [ابن] جمعة تحت إبطه، فخلَص ببعض تلك الطعنات.

٧٤

[ولكن الإقدام يَعجز: هزموا ثمانية فرسان ويهزمهم راجل واحد]

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يُعجب بإقدامه. فوالله لقد سرت مع عمي رَحِمَهُ الله أغرنا علىٰ أفامية. واتفق أن رجالها خرجوا ليسيّروا قافلة، فسيّروها، وعادوا. ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر

---

(١) أرميهم عن سروج خيولهم، كناية عن هزيمتهم أو القضاء عليهم (تؤيدها المعاجم). وأسامة يستعملها كثيراً في الكتاب.

(٢) بالجمع. علىٰ الدارجة.

(٣) سبق ذكره في الفقرة (٧١). والتلال من حول حماة وشيزر كثيرة.

(٤) أوائل خيلهم.

(٥) سبق ذكره، وذكر ولده محمود في مواضع كثيرة.

عشرين رجلاً. ورأيت جمعة النميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفيه نصف قُنطارية قد طُعن بها في لِبْد[1] السرج، وخرج الرمح من البِداد[2] إلىٰ فخذه، ونفذ إلىٰ خلفه، فانكسرت القُنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال: «لا بأس! أنا سالم». ومسك سِنان القُنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان.

فقلت: «يا أبا محمود! أشتهي أتقرب [١٨و] من الحِصن[3] أبصره». قال: «سرْ». فرحت أنا وهو نُخبّ[4] فرسينا. فلما أشرفنا علىٰ الحِصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف علىٰ الطريق، وهي مشرفة علىٰ الميدان من ارتفاع لا يُنزل منه إلا من تلك الطريق. فقال لي: جمعة: «قف حتىٰ أُريَك ما أصنع فيهم». قلت: «ما هذا إنصاف. بل نحمل عليهم أنا وأنت». قال: «سِرْ». فحملنا عليهم فهزمناهم، ورجعنا [و] نحن نرىٰ أنا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا: نحن اثنان قد هزمْنا ثمانية فرسان من الإفرنج!

فوقفنا علىٰ ذلك الشَّرَف[5] ننظر الحِصن، فما راعنا إلا رُويجل[6] قد طلع علينا من ذلك السبيل الصعب، معه قوس ونشّاب، فرمانا، ولا سبيل لنا إليه، فهَزَمنا. والله ما صدّقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة! ورجعنا دخلْنا مرج أفامية فسُقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هَزَمنَا حسرة، اللي[7] ما كان لنا إليه سبيل. وكيف هَزَمَنا راجل واحد وقد هَزَمْنَا ثمانية فرسان من الإفرنج!

---

(١) اللِّبْد: كل شَعر أو صوف متلبد، ويكون من تحت السرج.

(٢) بِداد السَّرج: الجزء المحشو من تحته.

(٣) لعله يعني، قلعة المضيق، قرب أفامية.

(٤) أخبَّ الفرسَ: جعلها تمشي خَبَباً، وهو ضربٌ من العدْو (نقل الأطراف اليمنىٰ جميعاً واليسرىٰ جميعاً).

(٥) المكان المرتفع.
(٦) تصغير: رجل.

(٧) كذا في الأصل علىٰ الدارجة: الذي.

[جمعة النميري تشفيه ضربة من رمد عينيه، في كمين نصبه الإفرنج]

وشهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كَفَرطاب[١]، في قلّة، ففزَعنا[٢] إليهم طامعين فيهم لقلتهم، وقد كَمَنوا لنا كميناً في جماعة منهم. وانهزم الذين أغاروا، فتبعناهم حتىٰ أبعدْنا عن البلد. فخرج إلينا الكمين، ورجع إلينا الذين كنا نطردهم. فرأينا أننا إن انهزمنا قلعونا[٣] كلنا. فالتقيناهم مستقتِلين. فنصرنا الله عليهم فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً: منهم مَن طُعن فمات، ومنهم من طُعن فوقع وهو سالم، ومنهم من طُعن حصانه فهو راجل.

فجذب الذين في الأرض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا: كل من اجتاز بهم ضربوه. فاجتاز جمعة النميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بواحد منهم، فخطا[٤] إليه وضربه علىٰ رأسه، وعلىٰ رأسه قَلَنْسُوَة، فقطعها، وشق جبهته وجرىٰ منها الدم حتىٰ نزح. وبقيتْ مثل فم السمكة مفتوحة. فلقيته، ونحن فيما نحن فيه من الإفرنج، فقلت له: «يا أبا محمود! ما تعصب جرحك!» فقال: «ما هذا وقت العصائب وشد الجراح!» وكان لا يزال علىٰ وجهه خرقة سوداء، وهو رَمِدٌ وفي عينيه عروق حُمْر. فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان

---

(١) إلىٰ الشمال الغربي من حماة؛ بينها وبين المعرة. يذكرها أسامة كثيراً في الكتاب. انظر الخريطة. والإشارة إلىٰ أنها كانت بيد الإفرنج.

(٢) فَزَع: خرج للغوث والنجدة.

(٣) عن سُروجنا: رمونا عن خيولنا. وهي كناية عن القتل، ترد كثيراً في الكتاب. وأصلها في اللغة واضح.

(٤) الإفرنجي.

يشكوه من عينيه، ولم يعد يناله منهما رَمَد ولا ألم: «فربما صَحّت الأجسام بالعلل»[1].

[١٨ظ] وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا، بعدما قتلْنا منهم مَن قتلْنا، ووقفوا مُقابلَنا. فجاءني ابن عمي (ذَخِيرة الدولة)، أبو القنا حِطّان[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «يا ابن عمي! معك جَنيبتان[3]، وأنا علىٰ هذا الفرس الحَطِم[4]»! قلت للغلام: «قدّم له الحصان الأحمر»! فقدّمه له. فساعة ما استوىٰ في سَرْجه حَمَلَ علىٰ الإفرنج وحدَه، فأفرجوا له حتىٰ توسّطهم، وطعنوه رَموْه، وطعنوا الحصان، وأقلبوا[5] قُنطارياتهم وصاروا يَركُسونه[6] بها، وعليه زَرَدِيّة حصينة ما تعمل رماحهم فيها. فتصايحنا «صاحبكم! صاحبكم!» وحملْنا عليهم فهزمْناهم عنه، واستخلصناه وهو سالم. وأما الحصان فمات في يومه. فسبحان المسلِّم القادر!

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه. فسبحان القائل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[7].

---

(١) عجز بيت، هو مطلع قصيدة، للمتنبي في مديح سيف الدولة. وأوله: لعل عتبك محمود عواقبه. «ديوان المتنبي» (جزء واحد) ص٢٠٣.

(٢) ورد الاسم، في الأصل، (خطام) انظر: («معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي» لزامباور ص١٦٥).

(٣) الفرس السهلة القياد. وأسامة يسمي بها الخيل علىٰ العموم.

(٤) الواهن المتكسر في نفسه: والحَطَم: داء في قوائم الدابة. وأسامة يأتي بالفرس علىٰ التذكير والتأنيث. انظر مثلاً: الفقرة (٧٨). وهذا صحيح في اللغة.

(٥) أقلبَ الشيءَ (مثل قلبه): حوله عن وجهه.

(٦) الركْس: رد الشيء مقلوباً، وقلب أوله علىٰ آخره.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

[واقعة سابقة مماثلة كان الجرح فيها سبباً للشفاء]

وقد جرىٰ لي مثل ذلك: كنت بالجزيرة في عسكر أتابِك[١]. فدعاني صديق لي إلىٰ داره، ومعي رِكابيٌّ اسمه غُنيم، قد استسقىٰ[٢] ودَقّت[٣] رقبته وكَبِرَ جوفه، وقد تغرّب معي، فأنا أرعىٰ له ذلك. فدخل بالبغلة إلىٰ إصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين. وعندنا شاب تركيَّ سَكِر وغلب عليه السُّكْر فخرج إلىٰ الإصطبل، جذب سكينه وهجم علىٰ الغلمان فانهزموا وخرجوا. وغُنيم، لضعفه ومرضه، قد طرح السرجَ تحت رأسه ونام. فما قام حتىٰ خرج كل مَن في الإصطبل، فضربه ذلك السكران بالسكّين تحت سُرَّته، فشق في جوفه قدْر أربع أصابع. فوقع موضعَه[٤]. فحمله الذي دعانا، وهو صاحب قلعة باشَمْرا[٥]، إلىٰ داري، وحمل الذي جرحه، وهو مكتوف، معه إلىٰ داري. فأطلقتُه. وتردَّدَ إليه الجرائحي[٦] فصلَح ومشىٰ وتصرّف. إلا أن الجرح ما خَتَم[٧]. وما زال يخرج منه مثلُ القشور وماء أصفر، مدة شهرين. ثم خَتَم، وضمرَ جوفه، وعاد إلىٰ الصحة. فكان ذلك الجرح سبباً لعافيته!

---

(١) زَنكي، عماد الدين بن آقْسُنْقُر، والد نور الدين الشهيد. انظر: بني زَنكي في («زامباور» ص: ٣٤١).

(٢) أصابه مرض الاستسقاء: انتفاخ البطن.

(٣) أصبحت دقيقة: صغيرة.

(٤) يعني: في موضعه: لم يتحرك.

(٥) في جبل سمعان. وفيه إلىٰ اليوم قلاع خَرِبة وأديرة ورسوم لمواطن مندثرة، إلىٰ الشمال من حلب.

(٦) الطبيب الجراح. ترد في الكتاب في غير موضع. انظر: الفقرة (٧٠).

(٧) التأم. علىٰ الدارجة.

[واقعة أخرى مماثلة، في الطير]

ورأيت يوماً البازدار[١] قد وقف بين يَدي والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: «يا مولاي! هذا الباز قد لحقه حَصٌّ[٢]، وهو يموت. وعينه الواحدة قد تلِفت. فتصيّدْ به، فهو [١٩و] بازٌ شاطر. وهو تالف». فخرجنا إلىٰ الصيد وكان معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِدّة بُزاة. فرمىٰ ذلك البازَ علىٰ دُرَّاجة[٣]، وكان يهجم في النّبَج[٤]، فَنَبَجَتْ[٥] الدُّرّاجة في جَمّة حَلفاء[٦]. ودخل الباز معها، وقد صار علىٰ عينه كالنقطة الكبيرة. فَضربتْه شوكة من الحَلْفاء في تلك النقطة ففقأتها. فجاء به البازدار، وعينه قد سالت وهي مطبوقة[٧]، فقال: «يا مولاي! تلِفت عين الباز». فقال: «كلّه تالف». ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة. وسلِمَ ذلك الباز عندنا حتىٰ قَرْنَصَ قِرناصين[٨]، فكان من أشطر البزاة!

ذكرتُه بما جرىٰ لجمعة وغُنيم، وإن لم يكن موضع ذكر البزاة.

ورأيت من استسقىٰ وفصدوا جوفه فمات، وغُنيم شقّ ذلك السكرانُ جوفه سلِم وعوفي! فسبحان القادر!.

---

(١) حامل الباز ومدربه. والجمع: بزادرة (فارسية). وفي العربية: البازيار، ومهنته: البيرزة.

(٢) مرض يصيب الطائر فيفقده ريشه: حَصَّ الطائرُ.

(٣) طائر شبيه بالحجل وأكبر منه، ويطلق الاسم علىٰ الذكر والأنثىٰ (التاء للوحدة لا للتأنيث).

(٤) النَبَجة: الأكمة.

(٥) خرجت من جُحرها، واختبأت.

(٦) الجَمّة: مجتمع الماء. والحَلْفاء: نبت ينبت في مغايض الماء. أطرافه محددة، يصنعون منه القفف والحصر.

(٧) مطبقة. علىٰ الدارجة.

(٨) قرنَصَ البازيَ: كَرَّزه (خاط عينيه وأطعمه ليذلّه) ويهيئه للصيد. وقرنص البازي قرناصين: سقط ريشهُ، وتجدد مرتين، لطول السلامة.

[أصحاب أسامة ينهزمون عنه أمام إفرنج أنطاكيّة]

وأغار علينا عسكر أنطاكيّة وأصحابنا قد التَقَوا أوائلَهم وجاؤوا قُدّامهم، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إليّ، لعلي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرُون عليَّ منهزمين. فعبر عليَّ، في مَن عبر، محمود بن جمعة[١]. فقلت: «قف يا محمود!» فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضىٰ عني. ووصلني أوائلُ خيلهم. فاندفعتُ بين أيديهم وأنا رادٌّ رمحي إليهم. ملتفت أنظرهم لا يتسرعُ[٢] إليّ منهم فارس يطعنّي[٣]. وبين يديَّ جماعة من أصحابنا. ونحن بين بساتين لها حيطان طولَ قعْدة الرجل. فَنَدَست[٤] فرسي بصدرها رجلاً من أصحابنا، فردَّتْ رأس فرسي علىٰ يساري. فضربتها بالمهاميز ففزَّت[٥] الحائطَ. فضبطت[٦] حتىٰ صرتُ أنا والإفرنج مصطفِّين، وبيننا الحائط! فتسرَّع منهم فارس عليه تشهير[٧] حرير أخضر وأصفر. فظننتُ أن ما تحته درع[٨]، فتركته حتىٰ تجاوزني، وضربتُ الفرس بالمهاميز، ففزَّت الحائطَ. وطعنتُه، فمال إلىٰ أن وصل رأسُه رِكابَه، ووقع تُرسه والرمح من يده، والخُوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا إلىٰ رَجّالتنا. ثم عاد

---

(١) النميري المذكور في الفقرة السابقة، وفي مواضع كثيرة من الكتاب.

(٢) لئلا يتسرع: أو خشية أن يتسرع (علىٰ الدارجة في سورية).

(٣) يطعنني. علىٰ الدارجة. (٤) ندس برجله الأرض: ضربها.

(٥) قفزت من فوقه. وليست في المعاجم بهذه الصيغة. والفَزّة؛ الوثبة بالانزعاج.

(٦) لعلها تقرأ بالتشديد: فضبّطت. علىٰ ما يجري عليه حديث الناس في الشام إلىٰ اليوم.

(٧) قميص خارجي (مصطلح خاص بالعصر).

(٨) يعني: ظننت أن ليس عليه درع. و«ما» هنا نافية، بدليل ما يأتي بعد.

انتصب في سرجه. وكان عليه زَرَديّة تحت التشهير[1]، فما جرحتْه الطعنة. وأدركه أصحابه، ثم عادوا. وأخذ الرجّالة الترس والرمح والخوذة.

٧٩

[جمعة يخاف على فرسه فينهزم به أيضاً أمام عسكر حماة]

فلما انقضىٰ القتال ورجع الإفرنج جاءني جُمعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتذر عن ابنه محمود. وقال: «هذا الكلب انهزم عنك»! قلت: «وأيُّ شيء يكون؟» قال: «ينهزم عنك ولا يكون شيء؟» قلت: «وحياتك [١٩ظ] يا أبا محمود! وأنت تنهزم عني أيضاً!» قال: «ياشَيْن[2]! والله إن موتي أسهل عليَّ من أن أنهزم عنك». ولم يمض إلا أيام قلائل حتىٰ أغارت علينا خيل حماة، فأخذوا لنا باقورة[3] وحبسوها في جزيرة[4]، تحت الطاحون الجلالي[5] وطلع الرماة علىٰ الطاحون يَحمون الباقورة. فوصلتُهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي[6] مُوَلَّد لنا، وكان رجلاً شجاعاً. فقلت لهما: «نعبر الماء ونأخذ الدوابّ». فعبرنا. فأما ماضي فضربتْ فرسَه نشّابةٌ فقتلتْها. وبالجَهد أوصلتْه إلىٰ أصحابه. وأما أنا فضربتْ فرسي نشّابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدْر شبْر، فوالله ما رَمَحَت، ولا قلِقَت، ولا كأنها أحسّت بالجرح. وأما جمعة فرجع خوفاً

---

(١) الزَّرَديّة: درع الزَّرَد. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» (الجواشن) ص ٩٣ ـ ٤).

(٢) العيب. ونقيضه: الزَّيْن.

(٣) اسم جمع لجماعة البقر.

(٤) في العاصي، قرب شيزر.

(٥) الجلالي: نهر يصب في العاصي. ويبدو أن طاحوناً أقيم عليه، تعمل رحاه بمائه.

(٦) اسمه، وسيأتي بعد.

علىٰ فرسه. فلما عُدنا قلت: «يا أبا محمود! ما قلتُ لك إنك تنهزم عني! وأنت تلوم ابنك محموداً!» قال: «والله ما خِفتُ إلا علىٰ الفرس فإنها تعزّ عليّ». واعتذر.

٨٠

[أسامة يطعن فارساً من فرسان حماة، ويحمد الله على سلامته]

وقد كنّا ذلك اليومَ التقيْنا، نحن وخيل حماة، وقد سبقهم[١] بعضهم بالباقورة[٢] إلىٰ الجزيرة[٣]. فاقتتلنا نحن وهم، وفيهم فرسان عسكر حماة: سَرْهَنْك، وغازي التّلّي، ومحمود بن بلداجي، وخضر الطُّوط، واسباسلار[٤] خُطلُخ، وهم أكثر عدداً منا. فحملنا عليهم، فهزمناهم. وقصدتُ فارساً منهم أريد أطعنُه، وإذا هو خضر الطوط. فقال: «الصنيعةَ[٥] يا فلان!» فعدلتُ عنه إلىٰ آخر فطعنتُه، فوقع الرمح تحت إبطه. فلو تركه[٦] ما كان وقع. فشدَّ عَضُده عليه، يريد يأخذُ الرمح، والفرس مُسَندِرة[٧] بي، فطار في السّرْج علىٰ رقبة الحصان، فوقع. ثم قام وهو علىٰ شَفير الوادي المنحدر إلىٰ الجَلالي[٨]، فضرب حصانَه

---

(١) يريد: رجال الخيل.

(٢) اسم جمع لجماعة البقر، وقد وردت في الفقرة السابقة.

(٣) انظر: الفقرة السابقة.

(٤) تحريف للفظ «اسْفَهسلار» المركب من لفظين: «اسفه» فارسي بمعنىٰ المقدّم. وسلار: تركي بمعنىٰ العسكر. ومعناه العام: مقدَّم العسكر. انظر في تاريخ اللقب: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٢٨ و٣٢).

(٥) الفعل الجميل.

(٦) يعني: لو ترك المطعون الرمح.

(٧) سندر: أسرع.

(٨) نهر يصب في العاصي. ورد ذكره في الفقرة السابقة.

وساقه بين يديه ونزل. وحمدتُ الله، سبحانه، الذي[1] ما ناله ضرر من تلك الطعنة، لأنه كان غازي التَّلّي. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ رجلاً جيداً.

٨١

[الفارس جمعة يخلّص أسيراً من فارسين إفرنجيين]

ونزل علينا عسكر أنطاكيّة، في بعض الأيام[2]، منزلاً كان يَنزله كلما نزل علينا. ونحن رُكّاب مُقابلَهم، وبيننا النهر[3]. فلم يقصدْنا منهم أحد. وضربوا خيامهم ونزلوا فيها. فرجعنا نحن نزلنا في دورنا، ونحن نراهم من الحِصن[4]. فخرج من جندنا نحوٌ من عشرين فارساً إلىٰ بَنْدرقنين، قرية بالقرب من البلد، يرعَون خيلهم. وقد تركوا رماحهم في دورهم. فخرج من الإفرنج فارسان سارا إلىٰ قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم. فصادفوا رجلاً [٢٠و] علىٰ الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته، ونحن نراهم من الحِصن. وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح. فقال عمي: «هؤلاء عشرون لا يخلّصون أسيراً مع فارسين! لو حضرهم جمعة رأيتم ما يعمل!». هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم. فقال عمي: «أبصروا الساعةَ ما يعمل». فلما دنا من الفارسين، وهو يركض، كفَّ رأس فرسه وسار خلفهم سِتْرة. فلما رأىٰ عمي توقُّفه عنهما، وهو علىٰ رَوْشَن[5] له في الحِصن، يراه، دخل من الرَّوشن مغضباً، وقال: «هذا خذلان»! وكان توقف جمعة خوفاً من خَورة[6] كانت بين يدي الفارسين، لا[7] يكون لهم فيها كمين. فلما

---

(١) التركيب معروف في الدارجة.
(٢) حوالي سنة ٥٢٤هـ.
(٣) العاصي.
(٤) يقصد: حصن شيزر داخل القلعة.
(٥) مرتفع يطل منه، أشبه بالشرفة.
(٦) المنخفض والوهدة في الأرض مثل الغور.
(٧) لئلا. والاستعمال معروف في دارجة أهل الشام، إلىٰ اليوم.

وصل تلك الخَورة، وما فيها أحد، حمل علىٰ الفارسين، خلّص الرجل والبهيمة، وطردهما إلىٰ الخيام.

وكان ابن ميمون[1]، صاحب أنطاكيّة يرىٰ ما جرىٰ. فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ تُرسيهما جعلهما معالف للدواب! ورمىٰ خيمتهما وطردهما، وقال: «فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج! ما أنتم رجال، أنتم نساء!».

وأما جمعة فوبّخه [عمي] وحَرِد عليه، لوقوفه عنهما أولَ ما وصلَهما. فقال: «يا مولاي! خِفت لا يكون لهم في خَورة رابية القرامطة[2] كمين يخرج عليَّ. فلما كشفتها وما رأيت فيها أحداً استَخلصتُ الرجل والبهيمة وطردتهما حتىٰ دخلا عسكرهما». فلا والله ما قبل عذره، ولا رضي عنه!

٨٢

[منزلة الفارس عند الإفرنج]

والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوىٰ الشجاعة، ولا عندهم تَقدِمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان. ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم[3] أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتُهم مرّة[4] علىٰ قطعان غنم أخذها صاحب بانياس[5]، من

---

(١) Bohemond II.

(٢) رابية من حول شيزر، يبدو أنهم كانوا يعرفونها بهذا الاسم، منذ غزت الباطنية شيزر في نهاية القرن الثالث الهجري. وسيرد اسمها، من بعد، في الكتاب.

(٣) أي الفرسان.

(٤) حوالي سنة ٥٣٥هـ.

(٥) اسمه Renier. وبانياس بلدة في سورية، علىٰ سفح جبل الشيخ. احتلها الإفرنج ٥٢٥هـ = ١١٣٠م، واستعادها المسلمون ٥٢٩هـ = ١١٣٤م.

الشَعْراء[١]، وبيننا وبينهم[٢] صُلح. وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فُلْك بن فُلْك[٣]: «هذا تعدّي علينا وأخذ دوابّنا، وهو وقت وِلاد الغنم. فولدتْ وماتت أولادها. وردَّها علينا بعد أن أتلفها». فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: «قوموا اعملوا له حُكماً»[٤]. فخرجوا من مجلسه، واعتزلوا وتشاوروا حتىٰ اتفق رأيهم كلهم علىٰ شيء واحد. وعادوا إلىٰ مجلس الملك. فقالوا: «وقد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتْلف من غنمهم». فأمره الملك بالغرامة فتوسّل إليَّ، وثقّل[٥] عليَّ، وسألني، حتىٰ أخذت منه أربعمائة دينار. وهذا الحُكم بعد أن يعقده الفرسان [٢٠ظ] ما يقدر الملك ولا أحد من مقدَّمي الإفرنج يغيّره ولا ينَقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم.

ولقد قال لي الملك: «يا فلان! بحق ديني، لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً!» قلت: «الله يُفرح الملك! بماذا فرحت؟» قال: «قالوا لي: إنك[٦] فارس عظيم. وما كنتُ أعتقد أنك فارس». قلت: «يا مولاي! أنا فارس من جنسي وقومي». وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم.

٨٣

[ملك الإفرنج دَنكري لا يحفظ عهده]

وكان نزل علينا[٧] دَنْكري[٨]. وهو أول أصحاب أنطاكيّة بعد

---

(١) ناحية مجاورة لبانياس، كثيرة الشجر.

(٢) يعني: الإفرنج.

(٣) Fulk V توّج ملكاً علىٰ بيت المقدس سنة ٥٢٦هـ. وكان أسامة يعرفه.

(٤) كانوا يكلون القضاء إلىٰ الفرسان، إقراراً بمكان الفروسية في حياتهم.

(٥) لعلها تقرأ بتشديد القاف، علىٰ ما يعرف من معناها في الدارجة الشامية.

(٦) أي: أسامة.

(٧) سنة ٤٩٩هـ.

(٨) Tancred. وتذكره بعض التواريخ العربية باسم: طَنْكري.

ميمون[1]، فقاتلَنا ثم اصطلحنا. فنفّذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين رَحِمَهُ اللَّهُ. وكان فرساً جواداً. فنفّذه له عمي تحت رجُلٍ من أصحابنا كردي يقال له: حسنون. وكان من الفرسان الشجعان. وهو شاب مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدَي دَنكري. فسابق به فسبَقَ الخيلَ المُجراة كلها. وحضر بين يدَي دَنْكري، فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه. وقد عرفوا أنه فارس شجاع. فخلع عليه دَنكري. فقال له حسنون: «يا مولاي! أريدك تعطيني أَمانك، أنك إن ظفرت بي في القتال تصطنعُني وتطلقني». فأعطاه أمانه، علىٰ ما توهم حسنون، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ما ندري ما يقولون.

ومضىٰ علىٰ هذا سنة أو أكثر، وانقضت مدة الصلح[2] وجاءنا دَنْكري في عسكر أنطاكيّة، فقاتلَنا عند سورة المدينة[3]. وكانت خيلنا لقيَتْ أوائلهم. فطعن فيهم[4] رجل يقال له: كامل المشطوب، من أصحابنا، كرْدي. وهو وحسنون نظراء في الشجاعة، وحسنون واقف مع والدي رَحِمَهُ اللَّهُ، علىٰ حِجْرة[5] له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار، ويأتيه كَزاغَنده. فأبطأ عليه، وأقلقه طعن كامل المشطوب، فقال لوالدي: «يا مولاي! مُرْ لي بلباس خفيف». فقال: «هذه البغال عليها السلاح واقفة. مهما صَلُح لك البَسْه». وأنا إذا ذاك واقف خلف

---

(١) Bohemond I. وخلفه دَنكري سنة ٤٩٥هـ.
(٢) سنة ٥٠١هـ.
(٣) خارج القلعة، علىٰ النهر، قرب الجسر (من شيزر). وكان ذلك سنة ٥٠٣هـ.
(٤) في الأوائل من عسكر أنطاكية. يعني: أخذ يضرب فيهم.
(٥) في المعجم: الحِجْر: أنثىٰ الخيل. فلهذا أضيفت إليها التاء. وردت في الكتاب غير مرة.

والدي، وأنا صبيٌ[1] وهو أول يوم رأيتُ فيه القتال. فنظر الكَزاغَندات في عِيَبِها[2] علىٰ البغال، فما وافقتْه؛ وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب! فتقدم علىٰ حِجْرته وهو معرّىٰ[3]، فاعترضه فارس منهم، فطعن الفرس في قَطاتها[4]. فعضّت علىٰ فأس اللجام[5]، وحملتْ به حتىٰ رمتْه في وسط موكب الإفرنج. فأخذوه أسيراً. وعذّبوه أنواع العذاب. وأرادوا قلع عينه [٢١و] اليسرىٰ. فقال لهم دَنْكري، لعنه الله: «اقلعوا عينه اليمنىٰ حتىٰ إذا حمل التُّرس استترتْ عينه اليسار فلا يبقىٰ يبصر شيئاً!»[6]. فقلعوا عينه اليمنىٰ كما أمرهم، وطلبوا منه ألف دينار، وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خَفَاجة[7]، جواداً من أحسن الخيل. فاشتراه[8] بالحصان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير. فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم. فحرِد دَنكري وقال: «أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم. وهؤلاء سَرْجند[9] (يعني رَجّالة) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم!». قالوا: «إنما خوفنا علىٰ الخيل، وإلا دُسْناهم وقلعناهم». قال: «الخيل لي، من قُتل حصانه

---

(١) كان عمر أسامة آنذاك يقل عن خمسة عشر عاماً.
(٢) العيبة: البُقجة وكل ما تُصَرّ فيه الثياب وما يتصل بها. أو الزبيل من الجلد.
(٣) من لباس الحرب.
(٤) القطاة من الدابة: العجز أو ما بين الوركين.
(٥) فأس اللجام: الحديدة التي علىٰ الحنك من اللجام.
(٦) لعله لهذا ومثله كان قول أسامة في الكتاب: إنه لا يرىٰ في الإفرنج أكثر من بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل». انظر: الفقرة ١٦١ وارجع إلىٰ المقدمة.
(٧) قبيلة اشتهرت خيلها بالجَودة.
(٨) والد أسامة.
(٩) Sergeant.

أخلفتُه عليه». فحملوا علىٰ الناس عدّة حملات، فقُتل منهم سبعون حصاناً، وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم.

٨٤

[فارس إفرنجي يهزم أربعة من فرسان المسلمين]

وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم، يقال له: بدرهوا[١]. فكان أبداً يقول: «ترىٰ ما ألتقي جمعة في القتال؟» وجمعة يقول: «ترىٰ ما ألتقي بدرهوا في القتال؟» فنزل علينا عسكر أنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله. وبيننا وبينهم الماء[٢] ولنا موكب واقف علىٰ شرَفٍ[٣] مُقابلهم. فركب فارس من الخيام وسار حتىٰ وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم: «فيكم جمعة؟» قالوا: «لا». والله ما كان حاضراً فيهم. وكان ذلك الفارس بدرهوا. فالتفت فرأىٰ أربعة فوارس منّا، من ناحيته: يحيىٰ بن صافي الأعسر، وسهل بن أبي غانم الكردي، وحارثة النميري، وفارس آخر. فحمل عليهم فهزمهم. ولحق واحداً منهم طعنه طعنة فَشِلَة[٤]، ما ألحقه حصانُه ليمكّن الطعن. وعاد إلىٰ الخيام.

ودخل أولئك النفَر في البلد فافتضحوا، واستخفهم الناس، ولاموهم، وأزرَوا بهم. قالوا: «أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد! كنتم افترقتم له، فكان طعن واحداً منكم، وكان الثلاثة قتلوه. ولا قد افتضحتم». وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري.

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا

---

(١) لعله Pedrovant فارس صليبي معاصر لأسامة.

(٢) نهر العاصي.

(٣) مرتفَع.

(٤) ضعيفة منحرفة.

يطمعون فيها. فانتخَوا، وقاتلوا، واشتهروا في الحرب. وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة.

وأما بدرهوا فإنه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد أنطاكيّة. فخرج عليه الأسد من غاب في الرُّوج[1]، في طريقه، فخطفه عن بغلته، ودخل به إلىٰ الغاب أكله، لا رحمه الله!

٨٥

[الأجل موقوت: لا يؤخره إحجام ولا يقدّمه إقدام]

ومن إقدام الرجل الواحد علىٰ الجمع الكثير: فمن ذلك [٢١ظ] أن إسباسْلار مودود[2] ﵀ نزل بظاهر شيزر، يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة. وقد قصده دَنْكري، صاحب أنطاكية، في جمع كثير. فخرج إليه عمي ووالدي، رحمهما الله، وقالا: «الصواب أن ترحل (وكان نازلاً شرقي البلد علىٰ النهر) وتنزل في البلد[3]، ويضرب العسكر خيامهم علىٰ السطوحات في المدينة! ونلقىٰ الإفرنج بعد أن نُحرّز[4] خيامنا وأثقالنا[5]». فرحل ونزل كما قالا له. وأصبحا خرجا إليه، وخرج

---

(١) إلىٰ الغرب من حلب بينها وبين المعرة، سهل ممتد كانت فيه غابات متصلة بسهل الغاب علىٰ ما يبدو. انظر: («معجم البلدان» ٣/ ٧٦).

(٢) شرف الدين مودود بن ألتونتكين حاكم الموصل باسم السلطان السَّلجوقي. في أصبهان، أرسله السلطان علىٰ رأس عسكر لمحاربة دَنْكري Tancred استجابة لطلب الخليفة العباسي. ويذكره أسامة من بعد، في مواضع متعددة. (إسباسلار: فارسية. اسفهسلار، معناها: مقدّم العسكر). انظر: الفقرة (٨٠). وارجع إلىٰ («الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٤٨٥).

(٣) البلد: هو القسم الواقع ضمن القلعة، من شيزر. والمدينة: القسم الواقع علىٰ النهر، قرب الجسر.

(٤) يقصد: نؤمن.

(٥) الثَقَل: متاع المسافر وحشمه.

من شيزر خمسة آلاف راجل مُعَدّين. ففرح بهم إسباسْلار وقويت نفسه.

وكان معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجال جياد. فصفّوا من قِبْليّ الماء، والإفرنج نزول شماليّه، فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلما كان الليل رحلوا راجعين إلىٰ بلادهم، والناس حولهم، فنزلوا علىٰ تل التُّرْمُسي[1]. فمنعوهم الورود كما عملوا بالأمس. فرحلوا في الليل، ونزلوا علىٰ تل التلول[2]، والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير: فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود. ورحلوا في الليل متوجهين إلىٰ أفامية. ففزَع إليهم العسكر واحتاطوا بهم، وهم سائرون. فخرج منهم فارس واحد فحمل علىٰ الناس حتىٰ توسّطهم، فقتلوا حصانه وأثخنوه بالجراح، فقاتل وهو راجل حتىٰ وصل إلىٰ أصحابه. ودخل الإفرنج أرضهم. وعاد المسلمون عنهم. ومضىٰ إسباسلار مودود رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ دمشق.

فجاءنا بعد أشهر كتاب دَنكري، صاحب أنطاكيّة، مع فارس معه غلمان وأصحاب، يقول: «هذا فارس محتشم من الإفرنج، وصل حَجَّ ويريد الرجوع إلىٰ بلاده. وسألني أن أسيّره إليكم يبصر فرسانكم. وقد نَفّذتُه. فاستوصوا به». وكان شاباً حسن الصورة حسن اللباس؛ إلا أن فيه آثار جراح كثيرة. وفي وجهه ضرب سيف قد قدّت من مفرِقه إلىٰ حَكَمته[3]. فسألت عنه فقالوا: «هذا الذي حمل علىٰ عسكر إسباسْلار مودود، وقتلوا حصانه، وقاتل حتىٰ رجع إلىٰ أصحابه». فتعالىٰ الله القادر علىٰ ما يشاء كيف شاء، لا يؤخر الأجلَ الإحجامُ ولا يقدِّمه الإقدام!

❁ ❁ ❁

---

(١) لم يرد اسمه في التواريخ. والمعروف اليوم قرية التريمسة علىٰ طريق الغاب. فلعل للتلّ القديم صلة بها.

(٢) لم يرد اسمه في التواريخ أيضاً. ولكن تلاً طويلاً يقع علىٰ بعد ٥كلم من قرية التريمسة. ويظن أنه هو.

(٣) ما يحيط بالحنكين من الوجه، أو مقدّم الوجه.

ومن ذلك ما حكاه لي العُقاب الشاعر، رجل من أجنادنا من العرب، قال: خرج أبي من تدمر[1] يريد سوق دمشق، ومعه أربعة فوارس وأربعة رَجّالة، وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها. [٢٢و] قال: بينا نحن نسير إذا فارس مقبل من صدر البرّية، فجاء يسير حتىٰ صار بالقرب منا، فقال: خَلّوا عن الجمال! فصِحنا عليه وشتمناه. فأطلق حصانه علينا، فطعن منا فارساً رماه عن فرسه وجرحه. فطردناه، فسبقَ. ثم عاد إلينا وقال: خَلّوا عن الجمال! فصِحنا عليه وشتمناه. فحمل علينا، فطعن راجلاً منا أوثقه بالجُرح[2]، وتبعناه فسبقناه. ثم عاد وقد بطَل منا رجلان، فأطلق علينا[3]. فاستقبله رجل منا، فطعنه صاحبنا، فوقعت الطعنة في قَرْبوس سرجه[4]، فانكسر رمح صاحبنا. وطعنه الفارس فجرحه. ثم حمل علينا فطعن رجلاً منا فصرعه. وقال خَلّوا عن الجمال وإلا أفنيتكم! قلنا: «تعال خذ نصفها». قال: «لا، احبِسوا منها أربعةً اتركوها وقوفاً، وخذوا أربعةً وامضوا! ففعلْنا، وما صدّقْنا نخلُص بما سَلِم معنا. وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه، ما لَنا فيه حيلة ولا طمع! وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال!

٨٦

[شاهد آخر على إقدام الرجل بمفرده على الجمع الكثير]

ومن ذلك: أن دَنكري، صاحب أنطاكيّة، أغار علىٰ شيزر، فاستاق

---

(١) المدينة العربية الأثرية المعروفة في بادية الشام، إلىٰ الشرق من حمص، علىٰ بعد أقل من مئتي كيلو متر منها. تاريخها طويل. انظر: («معجم البلدان» ٢/ ١٧).

(٢) يقصد: منعه جرحه من الحركة.

(٣) انطلق بفرسه نحوهم.

(٤) قَربوس السرج: قسمه المقوّس من أمام الراكب ومن خلفه. والجمع: قرابيس.

دوابّ[1] كثيرة وقتل وسبىٰ. ونزل علىٰ قرية يقال لها: زلين[2]، فيها مَغار[3] معلّقة، لا يوصل إليها، في وسط الجبل. ما إليها من فوق منزل، ولا إليها من تحت مطلع. إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال. وذلك يوم الخميس، العشرين من ربيع الآخر، سنة اثنتين وخمسمائة. فجاء شيطان من فرسانهم إلىٰ دنكري فقال: «اعمل لي صندوقاً من خشب، وأنا أقعد فيه، ودُلّوني من الجبل إليهم بسلاسل أوثِقوها في الصندوق، حتىٰ لا يقطعوها بالسيوف فأسقط». فعملوا له صندوقاً ودلّوه بالسلاسل المعلقات إلىٰ المَغار، فأخذها[4] وأَنزلَ كل من كان فيها إلىٰ دَنْكري. وذلك أن المَغار بَهْوٌ ما فيه مكان يستتر الناس فيه. وذلك يرميهم بالنَشّاب، فلا تقع نشّابة إلا في إنسان، لضيق الموضع وكثرة الناس فيه!

٨٧

[عم أسامة يفتدي أسيرة مسلمة، كان تزوجها، من أيدي الإفرنج]

وكان ممن أُسر، في جملة من أُسر، ذلك اليوم، امرأة كانت من أصل جيد من العرب، وُصفتْ لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل ذلك، وهي في بيت أبيها. فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها. وعادت تصفها [٢٢ظ] وجمالها وعقلها، إما لرغبة[5] بذلوها

(١) في الأصل: «دوابّاً».
(٢) يبدو أنها كانت قرية قريبة من شيزر. وكثير من القرىٰ القريبة منها، اندثرت أو تبدلت أسماؤها اليوم.
(٣) المغارة. وجمعها: مغاور ومغارات.
(٤) يعني: المغار.
(٥) لعلها: رغيبة: الأعطية، يُرَغَّب بها من يعطاها.

لها، وإما أرَوها[1] غيرها. فخطبها عمي وتزوجها. فلما دخلت عليه رأىٰ غير ما وُصف له منها. ثم هي خرساء. فوفّاها مهرها، وردها إلىٰ قومها.

فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم فقال عمي: «ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفتْ عليّ في أسر الإفرنج». فاشتراها رحمه الله بخمسمائة دينار، وسلّمها إلىٰ أهلها.

❁ ❁ ❁

ومن ذلك ما حدثني به المؤيَّد الشاعر البغدادي[2] بالموصل سنة خمس وستين وخمس مئة قال: «أَقطعَ الخليفةُ والدي ضيعة وهو يتردد إليها وبها جماعة من العيّارين[3] يقطعون الطريق، ووالدي يصانعهم لخوفه منهم، ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه. فنحن يوماً جلوس بها أقبل غلام تركي علىٰ حصانه ومعه بغل رَحْلٍ[4] عليه خُرج، وجارية راكبة فوق الخُرج. فنزل وأنزل الجارية فقال: يا فتيان، أسعدوني علىٰ حَطّ الخُرج. فجئنا حطَطناه معه، وإذا به كله دنانير ذهب ومَصاغ! فجلس هو والجارية أكلوا شيئاً. ثم قال: أسعدوني علىٰ رفع الخُرج، فرفعناه معه. فقال لنا: كيف طريق الأنبار[5]؟ فقال له والدي: الطريق هاهنا، وأشار إلىٰ الطريق. ولكنْ في الطريق ستون عَيّاراً أخاف عليك منهم،

---

(١) أرَوه. هكذا يقتضي سياق الكلام.

(٢) من شعراء القرن السادس للهجرة (ت٥٩٩هـ). له ذكر في بعض تواريخ العصر. انظر: («ذيل الروضتين» لأبي شامة ص ٣٦).

(٣) الصعاليك وقاطعو الطريق والبطّالون.

(٤) الرَّحْل: ما يجعل علىٰ ظهر البعير كالسَّرج، وبغل رحل: البغل الذي يوضع الرحل علىٰ ظهره ويهيأ للركوب.

(٥) ما تزال الأنبار القديمة قائمة آثارها علىٰ الفرات في العراق. والأنبار الحديثة محافظة قاعدتها الرمادي. انظر: («معجم البلدان» ١/ ٢٥٧).

فضرط له[1] وقال: أنا أخاف من العيارين.

فتركه والدي ومضىٰ إلىٰ العيّارين أخبرهم خبره وما معه. فخرجوا حتىٰ عارضوه في الطريق. فلما رآهم أخرج قوسه وترك فيه سهماً واستوفاه، يريد يرميهم، فانقطع الوتر. فهجم عليه العيّارون، فانهزم. وأخذوا البغل والجارية والخُرج. فقالت لهم الجارية: يا شباب! بالله لا تَهتِكوني. وبيعوني نفسي والبغلَ أيضاً بعِقد جوهر مع التركي قيمته خمس مئة دينار، وخذوا الخُرج وما فيه. قالوا: قد فعلنا. قالت: ابعثوا معي بعضكم حتىٰ أتحدث مع التركي وآخذ العِقد. فبعثوا معها من يحفظها حتىٰ دنت من التركي وقالت له: قد اشتريتُ نفسي والبغل بالعِقد الذي في ساق موزك[2] (خُفّك) اليسار. فادفعه لي. قال: نعم! وانفسح عنهم وأخرج الساق موزاً وإذا فيه وتر قوس، فركّبه علىٰ قوسه ورجع إليهم. فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحداً واحداً حتىٰ قتل منهم ثلاثة وأربعين رجلاً! ونظر فإذا والدي في [٢٣و] الجماعة الباقين من العيّارين فقال: وأنت فيهم، فتشتهي أعطيك نصيبك من النشاب؟ قال: لا! قال: خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين أمض بهم إلىٰ شِحنة[3] البلد يشنقهم. وأولئك قد زنهروا[4] ورموا سلاحهم. وساق بغله بما عليه ومضىٰ. وقد أرسل الله تعالىٰ علىٰ العيّارين منه مصيبة وسَخْطة عظيمة».

---

(١) أخرج من فمه صوتاً. في المعجم: (أضرط به) لعدم المبالاة.

(٢) موزا (الخف ـ فارسية) والساق موزا: ما يغطي الساق من الجلد أو القماش ويلف عليه. ما بين القوسين ليس من أصل النص علىٰ الأغلب. وفي («صبح الأعشىٰ» ٤/ ١٠): «السرموزة».

(٣) الشرطة ورجال الضابطة وحفظة الأمن.

(٤) انفتحت أعينهم علىٰ آخرها وارتسم فيها الخوف والإنكار والعجَب.



[مَثَل ثالث على إقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير]

ومن ذلك: ما حضرته في سنة تسع وخمسمائة، وقد خرج والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعسكر إلىٰ إسباسْلار بُرسُق بن بُرسُق[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد وصل بأمر السلطان[٢] إلىٰ الغَزاة[٣]، وهو في خلْق عظيم، وجماعة من الأمراء: منهم أمير الجيوش أوزبه[٤]، صاحب الموصل، وسنُقُر دِراز، صاحب الرَّحبْة[٥]، والأمير كُنْدُغدي، والحاجب الكبير بَكتِمُر، وزَنَكي بن بُرسُق، وكان من الأبطال، وتَميرك، وإسماعيل البَكْجي، وغيرهم من الأمراء. فنزلوا علىٰ كفَرطاب، وفيها أخوا ثيوفل[٦]، والإفرنج. فقاتلوها، ودخَلوا الخراسانية في الخندق ينقبون، والإفرنج قد أيقنوا بالهلاك. فطرحوا[٧] النار في الحِصْن فأحرقوا السقوف. ووقعت علىٰ الخيل والدوابّ والغنم والخنازير والأُسارىٰ، فاحترق الجميع. وبقي الإفرنج معلّقين في أعلاه علىٰ الحيطان.

فوقع لي أن أدخل في النَّقْب أُبصره. فنزلت في الخندق، والنشاب

---

(١) صاحب همذان السَّلجوقي. وإسباسلار: فارسية، معناها: قائد العسكر (انظر: الفقرة ٨٠). وكان بُرْسق بن بُرْسقُ من أشهر قواد السَّلجوقيين، وحجب زمناً لألب أَرْسْلان السلطان السَّلجوقي الثاني. وهو أخو زَنكي بن بُرسُق الوارد اسمه بعد قليل. («الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٥٠٩، و«زامباور» ص٣٣٧).

(٢) محمد شاه السَّلجوقي، من قاعدته في أصبهان. انظر: («زامباور» ص ٣٣٧).

(٣) الغزو. يقصد: القتال وجهاد الإفرنج.

(٤) أوزبك: قائد جيش (تترية)، ويرد اسمه في بعض التواريخ: أمير الجيوش بك.

(٥) علىٰ الفرات، بين الرقة وعانة (رحبة مالك بن طوق) وهي تجاه دير الزور، بناها مالك بن طوق (ت٢٥٩هـ) بمساعدة الرشيد في القرن الهجري الثالث، وفيها قلعة حصينة. انظر: («معجم البلدان» ٣/ ٣٤).

(٦) Theophil صاحب كفرطاب، شمالي حماة (وسيذكره بعد باسم: توفيل).

(٧) أي: الخراسانية.

والحجارة مثل المطر علينا، ودخلت النَّقب. فرأيت حِكْمة عظيمة: قد نقبوا من الخندق إلىٰ الباشورة[1]، وأقاموا في جوانب النقْب قائمين وعليهما عرضيّة تمنع من تهدّم ما فوقها. ونظموا النَّقْب بالأخشاب كذلك إلىٰ أساس الباشورة. ثم نقبوا حائط الباشورة وعلقوه[2]، وبلغوا أساس البرج. والنقْب ضيق إنما هو طريق إلىٰ البرج. فلما وصلوه[3] وسّعوا النَّقْب في حائط البرج وحمّلوه علىٰ الأخشاب، ويُخرجون نُقارة الأحجار أولاً فأولاً. وأرض النَّقْب من النقر[4] قد صارت طيناً. فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية. ولو عرفوني ما تركوني أخرج إلا بغرامة كثيرة لهم.

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النَّقب بذلك الخشب. وأصبحوا طرحوا فيه النار. وقد لبسنا[5] وزحفنا إلىٰ الخندق [٢٣ظ] لنهجم الحصنَ إذا وقع البرج، وعلينا من الحجارة والنشّاب بلاء عظيم. فأول ما عملتْ النار[6] صار يسقط ما بين الأحجار من تكحيل الكلس. ثم انشق واتسع الشَّقّ ووقع البرج، ونحن نظن أنه إذا وقع تمكنّا من الدخول عليهم. فوقع الوجه البرّاني وبقي الحائط الجُوّاني كما هو. فوقفنا إلىٰ أن حَمِيتْ علينا الشمس، ورجعنا إلىٰ خيامنا، وقد نالنا من الحجارة أذىً كثير.

فمكثنا إلىٰ الظهر، وإذا قد خرج من العسكر[7] راجل واحد معه سيفه وتُرسه. فمضىٰ إلىٰ حائط البرج الذي قد وقع، وقد صارت جوانبه كدَرَج السلّم، فتوقّل[8] فيه حتىٰ صعِد إلىٰ أعلاه. فلما رآه

---

(١) تكون في مداخل الحصون، ظاهر سور البلد. تربط فيها الخيول، ويختفي وراءها الجنود عند القتال.

(٢) كذا في الأصل. لعلها: وعمّقوه. (٣) وصلوا البرج.

(٤) في الأصل: «النقش». (٥) الدروع.

(٦) اشتعلت بحدّة. (٧) عسكر المسلمين.

(٨) صعِد. والتوقل: الصعود بصعوبة وثقل.

رجال العسكر تبعه منهم قدر عشَرة رجال تسرّعوا بعدّتهم، فصعِدوا واحداً وراء واحد حتىٰ صاروا علىٰ البرج، والإفرنج لا يشعرون بهم. ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا. فكبّروا علىٰ البرج قبل أن يتكامل الناس عندهم، ففزَعَ إليهم الإفرنج فرموهم بالنشّاب، فجُرح الذي طلع في الأول، فنزل. وتتابع الناس في الطلوع، وصاروا مع الإفرنج علىٰ بَدَن[١] من حيطان البرج، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس[٢]، ومعه تُرسه وقُنطاريته، يحمي من دخول البرج. وعلىٰ البرج جماعة من الإفرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة. فَصعِد رجل من الأتراك، ونحن نراه، ومشىٰ والبلاء يأخذه، إلىٰ أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نِفط. فرأيته كالشهاب علىٰ تلك الحجارة البُهْم[٣]، وقد رموا[٤] نفوسهم إلىٰ الأرض خوفاً من الحريق. ثم عاد.

وطلع آخر[٥] يمشي علىٰ البدن ومعه سيف وتُرس. فخرج عليه من البرج، الذي في بابه الفارس، رجل منهم عليه زرديتان، وبيده قُنطارية، وما معه ترس، فلقيه التركي وفي يده سيفه. فطعنه الإفرنجي. فدفع[٦] سنان القُنطارية عنه بالترس ومشىٰ إلىٰ الإفرنجي وقد دخل، علىٰ الرمح[٧]، إليه. فولّىٰ[٨] عنه، وأدار ظهره، وأمال ظهره كالراكع، خوفاً علىٰ رأسه. فضربه التركي ضربات ما عملت فيه شيئاً. ومشىٰ[٩] حتىٰ

---

(١) لعله يريد: رؤوس حيطان البرج أو الأسوار بين الأبراج. والبدن في لغة العصر: السور.

(٢) درعه.

(٣) لعله يريد سواد الحجارة (البَهِيم: الأسود) أو صلادتها وملاستها (البهمة: الصخرة الصلدة الملساء). والمعنىٰ الأول أقرب إلىٰ المراد.

(٤) يقصد: الإفرنج الذين علىٰ البرج. (٥) من عسكر المسلمين الأتراك.

(٦) التركي. (٧) لعله يعني: برغم وجود الرمح بينهما.

(٨) الإفرنجي. (٩) التركي.

دخل البرج. وقويَ عليهم الناس وتكاثروا. فسلّموا الحِصن، ونزل الأُسارىٰ إلىٰ خيام بُرسق بن بُرسق.

فشاهدت ذلك الذي خرج بقُنطاريته علىٰ التركي، وقد جمعوهم في سُرادق بُرسق بن بُرسق، ليقطعوا علىٰ نفوسهم ثمناً يَخلُصون به. فوقف، وكان سَرْجَنْديّاً[1] وقال: «كم تأخذون مني؟» قالوا: «نريد ستمائة دينار». فضرط[2] لهم وقال: «أنا سَرْجَنْدي، ديواني كل شهر ديناران. [٢٤و] من أين لي ستمائة دينار؟» وعاد جلس بين أصحابه. وكان خِلْقَة عظيمة.

فقال الأمير السيد الشريف[3]، وكان من كبار الأمراء، لوالدي، رحمهما الله: «يا أخي! ترىٰ هؤلاء القوم؟ نعوذ بالله منهم!».

٨٩

[خذلان عسكر المسلمين بعد انتصارهم]

فقضىٰ الله سبحانه، أن العسكر[4] رحل عن كفَرطاب إلىٰ دانيث[5]. وصبّحهم عسكر أنطاكيّة، يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر. وكان تسليم كفرطاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر، فقُتل الأمير السيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخلق كثير من المسلمين.

وعاد الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكنت فارقته من كفَرطاب، وقد كُسر العسكر.

---

(١) Sergeant: راجل. الجندي من المشاة المستأجرين لخوض الحملات لمدة محدودة، وترد في الكتاب في غير موضع.

(٢) أخرج الصوت من فمه.

(٣) يبدو أنه من كبار أمراء جيش بُرسق بن بُرسق. وسيرد ذكره في الفقرة التالية.

(٤) عسكر المسلمين.

(٥) من أعمال حلب آنذاك. بين حلب وكفرطاب. انظر: (الخريطة و«معجم البلدان» ٢/ ٤٣٤).

ونحن في كفرطاب نحرّزها[1] نريد نَعمُرها، وكان إسباسلار سلمها إلينا، ونحن نخرج الأُسارىٰ، كل اثنين في قيد، من أهل شيزر. وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه. وذا قد مات في النار. فرأيت منهم عِبْرة عظيمة. فتركناها وعُدنا إلىٰ شيزر مع الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقد أُخذ كل ما كان معه من الخيام والجمال والبغال والبَرْك[2] والتجمّل[3] وتفرّق العسكر.

٩٠

[سبب الخذلان: خيانة لؤلؤ الخادم]

وكان ما جرىٰ عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم[4]، صاحب حلب، ذلك الوقت. قرّر، مع صاحب أنطاكيّة[5]: أن يحتال[6] عليهم ويفرّقهم[7]، ويخرج ذلك[8] من أنطاكيّة بعسكره يكسرهم. فأرسل[9] إلىٰ إسباسلار بُرسق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «تُنفذ لي بعض الأمراء، ومعه جماعة من العسكر، أسلّم إليه حلب. فإني أخاف من أهل البلد ألا يطاوعوني علىٰ التسليم. فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوّىٰ بهم علىٰ الحلبيين». فنفذ إليه أمير الجيوش أوزبه[10] ومعه ثلاثة آلاف فارس وصبّحهم روجار، لعنه الله، كسرهم لنفاذ المشيئة.

---

(١) يريد: نحصّنها.
(٢) آلة السفر وعدته. في الأصل: جماعة الإبل الباركة.
(٣) ما يتجمّل به من الفرش والأثاث والحلي.
(٤) بدر الدين لؤلؤ الذي خلفَ رضوان بن تُتُش في إمارة حلب سنة ٥١٢هـ. وتُتُش هو ابن ألب أرْسلان السَّلجوقي، ثاني سلاطين السَّلاجقة. وهو الذي استولىٰ علىٰ حلب سنة ٤٦٣هـ. انظر: («زامباور» ص ٥٢ و٣٣٤).
(٥) روجار Roger ملك أنطاكية منذ سنة ٥٠٦هـ.
(٦) لؤلؤ الخادم.
(٧) يعني: عسكر المسلمين.
(٨) روجار.
(٩) لؤلؤ.
(١٠) أوزبك. انظر: الفقرة (٨٨).

وعاد الإفرنج، لعنهم الله، إلىٰ كَفرطاب عمروها وسكنوها.

٩١

[خلاص أسرى الإفرنج في موقع كفرطاب]

وقدر الله تعالىٰ أن خلّص الأسرىٰ من الفرنج الذين أُخذوا من كفرطاب. فإن الأمراء اقتسموهم، وأبقوهم معهم ليشتروا[١] أنفسهم. إلا ما كان من أمير الجيوش: فإنه تقدّم الذين طلعوا في سهمه، ضربَ رقاب جميعهم قبل [أن] يتوجه إلىٰ حلب. وافترق العسكر، مَن سَلم منهم من دانيث[٢]، وتوجهوا إلىٰ بلادهم. فذلك الرجل الذي طلع وحده إلىٰ برج كفرطاب، كان سبب أخْذها[٣]!

٩٢

[مثل رابع: فارس واحد مسلم يدخل على قافلة من الإفرنج، في مغارة!]

ومن ذلك: كان في خدمتي رجل يقال له: نُمَير العلّاروزي، رجل شجاع أيِّد[٤]، نهض، هو وقوم من رجال شيزر، إلىٰ الرُّوج[٥]، إلىٰ الإفرنج. فعثروا في البلد علىٰ قافلة من الإفرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعض: «من يدخل عليهم؟» قال نُمَير: «أنا». فدفع إليهم سيفه وتُرسه، وجذب سكّينه، ودخل [٢٤ظ] عليهم. فاستقبله رجل منهم.

---

(١) يقصد: الأسرىٰ.

(٢) بين حلب وكفرطاب. انظر: الفقرة (٨٩ ح ٨).

(٣) نهاية ما بدأه في الفقرة ٨٨ (مثل ثالث علىٰ إقدام الرجل الواحد علىٰ الجمع الكثير).

(٤) قوي.

(٥) بين حلب والمعرة. انظر: الفقرة (٨٤ ح ٢).

فضربه[١] بالسكين رماه، وبرك عليه يقتله، وخلفه إفرنجي معه سيف. فضربه[٢]، وعلىٰ ظهر نمير مِزْود فيه خبز، فهو يردّ عنه! فلما قَتَل الرجل الذي تحته التفت إلىٰ صاحب السيف يريده. فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخدّه وأنفه وشفته العليا. فتدلىٰ جانب وجهه علىٰ صدره. فخرج من المغارة، إلىٰ أصحابه، فشدّوا جرحه، ورجعوا به، في ليلة باردة ماطرة، فوصل شيزر وهو علىٰ تلك الحالة. فخيّط وجهه، وداوىٰ جراحه، فبرأ وعاد إلىٰ ما كان عليه، إلا أن عينه تلفت. وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الإسماعيلية من حصن شيزر. وقد تقدم ذكرهم[٣].

٩٣

[مثل خامس: رجل واحد يهجم على جمع من الجند]

وحدثني الرئيس[٤] سهري، وكان في خدمة الأمير شمس الخواص[٥] ألتونتاش، صاحب رَفَنِيّة[٦]. وكان بينه وبين عَلَم الدين علي كُرد. صاحب حماة، عداوة وخُلْف. قال:

«أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدّر بلد رَفَنِيّة، وأُبصر زرعه. فخرجت، ومعي قوم من الجند، قدّرت البلد. ونزلت ليلةً، عند

---

(١) نُمَير العلّاروزي. (٢) الإفرنجي.

(٣) ليس فيما في أيدينا من الكتاب من ذكرهم بشيء، وإن كانت فيه إشارات إلىٰ غارة الإسماعيلية علىٰ شيزر سنة ٥٠٢هـ. فلعل وصفها كان في الجزء الضائع من أول مخطوطة الكتاب. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٤٧٢).

(٤) رئيس المقدّرين للزروع.

(٥) جنوبي غربي حماة. انظر الخريطة. ورد ذكرها غير مرة في الكتاب. وانظر: الفقرة (٤٧ح ٦).

(٦) انظر: («زامباور» ص ٥٢).

المساء، بقرية من قرىٰ رَفَنِيّة، لها برج صعِدنا إلىٰ سطحه. تعشينا. وجلسنا وخيلنا علىٰ باب البرج. فما شعرنا إلا برجل قد أشرف علينا من بين شراريف[1] البرج. فصاح علينا، ورمىٰ نفسه إلينا، وفي يده سكّينة. فانهزمْنا، ونزلنا في السلّم الأول، وهو خلفنا. ونزلنا في السلم الثاني، وهو خلفنا، حتىٰ وصلنا الباب. فخرجنا، وإذا قد رتّب لنا رجالاً علىٰ الباب، فقبضونا جميعَنا، وأوثقونا رِباطاً، ودخلوا بنا إلىٰ حماة إلىٰ عليّ كرد. فما سَلِمنا من ضرب الرقبة إلا بفُسحة الأجل! فحبَسنا وغرّمنا. وكان الذي فعل بنا ذلك رجل واحد!».

٩٤

[مثل سادس: رجل واحد يستولي على حصن]

ومثل ذلك جرىٰ في حِصن الخِرْبة[2]. وكانت لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[3] رَحِمَهُ اللَّهُ. وفيها الحاجب عيسىٰ واليها. وهو حصن منيع علىٰ صخرة مرتفعة من جميع جوانبه، يُطلع إليه بسلّم خشب. ثم يُرفع السلّم فلا يبقىٰ إليها طريق. وليس مع الوالي في الحصن سوىٰ ابنه وغلامه وبواب الحصن. وله صاحب يقال له: ابن المرجي، يطلُع إليه، في الوقت بعد الوقت، في أشغاله. فتحدث[4] مع الإسماعيلية، وقرّر له[5] معهم قراراً أرضاه، من مال وإقطاع، ويسلّم إليهم حصن الخربة! ثم جاء إلىٰ

---

(١) يقصد: الشرفات، وما يُطَلّ منه، من البرج.

(٢) كان أسامة ذكر برج خريبة، في آخر الفقرة (٥٩). ولكنه يذكر قرية خربة، من بعد، في الفقرة (٩٦). والظاهر أن هذا الحصن كان قريباً من حماة. وقد أشرنا من قبل إلىٰ كثرة الخِربات في المنطقة من حول الحصون والأبراج جراء المعارك والزلازل والاجتياحات.

(٣) صاحب كفَرطاب. انظر: الفقرة (٥٧).

(٤) يقصد: الحاجب ابن المرجي. (٥) يقصد: لنفسه.

الحصن فاستأذن وطلع. فبدأ بالبواب قتله[1]. ولقيه الغلام فقتله. ودخل علىٰ الوالي قتله. وعاد إلىٰ ابن الوالي قتله، وسلّمه إلىٰ [٢٥و] الإسماعيلية! وقاموا له بما كانوا قرّروه له. والرجال إذا قَوّوا نفوسهم علىٰ شيء فعلوه!

٩٥

[تفاضل الرجال في الهمم والنخوات
نخوة مَكارٍ نصراني]

ومن ذلك: تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم. وكان الوالد رَحِمَهُ اللهُ يقول لي: «كل جيد من سائر الأجناس، من الرديء من جنسه ما يكون بقيمته. مثل حصان جيد يَسوىٰ مائة دينار: خمسة حصن رديئة تَسوىٰ مائة دينار. وكذلك الجِمال. وكذلك أنواع الملبوس. إلا ابن آدم! فإن ألف رجل أردياء لا يساوون رجلاً واحداً جيداً». وصدق، رَحِمَهُ اللهُ.

كنت[2] قد نفّذت مملوكاً لي في شغل مهم إلىٰ دمشق، واتفق أن أتابِك زَنكي رَحِمَهُ اللهُ أخذ حماة ونزل علىٰ حمص. فاستدّت[3] الطريق علىٰ صاحبي، فتوجه إلىٰ بعلبك، ومنها إلىٰ طرابلس. واكترىٰ بغل رجل نصراني يقال له: يونان. فحمله[4] إلىٰ حيث اكتراه. وودّعه ورجع. وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصّل إلىٰ شيزر من حصون الجبل. فلقيهم إنسان فقال لأرباب الدواب: «لا تمضوا! فإن في طريقكم، في الموضع الفلاني، عِقد حرامية، في ستين سبعين رجلاً، يأخذونكم». قال: «فوقفنا لا ندري ما نعمل: ما تطيب نفوسنا بالرجوع، ولا نجسر علىٰ المسير من الخوف. فنحن كذلك إذا الريّس يونان قد أقبل مسرعاً. فقلنا: ما لك يا ريّس؟ قال: سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيّركم. سيروا! فسِرنا معه إلىٰ ذلك الموضع.

---

(١) أي: قتل الغلامَ. (٢) حوالي سنة ٥٢٤هـ.
(٣) أي: انغلقت. وقد تكون: «انسدّت». (٤) يونان.

وإذا قد نزل من الجبل خَلْق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا. فلقيهم يونان وقال: يا فتيان! موضعَكم! أنا يونان، وهؤلاء في خِفارتي. والله ما فيكم مَن يتقرّب منهم! فردّهم، والله، جميعَهم عنا. وما أكلوا من عندنا رغيف خبز، ومشىٰ معنا يونان حتىٰ أمِنّا. ثم ودّعَنا وانصرفنا».

٩٦

[ووفاء بدوي]

وحكىٰ لي صاحبي هذا، عن ابن صاحب الطور[١]، وكان طلعَ معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، قال: حدثني ابن والي الطور (وهي ولاية لمصر بعيدة، كان الحافظ لدين الله ﷺ إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولّاه الطور. وهو قريب من بلاد الإفرنج) قال: «وَلِيَها والدي، وخرجت أنا معه إلىٰ الولاية. وكنت مغرىً بالصيد. فخرجت أتصيّد. فوقع بي قوم من الإفرنج، فأخذوني ومضَوا بي إلىٰ بيت جبريل[٢]. فحبسوني فيه، في جُبّ وحدي. وقطعَ عليّ صاحب بيت جبريل ألفي دينار. فبقيت في الجُبّ سنة لا يَسأل عني أحد. فأنا في بعض الأيام في الجُبّ، وإذا قد رُفع عنه الغطاء [٢٥ظ] ودُلِّيَ إليّ رجل بدوي. فقلت: من أين أخذوك؟ قال: من الطريق! فأقام عندي يُوَيمات. وقطعوا عليه خمسين ديناراً. فقال لي يوماً من الأيام: تريد تعلم أنّ[٣] ما يخلّصك من هذا الجُبّ إلا أنا؟ فخلّصْني حتىٰ أخلّصك. فقلت في نفسي: رجل قد وقع في شدّةٍ يريد لروحه الخلاص. فما جاوبته.

---

(١) جبل سيناء.

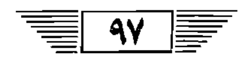
(٢) في منتصف الطريق بين غزة وبيت المقدس. وتلفظ أحياناً: بيت جبرين. («معجم البلدان» ١/ ٥١٩)

(٣) أنه.

ثم بعد أيام أعاد عليّ ذلك القول. فقلت في نفسي: والله لأَسعَيَنّ في خلاصه، لعل الله يخلّصني بثوابه. فصِحتُ بالسجّان فقلت له: قل للصاحب[1] أشتهي أتحدث معك. فعاد وأطلعني من الجُبّ وأحضرني عند الصاحب. فقلت له: لي في حبسك سنة ما سأل أحد عني، ولا يدري أنا حيّ أو ميّت. وقد حبَستَ عندي هذا البدوي وقطعتَ عليه خمسين ديناراً، اجعلْها زيادة علىٰ قَطيعتي، ودعني أسيّره إلىٰ أبي حتىٰ يفكّني. قال: أفعل. فرجعت عرّفت البدوي. وخرج ودّعني ومضىٰ.

فانتظرت ما يكون منه شهرين، فما رأيت له أثراً، ولا سمعت له خبراً. فيئست منه. فما راعني ليلة من الليالي إلا وهو قد خرج عليّ من نَقْب في جانب الجُبِّ، وقال: قم! والله لي خمسة أشهر[2] أحفِر هذا السّرَب[3] من قرية خَرِبة، حتىٰ وصلت إليك. فقمت معه، وخرجنا من ذلك السّرَب. وكسر قيدي، وأوصلني إلىٰ بيتي. فما أدري ممّ أعجب: من حسن وفائه، أو من هدايته حتىٰ طلع نَقبه من جانب الجُب»!

وإذا قضىٰ الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه!



٩٧

[أسامة يفتدي مَن يقدر عليه من أسرى المسلمين]

كنت أتردد إلىٰ ملك الإفرنج[4]، في الصلح بينه وبين جمال الدين

---

(١) صاحب بيت جبريل من الإفرنج، وقد تقدم ذكره في الخبر.

(٢) كان أسامة ذكر أن الرجل أقام شهرين في الجب، بعد خلاص البدوي. فالمفترض أن يكون المقام في الجب امتدّ به أشهراً أخرىٰ.

(٣) الطريق المحفورة تحت الأرض.

(٤) فلك الخامس ملك بيت المقدس (Fulk d'anjow).

محمد بن تاج الملوك[1] رحمه الله ليدٍ كانت للوالد رحمه الله على بغدوين[2] الملك، والد الملكة امرأة الملك فُلك بن فُلك. فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إليّ لأشتريهم. فكنت أشتري منهم من سهّل الله خلاصه. فخرج شيطان منهم، يقال له: كليام جيبا[3]، في مركب له يغزي[4]، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة: نحو أربعمائة نفْس، رجالاً ونساء، فكان يجيء أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدَرت على شرائه، وفيهم رجل شاب يسلّم ويقعد، لا يتكلم. فسألت عنه، فقيل لي: هو رجل زاهد، صاحبه[5] دباغ. فقلت له[6]: «بكم تبيعني هذا؟» قال: «وحق ديني: ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ، جملةً كما اشتريتهما، بثلاثة وأربعين ديناراً»! فاشتريتهما. واشتريتُ لي منهم نفراً. واشتريت للأمير معين الدين[7] رحمه الله منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً، ووزنتُ[8] [٢٦و] ما كان معي، وضمِنتُ عليّ بالباقي.

وجئت إلى دمشق، فقلت للأمير معين الدين رحمه الله: «قد اشتريت لك أُسارىٰ أختصُّك بهم. وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي. إن أردتَهم وزنتَ[9] ثمنهم، وإلا وزنته أنا». قال: «لا! بل أنا

(١) تاج الملوك بوري بن طُغتُكين (تركية. معناها: الباز المقاتل)، أمير دمشق (ت سنة ٥٣٤هـ). وهو أخو شمس الملوك إسماعيل الذي قتلته أمه سنة ٥٢٩هـ لأنه نوىٰ تسليم دمشق إلى الإفرنج. انظر: («زامباور» ص ٤٦ و٣٤٠).

(٢) Baldwin II، والد Melisende التي تزوجت فلك الخامس، المذكور أعلاه، سنة ٥٢٤هـ.

(٣) لعله Guillaume Giba. والاسم غير واضح تماماً في الأصل.

(٤) يغزو. على الدارجة الشائعة إلى اليوم.

(٥) يقصد: الذي يملكه.

(٦) يقصد: للدباغ الذي يملكه.

(٧) أُنُر، أمير دمشق للبوريين من أبناء طُغتكين، قبل أن يستولي عليها نور الدين الشهيد. يرد ذكره كثيراً في الكتاب.

(٨) و(٩) دفعت.

أزن ـ والله ـ ثمنهم. وأنا أرغب الناسِ في ثوابهم». وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسرع الناس إلىٰ فعل خير وكسب مَثوبة. ووزَن ثمنهم.

وعدت بعد أيام إلىٰ عكا، وقد بقي من الأسرىٰ عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً. وفيهم امرأة لبعض الذين خلّصهم الله تعالىٰ علىٰ يدي. فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها. فركبتُ إلىٰ داره، لعنه الله، وقلت: «تبيعني منهم عشرة؟» قال: وحق ديني ما أبيع إلا الجميع». قلت: «ما معي ثمن الجميع، وأنا أشتري بعضهم. والنَّوبة الأخرىٰ أشتري الباقي». قال: «ما أبيعك إلا الجميع». فانصرفت. وقدّر الله، سبحانه، أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم. وسكان ضِياع عكا كلّهم من المسلمين: إذا وصل إليهم الأسير أخفوه، وأوصلوه إلىٰ بلاد الإسلام.

وتطلّبهم ذلك الملعون، فما ظفر منهم بأحد. وأحسن الله، سبحانه، خلاصهم. وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي اشتريتها وما وزنتُ ثمنها، وقد هربتْ فيمن هرب. فقلت: «سلّمْها إليّ وخذ ثمنها!» قال: «ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب!» وألزمني بوزن ثمنها فوزنتُه. وهان عليَّ ذلك لمسرَّتي بخلاص أولئك المساكين.

٩٨

[من عجائب السلامة في آمِد]

ومن عجائب السلامة، إذا جرىٰ بها القَدَر، وسبقتْ بها المشيئة: أن الأمير فخر الدين قَرا أرْسْلان بن سُقْمان بن أُرتُق[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمِل علىٰ مدينة

---

(١) صاحب حصن كَيْفا، في ديار بكر. والأُرتُقيون سلالة تُرْكُمانيّة عملت في خدمة السلاجقة. مؤسسها أُرْتُق (من ديار بكر). ومن أولاده إيلغازي وسُقمان (سُكمان). اتخذ أولاد إيلغازي من ماردين وميافارقين وحلب قاعدة لهم، علىٰ حين استقرت ذرية سُقمان في حصن كَيْفا وماردين. انظر: («زامباور» ص ٣٤٤).

آمِد[1] عدّة مرار[2]، وأنا في خدمته، ولا يبلغ منها مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها: أن أميراً من الأكراد كان مُدَيْوِناً[3] بآمِد، راسله ومعه[4] جماعة من أصحابه. وقرر الأمير[5] أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا[6] إليها، ويطلعهم بالحبال ويملك آمِد. فعوّل فخر الدين في ذلك المهم علىٰ خادم له إفرنجي، يقال له: ياروق، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه. فركب[7] في بعض العسكر وتقدم. وركب باقي الأمراء فتبعوه. وتوانىٰ هو في السير، فسبقه الأمراء إلىٰ آمِد. فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج، دلّوا إليهم الحبال، وقالوا: «اطلعوا»! ما طلع منهم أحد! فنزلوا كسروا أقفال [٢٦ظ] باب المدينة وقالوا: «ادخلوا!» ما دخلوا! كل ذلك لاعتماد فخر الدين علىٰ صبي جاهل في هذا المهم العظيم، دون الأمراء الكبار.

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان[8] والبلدية[9] والجند، ففزعوا إليهم[10] فقتلوا بعضهم. ورمىٰ بعضهم نفسه[11]. وقبضوا بعضهم. ومدّ بعض الذين رموا نفوسهم، وهو نازل في الهواء، يده، كأنه يريد شيئاً يتمسك به، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلّوها أول الليل وما طلعوا فيها، فتعلق به، ونجا دون أصحابه. إلا أن كفيّه انسلختا من الحبل. هذا وأنا حاضر.

---

(١) عاصمة مقاطعة ديار بكر («معجم البلدان» ١/ ٥٦). والمقصود أنه سعىٰ إلىٰ امتلاكها.

(٢) جمع: مرة.

(٣) له ديوان يسجل فيه أسماء الجند.

(٤) أي: مع الأمير الكردي.

(٥) الكردي.

(٦) العساكر والأمير الكردي وأصحابه.

(٧) ياروق.

(٨) وزير صاحب آمد. وكان يقوم بأمرها، وينهض بشؤونها.

(٩) أهل البلد (آمد).

(١٠) يعني: إلىٰ الأمير الكردي وأصحابه.

(١١) من البرج.

وأصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه[1]، فقتلهم. وسَلِم ذلك[2] من دونهم. فسبحان مَن إذا قدّر السلامة أنقذ الإنسان من لَهاة الأسد. فذلك حق لا مَثَل.

٩٩

[السلامة من لَهاة الأسد]

كان في حصن الجسر[3] رجل من أصحابنا، من بني كِنانة، يعرف بابن الأحمر. ركب فرسه من حصن الجسر يريد كَفَرطاب لشغلٍ له. فاجتاز بكفَر نبودا[4] وقافلة عابرة علىٰ الطريق. فرأوا الأسد. ومع ابن الأحمر حربة تلمع. فصاح إليه أهل القافلة: «يا صاحب الخُشْت[5] البرّاق! دونك الأسد!» فحمله الحياء من صياحهم أن حملَ علىٰ الأسد، فحاصت به الفرس، فوقع. وجاء[6] فبرك عليه. وكان، لِما يريد الله من سلامته، الأسد شبعان. فالتقم وجهه وجبهته، فجرح وجهه وصار يلحس الدم، وهو بارك عليه لا يؤذيه. قال[7]: «ففتحتُ عيني فأبصرت لَهاة الأسد! ثم جذبت نفْسي من تحته، ورفعت فخذه عني، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه، وصعدت فيها. فرآني وجاء خلفي. فسبقتُ وطلعت في الشجرة. فنام الأسد تحت الشجرة. وعلاني من الذرّ[8] شيء عظيم، علىٰ تلك الجراح (والذرّ يطلب جريح

---

(١) خانوه ودبّروا له. وتتردد بهذا المعنىٰ في الكتاب مرات.

(٢) الرجل الذي تعلق بالحبل.

(٣) الحصن القائم عند جسر شيزر.

(٤) هي في «معجم البلدان» لياقوت ٤/ ٤٧١: «كفرنبو»، قرب حلب. معروفة اليوم. ولكن المفهوم من النص أنها علىٰ الطريق بين حماة وكفرطاب.

(٥) الحربة القصيرة (فارسية). (٦) الأسد.

(٧) ابن الأحمر نفسه، وهو تحت الأسد.

(٨) النمل الأحمر الصغير.

الأسد، كما يطلب الفأر جريح النمر) (قال)[1]: «فرأيت الأسد قد قعد وأنصب[2] آذانه كأنه يتسمع. ثم قام يهرول. فإذا قافلة قد أقبلت علىٰ الطريق، كأنه سمع حِسّها»[3]. فعرفوه[4] وحملوه إلىٰ بيته. وكان أثر أنياب السبع في جبهته وخدّيه كوسْم النار. فسبحان المسلّم!

١٠٠

[العقل وقت القتال: يحضر أم يغيب؟]

قلت: تفاوضنا يَوماً في ذكر القتال، ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف، المعروف بابن المنيرة[5] رحمه الله يسمع. فقلت له: «يا أستاذ! لو ركبت حصاناً، ولبستَ كَزاغَنداً[6] وخُوذة، وتقلدتَ سيفاً، وحملت رمحاً وتُرساً، ووقفتَ عند مشهد [٢٧و] القاضي (موضع ضيق كان الإفرنج، لعنهم الله، يجتازون به) ما كان يجوزك أحد منهم؟». قال: «بلىٰ والله! كلهم». قلت: «كانوا يهابونك، ولا يعرفونك؟». قال: «سبحَان الله! فأنا ما أعرف نفسي!» ثم قال لي: «يا فلان! ما يقاتل عاقل». قلت: «يا أستاذ! تحكم علىٰ فلان وفلان (وعددت له رجالاً من أصحابنا من شجعان الفرسان) أنهم مجانين» قال: «ماذا قصدت[7]. إنما

(١) ابن الأحمر، وهو فوق الشجرة.
(٢) الصحيح: نَصَبَ أو نصَّب.
(٣) الحِسّ: الصوت الخفيّ.
(٤) يقصد: عرف رجال القافلة الرجل وهو ابن الأحمر.
(٥) ولد في كفَرطاب، وتوفي سنة ٥٠٣هـ. صنف في النحو ونقد الشعر وغريب القرآن. من شيوخ أسامة. انظر: (المقدمة. وراجع: «أعلام الزركلي» ومراجعه ٨/ ٢٢ (الولادة فيه خطأ: ٤٥٣هـ)).
(٦) لباس سميك ينوب مناب الدرع، ويستر الصدر (فارسية). ترد كثيراً في الكتاب.
(٧) يقصد: ما هذا، علىٰ النفي.

قصدي أن العقل لا يحضر وقت القتال. ولو حضر ما كان الإنسان يلقىٰ بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام. ما هذا شيء يقضي به العقل».

وكان رَحِمَهُ اللهُ بالعلم أخبر مما هو بالحرب. فإن العقل هو الذي يحمل علىٰ الإقدام علىٰ السيوف والرماح والسهام، أنفةً من موقف الجبان وسوء الأُحدوثة. ودليل ذلك: أن الشجاع يلحقه الزَّمَع[1] والرِّعدة وتغير اللون، قبل دخوله في الحرب، لِما يفكر فيه، وتحدّث به نفسه، مما يريد يعمله ويباشره من الخطر، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه. فإذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزَّمَع والرِّعدة وتغيّر اللون. وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل.

١٠١
[ضرورة العقل في الحرب]

ومن ذلك أن الفرنج[2] نزلوا مرة علىٰ حماة، في أزوارها[3]، وفيها زرْع مُخْصِب. فضربوا خيامهم في ذلك الزرع. وخرج من شيزر جماعة من الحراميّة يدورون بعسكر الإفرنج يسرقون منه. فرأوا الخيام في الزرع. فأصبح بعضهم حضر صاحبَ حماة[4]، وقال[5]: «الليلة أُحرِق عسكر الإفرنج كله». قال: «إن فعلتَ خلعتُ عليك». فلما أمسىٰ خرج، ومعه نفر علىٰ رأيه، طرحوا النار غربيّ الخيام في الزرع لتسوقها

(١) الدهشة والرِّعدة.
(٢) فرنج طرابلس. وذلك سنة ٥١٢هـ.
(٣) يقصد: أطرافها وأريافها. والزَّور: الأرض المزروعة. وما تزال التسمية علىٰ الألسنة في حماة.
(٤) شهاب الدين محمود بن قراجا. يرد ذكره كثيراً في الكتاب. والمعنىٰ: أن بعض الحرامية أصبح، فاتصل بصاحب حماة...
(٥) القائل هو بعض الحرامية، لصاحب حماة.

الرياح إلىٰ خيامهم. فصار الليل بضوء النار كالنهار. فرآهم الإفرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم وما نجا منهم إلا من رمىٰ نفسه في الماء، وسبح إلىٰ الجانب الآخر. فهذه آثار الجهل وعواقبه.

١٠٢

[ضرورة العقل خارج الحرب أيضاً]

ورأيتُ مثل ذلك، وإن لم يكن في الحرب، وقد عسكر الإفرنج علىٰ بانياس في جمع كثير، ومعه البَطْرَك[١]، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلّون فيها، يتولىٰ خدمتها شيخ شمّاس منهم. وقد فَرش أرضَها بالحَلْفاء[٢] والحشيش. فكثرت البراغيث، فوقع لذلك الشماس أن يحرق الحَلْفاء والحشيش لتحترق البراغيث! فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فترَكَتْها رماداً. فهذا لم يحضره العقل.

١٠٣

[الحاجة إلى العقل في كل موضع]

وضدّه[٣]: أننا ركبنا في بعض الأيام، من شيزر، إلىٰ الصيد، [٢٧ظ] وعمّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنا، وجماعة من العسكر. فخرج علينا السّبع من قصباء[٤] دخلناها لصيد الدُّرّاج[٥]. فحمل عليه رجل من الجند كردي، يقال له: زهرُ الدولة بَخْتَيار القبرصي. سمي بذلك للطف خِلْقته. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من

(١) أي: مع الجمع بطريرك بيت المقدس، واسمه آنذاك: وليم William.
(٢) نبت ينبت في مغايض الماء. ييبس فتصنع منه الحصر والقفف.
(٣) يعني: ما حضره العقل فوفق فيه أصحابه، علىٰ عكس ما وقع في الفقرة السابقة.
(٤) أجمة قصباء: كثيرة القصب.
(٥) الدُّرّاجة: طائر شبيه بالحَجَل وأكبر منه. والجمع: الدُّراج.

فرسان المسلمين. فاستقبله السّبُع، فحاص به[1] الحصان، فرماه. وجاءه السبع وهو مُلْقىٰ. فرفع رجله. فتلقّمها السّبع. وبادرناه فقتلنا السّبُعَ واستخلصناه وهو سالم. فقلنا له: «يا زهرَ الدولة! لمَ رفعت رِجلك إلىٰ فم السّبع» قال: «جسمي، كما ترونه، ضعيف نحيف. وعليَّ ثوب وغُلالة. وما فيَّ أَكْسىٰ من رجلي: فيها الرانات والخُفّ والساق موزا[2]. فقلتُ: أَشغَله بها عن أضلاعي أو يدي أو رأسي، إلىٰ أن يفرّج الله تعالىٰ!».

فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول، وأولئك ما حضرهم العقل. فالإنسان أحوج إلىٰ العقل في كل ما سواه. وهو محمود عند العاقل والجاهل.

١٠٤

[بالعقل تعمُر البلاد]

ومن ذلك أن روجار[3]، صاحب أَنطاكيّة كتب إلىٰ عمي يقول:

«قد نفّذت فارساً من فرساني في شغل مُهمّ إلىٰ القدس. أَسألُ تنفّذ خيلك تأخذه من أفامية، ويوصلونه إلىٰ رَفَنِيّة[4]. فركب وأرسل إليه من أحضره. فلما لقيه قال: «قد نفّذني صاحبي في شغلٍ وسِرٍّ له. لكنني رأيتك رجلاً عاقلاً، فأنا أحدّثك به». فقال له عمي: «من أين عرفت أني عاقل وما رأيتني قبل الساعة؟» قال: «لأني رأيت البلاد التي مشيتُ

(١) يعني: حاص الحصان بزهر الدولة.

(٢) الران: حذاء كالخف لا قدم له. والساق موزا (موزا: الخف؛ وبالفارسية: موزه) يعني، مع الخف: ما يلف علىٰ الساق من الجلد أو القماش. وفي («صبح الأعشىٰ» ٤/ ١٠): (السرموزة).

(٣) Roger وقد مر ذكره من قبل.

(٤) إلىٰ الجنوب الغربي من حماة. وقد مر ذكرها. انظر: الخريطة.

فيها خرِبة، وبلدك عامر. فعرفت أنك ما عَمَرته إلا بعقلك وسياستك».
وحدَّثه بما جاء فيه.

١٠٥

[وبالعقل تحفظ البلاد عمرانها]

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء، صاحب إرْبِل[١] قال: «حدثني [أبي] أبو الهيجاء قال: بعثني السلطان ملك شاه[٢]، لما وصل إلىٰ الشام، إلىٰ الأمير ابن مروان[٣]، صاحب ديار بكر، يقول: أريد ثلاثين ألف دينار. فاجتمعتُ به وأعدت عليه الرسالة. فقال: تستريح ونتحدث. وأصبحَ أمر أن يدخلوني الحمّام. ونفّذ آلة الحمام جميعها فضّة، ونفّذ لي بدلة ثياب وقالوا لفرّاشي: كلّ آلة الحمّام لكم.

فلما خرجتُ لبست ثيابي، ورددت جميع الحوائج. فتركني أياماً، ثم أمر لي بالحمّام. وما أنكرَ ردَّ الحوائج. وحملوا معي آلة الحمام أفضل من الآلة الأوّلة[٤]، وبدلة ثياب أفضل من البدلة الأوّلة. وقال الفرّاش لفراشي كما قال أولاً. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب. فتركني ثلاثة أربعة أيام، ثم عاد أدخلني إلىٰ [٢٨و] الحمّام، وحملوا معي آلات فضة أفضل من الأوّلة، وبدلة ثياب أفضل من

(١) جنوبي الموصل وتعد من أعمالها. وبينهما مسيرة يومين. أكثر أهلها أكراد («معجم البلدان» ١/ ١٣٨) وصاحبها الأمير أبو الهيجاء وابنه فضل منهم «الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٢٩٤. وقد أشارت بعض المصادر إلىٰ زيارة أسامة لإرْبل.

(٢) هو ابن ألب أرْسْلان السَّلجوقي، وخليفته علىٰ أصبهان. يرد ذكره في فِقَر الكتاب. وقد يكتب: ملكشاه. انظر: («زامباور» ص ٣٣٣).

(٣) من أكراد المنطقة وأمرائها. وتنسب إليهم: الدولة المروانية فيها. («وفيات الأعيان» ١/ ١٧٧. وانظر: «زامباور» ص ٣٤٨).

(٤) الأولىٰ، علىٰ الدارجة (بتأنيث: الأول، بتاء التأنيث). وترد في الكتاب كثيراً علىٰ هذه الصورة.

الأوّلة. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع.

فلما حضرت عند الأمير قال لي: يا ولدي! نفّذت إليك ثياباً، وآلة الحمّام ما قبلتَها، ورَدَدْتَها. أي شيء سبب هذا؟ قلت: يا مولاي! جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضىٰ. أقبلُ ما تفضلتَ به، وأرجع، وما انقضىٰ شغل السلطان؛ فكأني ما جئت إلا في حاجتي؟

قال: يا ولدي! ما رأيتَ عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها، وكثرة فلاحيها، وعمارة ضياعها، أتراني كنت أُتلف هذا كلّه من أجل ثلاثين ألف دينار؟ والله إن الذهب قد كيّسته من يوم وصولك. وإنما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي، وتلحَقَه بالمال، خوفاً من أن أستقبله بالذي طلب، فيطلبَ مني إذا دنا من بلادي أضعافه![1] فلا تشغل قلبك. فشغلك قد انقضىٰ. ثم نفّذ لي الثلاث بدلات التي كان نفذّها لي ورددتُها، مع جميع حوائج الحمّام التي نفّذها لي في الثلاث دخلات، فقبلتُها. ولما تجاوز السلطان ديار بكر أعطاني المال فحملتُه ولحقت به السلطانَ».

١٠٦

[صاحب بَدْليس يحفظ عمران بلده بالعقل]

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد. فمن ذلك: أن أَتابِك زَنكي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطب بنت صاحب خِلاط[3]، وقد مات أبوها[4]، وأمها

(١) لما يرىٰ من عمارة الأرض وغنىٰ البلاد.

(٢) عماد الدين، والد نور الدين محمود الشهيد، وأسامة يأتي علىٰ ذكره كثيراً في الكتاب. انظر: («زامباور» ص ٣٤١).

(٣) قاعدة أرمينية الوسطىٰ. توصف بكثرة خيراتها وغزارة مياهها وروعة بحيرتها: («معجم البلدان» ٢/ ٣٨٠، و«زامباور» ص ٣٤٨).

(٤) سُقمان القطبي (أو سكمان)، مؤسس دولة أرمين شاه. وكان مملوكاً لبعض السلاجقة. توفي سنة ٥٠٦هـ. («زامباور» ص ٣٤٨).

مدبّرة البلد. ونفّذ حسامُ الدولة بن دِلِمْاج[1] خطبها لابنه وهو[2] صاحب بَدْليس[3]. فسار أتابك بعسكرٍ حسن إلىٰ خِلاط، علىٰ غير الطريق المسلوك لأجل دَرْبَنْد[4] بَدْليس. فسلك فيها الجبال. فكُنا[5] ننزل بغير خيام، وكل واحد في موضعه من الطريق، حتىٰ وصلنا خِلاط. فخيّم أتابِك عليها، ودخلنا قلعتها، وكتبنا المَهر.

فلما انقضىٰ الشغل، أمر أَتابِك أن يأخذ صلاح الدين[6] معظم العسكر، ويسري إلىٰ بَدْليس يقاتلها. فركبنا أول الليل وسرْنا، وأصبحنا علىٰ بَدْليس. فخرج إلينا حسام الدولة صاحبُها، فلقيَنا علىٰ فُسحة من البلد، وأنزل صلاح الدين في الميدان، وحمل إليه الضيافة الحسنة. وخدمه وشرب عنده في الميدان. وقال: «يا مولاي! أيَّ شيء ترسم؟ فقد تعنّيتَ وتعبتَ في مجيئك». قال: «أتابِك أحْنَقَه خِطبتك للبنت التي كان خطبها. وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار، نريدها منك». قال: «السمع والطاعة». فعجّل له بعض المال واستمهله بباقيه أياماً عيّنها. ورجعنا، وبلده بحسن سياسته عامر، ما دخل عليه خلل.

---

(١) هو ابن طُغان أرْسْلان بن لُحمتُكين (ت ٥٣٨هـ) مؤسس دولة بني طُغان أرْسْلان في بدليس وأرمينية. انظر: («زامباور» ص ٣٥٠).

(٢) أي: حسام الدولة بن دلماج.

(٣) قاعدة كردستان، من نواحي أرمينية، قرب خِلاط. («معجم البلدان» ١/ ٣٥٨).

(٤) مدينة تقع اليوم في داغستان، إلىٰ الغرب من ساحل بحر قَزوين، سماها العرب: أبواب الحديد، تسد أبوابها الممر بين البحر والجبل. («معجم البلدان» ٢/ ٤٤٩).

(٥) الكلام لأسامة؛ فيبدو أنه كان مع أتابك زَنكي.

(٦) هو ابن أيوب الغسياني. ذكره أسامة من قبل غير مرّة. انظر: الفقرة (٥٧).

١٠٧

[وصاحب قلعة جَعْبَرَ يحسن السياسة]

[٢٨ظ] وهذا قريب مما جرىٰ لنجم الدولة مالك بن سالم[١] رَحِمَهُ اللَّهُ. وذلك أن جوسلين[٢] أغار علىٰ الرَّقّة والقلعة، فأخذ كل ما عليها، وسبىٰ وساق غنائم كثيرة. ونزل مقابل القلعة، وبينهم[٣] الفرات. فركب نجم الدولة مالك في زورق، ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه، وعبر الفرات إلىٰ جوسلين، وبينهما معرفة قديمة، ولمالك عليه جميل. وظن جوسلين أن في الزورق رسولاً من مالك. فجاءه واحد من الإفرنج وقال: «هذا مالك في الزورق!» قال: «ما هو صحيح!» فأتاه آخر قال: «قد نزل مالك من الزورق. وهو جاي[٤] يمشي». فقام جوسلين والتقاه، وأكرمه، وردّ عليه جميع ما كان أخذه من الغنائم والسبي. ولولا سياسة نجم الدولة كان خَرِب بلده.

١٠٨

[الشجاعة والشدّة لا تنفعان مع فراغ الأجل]

إذا انقضت المدّة، لم تنفع الشجاعة ولا الشدّة: شاهدت يوماً وقد زحف إلينا عسكر الإفرنج[٥] يقاتلنا، ومضىٰ بعضهم مع طُغْدُكين أتابك

---

(١) صاحب قلعة جعبر، علىٰ الفرات، قرب الرقة. ومالك بن سالم العقيلي عوّضه ملكشاه بن ألب أرْسْلان هذه القلعة بدلاً من حلب وقلعتها اللتين كان انتزعهما من العُقيليين سنة ٤٩٩هـ. انظر: («معجم البلدان» ٢/ ١٤١ـ ٢، و«زامباور» ص ٣٣٣ وما بعدها).

(٢) Joscelin I، صاحب الرها (أورفة) وتل باشر، وهو بين حلب والرها.

(٣) يقصد بين جنده وجند نجم الدولة صاحب قلعة جعبر.

(٤) الأصل: جائي، وهي شائعة في دارجة أهل الشام وغيرها.

(٥) اشترك في هذه الزحفة: بالدون الأول Baldwin I (بغدوين) ملك بيت =

إلىٰ حصن الجسر[1] يقاتله[2]. وكان أتابك اجتمع هو وإيلغازي بن أُرتُق[3] - والإفرنج في أفامية[4] - لمحاربة عساكر السلطان[5]. وكان وصل بها إلىٰ الشام، إسباسْلار بُرسُق بن بُرسُق[6]، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرّم، سنة تسع وخمسمائة. فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة[7]، فاستظهرنا عليهم، ودفعناهم، وانبسطنا معهم. فشاهدت رجلاً من أصحابنا يقال له: محمد بن سَرايا، وهو شاب شديدٌ أيِّد[8]، قد حمل عليه فارس من الإفرنج، لعنه الله، فطعنه في فَخِذِه، فنفّذ القُنطارية فيها. فمسكها محمد وهي في فخذه، وجعل الإفرنجي يجذبها ليأخذها، ومحمد يجذبها ليأخذها، فترجع في فخذه، حتىٰ قوّرت فخذه! واستلب القُنطارية بعد أن أتلف فخذه. ومات بعد يومين رحمه الله.

= المقدس، وروجار Roger صاحب أنطاكية، وبنتيوس Pontius صاحب طرابلس. وكان ذلك سنة ٥١٠هـ.

(١) الحصن القائم عند جسر شيزر القديم، علىٰ العاصي.

(٢) يريد أن بعضهم مضىٰ مع أتابك طُغتُكين إلىٰ حصن الجسر لمقاتلة بعض عسكر الإفرنج، وأفامية في أيديهم.

(٣) أمير ماردين. ولقبه: نجم الدين. ورد ذكره في الفقرة (٥٢).

(٤) المدينة السُّلوقية القديمة، القريبة من شيزر. ورد ذكرها مرات في الكتاب.

(٥) محمد شاه بن ألب أرْسْلان، السَّلجوقي، سلطان أصبهان وكان أرسل إلىٰ الشام عساكر بقيادة إسباسلار بُرسق بن بُرسق، لمحاربة الإفرنج، استجابة لطلب الخليفة العباسي. انظر: الفقرة (٨٥).

(٦) السَّجلوقي. ورد ذكره في الفقرة (٨٥) والفقرة (٨٨). والمعنىٰ: أن الإفرنج موجودون في أفامية ليقاتلوا عساكر السلطان الذين وصلوا إلىٰ الشام مع بُرسق بن بُرسق.

(٧) مدينة شيزر، وهي القسم الواقع علىٰ النهر، قرب الجسر.

(٨) قوي.

109

[ابن عم أسامة تكتب له النجاة على يد أسامة]

ورأيت في ذلك اليوم، وأنا في جانب الناس في القتال، فارساً قد حَمَل علىٰ فارس منّا طعنَ حصانه قتله، وصاحبنا راجل في الأرض، ولا أدري مَنْ هو، لبعد ما بيننا. فدفعتُ حصاني إليه خوفاً عليه من الإفرنجي الذي طعنه. وقد بقيت القُنطارية في الحصان، وهو[1] ميّت قد خرجت مصارينه. والإفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد، وجذب سيفه ووقف مُستقبِلَه. فلما وصلتُه وجدته ابن عمي، ناصر الدولة، كامل بن مقلَّد[2] رَحِمَهُ اللهُ. فوقفت عليه، وأخليت [٢٩و] له ركابي، وقلت: «اركب!» فلما ركب رددت رأس حصاني إلىٰ المغرب، والمدينة في شرقيّنا. قال لي: «إلىٰ أين تروح؟» قلت: «إلىٰ هذا الذي طعن حصانك، فهو فرصة!» فمدّ يده وقبضَ علىٰ عنان الحصان، وقال: «ما تطاعن وعلىٰ حصانك لابسان[3]. إذا أوصلتني ارجع طاعنْه». فمضيت أوصلته، وعدت إلىٰ ذلك الكلب وقد دخل في أصحابه.

110

[إذا وقع لطف الله بالرجل عميث عنه عيون الأعداء]

وشاهدت، من لطف الله تعالىٰ وحسن دفاعه: أن الإفرنج، لعنهم الله، نزلوا[4] علينا بالفارس والراجل. وبيننا وبينهم العاصي، وهو زائد زيادة عظيمة[5]. لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا، ولا نقدر نحن أن نجوز إليهم. فنزلوا علىٰ الجبل بخيامهم. ونزل منهم قوم إلىٰ

---

(١) أي الحصان.

(٢) انظر في بني منقذ: («زامباور» ص ١٦٥).

(٣) فارسان يلبسان عُدّة الحرب.

(٤) في الزحفة نفسها التي ورد ذكرها في الفقرة (١٠٨)، سنة ٥١٠هـ.

(٥) يقصد: غزارة الماء في النهر.

البساتين، وهي من جانبهم، هَمَلوا[1] خيلهم في القَصيل[2] وناموا. فتجرّد شباب من رَجّالة شيزر، وخلعوا ثيابَهم، وأخذوا سيوفهم، وسبحوا إلىٰ أولئك النيام، فقتلوا بعضهم. وتكاثروا[3] علىٰ أصحابنا، فرموا[4] نفوسهم إلىٰ الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السّيل[5] ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد أبي المجد ابن سُمَيّة. وفيه رجل يقال له: حسن الزاهد؛ وهو واقف علىٰ سطح بيوت[6] في المسجد يصلي، وعليه ثياب سود صوف، ونحن نراه وما لنا إليه سبيل. وقد جاء الإفرنج فنزلوا علىٰ باب المسجد، وصعِدوا إليه، ونحن نقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله! الساعة يقتلونه!» فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه! وعاد الإفرنج نزلوا، ركبوا خيلهم، وانصرفوا. وهو واقف مكانه يصلي! ولا نشك أن الله، سبحانه، أعماهم عنه، وستره عن أبصارهم. فسبحان القادر الرحيم!

١١١

[مَثَل آخر على لطف الله: مجهول يفك أسيراً مسلماً في ديار الروم]

ومن ألطاف الله تعالىٰ: أن ملك الروم[7] لمّا نزل علىٰ شيزر، في

(١) تركوها مسيَّبة. والأصل في اللغة أن يكون الفعل لازماً: هَمَلت الإبلُ.
(٢) القصيل ما انفصل (انقطع) من الشعير، قبل حصيده، وهو أخضر، لعلف الدواب. وعندها يكون ماء النهر زائداً جداً. في أوائل حزيران من كل عام.
(٣) يعني: الإفرنج.
(٤) يقصد: أصحابه من رجالة شيزر.
(٥) يريد أنهم انحدروا بجيادهم من فوق الجبل، كما ينحدر السيل.
(٦) كلمة غامضة في الأصل، أقرب القراءات إليها هذه. والمراد: أنه يصلي علىٰ سطح المسجد.
(٧) جان الثاني كومنينوس Comnenus (١١١٨ ـ ١١٤٣م) وقد حاصر شيزر في السنة التي يذكرها أسامة.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، خرج من شيزر جماعة من الرّجّالة للقتال. فاقتطعوهم الروم[1]، فقتلوا بعضاً، وأسروا بعضاً. فكان، في جملة من أسروا، زاهد من بني كَردوس، من الصالحيّة، من مولّدي محمود بن صالح[2]، صاحب حلب. فلما عاد الروم كان[3] معهم مأسوراً. فوصل القسطنطينية. فهو في بعض الأيام فيها، إذ لقيه إنسان فقال: «أنت ابن كَردوس؟» قال: «نعم!» قال: «سِرْ معي أوقفْني علىٰ صاحبك»[4]. فسار معه حتىٰ أراه صاحبه فقاولوه علىٰ ثمنه، حتىٰ تقرّر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه. [٢٩ظ] فوزن له الثمن. وأعطىٰ ابن كَردوس نفقة وقال: «تبلّغ بها إلىٰ أهلك! وامض في دعة الله تعالىٰ!» فخرج من القسطنطينية. وتوصّل إلىٰ أن عاد إلىٰ شيزر. وذلك من فَرَج الله تعالىٰ وخفيّ لطفه. ولا يدري من الذي شراه[5] وأطلقه!

١١٢

[مثل ثالث على لطف الله:
العناية تصيب أسامة في موقف الشدّة]

وقد جرىٰ لي ما يشبه ذلك: لمّا خرج علينا الإفرنج، في طريق مصر، وقتلوا عباس ابن أبي الفتوح وابنه نصراً الكبير[6]، انهزمنا نحن إلىٰ جبل قريب منا. فصعِد الناس فيه رجّالةً يمشون، يجرّون خيلهم.

(١) لغة درج عليها الكتاب، علىٰ مثال دارجة أهل الشام وغيرهم.

(٢) تاج الملوك، محمود بن نصر بن صالح بن مرداس حكم حلب هو وأولاده حتىٰ سلموها إلىٰ العُقيليين (٤٥٧ ـ ٤٦٧هـ). انظر: («زامباور» ص٢٠٤ ـ ٥)

(٣) يريد: ابن كَردوس الزاهد.

(٤) يقصد: صاحبه الذي يملكه.

(٥) شرىٰ واشترىٰ: بمعنىٰ واحد.

(٦) ارجع إلىٰ أول الكتاب: الفقرة (٤٠).

وأنا علىٰ إكديش[1]، ولا أستطيع المشي. فصعِدت وأنا راكب. وسفوح ذلك الجبل كلّها نُقارة[2] وحَصىٰ؛ كلما وطئه الفرس انهرّ تحت قوائمه. فضربت الإكديش ليطلع فما استطاع. ونزل والحَصىٰ والنُّقارة تنزل به. فترجّلتُ عنه، وأقمته، ووقفت لا أقدر علىٰ المشي. فنزل إليّ رجل من الجبل فمسك بيدي، وبِرْذَوني في يدي الأخرىٰ، حتىٰ أطلعني. ولا والله، ما أدري من هو ولا عدت رأيته!

وقد كان، في ذلك الوقت الصعب، يُمتَنّ فيه بيسير الإحسان، ويُطلب المكافأة عنه. ولقد شربت من بعض الأتراك شَربة ماء أعطيته عنها دينارين. وما زال، بعد وصولنا دمشق، يقتضي حوائجه ويتوصّل بي إلىٰ أغراضه، لأجل تلك الشَّربة التي سقانيها! وما كان ذلك الذي أعانني إلا مَلَكاً رحِمني الله تعالىٰ، فأغاثني به!

❁ ❁ ❁

ومن لطف الله تعالىٰ ما حدثني به عبد الله المُشرِف[3] قال: حُبست بحِيْزان[4] وقُيِّدت وضُيِّق عليَّ. فأنا في الحبس والموكَلونَ علىٰ بابه، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: اقلَع القيد واخرجْ! فانتبهتُ جذبت القيد، فخرج من رجلي. وقمت إلىٰ الباب أريد أفتحُه، فوجدته مفتوحاً. فتخطَّيت الرجال الموكَلين إلىٰ منفذ في السور ما ظننت يدي تخرج منه. فخرجتُ منه، ووقعتُ علىٰ مزبلة، فبقي فيها آثار وقوعي وآثار رجلي. ونزلت في وادٍ حول السور، ودخلت مغارةً في سفح

---

(١) الإكديش، من الخيل: خلاف الجواد الأصيل.

(٢) ما يتساقط من نَقر الحجارة والخشب ونحوهما، مثل النُحاتة.

(٣) كان مشرفاً علىٰ مطبخ صلاح الدين الغسياني العامل في خدمة أتابك زنكي كما يتبين بعد.

(٤) بلد قريب من إسعِرْد، في ديار بكر. استولىٰ عليها أتابك زنكي سنة ٥٣٨هـ. («معجم البلدان» ٢/ ٣٣١).

الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول في نفسي: الساعةَ يخرجون يرون أثري ويأخذوني. فأرسل الله سبحانه ثلجاً غطَّىٰ ذلك الأثر. وخرجوا [٣٠و] يطوفون عليَّ، وأنا أراهم نهارَهم ذلك. فلما أمسيتُ وأمِنْتُ الطلب، خرجت من تلك المغارة وسرت إلىٰ مأمني. كان هذا الرجل مشرِفاً علىٰ مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني، رحمه الله.

١١٣

[بعض المسلمين يقاتل رغبة في الجهاد وحده]

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يقاتلون: للجنة لا لرغبة ولا لسمعة.

ومن ذلك: أن ملك الألمان[١] الإفرنجي، لعنه الله، لما وصل الشام، اجتمع إليه كلّ من بالشام من الإفرنج. وقصد دمشق. فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفَندلاوي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلْحولي، رحمهما الله. وكانا من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمٰن: «أما هؤلاء الروم؟» قال: «بلىٰ!» قال: «فإلىٰ متىٰ نحن وقوف؟» قال: «سر علىٰ اسم الله تعالىٰ!» فتقدما قاتلا حتىٰ قُتلا، رحمهما الله، في مكان واحد[٢]!

١١٤

[وبعض المسلمين يقاتل للوفاء: فارس الكردي]

ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك: أن رجلاً من الأكراد يقال

---

(١) كنراد الثالث Conrad III ملك الألمان.

(٢) كان ذلك سنة ٥٤٣هـ بظاهر دمشق. وحلحول من قرىٰ فلسطين بين بيت المقدس والخليل. وإليها ينسب عبد الرحمن، وإن كانت ولادته ونشأته في حلب. وأصل الفقيه المالكي الفندلاوي يوسف بن دُرناس. من المغرب (فَنْدَلاو) قبل أن يستوطن دمشق («معجم البلدان» ٢/ ٢٩٠ و٤/ ٢٧٧).

له: فارس، وكان كاسمه، فارساً وأيَّ فارس! فحضر أبي وعمي، رحمهما الله، وقعةً كانت بينهما وبين سيف الدولة خلَف بن مُلاعب[1]، عمل عليهم[2] فيها، وغدر بهم. وقد حشَد وجمع وهم غير متأهبين لما جرىٰ. وسبب ذلك: أنه راسلهم، وقال: «نمضي إلىٰ أسفونا[3]، وفيها الفرنج، نأخذها». فسبقه أصحابنا إليها، وترجّلوا، وزحفوا إلىٰ الحِصن نقبوه. وهم في القتال وابن ملاعب وصل. فأخذ خيلَ مَن كان ترجّل من أصحابنا، ووقع القتال بينهم، بعدما كان[4] للإفرنج! واشتد بينهم القتال. فقاتل فارس الكردي قتالاً عظيماً. وجُرح عدة جِراح. وما زال يقاتل ويُجرَح حتىٰ أُثخن بالجراح. وانفصل القتال. فاجتاز به أبي وعمي، رحمهما الله، وهو محمول بين الرجال، فوقفا عليه وهنأاه بالسلامة. فقال: «والله ما قاتلت أريد السلامة! لكن لكم عليَّ جميل وفضل كثير! وما رأيتكم في شدّة مثل هذا اليوم. فقلت: «أقاتل بين أيديكم، وأُجازيكم عن جميلكم، وأُقتل قدّامكم!».

وقضىٰ الله سبحانه أنه عوفي من تلك الجراح، ومضىٰ إلىٰ جَبَلة[5]، وفيها فخر المُلك ابن عمّار[6]. وفي اللاذقية الإفرنج. فخرجت خيل

---

(١) صاحب حمص وبعدها أفامية. وكانت هذه الوقعة سنة ٥٠٣هـ. ترجماته في تواريخ العصر. وفيها أن رجاله كانوا يقطعون الطريق، ويخيفون أبناء السبيل. قتلته الباطنية سنة ٤٤٩هـ. تقدم ذكره في الفقرة (٦٦)، وفي فقرات أخرىٰ.

(٢) بالجمع، علىٰ الدارجة. وهو يعني، علىٰ كل حال: أباه وعمه ورجالهما. وعمل عليه: من مصطلح العصر: كاد له وغدر به.

(٣) حصن أسفونا: غربي كفَرطاب، بجوار معرة النعمان («معجم البلدان» ١/ ١٧٩).

(٤) أي: القتال.

(٥) علىٰ الشاطئ، قرب اللاذقية (وتنطق اليوم بتسكين الباء). احتلها الإفرنج مرات، واستردها المسلمون مرات. («معجم البلدان» ٢/ ١٠٥).

(٦) فخر الملك، أبو علي، عمار بن محمد بن عمار. تولىٰ طرابلس سنة =

من جَبَلة تريد الغارة علىٰ اللاذقية. وخرجت خيل من اللاذقية تريد الغارة علىٰ جَبَلة. فنزل الفريقان في الطريق، وبينهما رابية، فطلع فارس من الإفرنج، [٣٠ظ] من جانبهم، يكشف الرابية، وطلع فارس الكردي، من الجانب الآخر، يكشف لأصحابه! فالتقىٰ الفارسان علىٰ متن الرابية. فحمل كل واحد منهما علىٰ صاحبه، فاختلفا طعنتين، فوقعا ميتين! وبقيت الحُصُن تتصاول علىٰ الرابية، والفارسان قتيلان.

١١٥

[ولد فارس ليس كأبيه]

وكان لفارس هذا، عندنا، ولد، اسمه: عَلَّان، من الجند. له الخيل الملاح والعُدّة الحسنة. ولكنْ ما كان كأبيه، فنزل علينا دَنْكري[١]، صاحب أنطاكيّة، يوماً، وقاتلَنا قبل ضرب الخيام. وهذا علّان بن فارس علىٰ حصان مَليح باغز[٢]، من أحسن الخيل، وهو واقف علىٰ رِفْعة من الأرض. فحمل عليه فارس من الإفرنج، وهو كالغافل، فطعن حصانه في رقبته نفّذ القُنطارية. فشبّ الحصان[٣] رمىٰ عَلّان. وعاد الإفرنجي، والحصان مُعارِضُه والقُنطارية في رقبته، كأنه جنيبة[٤]، يتمختر[٥] بغنيمة حسنة!

= ٤٩٤هـ. وحاصره الصليبيون منذ سنة ٤٩٥هـ. انظر: («زامباور» ص ١٦٠).

(١) Tancred. وذلك سنة ٥٠٤هـ.

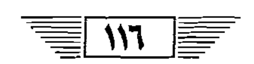
(٢) نشيط، والأصل أن يكون في الإبل خاصة.

(٣) أي وقف الحصان علىٰ رجليه الخلفيتين ورفع يديه إلىٰ الأعلىٰ، وتكون عادة بسرعة ترمي الراكب.

(٤) الفرس السهلة القياد التي تمشي إلىٰ جنب فارسها. والضمير في «كأنه» يعود إلىٰ الحصان.

(٥) الأصل: يتبختر.





[الحصان الصبور: حصان كامل المشطوب]

وعلىٰ ذكر الخيل: ففيها الصَّبور كالرجال، وفيها الخوّار، فمن ذلك: أنه كان في جُندنا رجل كرديّ يقال له: كامل المشطوب[١]. فيه الشجاعة والدّين والخير رَحِمَهُ اللَّهُ، وله حصان أدهم أصم[٢]، مثل الجَمَل. فالتقىٰ هو وفارس من الإفرنج، فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القِلادة، فمالت رقبته من شدّة الطعنة، وخرجت القُنطارية من أصل رقبة الحصان، فضربت فخذ كامل المشطوب، وخرجت من الجانب الآخر، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة، ولا فارسه! فكنت أرىٰ ذلك الجرح الذي في فخذه، بعدما انْدَمَلَ وخَتَم[٣]، وهو كأكبر ما يكون من الجراح. وسَلِم الحصان، وعاد[٤] حضر عليه القتال، فالتقىٰ هو وفارس من الإفرنج، فطعن الحصانَ في جبهته خسفَها ولم يتزعزع. وسَلِم من تلك الطعنة الثانية. فكانت بعد أن خَتَمتْ إذا أطبق الإنسان كفّه وأدخلها في جبهة الحصانِ، في موضع الجرح، وَسِعَها!

وكان من طريف ما جرىٰ في ذلك الحصان: أن أخي، عز الدولة، أبا الحسن، عليّاً[٥] رَحِمَهُ اللَّهُ، اشتراه من كامل المشطوب، وكان ثقيل العَدْو، فأخرجه في ضمن قرية كانت بيننا وبين فارسٍ من إفرنج كفَرطاب. فبقي عنده سنةً ثم مات.

فأرسل[٦] إلينا يطلب ثمنه! قلنا: «اشتريتَه، وركبتَه، ومات عندك.

---

(١) يرد ذكره في مواضع أخرىٰ.

(٢) الصُّلب المتين. والدُّهمة: السواد.

(٣) التأم، علىٰ دارجة أهل الشام. (٤) صاحبه كامل المشطوب.

(٥) أحد إخوته الثلاثة. انظر نسب بني منقذ في («زامباور» ص ١٦٥).

(٦) الفارس الإفرنجي.

كيف تطلب ثمنه؟» قال: «أنتم سقيتموه شيئاً يموت منه بعد سنة!» فعجبنا من جهله وسخافة عقله.

١١٧

[أسامة يركب، في بعض المعارك، حصانين من هذا النّوع الصبور]

وجُرح تحتي حصان علىٰ حمص، شقّت الطعنة قلبه. وأصابه عدّة سِهام. فأخرجني من المعركة ومِنْخَراه يَرميان [٣١و] بالدم كالغُرْلَتين[١]! وما أنكرتُ منه شيئاً! وبعد وصولي إلىٰ أصحابي مات!

وجُرح تحتي حصان، في بلد شيزر، في حرب محمود بن قَراجا[٢]، ثلاثة جراح، وأنا أقاتل عليه، ولا أعلم، والله، أنه قد جرح، لأني ما أنكرتُ منه شيئاً!

١١٨

[الحصان الخوّار: يركبه أسامة في بعض معاركه أيضاً]

وأما خوَرَها وضعفها علىٰ الجراح: فإن عسكر دمشق نزل علىٰ حماة (وهي لصلاح الدين محمد بن أيوب الغِسياني، ودمشق لشهاب الدين محمود بن بُوري بن طُغدُكين)[٣] وأنا بها[٤]. وزحفوا إلينا في

---

(١) الغُرلة: القُلفة (الجلدة التي يقتطعها الخاتن). وقرأها السامرائي: «كالعزلتين»، وجعل المفرد «عزلاء».

(٢) صاحب حماة. يرد ذكره كثيراً في الكتاب. وفي التاريخ ذكر لظلمه وجوره (ت٥١٨هـ). انظر: الفقرة (٥٠).

(٣) من أمراء الأتابكة البوريين، يرد ذكرهما في الكتاب، في غير موضع. انظر: (المقدمة، ونسب البوريين في «زامباور» ص ٣٤٠. وانظر: الفقرات ٥٧، ٩٤، ١٠٦، ١١٨).

(٤) أي في حماة.

جمع كثير، ووالي حماة شهاب الدين أحمد بن صلاح الدين، وهو علىٰ تلّ مجاهد(١). فجاءه الحاجب غازي التلّي، فقال: «قد انتشرت الرّجّالة. والخُوَذ تتلامع بين الخيام. والساعةَ يَحملون علىٰ الناس يُهلكونهم!» فقال: «امض رُدَّهم». فقال: «والله ما يردّهم إلا أنت أو فلان!» يَعْنيني. فقال لي: «تخرج تردّهم». فقلعتُ زَرَديّة كانت علىٰ غلام لي، لبستُها، وخرجتُ رددتُ الناس بالدبّوس(٢)، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل وأتلعها(٣). فلما رددت الناس زحفوا إلينا، وما [بقي] بَرّا من سور حماة، فارس غيري: منهم من دخل المدينة، وأيقنوا أنهم مأخوذون. ومنهم من هو مترجّل في ركابي. فإذا حملوا علينا أخّرت الحصان بِعِنانه، وأنا مُستقبلُهم، وإذا عادوا مشيتُ خلفهم سِتْرةً، لضيق المجال وازدحام الناس. فضربتْ حصاني نشّابة في ساقه خَمَشَتْه. فوقع بي، وقام، ووقع، وأنا أضربه، حتىٰ قال لي الرجال الذين في ركابي: «ادخل إلىٰ الباشورة(٤) اركب غيره!» فقلت: «والله ما أنزل عنه». فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم أره من غيره!

١١٩

[عودة إلى الحصان الصبور: حصان طرّاد بن وهيب]

ومن حسن صبر الخيل: أن طراد بن وهيب النُّمَيري حضر القتال بين بني نُمير، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك، والي الرَّقّة،

---

(١) قرب حماة بين حماة وشيزر علىٰ ما يبدو.

(٢) الرمح.

(٣) التَّلَع: طول العنق. والأتلع: الطويل العنق. وجاءت هنا بمعنىٰ اسم التفضيل.

(٤) تكون في مداخل الحصون، وتربط فيها الخيول.

وملكوها. والحرب بينهم وبين أخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة[1]. وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل، له قيمة كبيرة. فطُعن في خاصرته، فخرجت مصارينه، فشدّها طراد في السُّموط[2] لا[3] يدوسها فيقطعها، وقاتل حتىٰ انقضىٰ القتال. فدخل به إلىٰ الرَّقّة، فمات.

١٢٠

[أسامة يلبَس عدّتَه ويتقلّد سيفه وينام]

قلت: أذكَرني ذكر الخيل بأمرٍ جرىٰ لي مع صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[4] رحمه الله، وذلك أن ملك الأمراء أتابِك زنكي[5] رحمه الله نزل علىٰ دمشق في سنة ثلاثين وخمسمائة بأرض داريّا[6]. وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن [٣١ظ] بوري بن طُغدُكين[7] رحمه الله في الوصول إليه[8]. وخرج من بعلبك متوجهاً إلىٰ خدمة أتابِك، فبلغه

(١) الأخوان من بني عُقَيل. وكانت لهما الولاية في قلعة جعبر وما حولها. انظر: («زامباور» ص ٢٠٦).

(٢) سموط السَّرج: سيوره التي يعلق بها.

(٣) بمعنىٰ: لئلا. والتركيب مستعمل إلىٰ اليوم في دارجة أهل الشام.

(٤) من أمراء السلاجقة. ذكره أسامة من قبل (الفقرات ٥٧، ٩٤، ١٠٦، ١١٨).

(٥) عماد الدين، والد نور الدين الشهيد. يذكره أسامة كثيراً في الكتاب. انظر: (بني زنكي في «زامباور» ص ٣٤١).

(٦) من أشهر قرىٰ غوطة دمشق. وتقع علىٰ بعد أربعة أميال منها (حوالي عشرة كيلو مترات. والمِيل: قدر مد البصر من الأرض). انظر: («معجم البلدان» ٢/ ٤٣١).

(٧) خلفَ جمال الدين أباه تاج الملوك بوري في إمارة بعلبك سنة ٥٢٩هـ. وانظر: أول الفقرة (٩٧). وراجع في نسب البوريين: («زامباور» ص ٣٤٠).

(٨) يعني أن يلحق جمال الدين بأتابك زنكي.

أن عسكر دمشق يريد أخذه. فأمر صلاح الدين أن نركب للقائه، ودفْع الدمشقيين عنه. فجاءني رسوله في الليل يقول: «اركب!»، وخيمتي إلىٰ جانب خيمته، وهو قد ركب، ووقف عند خيمته. فركبتُ في الوقت. فقال: «كنتَ قد علمتَ بركوبي؟» قلت: «لا، والله». قال: «الساعةَ نَفّذتُ إليك، فركبتَ في الوقت؟» قلت: «يا مولاي! حصاني يأكل شعيره، ويُلجمه الركابيُ ويقعد وهو في يده علىٰ باب الخيمة، وأنا ألبس عدّتي وأتقلّد سيفي وأنام. فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يَعوقني».

فوقف إلىٰ أن اجتمع عنده جماعة من العسكر، وقال: «البَسوا سلاحكم!». وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا إلىٰ جانبه، ثم قال: «كم أقول لكم البَسوا سلاحكم!» قلت: «يا مولاي! لا تكون تَعنيني؟» قال: «نعم!». قلت: والله ما أقدر ألبس! نحن في أول الليل. وكَزاغَندي[1] فيه زَرَديّتان مطبقتان. وإذا رأيتُ العدو لبستُه». فسكت.

وسرنا فأصبحنا عند ضُمَير[2]، فقال لي: «ما ننزل نأكل شيئاً؟ فقد جُعت من السهر». قلت: «الأمر لك». فنزلنا. فما استقر علىٰ الأرض حتىٰ قال: «أين كُزاغندك؟» فأمرت الغلام فأحضره، وأخرجته من عَيْبته[3]، وأخرجت السكّين فتقتُه عند صدره، وأظهرت جانب الزرديّتين. وكان فيه زرديّة إفرنجية إلىٰ ذيله، وفوقها أخرىٰ إلىٰ وسطه. علىٰ كل زَرَديّة البطائن واللِّبْد واللاسين[4] ووَبَر الأرنب. فالتفت إلىٰ غلام له كلّمه بالتركي، ولا أدري ما يقول. فأحضر بين يديه حصاناً كُمَيْتاً[5] كان أعطاه إياه أتابِك في تلك الأيام، كالصخرة الصماء قُدَّت

(١) لباس سميك يقوم مقام الدرع (فارسية). وترد كثيراً في الكتاب.
(٢) قرية في شمالي دمشق («معجم البلدان» ٣/ ٤٦٣) وما تزال معروفة.
(٣) بقجة الثياب وكل ما يرتدىٰ أو يصرّ، أو الزَّبيل (الزنبيل) من الجلد.
(٤) نُفاية الحرير.
(٥) أسود.

من قُنّة الجبل[1]. فقال: «هذا الحصان يصلح لهذا الكُزاغَند. سلِّمه إلىٰ غلام فلان». فسلّمه إلىٰ غلامي.

١٢١

[أسامة حاضر القلب في القتال]

قلت: كان عمي عز الدين رَحِمَهُ اللَّهُ يتفقّد مني حضور فكري في القتال، ويمتحنُني بالمسألة، فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة[2]، وقد حشد وجمع، ووقف علىٰ ضيعة من ضياع شيزر يُحرق ويَنهب. فجرّد عمي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً، وقال لي: «خذهم وسِرْ إليهم[3]». فمضينا نتراكض، والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنّا فيهم، وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه. ونفّذتُ فارساً من أصحابي إلىٰ عمي وأبي، رحمهما الله، وهما واقفان، ومعهما باقي العسكر وراجل كثير، أقول لهما: «سيرا بالرَّجّالة فقد كسرتُهم». فسارا إليّ. فلما قرُبا حملنا عليهم[4] كسرناهم، ورموا خيلهم في الشاروف[5]، وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا، وعدنا بالنصر. فقال لي عمي: [٣٢و] «أيَّ شيء نفّذتَ تقول لي؟» قلت: «نفّذتُ أقول لك: تقدّم بالرَّجّالة فقد كسرناهم». فقال: «مع من نفّذت إليَّ؟» قلت: «مع رجب العبد». قال: «صدقت! ما أراك كنتَ إلا حاضر القلب، ما أدهشك القتال!».

---

(١) رأس الجبل.

(٢) شهاب الدين محمود بن قراجا (٥٠٩ ـ ٥١٨هـ). من تُركمان العصر سبق ذكره في غير موضع.

(٣) يقصد: إلىٰ رجال صاحب حماة. (٤) يعني: علىٰ رجال صاحب حماة.

(٥) من روافد نهر العاصي. يأتي من عدة جهات، ويتصل بالعاصي عند شيزر (قد يسمىٰ: الساروت والشاروت والصاروت).

[شاهد آخر على حضور قلبه في القتال]

ومرة أخرىٰ اقتتلنا نحن وعسكر حماة. وكان محمود بن قراجا[١] قد استعان علىٰ قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا، صاحب حمص. وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حَمْل الرماح المؤلَّفة: يوصل الرمح إلىٰ بعض رمح آخر، بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً، أو ثمانية عشر ذراعاً. فوقف مُقابلي موكبٌ منهم، وأنا في سَريّة، نحو من خمسة عشر فارساً، فحمل علينا منهم عَلوان العراقي، وهو من فرسانهم وشجعانهم، فلما دنا منّا وما تزعزعنا، رجع وردّ رمحه[٢]، فرأيته[٣] كالحبل مطروحاً علىٰ الأرض لا يقدر يرفعه. فأطلقت حصاني عليه، فطعنتُه وقد وصل إلىٰ أصحابه. وعدت وراياتهم علىٰ رأسي[٤]. فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فردَّهم، وقد انقطع نصف يَرَقي[٦] في كُزاغَند عَلوان، ونحن بالقرب من عمي، وهو يراني، فلما انفصل القتال قال لي عمي: «أين طعنتَ عَلوان العراقي؟» قلت: «أردتُ ظهره، فمال الهواء باليَرَق[٧] فوقع الرمح في جانبه».

---

(١) صاحب حماة. كان بينه وبين بني منقذ قتال انتهىٰ إلىٰ الصلح. وهو المذكور في الفقرة السابقة.

(٢) في طبعة حِتّي، أضاف: [إلىٰ خلفه]. أما السامرائي فجعل الإضافة: [فوقع منه]. وأرىٰ الجملة في غنًى عن الإضافتين، بدليل قوله في النهاية: «لا يقدر يرفعه».

(٣) يعني: الرمح، يجره وراءه علىٰ الأرض.

(٤) يعني: أنهم لحقوا به حتىٰ ظللوا رأسه براياتهم.

(٥) أحد إخوة أسامة الثلاثة. وفي («زامباور» ص ١٦٥)، أنه أحد أولاده الأربعة!

(٦) من التركية: يَراق، وهو السلاح وعدّته. والمقصود هنا: الرمح.

(٧) قرأها السامرائي: بالبيرق.

قال: «صدقتَ! ما كنتَ إلا حاضر القلب ذلك الوقت».

١٢٣

[تربية أسامة البيتية: والده يحضّه على ركوب الأخطار]

وما رأيت الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ نهاني عن قتالٍ ولا ركوب خطر، مع ما كان يرىٰ فيَّ وأرىٰ من إشفاقه وإيثاره لي، ولقد رأيته يوماً[١]، وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين[٢]، ملك الإفرنج، علىٰ قطيعة قطعها لحسام الدين تِمُرْتاش بن إيلغازي[٣] رَحِمَهُ اللَّهُ: فرسان إفرنج وأرمن. وَفَوا ما عليهم، وأرادوا الرجوع إلىٰ بلادهم، نفّذ خير خان[٤]، صاحب حمص، خيلاً كَمَنُوا لهم في ظاهر شيزر. فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم. ووقع الصائح. فركب عمي وأبي، رحمهما الله، ووقفا، وكلّ من يصل إليهما قد سيّراه من خلفهم[٥]. وجئت أنا فقال لي أبي: «اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم!». فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار، واستخلصتُ من كان معهم، وأخذت بعض خيل حمص، وعجبت من قوله: «ارموا نفوسكم عليهم»!

١٢٤

[مَثَل آخر: أسامة يقبل على الحيّة فلا ينهاه أبوه]

ومرة كنت معه رَحِمَهُ اللَّهُ وهو واقف في قاعة داره. وإذا حيّة عظيمة قد

---

(١) سنة ٥١٩هـ.

(٢) Baldwin II، ملك بيت المقدس.

(٣) ابن صاحب ماردين: إيلغازي بن أُرْتُق. انظر: («زامباور» ص ٣٤٥).

(٤) ذكره أسامة في الفقرة السابقة، أخو محمود بن قراجا، صاحب حماة.

(٥) يقصد: اللّحاق بالرهائن ومحتجزيهم.

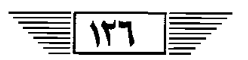
أخرجت رأسها علىٰ إفريز رُواق القناطر التي في الدار. فوقف يبصرها. فحملتُ سُلّماً كان في جانب الدار، أسندته [٣٢ظ] تحت الحيّة وصعِدت إليها، وهو يراني فلا ينهاني. وأخرجت سكيناً صغيرة من وسْطي، وطرحتها علىٰ رقبة الحيّة وهي نائمة، وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحزّ رأسها، وخرجتْ التفّتْ علىٰ يدي، إلىٰ أن قطعتُ رأسها، وألقيتها إلىٰ الدار، وهي ميتة.

١٢٥

[أسامة يستقبل الأسد، فينهاه أبوه]

بل رأيته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر علىٰ الجسر[١]. فلما وصلناه[٢] حمل علينا من أَجَمةً كان فيها. فحمل علىٰ الخيل، ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الأسد وبين موكبٍ فيه أبي وعمي، رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند. والأسد قد ربض علىٰ جُرْف النهر[٤] يتضرَّب بصدره علىٰ الأرض، ويهدر. فحملتُ عليه. فصاح عليَّ أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تستقبلْه يا مجنون، فيأخذك!» فطعنتُهُ. فلا والله ما تحرك من مكانه. ومات موضعَه!

فما رأيته نهاني عن قتال، غير ذلك اليوم!



[ولكنّ الناس أطوار، تسيّرهم أقدارهم
تركماني جسيم يقتله جرح بسيط!]

خلق الله عَزَّ وَجَلَّ خَلْقه أطواراً مختلفي الخلق والطبائع: الأبيض

---

(١) جسر شيزر. (٢) يعني: الجسر.

(٣) أحد إخوته الثلاثة، ويذكره كثيراً. انظر: الفقرة (١٢٢ ح٣).

(٤) الجُرْف والجُرُف: شق الوادي إذا حفر الماءُ في أسفله.

والأسود، والجميل والقبيح، والطويل والقصير، والقويّ والضعيف، والشجاع والجبان، بمقتضىٰ حكمته وعموم قدرته.

رأيت بعض أولاد الأمراء التُرْكُمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتابِك زَنكي[1] رَحِمَهُ اللهُ، وقد أصابتْه نشّابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة، فاسترخىٰ، وانحلّت أعضاؤه، وانقطع كلامه، وغاب ذهنه، وهو رجل مثل الأسد، أجْسَم ما يكون من الرجال. فأحضروا له الطبيب والجرائحي[2]. فقال الطبيب: «ما به بأس. بل متىٰ ما جُرح ثانية مات!». فهدأ وركب، وتصرّف كما كان. ثم أصابته نشّابة أخرىٰ بعد مدة، أحقر من الأوّلة[3] وأقل نكاية، فمات!

١٢٧

[أيسر الأشياء يقتل عند فراغ الأجل: طحّان تقتله لسعة زُنبور!]

ورأيت ما يقارب ذلك أيضاً: كان عندنا بشيزر أَخَوان يقال لهما: بنو مَجاجو. الواحد اسمه: أبو المجد، والآخر: محاسن. وهما ضُمَّان[4] رَحاةِ الجسر[5] بثمانمائة دينار. وعند الرَّحا[5] مذبح للغنم

---

(١) عماد الدين، والد نور الدين الشهيد. ولأسامة معه ذكريات كثيرة يوردها في الكتاب. انظر: بني زنكي، في («زامباور» ص ٣٤١).

(٢) يقصد: الجرّاح. وأجازها بعض المعاجم الحديثة. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٣).

(٣) الأولىٰ. ترد هكذا (بتأنيث: الأول: بالتاء) علىٰ الدارجة. وترد كثيراً في الكتاب.

(٤) بالجمع بدل التثنية، علىٰ الدارجة.

(٥) الرَّحا (والرَّحىٰ أيضاً. تقول: رحوان ورحيان) مؤنثة، دون التاء. وهي الطاحون، وكان قائماً من تحت الجسر في شيزر ويبدو أن الرحا كانت تعمل بمياه العاصي. وورد ذكرها من قبل (رحا الجلالي).

يَذبح فيه جزّارو البلد، ويجتمع الزنابير علىٰ آثار الدم. فاجتاز محاسن ابن مجاجو يوماً إلىٰ الرَّحا، فلسعه زُنبور، فانفلج، وانقطع كلامه، وأشرف علىٰ الموت! وبقي كذلك مدة. ثم أفاق. وانقطع عن الرَّحا مدةً، فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له: «يا أخي! معنا هذه الرَّحا بثمانمائة دينار ولا تشرف عليها، ولا تبصرها[1]! وغداً ينكسر علينا ضَمانها ونموت في الحبس!». فقال [٣٣و] له محاسن: «أنت مقصودك أن يلسعني زُنبور آخر فيقتلني!» وأصبح جاء إلىٰ الرَّحا، فلسعه زُنبور فمات! فأيسر الأشياء يقتل إذا فَرَغ الأجل. والفأل موكّل بالمنطق[2]!

١٢٨

[الفأل موكّل بالمنطق أحياناً: غلام يتنبأ بمصيره!]

فمن ذلك: أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سَبُعٌ. فركبنا إليه فوجدنا غلاماً للأمير سابق بن وثاب بن محمود بن صالح[3]، في ذلك المكان، يرعىٰ فرسه؛ اسمه: شماس. فقال له عمي: «أين الأسد؟» قال: «في تلك الغلفاء[4]». قال: «سِرْ قُدّامي إليها!» قال: «أنت مَقصودك[5] أن يخرج الأسد يأخذني!». ومشىٰ قُدّامه. فخرج الأسد، كأنه مرسَل إلىٰ شماس، فأخذه فقتله دون الناس! وقُتل الأسد.

---

(١) يريد: لا ترعاها ببصرك.

(٢) في الجملة إشارة إلىٰ القول المأثور: «إن البلاء موكّل بالمنطق»، وهو قول قديم منسوب إلىٰ الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه («مجمع الأمثال» للميداني المثل رقم ٣٥) ضمنه بعض الشعراء شعرهم: انظر مثلاً: («الضوء اللامع» للسخاوي ٤/ ٣٤٢).

(٣) من أحفاد صالح بن مرداس، صاحب حلب. انظر: الفقرة (١١١)، وفي المصادر: سابق أخو وثاب لا ابنه. انظر: («زامباور» ص٢٠٥).

(٤) الأرض التي لم ترع. ولعلها: الغلباء، وهي الأرض الكثيفة الشجر.

(٥) صيغة دارجة ما تزال شائعة إلىٰ اليوم.

[أسامة يسترسل في خواطره: الأُسْد كالناس: فيها الشجاع وفيها الجبان!]

وشهدت من الأسْد ما لم أكن لأظنه، ولا اعتقدت أن الأُسْد كالناس: فيها الشجاع وفيها الجبان. وذلك أن جُوبان[١] الخيل جاءنا يوماً يركض، وقال: «في أجَمة تل التلول[٢] ثلاثة سباع!» فركبنا فخرجنا إليها. وإذا لبؤة خلفها أسدان. فدُرنا في تلك الأَجَمة. فخرجت علينا اللّبُؤة. فحملتْ على الناس ووقفتْ. فحمل عليها أخي بهاء الدولة، أبو المغيث منقذ رحمه الله، طعنها قتلها، وتكسّر رمحه فيها.

ورجعنا إلىٰ الأجَمَة. فخرج علينا أحد السَّبُعين فطرد الخيل. ووقفتُ أنا وأخي بهاء الدولة[٣] في طريقه، عند عودته من طرْد الخيل. فإن الأَسَد إذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع إليه، بلا شُبْهة[٤]. وجعلْنا أعجاز خيلنا إليه، ورددنا رماحَنا[٥] نحوه، ونحن نعتقد أنه يقصِدنا، فنُنشب الرماح فيه فنقتله. فما راعنا إلا وهو عابر علينا، كالريح، إلىٰ رجل من أصحابنا يقال له: سعد الله الشيباني. فضرب فرسه رماها، فطعنتُه وسّطْتُ القُنطارية فيه، فمات مكانه.

ورجعنا إلىٰ الأسد الآخر، ومعنا نحو من عشرين راجلاً من الأرمن الأجناد، رماة[٦]. فخرج السّبعُ الآخر، وهو أعظمها خِلْقة، يمشي. وعارضه الأرمن بالنَّشَّاب، وأنا مُعارض الأرمن، أنتظره يحمل عليهم يأخذ واحداً منهم، فأطعنه وهو يمشي. وكلما وقعتْ فيه نشّابة هدر ولوَّح بذنبه، فأقول: «الساعةَ يَحمل»، ثم يعود يمشي! فما زال كذلك

---

(١) من التركية: چوبان؛ وهي: الراعي.

(٢) علىٰ طريق الغاب. انظر: الفقرة (٨٥ ح٥).

(٣) انظر ما قلناه في الفقرة (١٢٥). (٤) في هذا القول.

(٥) علىٰ الجمع، بدل التثنية. (٦) بالنشّاب.

حتىٰ وقع ميتاً. فرأيت من ذلك الأسد شيئاً ما ظننته!

١٣٠

[خروف ينطح أسداً فيهزمه!]

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك:

كان بمدينة دمشق جَرْو أسد قد رباه سَبّاع معه، حتىٰ كبر وصار يطلب الخيل، وتأذىٰ الناس به. فقيل للأمير معين الدين[1] رَحِمَهُ اللهُ وأنا عنده: «هذا السبع قد آذىٰ الناس، والخيل تنفر منه، وهو في الطريق». وكان علىٰ [٣٣ظ] مصطبة، بالقرب من دار معين الدين، في النهار والليل، فقال: «قولوا للسبّاع يجيء به». فقال للخِوان سلار[2]: «أَخْرِجْ من ذبائح المطبخ خروفاً، اتركْه في قاعة الدار، حتىٰ نبصر كيف يكسِره السبع». فأخرج خروفاً إلىٰ قاعة الدار. ودخل السبّاع ومعه السّبع. فساعة رآه الخروف، وقد أرسله السبّاع من السلسلة التي في رقبته، حمل عليه فنطحه! فانهزم السّبعُ يدور حول البركة[3]، والخروف خلفه يطرده وينطحه! ونحن قد غَلَبنا الضحك عليه. فقال الأمير معين الدين رَحِمَهُ اللهُ: «ذا سبع منحوس! أخرِجوه اذبحوه، واسلخوه. وهاتوا جلده». فذبحوه وسلخوه، وأَعتقَ ذلك الخروف من الذبح.

١٣١

[وأسد يفرّ من كلب!]

ومن عجيب أمور السباع: أن أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر.

---

(١) أُنُر، والي دمشق للبوريين أتابكة دمشق، من أولاد طُغْدُكين، قبل أن تسقط في يد نور الدين الشهيد. يذكره أسامة كثيراً.

(٢) مدير المطبخ (فارسية). انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٢٤).

(٣) في وسط الدار (الفسقية)، علىٰ نسق البيوت الدمشقية القديمة.

فخرجنا إليه، ومعنا رَجّالة من أهل شيزر، فيهم غلام للمُتعَبَّد[1] الذي كان يطيعه أهل الجبل، ويكاد أن يُعبد. ومع ذلك الغلام كلب له، فخرج الأسد علىٰ الخيل، فجَلَتْ قدّامه جافلة، ودخل في الرَّجّالة، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه. فوثب الكلب علىٰ ظهر الأسد، فنفر عن الرجل وعاد إلىٰ الأَجَمة! وخرج الرجل إلىٰ بين يدي والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يضحك. وقال: «يا مولاي! وحياتك، ما جرحني ولا آذاني!»، وقتلوا الأسد. ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه! إلا انقطع قلبه[2]! فكنت أعجب من إقدام ذلك الكلب علىٰ الأسد، وكل الحيوان ينفرُ من الأسد ويتجنبه.

١٣٢

[هيبة الأسد على الحيوان مثل هيبة العُقاب على الطير]

ولقد رأيت رأس الأسد يُحمل إلىٰ بعض دورنا، فترىٰ السنانير تهرب من تلك الدار، وترمي نفوسها من السطوحات[3]، وما رأت الأسد قط! وكنا نسلخ الأسد، ونرميه في الحصن إلىٰ سفح الباشورة[4]، فلا يقربه الكِلاب ولا شيء من الطير! وإذا رأت القيقان[5] اللحم نزلت إليه، ثم إذا دنت منه، صاحت وطارت! وما أشبه هيبة الأسد علىٰ الحيوان بهيبة العُقاب علىٰ الطير! فإن العُقاب

---

(١) لعله يريد: المعظَّم (المعبود). يريد: شيخ الإسماعيلية، وفي الأصل: (المفنَّد). قرأها ديرنبورغ «للمقيَّد» وقرأها حِتّي: «للمعبَّد». وتركها السامرائي علىٰ الأصل.

(٢) ما يزال مثل هذا الاستعمال جارياً إلىٰ اليوم، في دارجة أهل الشام. يقصد: غير أنه...

(٣) الصحيح: أسطحة وسطوح للمفرد (سطح).

(٤) تكون في مداخل الحصون، وتربط فيها الخيول.

(٥) الغربان، بلغة أهل الشام الدارجة. والمفرد عندهم: «قاق».

يبصره الفرّوج[1] الذي ما رأىٰ العُقاب قط، فيصيح وينهزم! هيبة ألقاها الله تعالىٰ في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

١٣٣

[عودة إلى أقدار الناس وأطوارهم: يقتل الأسد ثم تقتله عقرب صغيرة!]

وعلىٰ ذكر السباع: كان عندنا أخوان من أصحابنا، يقال لهما: بنو الرُّعام، رَجّالة[2]، يترددان من شيزر إلىٰ اللاذقية (واللاذقية لعمي عز الدولة، أبي المرهف، نصر. وفيها أخوه عز الدين، أبو العساكر سليمان[3]، رحمهما الله) بالكتب بينهما. قالا: «خرجنا من اللاذقية، [٣٤و] فأشرفنا من عَقَبة المندة[4]، وهي عَقَبة عاليةٌ تشرف علىٰ ما تحتها من الوطا[5]، فرأينا السّبُع وهو رابض علىٰ نهر تحت العَقَبة. فوقفنا مكاننا ما نجسر علىٰ النزول من خوف الأسد. فرأينا رجلاً قد أقبل. فصحنا إليه، ولوّحنا بثيابنا إليه نحذّره من الأسد، فما سمعَنا. وأوتر قوسه وطرح فيه نشّابة ومشىٰ، فرآه الأسد فوثب إليه، فضربه[6] ما أخطأ قلبه فقتله. ومشىٰ إليه فتمّم قتْله! وأخذ نشّابته، وجاء إلىٰ ذلك النهر، فنزع زُرْبوله[7]، وقلع ثيابه، ونزل اغتسل في الماء. ثم طلع لبس ثيابه، ونحن نراه، وجعل ينفض شعره لينشّفه من الماء. ثم لبس فردة زُربوله، واتّكىٰ[8] علىٰ جنبه، وطوَّل في الاتكاء! فقلنا: والله ما

---

(١) فرخ الدجاجة.
(٢) بالجمع بدل التثنية، علىٰ الدارجة.
(٣) انظر نسب بني منقذ في («زامباور» ص ١٦٥).
(٤) يبدو أنها مرتفع مشرف علىٰ النهر الجاري تحتها، الاسم غير معروف اليوم.
(٥) الوَطاء: ما انخفض من الأرض.
(٦) الرجل.
(٧) الحذاء (يونانية الأصل)، ومازالت مستعملة حتىٰ اليوم.
(٨) اتكأ.

قصّر ولكن عَلىٰ مَن يتيه! ونزلنا إليه، وهو علىٰ حاله، فوجدناه ميتاً، ما ندري ما أصابه! فنزعنا فردة الزُربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد لسعته في إبهامه، فمات لوقته! فعجبنا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد، وقتلته عقرب مثل الإصبع! فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق!

١٣٤

[أسامة يحدّث عن طباع الأسد]

قلت: قاتلت السِّباع في عدة مواقف لا أحصيها: وقتلتُ عِدّة منها، ما شَرِكني في قتلها أحد، سوىٰ ما شاركني فيه غيري؛ حتىٰ خَبِرتُ منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري. فمن ذلك: أن الأسد، مثلَ سواه من البهائم، يخاف ابن آدم ويهرب منه، وفيه غفلة وبَلَه، ما لم يُجرح؛ فحينئذٍ هو الأسد! وذلك الوقت يُخاف منه. وإذا خرج من غاب أو أَجَمة، وحمل علىٰ الخيل، فلا بدّ له من الرجوع إلىٰ الأَجَمَة التي خرج منها، ولو أن النيران[1] في طريقه. وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة، فمتىٰ حَمَل[2] علىٰ الخيل وقفتُ في طريق رجوعه، قبل أن يُجرح. فإذا رجع تركتُه، إلىٰ أن يتجاوزني، وطعنته قتلته.

١٣٥

[طباع النمور في القتال]

فأما النّمور فقتالها أصعب من قتال الأُسد، لخفتها وبُعد وثبتها. وهي تدخل في المغارات والمَجاحر[3]، كما تدخل الضباع، والأُسد ما تكون

---

(١) يكون إشعال النار في البادية لأن الأُسْد تتحاشاها. ويسميها البدو: نار الأسد.

(٢) الأسد.

(٣) المَجْحر: الجُحْر. والجمع: مجَاحر.

إلا في الغابات والآجام. وقد كان ظَهَر عندنا نَمِر في قرية يقال لها: مَعَرْزَف[1]، من أعمال شيزر. فركب إليه عمي عز الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأرسل إليَّ فارساً، وأنا راكب في شغل لي، يقول: «الحقني إلىٰ مَعَرْزَف». فلحقته وجئنا إلىٰ الموضع الذي [٣٤ظ] زعموا أن النّمِر فيه، فما رأيناه. وكان هناك جُبّ. فنزلت عن حصاني ومعي قُنطارية، وجلست علىٰ فم الجُبّ، وهو قصير[2] نحوَ القامة، وفي جانبه خَرق كالمَجْحَر، فحركتُ القُنطارية في ذلك الخَرق الذي في الجُبّ، فخرج النّمِر برأسه من ذلك الخَرق ليأخذ القُنطارية. فلما علمنا أنه في ذلك الموضع نزل معي بعض أصحابنا، وصار بعضنا يحرّك ذلك الموضع بالرمح، فإذا خرج طعنه الآخر. وكلما أراد الصعود من الجُبّ أوثقناه بالرماح، حتىٰ قتلناه، وكان خِلْقة عظيمة، إلا أنه كان قد أكل من دوابّ القرية حتىٰ عجَز عن نفسه[3]. وهو، دون سائر الحيوان، يقفز إلىٰ فوق أربعين ذراعاً!

١٣٦

[نَمِر يجاهد الإفرنج]

وقد كان في كنيسة حُناك[4] طاقة في ارتفاع أربعين ذراعاً، فكان يأتيها نَمِر في الهاجرة[5]، يثب إليها ينام فيها إلىٰ آخر النهار. ويثب منها ينزل ويمضي. ومُقْطَع[6] حُناك ذلك الوقتَ فارس إفرنجي يقال له: سير آدم[7]، من شياطين الإفرنج. فأخبروه خبر النّمِر فقال: «إذا

---

(١) قرية إلىٰ الشمال الغربي من حماة. انظر: الخريطة.

(٢) يريد: ليس عميقاً.

(٣) يعني: سمِن وثقُلت حركته.

(٤) حصن إلىٰ الجنوب الغربي من معرة النعمان. خرّبه عبد الله بن طاهر بن الحسين في العصر العباسي (٢٠٩هـ). («معجم البلدان» ٢/ ٣٠٩).

(٥) نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٦) صاحب الإقطاع.

(٧) Sir Adam.

رأيتموه أعلموني». فجاء النّمِر كعادته وثب إلىٰ تلك الطاقة، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم. فلبس درعه، وركب حصانه، وأخذ تُرْسه ورمحه، وجاء إلىٰ الكنيسة وهي خراب. إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلما رآه النّمِر وثب من الطاقة عليه، وهو علىٰ حصانه، فكسر ظهره، وقتله، ومضىٰ! فكان فلاحو حُناك يسمونه: النّمِر المجاهد!

ومن خواص النمِر أنه إذا جَرح الإنسانَ، وبالت عليه[1] فأرة مات، ولا ترتد الفأرة عن جريح النَّمِر، حتىٰ إنه يُعمل له سرير يَجلس [عليه] في الماء، ويُربط حوله السنانير[2] خوفاً عليه من الفأر.

١٣٧

[النَّمِر لا يألف الناس]

والنَّمِر لا يكاد يألف الناس، ولا يستأنس بهم، وقد كنتُ مرة[3] مجتازاً بمدينة حيفا، من الساحل، وهي للإفرنج. فقال لي إفرنجي منهم: «تشتري مني فهداً جيداً؟» قلت: «نعم». فجاءني بنمِر قد رباه حتىٰ صار في قدّ الكلب. قلت: «لا، ما يصلح لي! هذا نمِر، ما هو فهد!» فعجبتُ من أُنسه[4] وتصرّفه مع الإفرنجي.

١٣٨

[الفرق بين النّمِر والفهد
أما البَبْرُ فقد سمع عنه أسامة وما رآه]

والفرق بين النّمِر والفهد: أن وجه النمِر طويل، مثل وجه الكلب،

---

(١) علىٰ الإنسان.

(٢) السِّنَور: من القطط. خير مآكله الفأر.

(٣) حوالي سنة ٥٣٤هـ، أو بعدها قليلاً. (٤) يعني: أنس النمر بصاحبه الإفرنجي.

وعيناه زرق. والفهد وجهه مدوّر، وعيناه سود[1]. وقد كان بعض الحلبيين أخذ نِمراً وجاء به، في عِدْل، إلىٰ صاحب القَدموس[2] وهو لبعض بني مُحرِز، وهو يشرب. ففتح العِدْل، فخرج النمِر علىٰ مَن في المجلس، فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج، دخل منها وغلّق عليه الباب! وجال النمِر في البيت: قتل بعضهم، وجرح بعضهم، إلىٰ أن قتلوه!

وسمعت، وما رأيت [٣٥و]، أن في السباع البَبْر[3]. وما كنت أصدق ذلك. فحدثني الشيخ الإمام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد بن ظفر[4]، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «سافرت إلىٰ المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرَّب الأمور. ففرَغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث، إنما نحن: أنا وهو علىٰ نجيبين[5]. فقصدنا ماءً في طريقنا فوجدنا عليه البَبْر وهو نائم، فاعتزلْنا عنه. ونزل صاحبي عن جَمَلهِ، وأعطاني زمامه، وأخذ سيفه وتُرسه وقِرْبةً معنا وقال لي: «احتفظ برأس النَّجيب». ومشىٰ إلىٰ الماء. فلما رآه البَبْر قام ووثب مُستقِبلَه حتىٰ تجاوزه. ثم صاح، فثارت إليه جُريَّاتٌ[6] له عدواً، لحقوه[7]؛ وما عارضَنا ولا آذانا. فشربنا واستَقَينا، ثم مضينا».

هكذا حدثني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه.

---

(١) زرقاوان وسوداوان. والجمع علىٰ الدارجة.

(٢) حصن للإسماعيلية، غرب مصياف (مصياث، مصياد)، إلىٰ الجنوب الغربي من شيزر. ما يزال قائماً. انظر: الخريطة.

(٣) البَبْر علىٰ صورة السباع، أبيض البطن والجانبين، مخطط بخطوط سود.

(٤) ولد بعيداً من شيزر، في صقلية، ونشأ في مكة، ومات في حماة سنة ٥٦٥هـ. («وفيات الأعيان» ٤/ ٣٩٥).

(٥) النجيب: كل فاضل نفيس من نوعه، والكريم العتيق من الخيل. والجمع: أنجاب ونُجَباء ونُجُب.

(٦) جمع جُرَيّة، مصغر جرو.

(٧) علىٰ الدارجة.

١٣٩

[عودة إلى حديث الآجال لوقوع الأقدار:
يوم ضرب الروم شيزر بالمنجنيق]

ومن عجيب الآجال: لما نزل الروم إلىٰ شيزر، سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم، ترمي الثِّقْل[1]، ويبلغ حَجَرها ما لا تبلغه النشّابة. وترمي الحَجَر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً. ولقد رمَوا مرة دار صاحب لي، يقال له: يوسف ابن أبي الغريب رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ، ببيت قوفا[2]، فهدمت عُلْوَها وسُفْلها بحجر واحد. وكان علىٰ برج، في دار الأمير، قُنطارية فيها راية منصوبة، وطريق الناس في الحِصن من تحتها. فضرب القُنطاريةَ حجر المنجنيق كسرها من نصفها. وانقلب كَسرُها الذي فيه السنان، تنكّس ووقع إلىٰ الطريق، ورجل من أصحابنا عابر، فوقع السّنان من ذلك العلوّ، وفيه نصف القُنطارية، في تَرْقُوَته[3]، خرج إلىٰ الأرض وقتله!

١٤٠

[شيخ من شيزر يصيبه حجر المنجنيق،
وهو يريق الماء!]

وحدثني خُطلُخ، مملوك لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ قال: «كنا في حصار الروم جلوساً في دِهليز الحِصن[4] بعُددنا وسيوفنا، فإذا شيخ قد

(١) الحِمْل الثقيل. والجمع: أثقال.

(٢) من قرىٰ دمشق. وصياغة اسمها يشير إلىٰ أنه من أصل آرامي. («معجم البلدان» ١/ ٥٢١).

(٣) التَّرقُوة: العظم بين ثغرة النحر والكتف.

(٤) حصن شيزر.

جاءنا يعدو، وقال: «يا مسلمون! الحريم! دخل الروم معنا!» فأخذنا سيوفنا وخرجنا، وجدناهم قد طلعوا من ثُغرة في السّور، ثَغَرتْها[1] المجانيق. فضربناهم بالسيوف حتىٰ أخرجناهم. وخرجنا خلفهم حتىٰ أوصلناهم إلىٰ أصحابهم، وعدنا فتفرقنا، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزَعَنا[2]. فوقف وأدار وجهه إلىٰ الحائط يُريق الماء. فأعرضتُ عنه، فسمعتُ وجْبةً[3] فالتفتُّ وإذا بالشيخ قد ضربتْ[4] رأسَه [٣٥ظ] حجر المنجنيق، كسرتْه وألصقتْه بالحائط، ومُخّه قد سال علىٰ الحائط! فحملتُه وصلّينا عليه ودفنّاه في مكانه، رَحِمَهُ اللهُ»!

١٤١

[ومكسور يصيبه حجر المنجنيق في وقت التجبير!]

وضربتْ حَجَر المنجنيق رجلاً من أصحابنا كَسرت رجله، فحملوه إلىٰ بين يدي عمي، وهو جالس في دِهليز الحِصن، فقال: «هاتوا المجبِّر!» وكان بشيزر رجل صانع يقال له: يحيىٰ، صانع[5] في التجبير، فحضر وجلس يجبّر رجله، وهو في سِتْرة[6]، خارج باب الحصن. فضربت الرَّجُلَ المكسورَ حَجَرٌ في رأسه طيّرتْه! فدخل المجبِّر إلىٰ الدِّهليز، فقال عمي: «ما أسرع ما جَبَّرتَه!» قال: «يا مولاي! جاءته حَجَر ثانية أغنتْه عن التجبير!».

---

(١) فتحت فيها ثُغرة (ثُلمة). (٢) طلب نجدتنا (فَزَعنا).
(٣) السقطة والهدّة.
(٤) الحجر مذكر. فكأن أسامة يريد به: الحجرة. وقد درج عليه في مواضع من الكتاب، علىٰ مثال الفقرة التالية.
(٥) ماهر (صناع).
(٦) يعني: المكان المستور.



[ورجل يسعى إلى حتفه، يوم قصد الفرنج دمشق]

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار: أن الإفرنج، خذلهم الله، أجمع رأيهم علىٰ أن يقصِدوا دمشق ويأخذوها[١]. فاجتمع منهم خلق كثير. وسار إليهم صاحب الرُّها وتل باشر[٢] وصاحب أنطاكيّة[٣] فنزل صاحب أنطاكيّة علىٰ شيزر، في طريقه إلىٰ دمشق. وقد تبايعوا بينهم دُور دمشق وحمّاماتها وقياسيرها[٤]. واشتروها البَرْجاسيّة[٥]، ووزنوا لهم أثمانها. وما عندهم شك في فتحها ومُلكها. وكَفَرطاب إذ ذاك لصاحب أنطاكيّة. فجرّد من عسكره مائة فارس، انتخبهم وأمرهم بالمُقام بكفَرطاب مُقابلَنا ومقابل حماة. فلما سار إلىٰ دمشق اجتمع مَن بالشام من المسلمين لقصد كَفَرطاب. وأنفذوا رجلاً من أصحابنا، يقال له: قُنيب بن مالك، فجسّ لهم كَفَرطاب[٦] في الليل، فوصلها، دار بها[٧] وعاد، وقال: «أبشروا بالغنيمة والسلامة!» فسار المسلمون إليهم فالتقوا علىٰ مثكير[٨]. فنصر الله، سبحانه، الإسلام، وقتلوا الإفرنج جميعهم. وكان قُنيب، الذي جسّ لهم كفرطاب، قد رأىٰ في خندقها دواباً[٩] كثيرة.

---

(١) بقيادة بالدون الأول (بغدوين) Baldwin I ملك بيت المقدس، سنة ٥٠٨هـ.
(٢) الرُّها: أوديسا القديمة، وأورفة اليوم. وتل باشر: قلعة في الأصل، تقع بين حلب والرُّها. وصاحبهما هو جوسلين الأول Joscelin I. («معجم البلدان» ٣/١٠٦ و٢/٤٠).
(٣) روجار Roger.
(٤) يريدها أسامة جمعاً لـ(قيسرية).
(٥) التجار والصنّاع (Bourgeoisie) ممن نسميهم اليوم: (الطبقة الوسطىٰ).
(٦) يريد: أنه عاينها واستطلع أحوالها. وربما أراد فيها معنىٰ: التجسس.
(٧) دار في أنحائها.
(٨) بلد ورد ذكره من قبل، الفقرة (٥٧)، ويبدو أنه موضع قريب من كَفَرطاب.
(٩) الصحيح: دوابّ (ممنوع من الصرف).

فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق، ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده! فمضىٰ يركض إلىٰ الخندق، فرمىٰ عليه رجل من الإفرنج، من الحصن، حجراً فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندُب في مأتمنا، ثم تندبُ ولدها. فكانت إذا ندبت علىٰ ابنها قُنيب يتدفّق ثدياها باللبن حتىٰ تغرق ثيابها. فإذا فرَغت من ندْبها [٣٦و] عليه وسكنت لوعتها، عادت[1] ثدياها كالجلدتين: ما فيهما قطرة لبن! فسبحان من أشرب القلوب الحَنّة[2] علىٰ الأولاد!

ولما قيل لصاحب أنطاكيّة، وهو علىٰ دمشق: «قد قتل المسلمون أصحابك». قال: «ما هو صحيح! قد تركتُ بكفَرطاب مائة فارس تلتقي[3] المسلمين كلهم!».

وقضىٰ الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نُصِروا علىٰ الإفرنج، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا جميع دوابّهم. فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذلّه، والحمد لله رب العالمين.

١٤٣

[من عجائب هذا اليوم: رجل يحمل رأس أخيه!]

ومن عجيب ما جرىٰ في تلك الوقعة بالإفرنج: أنه كان في عسكر حماة أخوان كرديان. اسم الواحد: بدر، واسم الآخر: عَنّاز. وكان هذا ـ عَنّاز ـ ضعيف النظر. فلما كُسر الإفرنج وقُتلوا، قطعوا[4] رؤوسهم وشَدّوها في سُموط[5] خيلهم. وقطع عَنّاز رأساً [وشدّه] في

(١) أنّث الفعل، كأنه أراد: أثداءها، أو لعله تحريف الناسخ.
(٢) الحنان (حَنَّ عليه حَنَّة وحناناً: عطف).
(٣) يريد: المئة، علىٰ اللفظ.
(٤) قطع المسلمون رؤوس الإفرنج، علىٰ ما يبدو من الكلام.
(٥) السيور التي يعلق بها السرج. ومفردها: سِمط.

سُموطه. فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا له: «يا عَنّاز! أيّ شيء هذا الرأس معك؟» قال: «سبحان الله لِما جرىٰ بيني وبينه، حتىٰ قتلته؟» قالوا له: «يا رجل! هذا رأس أخيك بدر!» فنظره وتأمّله فإذا هو رأس أخيه! فاستحيا من الناس. وخرج من حماة. فما ندري أين قصد، ولا عدنا سمعنا له خبراً! وكان أخوه بدر قد قُتل في تلك الوقعة. قتله الإفرنج، خذلهم الله تعالىٰ!

١٤٤

[أسامة يسترسل في ذكرياته، فيذكر ضربة ضربها بسيفه يوم هجوم الإسماعيلية على شيزر]

أذكرَني ضَرْبُ حجر المنجنيق رأسَ ذلك الشيخ[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضَرْبَ السيوف الماضية. فمن ذلك: أن رجلاً من أصحابنا، يقال له: هُمام الحاج، التقىٰ هو ورجل من الإسماعيلية، لما عَمِلوا علىٰ حصن شيزر[٢] في رُواقٍ، في دار عمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفي يد الإسماعيلي سكين، والحاج في يده سيف. فهجم عليه الباطني بالسكين. فضربه هُمام بالسيف فوق عينيه، فقطع قَحْف رأسه، ووقع مخّه علىٰ الأرض، فانبسط عليها وتطاير! فوضع همام السيف من يده، وتقيّأ ما في بطنه، لِما لحقه، من منظر ذلك المخ من الغَثَيان.

ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم، في يده سيخ[٣] وفي يدي سيفٌ لي، فهجم عليّ بالسيخ، فضربته في وسط ساعده، والسيخ في يده قبضتهُ، ونصله لاصق بساعده. فقطع قدْر أربع أصابع من نصل السيخ!

(١) ارجع إلىٰ الفقرة (١٤٠).
(٢) سنة ٥٠٣هـ، وانظر: الفقرة (٩٢) و(١٥١). وسيرد ذكر هذا اليوم من بعد أيضاً. والعمل هنا يعني: تدبير الاستيلاء علىٰ الحصن. وانظر: التعليق في الفقرة (٩٨).
(٣) السيخ: نوع من سكاكين الجزّارين، طوله يقارب نصف المتر.

وقطع الساعد من نصفه، فأبانه[١]! وبقي أثر فم السيخ في حدّ السيف، فرآه صانعٌ عندنا فقال: «أنا أُخرج هذا الثُّلْم منه». قلت: «دعه كما هو. فهو أحسن ما فيه!» وهو إلىٰ الآن، إذا رآه الإنسان علم أنه أثر سكين!

١٤٥

[خبر هذا السيف]

[٣٦ظ] ولهذا السيف خبر أنا ذاكره:

كان للوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِكابي يقال له: جامع، فأغار الفرنج علينا[٢]. فلبس الوالد كَزاغَنده[٣]، وخرج من داره ليركب، فما وجد حصانه، فوقف ساعة ينتظره، فوصل جامعٌ الرِّكابي بالحصان، وقد أبطأ. فضربه الوالد بهذا السيف، وهو في غمده، متقلّد به. فقطع الجِهاز والنعل الفضة[٤] وبُشْتاً[٥] كان علىٰ الرِّكابي وصُوفيّة، وعَظم مِرْفقه[٦]! فرُمِيَتْ يده! فكان[٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم به وبأولاده بعده[٨]، لتلك الضربة[٩]! وكان» السيف يسمىٰ: «الجامعي» باسم ذلك الرِّكابي!

١٤٦

[من ضربات السيوف المذكورة: ضربتان قاتلتان]

ومن ضرَبات السيوف المذكورة: أن أربعة إخوة من أنساب الأمير

---

(١) يعني: فصل عن الساعد نصفه. (٢) في شيزر.

(٣) سترة سميكة تقوم مقام الدرع (فارسية). يرد ذكرها كثيراً في الكتاب.

(٤) جهاز السيف وما يكون علىٰ أسفل غمده من التزيينات الفضية.

(٥) العباءة (من بُشت، الفارسية).

(٦) العظم الموصل بين الساعد والعضد.

(٧) والد أسامة. (٨) يعني: يرعاه ويرعىٰ أولاده من بعده.

(٩) أي بسببها.

افتخار الدولة، أبي الفتوح بن عمرون، صاحب حصن (أبو قُبيس)[١]، صعِدوا إليه[٢]، إلىٰ الحصن، وهو نائم، أوثقوه بالجراح[٣]، وما معه في الحصن غير ابنه، ثم خرجوا، وهم يظنون أنهم قد قتلوه ـ يريدون ابنه! ـ وكان هذا (افتخار الدولة) قد آتاه الله من القوة أمراً عظيماً. فقام من فراشه عُريان وسيفه معلّق في البيت معه. فأخذه وخرج إليهم. فلقيه واحد منهم، وهو مقدَّمهم وشجاعهم. فضربه افتخار الدولة بالسيف، وقفز من مُقابله، خوفاً من أن يصل إليه بسكّين كانت في يده. ثم التفت إليه فوجده مُلْقىً قد قتله بتلك الضربة! وصار إلىٰ الآخر ضربه قتله! وانهزم الاثنان الباقيان. فرميا أنفسهما من الحِصن. فمات أحدهما ونجا الآخر!

وأتانا الخبر إلىٰ شيزر. فنفّذنا من هنّأه بالسلامة. وطلَعنا، بعد ثلاثة أيام، إلىٰ حِصن (أبو قُبيس) لعيادته ـ فإن أخته كانت عند عمّي عز الدين، وله منها أولاد ـ فحدّثنا حديثه، وكيف كان أمره، ثم قال: «مَتْن كتفي يَحكّني[٤]، وما أصل إليه». ودعا غلاماً له ليبصر ذلك الموضع: أي شيء قرصه فيه؟ فنظر فإذا هو جرح، وفيه رأس دَشن[٥] قد انكسر في ظهره، وما معه منه علم ولا أحس به! فلما قاح[٦] حَكّه!

وكان من قوة هذا الرجل: أنه كان يمسك رُسْغ رِجل البغل، ويضرب

(١) إلىٰ الغرب من شيزر. انظر: الخريطة.
(٢) إلىٰ صاحب الحصن: افتخار الدولة بن عمرون.
(٣) أثخنوه بها، فشلّوا حركته.
(٤) ما يزال التعبير دارجاً إلىٰ اليوم في الشام.
(٥) دَشنة (فارسية): الخنجر. ويقال في العربية: دَشني. وترد في لغة أسامة أحياناً: دَشْن.
(٦) تورم إلىٰ حد الالتهاب بتأثير الجراثيم الصديدية (قاح، يقيح، قيحاً). والقَيْح: إفراز الأنسجة الملتهبة.

البغل، فلا يقدر أن يُخلّص رِجله من يده! ويأخذ المسمار البَيطاري بين أصابعه، ويُنفذه في دف خشب البلوط! وكان أكْله مثل قوّته! لا بل أعظم!

١٤٧

[أتابِك طُغدُكين يضرب رقبة روبرت صاحب حصن صِهْيَون]

وقد ذكرتُ شيئاً من أفعال الرجال. وسأذكر شيئاً من أفعال النساء[١]، بعد بساطٍ أقدمه: وذلك أن أنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج، يقال له: روجار[٢] فمضىٰ يحج إلىٰ البيت المقدّس، وصاحب البيت المقدّس بَغْدَوين البُرونْس[٣]. وهو رجل شيخ. وروجار شاب. فقال لبَغْدوين: «اجعل بيني وبينك شرطاً: [٣٧و] إن مِتُّ قبلك كانت أنطاكيّة لك. وإن مِتَّ قبلي كان البيت المقدَّس لي». فتعاقدا وتواثقا علىٰ ذلك.

وقدّر الله تعالىٰ أنّ نجم الدين إيلغازي بن أُرتُق[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقيَ رُوجار بدانيث[٥]، يوم الخميس خامس جُمادىٰ الأُولىٰ، سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، فقتله، وقتل جميع عسكره. ولم يدخل أنطاكيّة منهم إلا دون العشرين رجلاً!

وسار بَغْدوين إلىٰ أنطاكية فتسلمها، وضرب مع نجم الدين مَصافّاً بعد أربعين يوماً. وكان إيلغازي إذا شرب النّبيذ يَخمَر عشرين يوماً!

---

(١) انظر من بعد، آخر الفقرة (١٤٩) وما بعدها.

(٢) Roger ويسمونه في تواريخ العصر أحياناً: سرجال أو روجيل، وهو ابن أخت تَنكرد (طَنكري): Tincred.

(٣) Prince (الأمير) وهو بالدوين الثاني Baldwin II ملك بيت المقدس.

(٤) أمير ماردين. انظر: الفقرة (٥٢).

(٥) ذكر أسامة من قبل الفقرة (٥٢) أن روجار قُتل في موقعة البَلاط (شمالي الأثارب)، ودانيث: بين أنطاكية وحلب.

فشرب، بعد كسر الإفرنج وقتْلهم، ودخل في الخُمار، فما أفاق حتىٰ وصل الملك بَغدوين البُرونس إلىٰ أنطاكيّة بعسكره!

فكان المصافّ الثاني بينهما علىٰ السواء: كَسَر بعضُ الفرنج بعضَ المسلمين، وكَسَر بعضُ المسلمين بعضَ الفرنج. وقُتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة. وأسر المسلمون روبرت[1] صاحب صِهْيَون[2] وبَلاطُنُس[3] وتلك الناحية. وكان صديقاً لأتابك طُغْدُكين، صاحب دمشق ذلك الوقت.

(وكان[4] مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالإفرنج في أفامية، حين وصل عساكر الشرق مع بُرسُق بن بُرسُق. فقال هذا روبرت الأبرص لأتابك طُغدُكين: «ما أدري بأي شيء أُضيِّفك! ولكن قد أبحتك بلادي. أَنفِذْ خيلك تُغير عليها وتأخذ كل ما وجدوه. علىٰ ألَّا يَسْبُوا ولا يقتلوا. الدوابّ والمال والغَلَّة لهم؛ يأخذون ذلك مُباحاً لهم» فلما أُسر روبرت، وأتابك طُغْدُكين حاضر المصافّ في معونة إيلغازي، قطع روبرت علىٰ نفسه[5] عَشرة آلاف دينار. فقال إيلغازي: «امضوا به إلىٰ أتابك لعله يُفزعه فيزيدنا في القطيعة!» فمضوا به، وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مُقبلاً قام شمَّر أذيال قَبائه[6] في البَنْدِ[7]، وأخذ

---

(١) Robert.

(٢) حصن حصين من أعمال حمص، لا يشرف علىٰ البحر، بين اللاذقية وحماة («معجم البلدان» ٣/ ٤٣٦).

(٣) Palatnus إلىٰ الجنوب من حصن صِهْيَون المذكور قبله («معجم البلدان» ١/ ٤٧٨).

(٤) أتابك طُغدُكين (وأسامة هنا يذكر واقعة سابقة).

(٥) فدية (القطيعة: المبلغ المقطوع).

(٦) ثوب يلبس فوق الثياب. والتشمير: رفع الثوب إلىٰ الأعلىٰ. يريد هنا رفع أذيال القَباء وشكلها في البند (الحزام أو الزنار).

(٧) مثل الزنار، يدار في الخصر، فوق القَباء علىٰ ما يبدو، يرد في دارجة أهل الشام علىٰ هذا النحو.

سيفه، وخرج إليه، ضرب رقبته! فنفّذ إليه إيلغازي يعتب عليه، وقال: «نحن محتاجون إلىٰ دينار واحد للتُّرْكمان. هذا كان قد قطع علىٰ نفسه عشَرة آلاف دينار، نفّذتُه إليك تُفزعه لعله يزيدنا في القطيعة؛ قتلتَه!» قال: «أنا ما أحسن أُفزِع[1] إلا كذا!».

١٤٨

[بغدوين أمير أنطاكية يعرف الجميل]

ثم مَلَكَ بَغْدوين البرونْس[2] أنطاكيّة. وكان لأبي وعمي، رحمهما الله، عليه جميل كبير، حيث كان أسَرَه نور الدولة بَلك[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصار بعد قتل بَلك[4]، إلىٰ حسام الدين، تِمُرتاش بن إيلغازي. فحمله إلينا، إلىٰ شيزر، ليتوسط أبي وعمي، رحمهما الله، بَيْعه، فأحسنّا إليه. فلما مَلَك[5] كانت لصاحب أنطاكيَّة[6] علينا قطيعة[7] سامَحَنا بها. وصار أمرنا في أنطاكية نافذاً.

فهو فيما هو فيه، وعنده رسول [٣٧ظ] من أصحابنا، إذ وصل مركب إلىٰ السُّويدية[8]، فيه صبيّ عليه أخلاق[9]. فحضر عنده وعرّفه أنه ابن

---

(١) الإفْزاع: الإخافة. وهي بهذا المعنىٰ في النص.

(٢) بالدوين الثاني Baldwin II le prince، كما سبقت الإشارة في الفقرة السابقة.

(٣) نور الدولة، صاحب مَلَطْية (شمالي الرها: أورفة، علىٰ الفرات) وهو ابن بَهْرام أخي إيلغازي بن أُرتُق المذكور في الفقرة السابقة. انظر: (أنساب الأُرتُقيين في «زامباور» ص ٣٤٦).

(٤) سنة ٥١٨هـ. (٥) يعني: بَغْدوين.

(٦) دَنْكري Tancred وذلك سنة ٥٠٥هـ.

(٧) كانت قيمة القطيعة أربعة آلاف دينار.

(٨) ميناء في الإسكندرونة، بالقرب من مصب العاصي. وهي سَلوقية القديمة («معجم البلدان» ٣/ ٢٤٢).

(٩) ثياب بالية.

ميمون[1]. فسلّم أنطاكيّة إليه، وخرج منها ضَرَبَ خيمة في ظاهرها.
فحلف لنا رسولنا الذي كان عنده أنه - يعني الملك بَغْدوين - اشترىٰ عَليق خيله تلك الليلة من السوق. وأهراء أنطاكيّة ملأىٰ من الغَلّة!
ورجع بَغْدوين إلىٰ القدس.

149

[ابن ميمون يهاجم شيزر، فتقف بُريكة تسقي الناس، وقت القتال، دون خوف]

وخرج علىٰ الناس من ذلك الشيطان، ابن ميمون[2]، بليّة عظيمة، فنزل علينا يوماً من الأيام بعسكره، فضرب خيامه، ونحن قد ركبنا مُقابلَهم، فما خرج إلينا منهم أحد، ونزلوا في خيامهم. ونحن رُكّاب[3] علىٰ شَرَفٍ[4]، نبصرهم وبيننا وبينهم العاصي. فنزل من بيننا ابن عمي، ليث الدولة، يحيىٰ بنُ مالك بن حميد رحمه الله يسير[5] إلىٰ العاصي. فظنناه يسقي فرسه. فخاض الماء، وعبر، وسار نحو موكب للإفرنج واقف بالقرب من خيامهم! فلما دنا منهم نزل إليه فارس واحد. فحمل كل واحد منهما علىٰ صاحبه، وراغ! كلّ واحد منهما عن طعنة الآخر، فتسرَّعتُ أنا وأمثالي من الشباب، ذلك الوقت، إليهما، ونزل ذلك الموكب، وركب ابن ميمون وعسكره، وجاءوا كالسيل، وصاحبُنا[6] قد طُعنت فرسه. فالتقتْ أوائل خيلنا وأوائل خيلهم. وفي أجنادنا رجل كردي، يقال له: ميكائيل، قد جاء

(1) Behemond وكانت أنطاكية لأبيه من قبل بغدوين، وصارت إليه سنة ٥٢٠هـ.
(2) انظر: آخر الفقرة السابقة (١٤٨).
(3) يريد: راكبون.
(4) مرتفع.
(5) حاد وانحرف.
(6) ابن عم أسامة: (ليث الدولة).

في أوائل خيلهم منهزماً، وخلْفه فارس إفرنجي قد لَزَّه، وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عال. فلقِيتُه، فمال علىٰ ذلك الفارس الكردي، وزلَّ عن طريقي، وقصد خيلاً لنا في جماعةٍ علىٰ الماء واقفين مما يَلينا، وأنا خلفَه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه، فلا يلحقه، ولا الإفرنجي يلتفت إليّ؛ إلا يريد[1] تلك الخيل المجتمعة، إلىٰ أن وصل إلىٰ خيلنا، وأنا تابعه، فطعن أصحابي حصانَه طعنة أوثقتْه، وأصحابه في إثره في جَمْع ما لنا بهم قوّة! فرجع الفارس، وحصانه في آخر رمَقه، التقاهم[2] فردَّهم جميعهم، وعاد، وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون، صاحب أنطاكيّة، وهو صبي[3]، قد امتلأ قلبه من الرعب. ولو ترك أصحابَه هزمونا إلىٰ أن يُدخلونا المدينة[4]!

كلّ ذلك[5] وأَمَة عجوز، يقال لها: بُريكة، مملوكة لرجل كردي من أصحابنا، يقال له: عليّ بن محجوب، واقفة بين الخيل علىٰ شط النهر، في يدها شَرْبة[6] تستقي بها وتسقي الناس! وأكثر أصحابنا، الذين كانوا علىٰ الشّرَف، لما رأوا الإفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة. وتلك [٣٨و] الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الأمر العظيم!

---

(١) مثل هذا التعبير شائع إلىٰ اليوم في دارجة أهل الشام ومعناه: صمّم علىٰ الأمر.

(٢) يقصد: أصحابه من الإفرنج.

(٣) كان عمره لا يزيد علىٰ ثمانية عشر عاماً.

(٤) هي التي تقع خارج قلعة شيزر علىٰ النهر، قرب الجسر. وترد، بهذا المفهوم، كثيراً في الكتاب.

(٥) هذا الذي أراد أسامة أن يذكره، وأشار إليه في مطلع الفقرة (١٤٧)، وما تقدم قبله تمهيد له.

(٦) وعاء لشرب الماء. معروف شكله، شائع في الشام.

١٥٠

[بُرَيكة تمارس السحر في المقابر!]

وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بُريكة، وإن لم يكن موضعه. لكن الحديث [ذو] شُجون[١].

كان مولاها (عليّ) يتديّن ولا يشرب الخمر، فقال لوالدي يوماً: «والله، يا أمير، ما أستحلّ آكل من الديوان، ولا آكل إلا من كسب بُريكة!» وهو الجاهل يظن أن ذلك السُّحت[٢] الحرام أحلُّ من الديوان الذي هو مستأجَر به!

وكانت هذه الأَمَة لها ولد، اسمه: نصر، رجل كبير. [كان] وكيلاً في ضيعة للوالد رحمه الله هو ورجل يقال له: بَقيّة بن الأُصيفِر.

حدثني قال: «دخلت في الليل إلىٰ البلد، أريد الدخول إلىٰ داري، في شغل لي. فلما دنوتُ من البلد رأيت بين المقابر، في ضوء القمر، شخصاً ما هو آدمي ولا هو وحش! فوقفتُ عنه وتهيّبتُه، ثم قلت في نفسي: ما أنا بَقيّة[٣]! ما هذا الخوف من واحد؟ فوضعت سيفي ودَرَقتي[٤] والحربةَ التي معي، ومشيت قليلاً قليلاً، وأنا أسمع لذلك الشخص زَجَلاً[٥] وصوتاً، فلما قرُبتُ منه وثبتُ عليه، وفي يدي دَشْنِيّ[٦] فقبضتُه[٧]، وإذا بها بُريكة مكشوفة الرأس، قد نفَشَت شعرها،

(١) من معاني الشَّجَن: الشعبة. ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون» يقصدون: متشعب ذو فنون.

(٢) المال الحرام.

(٣) اسمه المذكور قبل قليل: بقيّة بن الأُصيفر، كأنه يَعجب من نفسه.

(٤) الترس من الجلد.

(٥) الصوت المرتفع. وقد يكون في الطرب والغناء.

(٦) وردت في السابق هكذا: دَشْن، ودَشْني، وهو الخنجر (فارسية: دَشْنة).

(٧) أمسكت بالرجل.

وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر، وتجول! قلت: ويحكِ! أيَّ شيء تعملين في هذا الوقت هٰهنا؟ قالت: أسحرَ! قلت: قبّحكِ الله، وقبّح سِحرَكِ وصنْعتك من بين الصنائع!».

١٥١

[النساء يقاتلن في شيزر، ويُثرن غَيْرة الرجال]

أذكرني قوّةُ نفس هذه الكلْبة، بأمور جرت للنساء في الوقْعة التي كانت بيننا وبين الإسماعيلية[١]، وإن لم تكن[٢] سواء: لقي في ذلك اليوم مقدَّمُ القوم[٣]: عَلوان بن حراز، ابنَ عمي سِنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحِصن، وهو تِرْبي ولِدَتي[٤]، وُلدتُ أنا وهو في يوم واحد، يوم الأحد السابع والعشرين من جُمادىٰ الآخرة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة؛ إلا أنه ما باشر الحرب [حتىٰ] ذلك اليوم، وأنا كنتُ قُطبها، فأراد عَلوان اصطناعه[٥]، فقال له: «ارجع إلىٰ بيتك، احمل منه ما تقدر عليه، ورُحْ لا تُقتَل، فالحصن قد ملكناه!» فرجع إلىٰ الدار، وقال: «من كان له شيء يُعطيني إياه!» (يقول ذلك لعمته ونساء عمه). فكل منهم أعطاه شيئاً. فهو في ذلك وإذا إنسان قد دخل الدار، عليه زَرَديّة وخُوذة، ومعه سيف وتُرس. فلما رآه أيقن بالموت! فوضع[٦] الخُوذة، وإذا هي أم ابن عمه، ليث الدولة يحيىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ! فقالت: «أيَّ شيء تريد تعمل؟» قال: «آخذ ما قدِرتُ عليه، وأنزل من

---

(١) وقعت في ربيع سنة ٥٠٢هـ، وقد سكنت شيزر طائفة من الإسماعيلية، كانت تعمل في حلج القطن، وأشار أسامة إلىٰ الوقعة في الكتاب، في غير موضع، وإلىٰ رابية سماها «رابية القرامطة».

(٢) أي: الأمور.

(٣) يعني: الإسماعيلية.

(٤) اللّدة والتِرْب: الذي يولد معك في وقت واحد.

(٥) اصطناع الجميل لديه.

(٦) الداخل.

الحصن بحبل، وأعيش في الدنيا!» قالت: «بئس ما تفعل! تُخلّي بنات عمك وأهلك للحلّاجين[1] وتروح؟ أيَّ عيشٍ يكون [٣٨ظ] عيشك إذا افتَضحتَ في أهلك، وانهزمتَ عنهم؟ اخرج قاتلْ عن أهلك حتىٰ تُقتل بهم! فعل الله بك وفعل!» ومنعتْه، رحمها الله، من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك.

١٥٢

[أم أسامة تفضل أن تموت ابنتها على أن تراها مأسورة]

وفي ذلك اليوم[2] فرّقت والدتي، رحمها الله، سيوفي وكَزاغَنداتي. وجاءت إلىٰ أخت لي كبيرة السن، وقالت: «البَسي خُفّك وإزارَكِ!» فلبستْ، وأخذتْها إلىٰ روشن[3] في داري، يشرف علىٰ الوادي من الشرق، أجلستْها عليه، وجلست إلىٰ باب الروشن، ونصرنا الله، سبحانه، عليهم. وجئت إلىٰ داري أطلب شيئاً من سلاحي، ما وجدتُ إلا جهازات[4] السيوف وعِيَب[5] الكَزاغَندات. قلت: «يا أمي! أين سلاحي؟» قالت: «يا بني! أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا. وما ظننتك سالماً!» قلت: «فأختي أي شيء تعمل هٰهنا؟» قالت: «يا بني! أجلستُها علىٰ الروشن وجلستُ بَرّا منها[6]. إذا رأيتُ الباطنية[7] قد وصلوا إلينا، دفعتُها رميتُها إلىٰ الوادي، فأراها قد ماتت ولا

---

(١) الإسماعيلية، علىٰ ما ورد في الشرح من قبل.

(٢) يوم الوقعة مع الإسماعيلية سنة ٥٠٢هـ علىٰ ما ذكر أسامة في الفقرة السابقة.

(٣) هو الشرفة هنا، والجمع: رواشن. ويبدو أنه كان لها باب يُنفذ إليها منه.

(٤) حمائلها وأغمادها.

(٥) العَيبة: البقجة التي تحفظ فيها الثياب وكل ما يصلح للصرّ. وتصنع من الجلد أو القماش.

(٦) تريد: بعيداً منها، خارج الروشن. (٧) الإسماعيلية.

أراها مع الفلاحين والحلّاجين مأسورة!» فشكرتها علىٰ ذلك، وشكرتْها الأخت وجزَتها خيراً، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال.

١٥٣

[جارية عجوز تشارك في القتال]

وتلثمتْ في ذلك اليوم[١] عجوز من جواري جَدّي الأمير أبي الحسن علي[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقال لها: فنون. فأخذت سيفاً، وخرجت إلىٰ القتال! ومازالت كذلك حتىٰ صعِدنا وتكاثرنا عليهم.

١٥٤

[جَدَّة أسامة وأصالة رأيها]

وما يُنكَر للنساء الكرام الأنَفَة والنخوة والإصابة في الرأي. ولقد خرجتُ يوماً من الأيام مع الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ الصيد. وكان مشغوفاً بالصيد، عنده من البُزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغاوّية[٣] ما لا يكاد يجتمع عند غيره. ويركب في أربعين فارساً من أولاده ومماليكه، كلٌ منهم خبير بالصيد، عارف بالقنص. وله بشيزر متصيَّدان[٤]: يوماً يركب إلىٰ غربيِّ البلد، إلىٰ أزوار[٥] وأنهار، فيتصيّد الدُّرَّاج[٦] وطير

---

(١) ما يزال أسامة يستعيد بعض ذكريات الوقعة مع الإسماعيلية.

(٢) سديد الملك، أول حاكم لشيزر من بني منقذ، انظر: (المقدمة، وأنساب بني منقذ في «زامباور» ص ١٦٥).

(٣) نسبة إلىٰ زَغاوة، قوم من السودان مشهورون بكلابهم المنسوبة إليهم (الزّغاوية).

(٤) مكان الصيد.

(٥) في المعجم: الزارة: الأجمة. والزَّور في لغة الحمويين: كل أرض مزروعة وتكون، علىٰ ما يبدو، بجوار النهر. ومنها دير الزور علىٰ الفرات. وما تزال علىٰ ألسنة الحمويين.

(٦) طائر شبيه بالحَجَل وأكبر منه، الواحدة دُرّاجة.

الماء والأرانب والغزلان ويَقتل الخنازير، ويوماً يركب إلىٰ الجبل قِبْليَّ البلد، يتصيد الحَجَل والأرانب.

فنحن في الجبل يوماً وقد حانت صلاة العصر، فنزل ونزلنا نصلي فُرادىٰ. وإذا غلام قد جاء يركض قال: «هذا الأسد!» فسلّمتُ قبل الوالد رَحِمَهُ اللهُ لكيلا يمنعني من قتال الأسد. وركبتُ ومعي رمحي، فحملت عليه، فاستقبلني وهَدَر. فحاص بي الحصان، ووقع الرمح من يدي لثقله. وطردني[1] شوطاً جيداً، ثم رجع إلىٰ سفح الجبل، ووقف عليه. وهو من أعظم السِّباع، كأنه قَنطرة، جائع. وكلما دنونا منه نزل من الجبل، طَرَد الخيل وعاد إلىٰ مكانه، وما ينزل نَزْلة إلا يؤثِّر [٣٩و] في أصحابنا.

ولقد رأيتُه[2] ركب مع رجل من غلمان عمي، يقال له: بُسْتُكين، [غرز] غَرزةً، علىٰ وَرِكَي حصانه، وخرّق بمخالبه ثيابَه وراناته[3]، وعاد إلىٰ الجبل، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعِدت فوقه[4] في سفح الجبل، ثم حدرت حصاني عليه، فطعنته نفّذت الرمح فيه، وتركته في جانبه. فتقلّب إلىٰ أسفل الجبل والرمح فيه. فمات الأسد، وانكسر الرمح، والوالد رَحِمَهُ اللهُ واقف يرانا، ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري، وهم صبيان.

وحملْنا الأسد ودخلْنا البلد، العِشاء، وإذا جدَّتي لأبي، رحمهما الله، قد جاءتني في الليل، وبين يديها شمعة. وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة. فما شككتُ أنها قد جاءت تهنّئني بالسلامة،

---

(١) الأسد.　　　(٢) يعني: والده.

(٣) في «المعجم»: الران، الغطاء والحجاب الكثيف. والرانات في لغة العصر: تدور علىٰ الساق دون القدم وترد في الكتاب بهذا المعنىٰ.

(٤) يريد: صعِد بحصانه في سفح الجبل، فصار أعلىٰ من الأسد.

وتعرّفني مسرَّتها بما فعلتُ. فلقيتُها، وقبّلتُ يدها. فقالت لي بغيظ وغضب:

«يا بُنيَّ! أَيْش يحملك علىٰ هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك، وتكسِر سلاحك، ويزداد قلب عمك منك وَحشة ونفوراً؟»[1] قلت:

«يا سِتّي[2]! إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرَّب إلىٰ قلب عمي!» قالت: «لا والله! ما يقرِّبك هذا منه. وإنه يَزيدك منه بُعداً، ويَزيده منك وَحشة ونفوراً!» فعلمتُ أنها، رحمها الله، نصحتْني في قولها وصدَقتْني. ولعَمْري إنهن أمهات الرجال!

١٥٥

[عُمّرتْ مائة سنة، وهي تصلّي واقفة]

ولقد كانت هذه العجوز، رحمها الله من صالحي المسلمين، من الدين والصدقة والصَّوم والصلاة علىٰ أجمل طريقة. ولقد حضرتُها ليلة النّصف من شعبان، وهي تصلّي عند والدي، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أحسن من يتلو كتاب الله تعالىٰ. ووالدته تصلّي بصلاته. فأشفق عليها، فقال: «يا أمي! لو جلستِ صلّيتِ من قعود!» قالت: «يا بنيَّ! بقي لي من العمر ما أعيش إلىٰ ليلةٍ مثل هذه الليلة! لا، والله، ما أجلس!» وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة[3]، وهي شارفت المئة سنة، رحمها الله!

---

(١) انظر: ما ورد في مقدمة الكتاب عن الصلة بين أسامة وعمه عز الدين سلطان: من مبدئها إلىٰ منتهاها.

(٢) ما زالت تستعمل حتىٰ اليوم للجدّة ومن في حكمها. أو تستعمل بمعنىٰ «السيدة» إجمالاً. ووردت بهذا المعنىٰ في التراث.

(٣) كانت ولادته سنة ٤٦٥هـ، فموقع الحديث في حوالي ٥٣٥هـ.

١٥٦

[امرأة مسلمة تقتل زوجها لخيانته]

وشاهدتُ من نخَوات النساء عَجَباً، وهو أن رجلاً من أصحاب خَلَف بن مُلاعب[١]، يقال له: عليّ، عبد ابن أبي الريداء[٢]، كان قد رزقه الله تعالىٰ من النظر ما رَزَق زرقاء اليمامة[٣]. فكان ينهض مع ابن مُلاعب، يُبصر القوافل علىٰ مسيرة يوم كامل!

ولقد حدثني رجل من رفاقه، يقال له: سالم العجازي، انتقل إلىٰ خدمة والدي بعد ما قُتل خَلَف بن مُلاعب[٤]. قال:

«نهضنا يوماً وأرسلنا عليّاً، عبد ابن أبي الريداء، بُكْرةً [٣٩ظ] يُدبدب[٥] لنا. فجاءنا وقال: أبشروا بالغنيمة! هذه قافلة كثيرة مقبلة! فنظرنا ما رأينا شيئاً، فقلنا: ما نرىٰ قافلة ولا غيرها! قال: إني لأرىٰ القافلة وقُدّامَها فرَسان مُعَيَّنان[٦] ينفضان معارفهما[٧]! فأقمنا في الكمين إلىٰ العصر، فوصلتنا القافلة والفرَسان المُعَيَّنان قُدّامَها! فخرجنا أخذنا القافلة».

---

(١) صاحب أفامية، من بعد حمص. ورد ذكره في الفقرة (٦٦).

(٢) لعلها مصحفة: «الربداء»: ورَبِد رُبدةً: تكدر سواده فهو أربد، لله وهي ربداء وجمعه: رُبْد.

(٣) أصلها يماني، وعاشت في الجاهلية. يضرب بها المثل في حدة البصر، وصدق الخبر، اسمها حَذام، و(زرقاء اليمامة) لقبها. وفيها قيل: «أبصر من زرقاء اليمامة». وقال الشاعر:

إذا قالت حَذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حَذامِ

(٤) سنة ٤٩٩هـ علىٰ يد الباطنية.

(٥) دبدب الحافر علىٰ الأرض: صوّت. وفيها هنا معنىٰ: استطلع (ومنها الديدبان). ترد في الكتاب بهذا المعنىٰ في مواضع أخرىٰ.

(٦) الفرس يكون بين عينيه سواد.

(٧) العُرْف: شعر عنق الفرس. وجمعه: أعراف (والمعارف ترد في الدارجة، علىٰ ما يبدو).

وحدثني سالم العجائزي قال: «نهضنا يوماً، وصعِد علي، عبد ابن أبي الريداء، يُدبدب لنا[1]. فنام، وما دریٰ إلا وقد أخذه تركي من سَريّة أتراك ناهضة. وقالوا[2]: أيُّ شي أنت؟ قال: أنا رجل صُعلوك، قد أَكْرَيْتُ جملي لرجل من التجار في القافلة. أعطني يدك[3]: أنك تعطيني جملي، حتىٰ أدلّكم علىٰ القافلة! فأعطاه مُقدَّمهم يده. فمَشىٰ بين أيديهم إلىٰ أن أوصلهم إلينا، إلىٰ الكمين! فخرجنا عليهم أخذناهم. وتعلّق هو بالذي كان بين يديه، أخذ فَرَسه وعدَّته. وغنمنا منهم غنيمة حسنة».

فلمّا قُتل ابن مُلاعب انتقل عليّ، عبد ابن أبي الريداء، إلىٰ خِدمة توفيل[4] الإفرنجي، صاحب كفَرطاب. فكان[5] ينهض بالإفرنج إلىٰ المسلمين يَغنمهم، ويبالغ في أذىٰ المسلمين وأخْذ مالهم وسفْك دمهم، حتىٰ قطع سُبل المسافرين، وله امرأة معه بكفَرطاب، تحت يَدي الإفرنج، تُنكر عليه فِعله وتنهاه، فلا ينتهي.

فنفّذت أحضرتْ نسيباً لها من بعض الضياع، وأظنّه أخاها، وأخفتْه في البيت إلىٰ الليل. واجتمعت هي وهو علىٰ زوجها عليّ، عبد ابن أبي الريداء، قتلاه، واحتملا[6] بجميع مالها. وأصبحتْ عندنا بشيزر. وقالت:

«غضبتُ للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر!»، فأراحت الناس من هذا الشيطان، ورعيْنا لها ما فعلتْ. وكانت عندنا في الكرامة والاحترام.

---

(١) يحرسنا. ومنها: الديدبان. ودَبْدبَ، في الأصل: أحدث جلبة وصوتاً. أو أسرع.

(٢) أفراد السريّة.

(٣) يريد: العهد.

(٤) Theophil صاحب كفَرطاب (شمالي حماة). ورد ذكره سابقاً، في الفقرة (٨٨) باسم: ثيوفيل.

(٥) علي، عبد ابن أبي الريداء.

(٦) رَحَلا.



١٥٧

[امرأة إفرنجية تنتصر لزوجها، فتجرح فارساً مسلماً]

وكان في أمراء مصر رجل يقال له: ندىٰ الصُّلَيحي، في وجهه ضربتان: الواحدة من حاجبه الأيمن إلىٰ حدّ شعر رأسه، والأخرىٰ من حاجبه الأيسر إلىٰ حدّ شعر رأسه. فسألته عنهما فقال: «كنت أنهض وأنا شاب، من عَسْقَلان(١)، وأنا راجل. فنهضتُ يوماً إلىٰ طريق بيت المَقْدس، أريد حجّاج الإفرنج. فصادفْنا قوماً منهم. فلقيتُ رجلاً معه قُنطارية، وخلْفه امرأته معها كوز خَشب فيه ماء، فطعنّي(٢) الرجل هذه الطعنة الواحدة، وضربتُه قتلتُه، فمشتْ إليَّ امرأته وضربتْني بالكوز الخشب في وجهي، جرحتني هذا الجرح الآخر! [٤٠و] فوسَما وجهي».

١٥٨

[امرأة مسلمة تأسُر ثلاثة من عسكر الإفرنج]

ومن إقدام النساء: أن جماعة من الإفرنج الحجّاج حجّوا وعادوا إلىٰ رَفَنيّة(٣) (وكانت ذلك الوقت لهم)، وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل، وجاءوا إلىٰ شيزر (وهي إذ ذاك بغير سور)، فدخلوا المدينة(٤)، وهم في نحوٍ من سبعمائة ثمانمائة: رجال ونساء وصبيان، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان، وفخر الدين أبي كامل شافع، رحمهما الله، ليلقيا عروسين قد تزوّجاهما

---

(١) من أعمال فلسطين، علىٰ ساحل البحر، بين غزة وبيت جبرين. يتردد اسمها في الكتاب. («معجم البلدان» ٤/ ١٢٢).

(٢) طعنني. علىٰ دارجة أهل الشام.

(٣) إلىٰ الجنوب الغربي من حماة. (انظر: الخريطة).

(٤) القسم الواقع عند الجسر، خارج الحصن، من بيوت شيزر. يرد ذكرها كثيراً في الكتاب. انظر: المقدمة.

من بني الصّوفي الحلبيين، أخوات[1]، ووالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحِصن. فخرج رجل من المدينة في شُغل له، في الليل، فرأىٰ إفرنجياً! فعاد أخذ سيفه وخرج قتله. ووقع الصياح في البلد[2]. وخرج الناس فقتلوهم[3]، وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفِضّة[4] والبهائم.

وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا، يقال لها: نضْرة بنت بوزرماط، خرجت مع الناس أخذتْ إفرنجياً أدخلتْه بيتها، وخرجتْ أخذتْ آخر أدخلتْه بيتها، وعادت خرجتْ أخذتْ آخر، فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج. فأخذتْ ما كان معهم وما صلَح لها من سَلَبهم[5]، وخرجت دعتْ قوماً من جيرانها قتلوهم!

١٥٩

[إفرنجيّة تؤثر أن تعيش مع إسكافٍ من قومها، على أن تكون أميرة في ديار المسلمين]

ووصل عمّاي والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس، وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد. فصارت الخيل تعثُر في الليل، في القتلىٰ، ولا يدرون[6] بماذا تعثُر، حتىٰ ترجّل أحدهم وأبصر القتلىٰ في الظلام! فهالهم ذلك، واعتقدوا أن البلد قد كُبِس! وكانت غنيمة ساقها الله عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ الناس.

فصار إلىٰ دار والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدّة من الجواري من سَبْيهم، وهم،

(١) يريد: أختين، علىٰ الدارجة. ولآل صوفي ذكر في تاريخ العصر السياسي («النجوم الزاهرة» ٥/ ٣٨١).

(٢) البيوت داخل الحصن.

(٣) قتلوا الحجّاج الإفرنج.

(٤) في الأصل: القضة.

(٥) ما استلب في الحرب، وجمعه: أسلاب.

(٦) يقصد: راكبي الخيل.

لعنهم الله، جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم! فرأىٰ منهم جارية مَليحة شابّة، فقال لقهرمانة[1] داره: «أدخلي هذه الحمّام، وأصلحي كُسوتها، واعملي شُغْلها للسَّفَر». ففعلتْ. وسلّمها إلىٰ بعض خُدّامه، وسيّرها إلىٰ الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك، صاحب قلعة جَعْبَر[2]، وكان صديقه. وكتب إليه يقول: «غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفّذتُ لك سهماً منها». فوافقتْه وأعجبتْه، واتخذها لنفسه. فولدت له ولداً أسماه: [٤٠ظ] بدران. فجعله أبوه وليَّ عهده. وكبِر ومات والده. وتولىٰ بدران البلد والرعيّة، وأمه الآمرة الناهية. فواعدتْ قوماً، وتدلّتْ من القلعة بحبل، ومضىٰ بها أولئك إلىٰ سَروج[3] (وهي إذ ذاك للإفرنج)، فتزوجتْ بإفرنجي إسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر!

١٦٠

[إفرنجي يرتدّ بعد إسلامه، ويلتحق هو وأهله بالإفرنج]

وكان في أولئك الذين صاروا إلىٰ دار والدي، امرأة عجوز، ومعها بنتٌ لها: امرأة شابّة حسنة الخِلْقة، وابنٌ مشتدّ[4]. فأسلمَ الابن وحسُن إسلامه فيما يُرىٰ من صلاته وصومه. وتعلّم الترخيم[5] من مرخِّم كان يرخم دار والدي. فلما طال مُقَامه زوَّجه الوالد امرأة من قوم صالحين. وقام له بكل ما احتاج لعُرسه وبيته. فرُزق منها ولدين، وكبِرا وصار لكل

(١) مدبرة شؤون الدار والناهضة بأمورها.

(٢) علىٰ الفرات. انظر: (الفقرة ١٠٧ ح١، و«معجم البلدان» ٢/ ١٤١ـ ٢).

(٣) إلىٰ الجنوب الغربي من الرُّها (أورفة اليوم) والشمال الغربي من منبج. قريبة من حَرّان في ديار مضر. انظر: («معجم البلدان» ٣/ ٢١٦).

(٤) لعله يريد: قوي. وقد يكون فيه تصحيف أو تحريف، ولعلها (مستد) من السداد. ووضع (٨) فوق السين من عادة الكتّاب وضعها علىٰ الحروف التي ليس عليها نقاط، للتنبيه.

(٥) العمل في الرخام، أو تركيبه. والعامل فيه هو: المُرخِّم.

واحد منهما خمس ست سنين. والغلام راؤول، أبوهما، مسرور بهما، فأخذهما وأمهما وما في بيته، وأصبح بأفامية عند الإفرنج! وتنصَّر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدِّين، فالله تعالىٰ يطهِّر الدنيا منهم!

١٦١

[الإفرنج بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال: مَثَل من عجائب عقولهم!]

سبحان الخالق البارئ! إذا خبرَ الإنسان أمور الإفرنج سبَّح الله تعالىٰ وقدّسه، ورأىٰ بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحَمْل. وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم:

كان في عسكر الملك فُلْك بن فُلْك[1] فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحُجّ ويعود. فأنِس بي، وصار مُلازمي يدعوني: «أخي»؛ وبيننا المودة والمعاشرة، فلما عزم علىٰ التوجه في البحر إلىٰ بلاده قال لي: «يا أخي! أنا سائر إلىٰ بلادي؛ وأريدك تُنفذ معي ابنك (وكان ابني[2] معي. وهو ابن أربع عشرة سنة!) إلىٰ بلادي يُبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل!». فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل! فإن ابني لو أُسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلىٰ بلاد الإفرنج! فقلت: «وحياتِك! هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدّته تحبه. وما تركتْه يخرج معي حتىٰ استحلفتْني أني أردّه إليها». قال: «وأمك تعيش؟» قلت: «نعم». قال: «لا تخالفها!».

---

(١) Fulk v، توّج ملكاً علىٰ القدس سنة ٥٢٤هـ.

(٢) مرهف. كان أبوه يحبه حباً عظيماً. وأصبح بعدُ من المقربين إلىٰ صلاح الدين الأيوبي. انظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٨/ ٩٤، وكتاب «الاعتبار» من إجازته، في الأصل).

١٦٢

[ومَثَل من عجيب طِبِّهم]

ومن عجيب طِبِّهم: أن صاحب المُنَيْطِرة[١] كتب إلىٰ عمي[٢] يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضىٰ من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له: ثابت. فما غاب عَشرة أيام حتىٰ عاد! فقلنا له: «ما أسرع ما داويت المرضىٰ!» قال: «أحضروا عندي فارساً قد طلعتْ في رجله [٤١و] دُمّلة، وامرأة قد لحقها نُشاف[٣]. فعمِلتُ للفارس لَبْخة ففَتَحت[٤] الدمّلة وصلَحت. وحمَيْتُ[٥] المرأة ورطّبتُ مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء[٦] يداويهم. وقال للفارس: أيّما أحب إليك: تعيش برجل واحدة أو تموت برِجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة! قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً[٧] فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحطّ ساقه علىٰ قُرْمة[٨] خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها! فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة، ما انقطعت! ضربه ضربة ثانية فسال مخّ[٩] الساق، ومات من ساعته!

وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها! احلقوا شعرها! فحلقوه! وعادت تأكل من مأكلهم: الثُّوم والخرْدل. فزاد بها

---

(١) حصن للصليبيين واقع قرب نهر إبراهيم، في سلسلة جبال لبنان الغربية، قريباً من طرابلس، شمالي لبنان. («معجم البلدان» ٥/ ٢١٧).

(٢) عز الدين، أبو العساكر، سلطان. تولىٰ إمارة شيزر بعد أن تنازل له عنها والد أسامة. انظر: (المقدمة، ونسب بني منقذ في «زامباور» ص١٦٥).

(٣) البلَه (فارسية: نُشاف).

(٤) أهل الشام يجعلون أول الفعل هنا مفتوحاً، في دارجتهم.

(٥) من: الحِمْية.

(٦) علىٰ الدارجة.

(٧) الفأس، في اللغة، مؤنثة.

(٨) هي من جذوع الشجر.

(٩) مخ العظم: نِقْيه الذي في داخله.

النُّشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها! فأخذ الموسىٰ وشق رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتىٰ ظهر عظم الرأس! وحكّه بالملح، فماتت في وقتها!

فقلت لهم: بقي لكم إليَّ حاجة؟ قالوا: لا! فجئت وقد تعلمت من طِبِّهم ما لم أكن أعرفه»!

١٦٣

[مَثَل آخر من جيّد طِبّهم]

وقد شاهدت من طِبِّهم خلاف ذلك: كان للملك خازن من فرسانهم يقال له: برناد[١]، لعنه الله. من ألعن الإفرنج وأرْجسهم. فرمَحه حصان في ساقه. فعمّلتْ[٢] عليه رِجلُه، وفَتَحت في أربعة عشر موضعاً. والخُرَاج كلما خَتَمَ[٣] في موضع فَتَح موضع. وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم، وجعل يغسلها بالخلّ الحاذق[٤]. فختَمت تلك الجراح وبرأ[٥]، وقام مثل الشيطان!

١٦٤

[مَثَل من إنسانية بسطائهم، في الطب]

ومن عجيب طبّهم: أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له: أبو الفتح، له ولد قد طَلَع في رقبته خنازير[٦]. وكلما خَتَم موضع فَتَح موضع.

---

(١) Bernard.

(٢) التهبت، في دارجة أهل الشام، وتكوّن فيها القيح المسمىٰ: عملاً.

(٣) اندمل. وأهل الشام، في دارجتهم، يفتحون أوله أيضاً. والخُرَاج: تجمع صديدي، والجمع: أَخْرِجَة وخِرْجان. والواحدة: خُرَاجة.

(٤) الحامض حموضة تلذَع اللسان. (٥) برأ يبرأ وبرئ: لغتان.

(٦) نوع من القروح الصعبة. و«طَلَع» مثل الأفعال الأخرىٰ المشابهة، يفتح أولها في دارجة الشام.

فدخل أنطاكيّة في شُغل له، وابنه معه. فرآه رجل إفرنجي فسأله عنه، فقال: «هو ولدي» قال: «تحلف لي بدينك: إن وصفت لك دواء يُبرئه، لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة، حتىٰ أصف لك دواء يبرئه؟» فحلف. فقال له: «تأخذ له أُشناناً[1] غير مطحون، تحرقه وتربه بالزيت والخلّ الحاذق، وتداويه به حتىٰ يأكل الموضع[2]. ثم خذ الرصاص المُحرَق ورُبَّهُ بالسمن. ثم داوِه به، فهو يُبرئه!».

فداواه بذلك فبرأ، وختَمت تلك الجراح، وعاد إلىٰ ما كان عليه من الصحة!

وقد داويتُ بهذا الدواء من طلَع فيه هذا الداء، فنفعه وأزال ما كان [٤١ظ] يشكوه.

١٦٥

[عِشرة المسلمين تنفعهم: مَثَل من جفاء أخلاقهم]

فكلّ مَن هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفىٰ أخلاقاً من الذين قد تبلّدوا[3] وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله: أنني كنتُ إذا زُرت البيت المقدّس دخلتُ إلىٰ المسجد الأقصىٰ، وفي جانبه مسجد صغير[4] وقد جعله الإفرنج كنيسة، فكنتُ إذا دخلتُ المسجد

(١) نوع من النبات، يصنع من ورقه المطحون ما يوضع مع الثياب لتنظيفها بدلاً من الصابون، وتدفن عروقه وورقه تحت التراب. ويشعل (مثل الفحم) فيخرج منه ماء يجمد، ويكون منه مادة تسمىٰ (القِلىٰ) الذي يصنع منه الصابون. ويُمنع الغنمُ من أكل هذا العشب ـ لأنه يميتها! ولهذا أوصى بأن يُرَبَّ بالزيت والخل، أي: يُطيَّب ويُجوَّد.
واسم القِلىٰ: السوداء.

(٢) يقضي عليه.

(٣) سكنوا بلاد المسلمين.

(٤) ما يزال قائماً في جوار المسجد الأقصىٰ. والمقدسيون اليوم يشيرون عادة إلىٰ صلاة أسامة فيه أيام الحروب الصليبية. (من كلام أستاذي الدكتور إسحاق موسىٰ الحسيني رَحِمَهُ اللهُ إليّ).

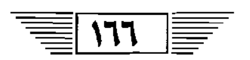
الأقصىٰ وفيه الداويّة[١]، وهم أصدقائي، يُخلُون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه، فدخلتُه يوماً فكبّرتُ في الصلاة. فهجم عليَّ واحد من الإفرنج، مَسَكَني وردَّ وجهي إلىٰ الشرق، وقال: «كذا صَلِّ!» فتبادر إليه قوم من الدّاويّة، أخذوه وأخرجوه عني، وعُدتُ أنا إلىٰ الصلاة. فاغتفلهم[٢] وعاد هجم عليَّ ذلك[٣] بعينه، وردَّ وجهي إلىٰ الشرق، وقال: «كذَا صَلِّ!» فعاد الدّوايّة دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إلي، وقالوا: «هذا غريب وَصَلَ من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأىٰ من يُصلّي إلىٰ غير الشرق». فقلت: «حَسْبي من الصلاة!» فخرجتُ فكنتُ أَعجب من ذلك الشيطان وتغيُّرِ وجهه ورِعدته، وما لَحِقَه من نظر الصلاة إلىٰ القِبْلة!

---

(١) Templiers (فرسان الهيكل الداويّة): المنقطعون إلىٰ قتال المسلمين لا يسألون عن شيء غيره. والداوية تحريف من كلمة سريانية تعني: فقر. فهم فرسان المسيح الفقراء. وقد جعلوا مقرهم المسجد الصغير القائم في جوار المسجد الأقصىٰ. هيئة رهبانية عسكرية تألفت سنة ٥١٣هـ ـ ١١١٩م، وأخذ عدد أفرادها يزداد بالتدريج، وازداد غناها بما يصلها من الهبات والإقطاعات من أنحاء أوروبا، فأصبحت من أقوىٰ المنظمات العسكرية في المملكة اللاتينية التي أقامها الإفرنج تلك الأيام في القدس. ووقعت المنافسة بينهم وبين (الاسبتارية) hospitaliers (٥٣٢هـ = ١١٣٧م) فرسان مشفىٰ القديس يوحنا الذي أقاموه في القدس أيضاً، للعناية «بحجاج الأرض المقدسة» وللهيئتين الرهبانيتين العسكريتين تاريخ طويل استمر خارج الأرض المقدسة، بعد أن حررها المسلمون. وهناك رهبانية ثالثة تأسست سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م باسم (التوتونيين Totoniques. وهم من الفرسان الألمان، أسسوها للدفاع عن مصالح الصليبيين. انظر (بعض التفصيل في: «التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص١٨ ـ ٩ ومراجعه، و«معجم البلدان» (حصن الداويّة): ٢/ ٢٦٤).

(٢) الصحيح: غافلهم أو تغفلهم.

(٣) الرجل الإفرنجي.



[عقولهم في نظر أسامة]

ورأيت واحداً منهم، جاء إلىٰ الأمير مُعين الدين[١] رَحِمَهُ اللهُ، وهو في الصخرة[٢]، فقال: «تريد تُبصر الله صغيراً؟» قال: «نعم!». فمشي بين أيدينا حتىٰ أرانا صورة مريم، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ صغير في حِجرها! فقال: «هذا الله صغير!»! تعالىٰ الله عما يقول الكافرون علوّاً كبيراً!

١٦٧

[لا نَخوة عندهم ولا غَيرة!]

وليس عندهم شيء من النّخوة والغَيْرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يَلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث! فإذا طَوَّلتْ[٣] عليه خلّاها مع المتحدّث ومضىٰ!

١٦٨

[إفرنجي يجد رجلاً في فراش زوجه!]

ومما شاهدت من ذلك: أني كنت إذا جئت إلىٰ نابُلُس[٤] أنزِل في دار رجل يقال له: مُعز، داره عمارة المسلمين[٥]. لها طاقات تفتح إلىٰ الطريق. ويقابلها، من جانب الطريق الآخر، دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار. يأخذه في قِنّينة من النبيذ، وينادي عليه ويقول: «فلان

---

(١) أُنُر: والي دمشق للأتابكة البوريين. يرد ذكره كثيراً في الكتاب.

(٢) جامع الصخرة في بيت المقدس.

(٣) استغرقت وقتاً طويلاً. من دارجة الشام.

(٤) كانت، أيام احتلال الإفرنج، تدخل في مملكة بيت المقدس.

(٥) يقصد: أن المسلمين بنوها.

التاجر قد فتح بتّيّة[1] من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا». وأجرته عن ندائه: النبيذ الذي في تلك القِنّينة، فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش! فقال له: «أيُّ شيء أدخلك إلىٰ عند امرأتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح!» قال: «فكيف دخلتَ إلىٰ فراشي؟» قال: «وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه!» قال: «والمرأة نائمة معك؟» قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» [٤٢و] قال: «وحق ديني! إن عدتَ فعلتَ كذا تخاصمتُ أنا وأنت!» فكان هذا نكيره[2] ومبلغ غيرته!

١٦٩

[وآخر يطلب من الحمّامي أن يحلق لزوجه عانتها!]

ومن ذلك: أنه كان عندنا رجل حمّامي يقال له: سالم، من أهل المعرة[3]، في حمّام لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال[4]: «فتحتُ حمّاماً في المعرة أتعيّش منها، فدخل إليها فارس منهم، وهم يُنكرون علىٰ من يشدّ في وسَطه المئزر في الحمام! فمدّ يده فجذب مئزري من وسَطي رماه! فرآني وأنا قريب عهدٍ بحلق عانتي، فقال: سالم! فتقرّبت منه. فمد يده إلىٰ عانتي وقال: سالم! جيد! وحق ديني اعمل لي كذا! واستلقىٰ علىٰ ظهره، وله مثل لحيته في ذلك الموضع! فحلقتُه، فمرّ يده عليه فاستوطأه[5] فقال: سالم! بحق دينك اعمل للداما[6]! (والداما بلسانهم: الست) يعني امرأته! وقال لغلام له: قل للداما تجيء! فمضىٰ الغلام وأحضرها وأدخلها، فاستلقت علىٰ ظهرها! وقال: اعمل كما عملتَ لي! فحلقتُ

---

(١) إناء واسع كالبرميل، لعلها في الأصل: Bouteille أو Bouteillon. أو ما يشبههما.
(٢) أنكر الأمر: استنكره. والاسم: النكير.
(٣) معرة النعمان.
(٤) الرجل الحمّامي.
(٥) وجده ناعماً.
(٦) Dame: السيدة.

ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني! فشكرني ووهبني حق خدمتي!»

فانظروا إلىٰ هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غَيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة! وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأَنَفَة من سوء الأُحدوثة(١).

١٧٠

[وثالث يدخل ابنته معه حمّام الرجال!]

ومما يقارب هذا: أنني دخلت الحمّام بمدينة صور(٢)، فجلستُ في خَلوة(٣) فيها. فقال لي بعض غلماني في الحمام: «معنا امرأة»! فلما خرجتُ جلستُ علىٰ المصاطب(٤)، وإذا التي كانت في الحمام قد خرجتْ وهي مُقابلي، قد لبستْ ثيابها، وهي واقفة مع أبيها. ولم أتحقق أنها امرأة. فقلت لواحد من أصحابي: «بالله أبصِر: هذه امرأة هي؟». (وأنا أقصِد: أن يسأل عنها) فمضىٰ وأنا أراه، رفع ذيلها وطَلّع(٥) فيها! فالتفت إليّ أبوها وقال: «هذه ابنتي، ماتت أمها، وما لها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها!» قلت: «جيد [ما] عملت. هذا لك فيه ثواب»!.

---

(١) الأحدوثة: ما يحدَّث به.

(٢) كانت، أيام احتلال الإفرنج، تدخل في مملكة بيت المقدس. احتلوها سنة ٥١٨هـ. («معجم البلدان» ٣/ ٤٣٣).

(٣) الحُجرة في الحمام. ولها باب يرخىٰ عليه المئزر عادة.

(٤) المصطبة. معروفة في الحمامات الشرقية. تُفرش ويُجلس عليها الخارجون من الحمام لتنشيف أبدانهم، والعودة إلىٰ ألبستهم، وهي المقصودة هنا. ومنها ما يكون فوق بيت النار يجلس عليها المستحم، ويصب علىٰ جسمه الماء.

(٥) من دارجة أهل الشام، بمعنىٰ: نظر إليه، وفصيحها: تطلع.

١٧١

[عودة إلى عجائب طبّهم: يقتل المريض ليريحه!]

ومن عجيب طبِّهم: ما حدّثنا به كليام دبور[١]، صاحب طبريّة، وكان مقدَّماً فيهم. واتفق أنه رافق الأمير مُعينْ الدين[٢] رحمه الله من عكّا إلىٰ طبريّة[٣]، وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال:

«كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدْر، فمرض وأشرف علىٰ الموت. فجئنا إلىٰ قَسّ كبير من قُسوسنا؛ قلنا: تجيء معنا حتىٰ تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم. ومشىٰ معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطّ يده عليه عوفي! فلما رآه قال: أعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمْعٍ. فليّنه وعمله مثل عُقَد الإصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فماتَ الفارس!

[٤٢ظ] فقلنا له: قد مات! قال: نعم. كان يتعذب، سددت أنفه حتىٰ يموت ويستريح!».

دع ذا وعدّ القول في هَرِمٍ[٤].

١٧٢

[عودة إلى حديث محاربي الإفرنج: سباق العجائز]

نرجع من حديث مَخازيهم إلىٰ سواها: حضرتُ بطبريّة[٥]، في عيد

---

(١) Guillaume de Bures، ابن أخت جوسلين صاحب الرها. اشترك في الحملة علىٰ دمشق سنة ٥٢٣هـ.

(٢) أُنُر: والي دمشق للأتابكة البوريين قبل أن تسقط في يد نور الدين بن زنكي سنة ٥٤٩هـ. ولأسامة ذكريات كثيرة معه يذكرها في الكتاب.

(٣) قد ترد في المعاجم: عَكّة. انظر فيها وفي طبرية: («معجم البلدان» ٤/ ١٧ و١٤٣). ويرد التعريف بهما في مواضع أخرىٰ من الكتاب.

(٤) صدر بيت لزهير بن أبي سُلمىٰ في ممدوحه هرم بن سنان. وعجزه: «خير البداة وسيّد الحَضرْ». شعر زهير بن أبي سُلمى ص١١٥.

(٥) طبريّة: بلدة مطلّة علىٰ البحيرة (بحيرة طبرية). يطل عليها جبل الطور. بينها =

من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان، أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خِنزيراً سمطوه[1]، وطرحوه علىٰ صخرة، وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحدة منهن[2] سَريّة من الخيّالة يَشُدّون منها[3]، والعجائز يقمن ويقعن علىٰ كل خطوة، وهم[4] يضحكون، حتىٰ سبقت واحدة منهن، فأخذتْ ذلك الخِنزير في سَبْقها.

١٧٣

[مَثَل من عجيب حُكمهم وقسوة أنفسهم: المبارزة]

وشهدت يوماً بنابُلُس، وقد أحضروا اثنين للمبارزة وكان سبب ذلك: أن حراميّة من المسلمين كَبَسوا[5] ضيعة من ضياع نابُلُس، فاتّهموا بها رجلاً من الفلاحين: وقالوا: «هو دلَّ الحراميّة علىٰ الضيعة». فهرب. فنفّذ الملك[6] فقبض أولاده. فعاد إليه. وقال: «أنصِفْني! أنا أبارز الذي قال عني: إنني دَلَلْتُ الحراميّة علىٰ القرية». فقال الملك لصاحب القرية المُقْطَع[7]: «أَحضِرْ من يُبارزه»، فمضىٰ

= وبين القدس مسيرة ثلاثة أيام. («معجم البلدان» ٤/ ١٧).

(١) أزالوا شعره بالماء الحار وشووه.

(٢) منهما. وجعلها بالجمع، علىٰ الدارجة.

(٣) في الجملة تصحيف أو تحريف أو نقص علىٰ ما يبدو. علىٰ أن المعنىٰ مفهوم: يسرعون معها، ولعل هذا معنىٰ: يشدّون (يشدّون معها)!

(٤) يعني هنا: الفرسان.

(٥) الكبسة: الهجمة المفاجئة.

(٦) لعله ملك بيت المقدس. وكانت نابلس تدخل في مملكتها أيام احتلال الإفرنج.

(٧) الذي أُقطع الإقطاع.

إلىٰ قريته، وفيها رجل حدّاد، فأخذه وقال له: «تبَارَزْ»[1]. إشفاقاً من المُقْطَع علىٰ فلّاحيه، لا يُقتل منهم واحد، فتَخْرَب فِلاحته! فشاهدتُ هذا الحدّاد، وهو شابّ قويّ؛ إلا أنه قد انقطع[2]، يمشي ويجلس، يطلب ما يَشربه، وذلك الآخر الذي طَلَب البِراز، شيخ؛ إلا أنه قويّ النفْس، يرتجز[3] وهو غير مُحتفِل بالمبارزة! فجاء البَسْكَنْد[4]، وهو شِحْنة[5] البلد، فأعطىٰ كلَّ واحدٍ منهما العَصا والتُّرس، وجعل الناس حولهم[6] حَلْقةً.

والتقيا. فكان الشيخ يَلُزّ[7] ذلك الحدّاد، وهو[8] يتأخر، حتىٰ يُلجئَه إلىٰ الحلْقة، ثم يعود إلىٰ الوسَط، وقد تضاربا حتىٰ بقيا كعمود الدم. فطال الأمر بينهما والبَسْكَند يستعجلهما، وهو يقول بالعَجَلة. ونفعَ الحدادَ إدمانُه بضرب المطرقة. وأعيا ذلك الشيخ. فضربه الحدّاد، فوقع، ووقعتْ عصاه تحت ظهره. فبرَكَ عليه الحدّاد يُداخل أصابعه في عينيه، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه! ثم قام عنه، وضرب رأسه بالعصا حتىٰ قتله! فطرحوا في رَقَبته، في الوقت، حبلاً، وجَرّوه شنقوه! وجاء صاحب الحدّاد أعطاه غِفارته[9]، وأركبه خلفَه، وأخذه وانصرف!

وهذا من جملة فِقههم [٤٣و] وحُكْمهم، لعنهم الله!

---

(١) بارز. علىٰ الدارجة. (٢) انبهر.

(٣) في الأصل: ارتجز الرعد: سُمع له صوت متتابع.

(٤) Viscount (قائد المنطقة).

(٥) رجال الضابطة (شحن: طرد وأبعد).

(٦) حولهما. (٧) لزّه: اضطره وضيّق عليه.

(٨) أي: الحداد.

(٩) الغفارة: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.




١٧٤

[مَثَل آخر من حُكمهم في تجريم شاب مسلم]

ومضيتُ مرّة مع الأمير معين الدين[١] رَحِمَهُ الله إلىٰ القدس. فنزلنا نابُلُس. فخرج من عنده رجل أعمىٰ، وهو شابّ عليه مَلْبوس جيّد، مُسْلِم، وحمل له فاكهة، وسأله في أن يأذن له في الوصول إلىٰ خِدمته إلىٰ دمشق، ففعل. وسألتُ عنه فخُبّرت أن أمه كانت مزوَّجة لرجلٍ إفرنجي، فقتلتْه. وكان ابنها يحتال علىٰ حُجّاجهم، ويتعاون هو وأمه علىٰ قتلهم. فاتهموه بذلك، وعملوا له حُكْم الإفرنج: جلّسوا بَتّيّة[٢] عظيمة وملؤوها ماء، وعرضوا عليها دَفَّ خشب، وكتفوا ذلك المتّهم، وربطوا في كِتافه حبلاً، ورموه في البتّيّة: فإن كان بريئاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل، لا يموت[٣] في الماء! وإن كان له الذَّنْب ما يغوص في الماء! فحرِص ذلك لمّا رموه في الماء أن يغوص، فما قدِر! فوجب عليه حُكْمهم ـ لعنهم الله ـ فكَحَلوه[٤]!

ثم إنَّ الرجل وصل إلىٰ دمشق، فأجرىٰ له الأمير مُعين الدين رَحِمَهُ الله، ما يحتاجه، وقال لبعض غلمانه:

«تمضي به إلىٰ بُرهان الدين البَلْخي[٥] رَحِمَهُ الله تقول له: تأمر من يُقرِئ هذا القرآنَ وشيئاً من الفِقْه». فقال له ذلك الأعمىٰ: «النصرَ والغَلَب!

---

(١) أُنُر، يتردد اسمه كثيراً في الكتاب. انظر: الفقرة (١٧١ ح ٥).

(٢) يريد: إناءً واسعاً كالبرميل، انظر: الفقرة (١٦٨).

(٣) لئلا يموت. من صياغات الدارجة.

(٤) أدخلوا الميل في العين ليذهب ببصرها.

(٥) من صالحي العصر وأئمته العلماء، ولاه نور الدين بن زنكي التدريس في المدرسة الحلاوية بحلب. تولىٰ التدريس في بعض مدارس دمشق، وتنسب إليه (المدرسة البلخية) فيها. له ترجمات في أكثر تواريخ العصر (ت حوالي ٥٤٧هـ). («سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢٠/ ٢٧٦)

ما كان هذا ظني!» قال «وما ظننتَ بي؟» قال: «تعطيني الحِصان والبَغلة والسلاح، وتجعلني فارساً!» قال: «ما اعتقدتُ أن أعمىٰ يَصير من الفرسان!».

١٧٥

[طول الإقامة في بلاد المسلمين تُصلح من حال الإفرنج]

ومن الإفرنج قوم قد تبلّدوا(١) وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم. لكنهم شاذّ لا يُقاس عليه.

فمن ذلك أنني نفّذت صاحباً إلىٰ أنطاكيّة في شُغْل، وكان بها الرئيس تادِرْس بن الصُّفّي(٢)، وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحُكم في أنطاكيّة. فقال لصاحبي يوماً: «قد دعاني صديق لي من الإفرنج. تجيء معي حتىٰ ترىٰ زِيّهم؟» قال: «فمضيت معه، فجئنا إلىٰ دار فارس من الفرسان العُتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج(٣)، وقد اعتفىٰ من الديوان والخِدمة، وله بأنطاكيّة مُلْك يعيش منه. فأحضر مائدة حسنة، وطعاماً في غاية النظافة والجوْدة، ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج! ولي طبّاخات مِصريّات ما آكل إلا من طبيخهنّ. ولا يَدخل داري لحم خِنزير. فأكلتُ وأنا مُحترِز. وانصرفنا.

فأنا بعدُ مجتاز في السوق، وامرأة إفرنجيّة تعلّقتْ بي وهي تُبربر بلسانهم، وما أدري ما تقول! فاجتمع عليَّ خلق من الإفرنج، فأيقنتُ

---

(١) صاروا من أهل البلد (عامية). وارجع إلىٰ الفقرة (١٦٨).

(٢) Theodoros Sophianos.

(٣) في الحملات الصليبية الأولىٰ (بدأت سنة ٤٩٠هـ)، فأمضوا زمناً طويلاً في بلاد المسلمين.

بالهلاك، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني. فجاء فقال لتلك المرأة: ما لكِ ولِهذا المسلم؟ قالت هذا قتلَ [٤٣ظ] أخي عُرْس[1]. وكان هذا عرس فارساً بأفامية، فقتله بعض جند حماة. فصاح عليها وقال: هذا رَجل برجاسي[2] (أي تاجر) لا يُقاتل، ولا يَحضر القتال! وصاح علىٰ أولئك المجتمعين، فتفرقوا، وأخذ بيدي ومضىٰ.

فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل».

١٧٦

[عجائب القلوب: عم أسامة يخاف الفأرة، وغلامه يفزع من الحيّة!]

ومن عجائب القلوب: أن الإنسان يخوض الغَمَرات ويركب الأخطار، ولا يرتاع قلبه من ذلك. ويخاف ما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان!

ولقد رأيت عمي عز الدين، أبا العساكر، سلطان[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من أشجع أهله، له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة، وهو إذا رأىٰ الفأرة تغيّرت صورة وجهه، ولحقه كالزَّمَع[4] من نظرها، وقام من الموضع الذي يراها فيه!

وكان في غلمانه رجل شجاع، معروف بالشجاعة والإقدام، اسمه: صُندوق، يفزَع من الحيّة حتىٰ يخرج من عقله! فقال له والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو واقف بين يدي عمي: «يا صُندوق! أنت رجل جيّد، معروف بالشجاعة، ما تستحي تفزع من الحيّة؟» قال: «يا مولاي! وأيّ شيء في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع، بطل من الأبطال، يفزع من

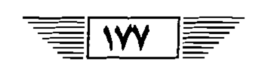
---

(١) لعله: Hurso. (٢) Bourgeoisie.

(٣) انظر: المقدمة، ونسب بني منقذ في («زامباور» ص ١٦٥).

(٤) الارتعاد من شدة الدهشة.

الفأرة ويموت!» يعني مولاه[1]. فقال له عمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قبّحك الله يا كذا وكذا»!



[ومملوك لوالد أسامة يخاف الحيّة أيضاً]

ورأيت مملوكاً لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقال له: لؤلؤ، وكان رجلاً جيّداً مقداماً. وقد خرجتُ ليلة من شيزر، ومعي بغال كثيرة وبهائم، أريد أَحمل عليها من الجبل خشباً قد قطعتُه هناك لِناعورةٍ[2] لي. فسرْنا من ظاهر شيزر، ونحن نظن أن الصُّبح قد دنا، فوصلْنا إلىٰ قرية يقال لها: دسا[3]، وما تنصَّف الليل. فقلت: «انزلوا ما ندخل[4] الجبل في الليل».

فلما نزلْنا واستقررْنا سمعْنا صهيل حصان. فقلنا: «الإفرنج!» فركبْنا في الظلام، وأنا أحدّث نفسي: أني أطعن واحداً منهم وآخذ حصانه، ويأخذون دوابّنا والرجال الذين مع الدواب! فقلتُ للؤلؤ وثلاثة من الغلمان: «تقدمونا! اكشفوا هذا الصَّهيل!» فتقدَّموا يركضون. فلَقُوا أولئك وهم في جمعٍ وسوادٍ[5] كثير. فسبقَ إليهم لؤلؤ، وقال:

(١) عم أسامة نفسه: عز الدين، أبو العساكر، سلطان.

(٢) إشارة إلىٰ نظام السقاية المتقدم الشائع المتبع في بساتين حماة في ذلك العصر.

(٣) الاسم غير واضح في الأصل. اختار حِتّي والسامرائي أن يقرّباه من «دُبَيْس» التي ينسب إليها بعض أمراء العصر (عز الدين أبو بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر، وله ذكر في الكتاب سيأتي من بعد: الفقرة ١٩٣ ح ٦). ويبدو، في كل حال، أن القرية قريبة من شيزر.

(٤) حتىٰ لا ندخل الجبل في الليل. من صياغات الدارجة الشائعة إلىٰ اليوم.

(٥) يعني: العدد الكثير من عامّتهم.

«تكلموا! وإلا أقتلكم كلكم» وهو رامٍ جيد. فعرفوا صوته، وقالوا: «حاجب لؤلؤ؟» قال: «نعم». وإذا همُ عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سُوار[1] رَحِمَهُ اللهُ قد أغاروا علىٰ بلاد الإفرنج وعادوا. فكان هذا إقدامه علىٰ ذلك الجمع. وإذا رأىٰ في بيته حيّة خرج منهزماً، وقال لامرأته: «دونَكِ والحيَّةَ!» فتقوم إليها تقتلها!

١٧٨

[المحارب الشجاع تُعجزه، أحياناً، العوائق اليسيرة!]

والمحارب، ولو أنه الأسد، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق! كما أصابني علىٰ حمص[2]: [٤٤و] جُرحتُ وقُتل حصاني، وضُربتُ خمسين سيفاً! كلّ ذلك لنفاذ المشيئة، ثم لتواني الرّكابي في تركيب عِنان اللجام! فإنه عَقَده في الباشات[3]، ولم يَشُقَّه! فلما جذبتهُ أريد الخروج من بينهم[4]، انحلَّ العِنان من عُقْدته في الباشات، فنالني ما نالني.

١٧٩

[على المحارب أن يتفقّد عُدّة حصانه]

وقد كان صاح الصائح يوماً بشيزر، من القِبْلة فلبسنا وفَزَعنا[5]. فكان الصائح كذّاباً. فرحل أبي وعمي، رحمهما الله، ووقفتُ بعدهما، فوقع الصائح من الشِّمال، من جانب الإفرنج، فركضتُ حصاني إلىٰ

---

(١) قائد عسكر حماة وعامل عماد الدين زنكي علىٰ حلب، ومقدّم عسكره. («الكامل» لابن الأثير ١١/٨).

(٢) يريد: وهو مقبل علىٰ حمص، يعمل للاستيلاء عليها، حسب تعبيره الدارج.

(٣) الباشة: الحلقة.

(٤) يريد: من يحيط به من مقاتليه.

(٥) فزَع: هب للإغاثة والعون.

الصائح، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضاً، وقالوا: «الفرنج!» فعبَرتُ المخاض وقلت للناس: «لا بأس عليكم! أنا دونكم!» ثم طلَعتُ أركض إلىٰ رابية القرامطة[1]، وإذا الخيل مُقبِلة في جمع كثير. وقد تقدم منهم فارس لابس زَرَديّة وخُوْذة، وقد دنا مني، فقصدتُه أستفرصُ[2] بُعده من أصحابه، واستقبَلَني. فحين حَرَّكتُ حصاني إليه انقطع رِكابي! وما بقي لي مندوحة عن لقائه! فقُمت إليه بلا رِكاب. فلما تدانيْنا، ولم يبق غير الطعن، سلَّم عليّ وخدمني[3]! وإذا هو السلار[4] عمر، خال السلار زين الدين إسماعيل بن عمر بن بَخْتيار، وكان نهض مع عسكر حماة إلىٰ بلد كفَرطاب[5]. فخرج عليهم الإفرنج، فعادوا إلىٰ شيزر منهزمين، وتقدمهم الأمير سُوار رحمه الله!

فسبيل الرجل المحارب يتفقّد عُدَّة حصانه، فإن أيْسر الأشياء وأقلّها يؤذي ويُهلك. كل ذلك مقرون بما تَجري به الأقدار والأقضية[6].

١٨٠

[عجائب الأقدار: أسامة يتأذّى بضَبُع!]

وقد شهدتُ قتال الأُسد في مواقف لا أحصيها. وقَتلتُ عدّةً منها لم يَشْرَكني أحد في قتلها. فما نالني من شيء منها أذىٰ. وخرجتُ يوماً مع والدي رحمه الله إلىٰ الصيد، في جبل قريب من البلد[7]، نَصيد منه

(١) إلىٰ الشمال من شيزر. جاء ذكرها من قبل.
(٢) أتحيّن الفرصة.
(٣) يعني: خاطبه بلفظة السيادة.
(٤) سالار (بالفارسية): المقدَّم.
(٥) في شمالي حماة. وكانت للإفرنج. يكثر ذكرها في الكتاب.
(٦) قضاء الله.
(٧) داخل قلعة شيزر. وربما تعد بها المدينة، خارج القلعة.

الحَجَل بالبُزاة. ويكون الوالد، ونحن معه، والبازياريّة[1] علىٰ الجبل، وبعض الغِلمان والبازياريّة أسفلَ من الجبل، للتخليص[2] من البزاة والوقوف علىٰ النَّبَج[3]. فقامت لنا ضبْعة فدخلت مَغارة، وفي تلك المغارة مَجْحر[4] دخلتْ فيه. فصِحتُ بغلام لي رِكابي، اسمه: يوسف، خلع ثيابه وأخذ سكّينه ودخل في ذلك المَجْحر، وأنا في يدي قُنطارية، مُستقبلَ الموضع: إذا خرجتْ طعنتُها. فصاح الغلام: «إليكم قد خرجتْ!» فطعنتُها أخطأتها لأن الضبعة دقيقة [٤٤ظ] الحجم. وصاح الغلام: «عندي ضبعة أخرىٰ!» فخرجتُ في إثرها. فقمتُ وقفت في باب المَغارة، وهي ضيّقة الباب مُتعلِّية[5] قدْر قامتين، انظر ما يعمل أصحابنا الذين في الوَطا[6] بالضِّباع التي نزلت إليهم. فخرجتْ ضبعة ثالثة، وأنا مشغول بالنظر إلىٰ الأوائل، فندسَتْني[7] رمتْني من باب المغارة إلىٰ القرارة التي تحته، فكادت تكسرني. فتأذَّيْتُ بضبعة، وما تأذيت بالسباع! فسبحان مقدِّر الأقدار ومُسبِّب الأسباب!

١٨١

[خَوَر القلوب: قائد يُغشى عليه من النظر إلى جُرح!]

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرِّجال وخَوَرهم ما لا كنتُ أظنه بالنساء! فمن ذلك أنني كنتُ يوماً علىٰ باب دار والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأنا صبي، عمري دون العشر سنين، فلطم غلام لوالدي، اسمه: محمد العَجَمي، صبياً من خُدّام الدار، فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي، فلحقه، وهو ماسك بثوبي، فلطمه! فضربته[8] بقضيب كان في يدي، فدفعني،

(١) مثل البازدار (فارسية): حامل الباز. (٢) تخليص الصيد.
(٣) النَّبَجَة: الأكمة. وجمعها: النَّبَج. (٤) الجحر.
(٥) يقصد: المغارة. (٦) الوطاة: المنخفض من الأرض.
(٧) ندسه: قذف به. (٨) يعني: الغلام محمداً العجمي.

فجذبتُ من وسَطي سكّيناً ضربته بها، فوقعت في بِزّه الأيسر، فوقع. وجاءنا غلام كبير لوالدي، يقال له: القائد أسد، فوقف عليه ونظر الجرح، وإذا تنفّس طلع منه الدم مثلَ فواقع الماء، فاصفرّ وارتعد، ووقع مَغْشيّاً عليه! فحُمل إلىٰ داره، وكان يسكن معنا في الحصن، علىٰ تلك الحال! فما أفاق من غَشْيته إلىٰ آخر النهار، وقد مات المجروح وقُبر!

١٨٢

[ورجل يُغشى عليه من الفِصاد!]

ومما يقارب ذلك: كان يزورنا، إلىٰ شيزر، رجل من أهل حلب، فيه فضل وأدب، يلعب بالشِّطرنج طبقة[١]، ويلعب بها غائباً[٢]؛ يقال له: أبو المُرَجّىٰ، سالم بن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل. فربما مرض، فيصف له الطبيب الفِصاد. فإذا حضر الفاصد تغيّر لونه، وارتعد! فإذا فصَده غُشي عليه! فلا يزال في غَشْيته حتىٰ يُشَدَّ[٣] فِصادُه! ثم يُفيق.

١٨٣

[صورة مُضادّة: رجل يطاعن الإفرنج برِجل واحدة!]

ومما يُضادّ ذلك: أنه كان في أصحابنا، من بني كنانة، رجل أسود، يقال له: علي بن فرج. طلعتْ في رِجله حَبَّة فتخبّثت[٤]، وتناثرت

---

(١) يعني أنه طبقة وحده، من المهارة في اللعب، أو لعله يلعب مع عدد من اللاعبين في وقت واحد.

(٢) بمعنىٰ أنه يستدبر رقعة الشطرنج، ويلاعب ملاعبه.

(٣) بمعنىٰ: يُنتزع ويُفك.

(٤) أصبحت خبيثة.

أصابعه، وأنتنتْ رِجله. فقال له الجرائحي[1]: «ما لرِجلك إلا القطع؛ وإلا تلِفتَ». فحصَّل[2] عنده منشاراً، وجعل ينشر ساقه حتىٰ يَغلبه فيض الدم، ويُغشىٰ عليه. فإذا هو أفاق عاد إلىٰ نشرها حتىٰ قطعها من نصف ساقه! وداواها فبرأت[3].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أجلد الرجال وأقواهم. فكان يركب في سرجه بركاب واحد، وفي الجانب الآخر سَيْر تكون فيه ركبته، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج، وهو علىٰ تلك الحال! وكنت أراه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، [٤٥و] لا يستطيع رَجُلٌ يُشابكه ولا يُقابضه.

وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته. فأصبح يوماً من الأيام وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا، حصن الجسر[4]، أرسل إلىٰ رجال من وجوه بني كنانة فقال: «اليوم يوم مَطير. وعندي فضلة نبيذ ومأكول، تتفضلون عليَّ بالحضور لنشرب». فاجتمعوا عنده. فجلس في باب البيت وقال: «هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ؟» يشير إلىٰ قوته. قالوا: «لا والله!» قال: «هذا يوم مَطير، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه. أنفِذوا إلىٰ دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم، والبيت من عندي. نجتمع اليوم نشرب ونتحدث»، قالوا كلهم: «نِعم ما رأيت يا أبا الحسن!» وأنفذوا أحضروا ما في دورهم من طعام وشراب، وقضَوا نهارهم عنده. وكان رجلاً محترماً غير مُسنّ، فتعالىٰ مَن خَلق الخلق أطواراً، أين جَلَد هذا وقوة نفسه من خَوَر أولئك وضعف نفوسهم!

---

(١) الطبيب الجراح، بلغة اليوم. وردت في الكتاب غير مرة.

(٢) صاحب الرِّجْل نفسه.

(٣) برأ يبرأ وبرئ: لغتان.

(٤) حصن بناه بنو منقذ عند الجسر لتحصين القلعة وحمايتها. انظر: (المقدمة).

١٨٤
[ورجل يستسقي فيشق بطنه ويخيّطها]

وقريب من هذا: أن رجلاً من بني كنانة، حدّثني بحِصن الجسر: أن رجلاً في الحصن استسقىٰ[١]، فشَق بطنه فبرئ، وعاد صحيحاً كما كان. فقلت: أريد أُبصره وأستخبره. وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة، يقال له: أحمد بن معبد بن أحمد، فأحضَر ذلك الرجل عندي. فاستخبرته عن حاله؟ وكيف فعل بنفسه؟ فقال:

«أنا رجل صُعلوك وحيد. استسقىٰ جوفي، وكبرتُ حتىٰ عجَزت عن التصرف، وتبرّمت بالحياة. فأخذت موسىٰ وضربت به فوق سرّتي، في عُرض[٢] جوفي، شققته، فخرج منه قَدْر طبّاختين ماء (يعني: قِدْرين). ومازال الماء ينزّ منه حتىٰ ضمَر جوفي. فخيّطته، وداويت الجرح فبرأ، فزال ما كان بي».

وأراني موضع الشقّ في جوفه، أطول من شبر. ولا شبهة أن هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه، وإلا فقد رأيت من استسقىٰ، وفَصَد الطبيب جوفه، فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بَزَل[٣] نفسه، إلا أنه مات من ذلك الفصد. لكن الأجل حِصن حصين!

١٨٥
[النصر من الله، لا بالترتيب والتدبير وكَثرة النّصير]

النصر في الحرب من الله، تبارك وتعالىٰ، لا بترتيب وتدبير، ولا بكثرة نفير[٤] ولا نصير. وقد كنت إذا بعثني عمي رحمه الله لقتال أتراكٍ أو

---

(١) أصابه مرض الاستسقاء الذي تنتفخ به البطن.
(٢) وسطه.
(٣) ثقب وشق.
(٤) الذين ينفرون معك إلىٰ القتال.

إفرنج، أقول له: «يا مولاي! مُرني بما أتدبر به إذا [٤٥ظ] لقِيتُ العدو» فيقول: «يا بني! الحرب تدبّر نفسها»، وصدق.

وكان أمرني[١] أن آخذ امرأته وأولاده (خاتون بنت تاج الدولة تُتُش)[٢] والعسكر، وأمضي أوصلهم إلىٰ حِصن مصياث[٣]. وهو إذ ذاك له. وكان يشفق عليهم من حرّ شيزر، فركبت، وركب أبي وعمي، رحمهما الله، معنا، إلىٰ بعض الطريق، وعادا وليس معهما إلا المماليك الصغار لجرّ الجنائب[٤] وحمل السلاح. والعسكر كله معي.

فلما قربا من المدينة[٥] سمعا طبل الجسر يَضرب. فقالا: «شيء قد جرىٰ في الجسر!» فدفعا خيلهما تناقلاً خبباً[٦] إلىٰ الجسر. وكان بيننا وبين الإفرنج، لعنهم الله، هُدنة. فنفّذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها إلىٰ مدينة الجسر، وهي في جزيرة[٧] لا يُعبر إليها إلا من جسر معقود بالحجر والكلس، لا يصل الإفرنج إليه، فدلّهم ذاك الجاسوس علىٰ مخاضة[٨]. فركبوا جميعهم من أفامية، فأصبحوا إلىٰ ذاك الموضع

---

(١) حوالي سنة ٥١٧ ـ ٥١٨هـ.

(٢) أمير حلب السَّلجوقي (٤٧١هـ) (أخو ملك شاه صاحب أصبهان وابن ألب أرْسْلان). انظر: («زامباور» ص ٣٣٤).

(٣) مصياف. وترد أيضاً في المعاجم (مصياد). تقع في بعض سطوح جبال النصيرية. قلعتها مشهورة، كان عز الدين سلطان عم أسامة يملكها سنة ٥٢١هـ، قبل أن يستولي عليها الباطنية. انظر: («معجم البلدان» ٥/ ١٤٤، وراجع الخريطة).

(٤) الخيل التي تقاد ولا تركب، ويمشي صاحبها إلىٰ جانبها.

(٥) القسم الواقع عند الجسر، من شيزر، ويصفها أسامة بعد قليل.

(٦) نوعان من سير الجياد، فبهما تسير بسرعة أكثر من المعتاد.

(٧) يقصد: شبه جزيرة.

(٨) المخاضة: ممر يكون في النهر متسع يتمكن الفارس من عبوره.

الذي دلّهم عليه، عبروا الماء وملكوا الدّور. وعلّم[1] كل واحد منهم صَليبه علىٰ دار، وركَزَ عليها رايته!

فلما أشرف أبي وعمي، رحمهما الله، علىٰ الحِصن، كبَّر أهل الحِصن وصاحوا، فألقىٰ الله سبحانه علىٰ الإفرنج الرُّعب والخِذلان، فذُهلوا عن الموضع الذي عبروا منه، ورموا خيلهم، وهم بدروعهم، عليها، في غير مَخاض، فغرق منهم جماعة كثيرة. كان الفارس يغوص في الماء، فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء، ويطلع الحصان! ومضىٰ من سلم منهم منهزمين، لا يلوي بعضهم علىٰ بعض، وهم في جمع كثير، وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان!

فأقام عمي بالجسر، ورجع أبي إلىٰ شيزر. وأوصلتُ أنا أولاد عمي إلىٰ مصياث، وعدت من يومي وصلت العِشاء. فأُخبرت بما جرىٰ. فحضرتُ عند والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وشاورته في أن أمضي إلىٰ عمي في حصن الجسر. قال: «تصل في الليل، وهم نيام. ولكن سِرْ إليهم من بُكرة». فأصبحتُ سِرت، وحضرت عنده. وركبنا وقفنا علىٰ ذلك الموضع الذي غرق فيه الإفرنج، ونزل إليهم جماعة من السُّبَّاح[2]، فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتىٰ. فقلت لعمي: «يا مولاي! ما نقطع رؤوسهم ونُنفذها إلىٰ شيزر؟» قال: «افعل!» فقطعنا منهم نحواً من العشرين رأساً. فكان الدم يسيل منهم، وكأنهم قد قُتلوا تلك الساعة، ولهم يوم وليلة! وأظن الماء حفظ فيهم دمهم. وغنم الناس منهم سلاحاً كثيراً: من الزَّرَديّات والسيوف والقُنطاريات والخُوَذ والكَلْسات الزَّرد[3]... فكانت الصيحة

---

(١) أي رفع الصليب.   (٢) السابحون.

(٣) الكلْسة: يبدو أنها غطاء يحمي عظم الساق للفارس الإفرنجي، وما زالت التسمية تعني: الجورب في بعض الأقطار العربية (لعلها من الإيطالية Calza) «موسوعة حلب المقارنة» للأسدي ٦/٤٢٦.

التي وقعت في الإفرنج، وهزيمتهم وهلاكهم، من لطف الله ﷻ لا بقوّة ولا بعسكر، فتبارك الله القادر علىٰ ما يشاء[1].

١٨٦

[فلّاح من شيزر يهجم على الإفرنجي وليس معه عدّة ولا سيف!]

ورأيت[2] رجلاً من فلاحي الجِسر، [٤٦و] قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه! فقال له عمي يمزح معه: «أيّ شيء أعزلْت[3] لي من الغنيمة؟» قال: «أعزلت لك حصاناً بعدّته وزرديّته، وترساً وسيفاً». ومضىٰ أحضرَ الجميع. فأخذ عمي العدّة، وأعطاه الحصان، وقال: «أيّ شيء بيدك؟» قال: «يا مولاي! تَقابضتُ أنا والإفرنجي، وما معي عدّة ولا سيف، فرميته ولكمْت وجهه وعليه اللثام الزَّرَد، حتىٰ أسكرته، وأخذتُ سيفه قتلتُه به! وتهرّأ الجلد الذي علىٰ عُقد أصابعي. وورِمْت يدي فما تنفعني». وأظهر لنا يده كما قال، قد انكشفت عظام أصابعه!

١٨٧

[أسيرة تفضل الغَرَق على الأسر]

وكان[4] في جُند الجِسر رجل كُردي، يقال له: أبو الجيش، له بنت

(١) الكلام بعد النقاط نقلناه من آخر الفقرة (١٨٧)، لأن أسامة يعود فيه إلىٰ ما بدأ به هذه الفقرة.

(٢) الخبر متصل بوقعة الجسر التي حكاها أسامة في الفقرة (١٨٥)، وهو في الأصل موصول بها.

(٣) عزلت.

(٤) هذا الخبر أيضاً متصل بوقعة الجسر التي حكاها أسامة في الفقرة (١٨٥)، ويأتي، في الأصل، موصولاً بالفقرة التي سبقتها(١٨٦).

اسمها: رفول، قد سباها الإفرنج، وهو قد توسْوس عليها. يقول لكل من لقيه يومها: «سُبيتْ رفّول!». فخرجنا من الغد نسير علىٰ النهر، فرأينا في جانب الماء سواداً، فقلنا لبعض الغلمان: «اسبحْ أَبْصِرْ: ما هذا السواد؟». فمضىٰ إليه، فإذا ذلك السّواد رفّول عليها ثوب أزرق، وقد رمتْ نفسها من علىٰ فرس الإفرنجي الذي أخذها، فغرقتْ، وعلِق ثوبها في شجرة صفصاف. فسكنتْ لوعة أبيها أبي الجيش[١].

١٨٨

[الترهيب والتخييل نافعان في الحرب أحياناً]

وقد يكون الترهيب[٢] في بعض الأوقات، نافعاً في الحرب:

من ذلك أن أتابِك[٣] وصل الشام، وأنا معه، في سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وسار قاصداً دمشق. فلما نزلنا القُطَيفة[٤]، قال لي صلاح الدين[٥]، رحمه الله: «اركب، وتقدّمْنا إلىٰ الفُسْتُقة[٦]، أَقِمْ علىٰ الطريق، لا

(١) هنا تأتي الجملة التي ختم بها أسامة ما حكاه عن واقعة الجسر، في الفقرة (١٨٥): «فكانت الصيحة التي وقعت في الإفرنج، وهزيمتهم وهلاكهم، من لطف الله عز وجل لا بقوة ولا بعسكر، فتبارك الله القادر علىٰ ما يشاء».

(٢) يريد: خدعة الحرب.

(٣) زنكي بن آقْسُنْقُر، عماد الدين، والد نور الدين الشهيد. يتردد ذكره في الكتاب. انظر: («زامباور» ص ٣٤١).

(٤) قرية قريبة من دمشق، إلىٰ الشمال الشرقي، من ناحية حمص. ما تزال معروفة قائمة معمورة. («معجم البلدان» ٤/٣٧٨).

(٥) محمد بن أيوب الغسياني، من أمراء السلاجقة، انظر: الفقرة (٥٧)، ولي حماة وحمص للزنكيين، وكان من قادتهم. سبق ذكره في الكتاب، في غير موضع (ت٥٥٢هـ).

(٦) خان بين عذراء والقطيفة. ما يزال قائماً إلىٰ اليوم.

يهربُ[1] أحد من العسكر إلىٰ دمشق». فتقدمتُ وقفت ساعةً، وإذا صلاح الدين قد أتىٰ في قِلّة من أصحابه. فرأينا في عذراء[2] دخاناً. فأَرسَلَ خيلاً تبصر ما هو الدخان؟. فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء، فانهزموا. فتبعهم صلاح الدين، ونحن معه، لعل في ثلاثين أربعين فارساً[3]، فوصلْنا القُصَير[4]، وإذا عسكر دمشق جميعه في القُصير، قاطعَ الجسر، ونحن عند الخان[5]. فوقفْنا مستترين بالخان، ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتىٰ يُبصرهم عسكر دمشق، ويعودون إلىٰ خلف الخان نوهمهم أن لنا كميناً.

[٤٦ظ] ونفّذ صلاح الدين فارساً إلىٰ أتابك يعرّفه بما نحن فيه. فرأينا نحواً من عشرة فوارس مقبِلين إلينا مُسرعين، والعسكر خلفَهم متتابع. فوصلونا، وإذا هو أتابِك قد تقدّم والعسكر في إثره. فأنكر علىٰ صلاح الدين فِعْله، وقال: «تسرَّعتَ إلىٰ باب دمشق بثلاثين فارساً لِتَكْسر ناموسي[6]!». ولامه. وهم يتكلمون بالتركي، ولا أدري ما يقولون.

فلما وصلَنا أوائلُ العسكر، قلت لصلاح الدين: «عن أمرك، آخذ هؤلاء الذين قد وصلوا أو أعبرُ إلىٰ خيل دمشق الواقفة مُقابَلنا أقلعهم». قال: «لا! كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا[7] ما تسمع أيَّ شيء قد عمل بي!».

---

(١) أي لئلا يهرب. والاستعمال شائع في دارجة أهل الشام.

(٢) قرية ما تزال إلىٰ اليوم، إلىٰ الشمال من دمشق، أقرب إليها من القطيفة، ويقال لها اليوم: عدرا. إليها ينسب المرج المعروف باسمها. («معجم البلدان» ٤/ ٩١).

(٣) عدد من كانوا مع صلاح الدين وأسامة.

(٤) في الطريق إلىٰ حمص من دمشق («معجم البلدان» ٤/ ٣٦٧). ما تزال عامرة، وكان فيها مستشفىٰ الأمراض العقلية ومستودعات البترول.

(٥) غابت هذه المعالم كلها اليوم. واندرس أكثر الخانات الأثرية حتىٰ داخل المدن!

(٦) الناموس، القدْر والشرف في دارجة الشام إلىٰ اليوم.

(٧) يعني: أتابك زنكي.

ولولا لطف الله تعالىٰ، ثم ذلك الترهيب والتخييل، كانوا قلعونا[1]!

١٨٩

[مثل آخر على أن الخدعة في الحرب أنفع من القتال أحياناً: في الإغارة على إفرنج كفرطاب]

وجرىٰ لي مثل ذلك، وقد سِرت مع عمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شيزر، يريد كفَرطاب، ومعنا خَلْق من الفلاحين والصعاليك، لنَهْب ما علىٰ كفرطاب من غَلَّة وقُطن[2]، فانتشر الناس في النّهب، وخيل كفَرطاب قد ركبتْ ووقفتْ[3] عند البلد، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزَّرع والقطن. وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع، قال: «جاءت خيل أفامية!» فقال عمي: «تقف أنت مُقابل خيل كفَرطاب، وأسير أنا بالعسكر ألقىٰ خيل أفامية». فوقفتُ في عشَرة فوارس، في شجر الزيتون متوارين، ويخرج منا ثلاثة أربعة يُخيِّلون[4] للفرنج، ويعودون إلىٰ شجر الزيتون، والإفرنج يعتقدون أننا في جماعة. فهم يجتمعون، ويصيحون، ويدفعون خيلهم إلىٰ أن يقرُبوا منا، ونحن لا نتزعزع، فيرجعوا. فما زلنا كذلك حتىٰ عاد عمي، وانهزم الإفرنج الذين جاؤوا من أفامية.

فقال له بعض غلمانه: «يا مولاي! ترىٰ ما فعل؟ (يَعنيني)، تخلّف عنك، وما سار معك للقاء خيل أفامية!» فقال له عمي: «لولا وقوفه في عشرة فوارس، مقابل خيل كفَرطاب وراجلها، كانوا أخذوا هذا

(١) من الأحصنة أو المواضع. كناية عن القتل.

(٢) إشارة إلىٰ غنىٰ كفرطاب، وزراعة القطن فيها تلك الأيام.

(٣) يريد: راكبي الخيل، بدليل ما بعد هذا الكلام.

(٤) يريد: إيهامهم بكثرة العدد.

العالم[1] كله!». فكان الترهيب والتخييل للإفرنج، في ذلك الوقت، أنفع من قتالهم، لأننا كنا في قِلّة وهم في جمع كثير.

١٩٠

[قوّة النفس قد تُغري بالتفريط أحياناً]

وجرىٰ لي مثل ذلك بدمشق[2]: كنت يوماً مع الأمير معين الدين[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأتاه فارس فقال: قد أخذ الحراميّة قافلة في العَقَبة[4]، حاملة خام[5]، فقال لي: «نركب إليهم». قلت: «الأمر لك. اؤمر الشاوشية[6] تستركب العسكر معك». قال: «أيُّ شيء حاجتنا إلىٰ العسكر؟» قلت: «وما يضرنا من ركوبهم؟» قال: «ما نحتاجهم». وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أشجع الفرسان. ولكن قوّة النفس، في بعض المواضع، تفريط ومَضرَّة.

فركبنا في نحو من عشرين فارساً، [٤٧و] فلما أن ضَحَونا[7] نفّذ فارسين كذا، وفارسين كذا، وفارساً كذا، يكشفون الطرقات. وسِرنا نحن في قِلّة. فحانت صلاة العصر. فقال لغلام لي: «ياسونج! أَشْرِفْ تَعرفْ[8] إلىٰ ما نصلي»[9]. فما سلّمنا إلا والغلام

---

(١) يعني الخَلْق والناس، علىٰ الاستعمال الدارج في الشام.
(٢) أثناء زيارته الأولىٰ لها. ما بين ٥٣٣ و٥٣٩هـ.
(٣) أُنُر: والي دمشق للأتابكة البوريين. يرد ذكره كثيراً.
(٤) هي عَقَبَة دُمَّر، مطلّة علىٰ الغوطة كلها، من جهة الشمال، في طريق بعلبك. («معجم البلدان» ٣/ ٤٦٣).
(٥) خاماً.
(٦) الشاويش: من الرتب العسكرية (فارسية). انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٢).
(٧) الدخول في رابعة النهار.
(٨) يريد: الاستطلاع والاستكشاف.
(٩) إلىٰ أن ننهي صلاتنا.

يركض. قال: «هذه الرَّجّالة، وعلىٰ رؤوسهم شِقاق[1] الخام، في الوادي!» فقال معين الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اركبوا!». قلت: «أَمهلْ علينا نلبس كَزاغَنداتنا[2]. فإذا رأيناهم رميناهم برؤوس الخيل، وطعنّاهم، فما يدرون كثير نحن أو قليل». قال: «إذا وصلنا إليهم لبسنا!».

وركب وسرنا إليهم، فلحقناهم في وادي حلبون[3]، وهو واد ضيق: لعلّ ما بين الجبلين خمسة أذرع، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة، وطريقه ضيقة، إنما يمشي فيها فارس خلف فارس. وهم في سبعين رجلاً بالقِسيّ[4] والنشّاب!

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفَنا بسلاحنا، لا يصلون إلينا، وأولئك: قوم منهم في الوادي، ومنهم قوم في سفح الجبل، فظننت أن الذين في الوادي، من أصحابنا، فلاحي الضياع، قد فزَعوا[5] خلفهم. والذين في سفح الجبل هم الحراميّة، فجذبت سيفي، وحملت علىٰ الذين في السفح، فما طلَع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخر روحه، فلما صِرتُ إليهم، وحصاني قد وقف، ما بقيَ يَندفع، استوفىٰ واحد منهم نشّابته في قوسه ليضربني. فصِحتُ عليه وتهدَّدته، فمسك يده عني. وعُدت أنزلت الحصان، وما أصدّق أَخلُص منهم.

وطلع الأمير معين الدين إلىٰ أعلىٰ الجبل، يظن أن هناك من الفلاحين

---

(١) الشقة: القطعة المشقوقة. وجمعه: شُقق وشقاق.

(٢) كَزاغَند: سترة سميكة، تقوم مقام الدرع في الحرب (فارسية: كَزا گَند). كثيرة الورود في الكتاب.

(٣) إلىٰ الشمال من تل مَنِين، من أعمال دمشق، في جبل سَنير، بين حمص وبعلبك، شرقي حماة، يقابله جبل الجليل من جهة الساحل («معجم البلدان» ٣/ ٢١٨ و٢٦٩).

(٤) مفردها: القوس ذات الوتر، ترمىٰ بها السهام.

(٥) فَزَعَ: للغوث والنجدة.

مَن يستنفرهم[1]. وصاح إليَّ من أعلىٰ الجبل: «لا تفارقهم حتىٰ أعود». وتواریٰ عنا. فرجعتُ إلىٰ الذين في الوادي، وقد علمتُ أنهم من الحراميّة، فحملتُ عليهم وحدي، لضيق المكان، فانهزموا، ورمَوا ما كان معهم من الخام. وخلّصت منهم بهيمتين كانتا معهم، عليهما الخام أيضاً. وطلعوا إلىٰ مغارة في سفح الجبل، ونحن نراهم، وما لنا إليهم سبيل.

وعاد الأمير معين الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر النهار، وما وجد[2] مَن يستنفره. ولو كان معنا العسكر كنّا ضربنا رقابهم، واستخلصنا كلَّ ما معهم.

١٩١

[مثل آخر على التغرير بالنفس لقلة الخبرة بالحرب]

وقد جرىٰ لي مرة أخرىٰ مثل هذا. والسبب فيه نفاذ المشيئة، ثم قلة المَخْبَرة[3] بالحرب، وذلك أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو بن تَليل[4]، من حماة، نريد دمشق، إلىٰ خدمة الملك العادل نور الدين[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فوصلنا إلىٰ حمص، فلما عزم علىٰ الرحيل، علىٰ طريق بعلبك، قلت له: «أنا أتقدم أبصر كنيسة بعلبك[6] [٤٧ظ] إلىٰ حين تصل». قال: «افعل»!.

---

(١) لمعاونته. (٢) من الرجال.

(٣) الخبرة.

(٤) أمير كردي يمت بنسب لصاحب إربل أبي الهيجاء الهذْباني (الفقرة ١٠٥)، في شمال العراق، عمل مع صلاح الدين الأيوبي. («وفيات الأعيان» ٧/ ١٥٣).

(٥) الشهيد، ابن عماد الدين زنكي. وأخبار أسامة معه مستفيضة في الكتاب، إذ عمل معهم في الموصل ودمشق. انظر نسب الزنكيين: («زامباور» ص ٣٤٣).

(٦) اسم الكنيسة لم يكتمل في الأصل. والسياق يعني أن أسامة يتقدم الأمير قطب الدين في الطريق من حمص إلىٰ بعلبك. ويتوقف عند الكنيسة التي سماها له، وهي في الحقيقة، آثار المعبد (معبد بعل) الذي ما تزال آثاره قائمة هناك.

فركبت ومضيت. فأنا في الكنيسة، جاءني فارس من عنده يقول:

«قد خرجتْ رَجّالة حراميّة علىٰ قافلة، أخذوها. فاركب والْقَني إلىٰ الجبل». فركبت ولقيته. فصعِدنا في الجبل، فرأينا الحرامية في واد تحتنا؛ والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي، فقال له بعض أصحابه: «تنزل إليهم». قلت: «لا تفعل! ندور علىٰ الجبل ونصير فوق رؤوسهم، نحول بينهم وبين طريقهم إلىٰ الغرب، ونأخذهم». وكانوا من بلاد الإفرنج[1]. فقال آخر: «إلىٰ ما ندور علىٰ الجبل [نكون] قد وصلنا إليهم وأخذناهم!»[2] فنزلنا. فلما رآنا الحراميّة صعِدوا في الجبل. فقال لي: «اصعد إليهم». فحرِصت علىٰ الطلوع، فما قدرت.

وكان علىٰ الجبل منا خيّالة ستّة سبعة. فترجّلوا إليهم، وجاءوا[3] يقودون خيلهم معهم، وأولئك في جماعة. فحملوا علىٰ أصحابنا فقتلوا منهم فارسين، وأخذوا حصانيهما وحصاناً آخر! وسلِمَ صاحبه، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة، وعدنا نحن وقد قُتل منا فارسان، وأُخذ منا ثلاثة حُصُن والقافلة! فهذا تغرير لقلة المَخْبَرة بالحرب.

١٩٢

[وقد يكون التغرير بالنفس سببه حملها على ركوب الأخطار في الحرب]

فأما التغرير في الإقدام، فما هو للزُّهد في الحياة. وإنما سببه: أن الرجل إذا عُرف بالإقدام، ووُسم باسم الشجاعة، وحضر القتال، طالبتْه همّته بفعل ما يُذكر به ويعجِز عنه سواه. وخافت نفسه الموتَ وركوب

---

(١) يقصد: البلاد التي احتلوها.

(٢) يقصد: إلىٰ أن ندور علىٰ الجبل نكون وصلنا إليهم.

(٣) إلىٰ الحرامية.

الخطر، فتكاد تغلِبه وتصدّه عما يريد فعله، حتىٰ يَضطرّها ويحملها علىٰ مكروهها، فيعتريه الزَّمَع[1] وتَغيُّر اللون لذلك، فإذا دخل في الحرب بَطَل رَوْعه[2] وسكن جأشه[3].

ولقد حضرتُ حصار حِصن الصُّوَّر[4] مع ملك الأمراء، أتابِك زنكي رَحِمَهُ اللهُ (وقد تقدم شيء من ذكره)[5]. وكان للأمير فخر الدين قرا أرْسْلان بن داود بن سُقْمان بن أُرتُق[6]، وكان مشحوناً بالرجال الجُرْخِيّة[7]. وذلك بعد كَسْرته علىٰ آمِد[8]. فأولَ ما ضُربت الخيام نفّذ رجلاً من أصحابه صاح تحت الحِصن: «يا جماعة الجُرْخِيّة! يقول لكم أتابِك: ونِعمةِ السلطان! لئن قُتل من أصحابي رجل واحد بنَشّابكم لأقطعنَّ أيديكم!» ونصب علىٰ الحِصن المَجانيق. فهدمتْ جانباً منه وما بلغَ الهدم منه بحيث تَطلع إليه الرجال. فجاء رجل من جَنداريَّة[9] أتابِك، من أهل حلب، يقال له: ابن العُرَيق، طلع في تلك الثُّغرة وضاربهم [٤٨و] بسيفه، فجرحوه عدّة جراح، ورموه من البرج إلىٰ الخندق، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثُّغرة فملكوا الحِصن، وطلع نواب أتابِك إليه.

---

(١) الدهشة والارتعاد. (٢) الفزع والخوف.

(٣) القلب والنفس.

(٤) في ديار بكر، علىٰ شاطئ الخابور («معجم البلدان» ٣/ ٤٣٤).

(٥) في القسم الضائع من أول الكتاب، علىٰ ما يبدو. وهو عماد الدين زنكي أبو نور الدين الشهيد. انظر: (الفقرة السابقة ح٣).

(٦) صاحب حصن كيفا، في ديار بكر. انظر: (الفقرة (٩٨)، وارجع إلى «زامباور» ص ٣٤٤).

(٧) الجُروخ من أدوات الحرب، وهي ترمي السهام (عن طريق الجُرْخ الذي هو الدولاب) والحجارة (مفردها: جُرْخ).

(٨) سنة ٥٢٨هـ.

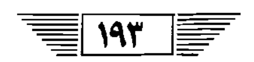
(٩) الرجال المسلحون الخاصون. ورد مرات من قبل (فارسية: جان + دار). انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٢).

فأخذ مفاتيحه نفّذها إلىٰ حسام الدين تمُرتاش بن إيلغازي بن أُرتق[1] وأعطاه الحِصن.

واتّفق أن نَشَّابة جُرْخ ضربتْ رجلاً من الخُراسانيّة في رُكبته قطعت الفَلْكَة[2] التي علىٰ مَفْصِل الرُّكبة، فمات.

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعىٰ الجُرْخِيّة، وهم تسعة نفر، فجاؤوا وقِسِيّهم موتورة[3] علىٰ أكتافهم. فأمر بحزّ إبهاماتهم من زُنودهم، فاسترخت أيديهم وتلفت!

وأما ابن العُرَيق، فداوىٰ جرحه وبرئ، بعد أن شارف الموت. وكان رجلاً شجاعاً يحمل نفسه علىٰ الأخطار.



[مثل آخر على الإقدام في الحرب: في حصار حِصن البارعة]

ورأيت مثل ذلك، وقد نزل أتابِك[4] علىٰ حِصن البارعة[5]، وحوله صَفا[6] صخرٍ لا تنضرب عليه الخيام. فنزل أتابِك في الوَطا[7]. ووكل به الأمراء بالنَّوبة[8]. فركب إليه أتابِك يوماً، والنّوبة للأمير أبي بكر

---

(١) أمير ماردين، من السلاجقة. انظر: الفقرة (٥٢).

(٢) الناتئ المستدير من كل شيء. وهي هنا ما يسمىٰ في دارجتنا: (صابونة الركبة).

(٣) مشدودة الوتر.

(٤) عماد الدين زنكي والد نور الدين الشهيد. ويذكره أحياناً كثيرة بلقبه فقط. انظر: («زامباور» ص ٣٤٣).

(٥) بين ماردين وآمد. جعلها حِتّي إلىٰ الشمال الغربي من حمص (بارين ـ بعرين)! (نشرة حَتّي ص ٢٠١). وبارين (بعرين) هي رفنيّة في تحقيق بعض الحمويين. انظر: الفقرة (٥٧ ح ٦).

(٦) حجر صلد ضخم، مفرده: صفاة. (٧) الوَطاة: المنخفض من الأرض.

(٨) بالتناوب في حصاره.

الدُّبيسي[١]، وما معه أُهبة القتال. فوقف أتابِك وقال لأبي بكر: «تقدم قاتلْهم!» فزحفَ بأصحابه، وهم أعراء[٢]. وخرج إليهم الرجال من الحِصن، فتقدم رجل من أصحابه، يقال له: مَزْيَد، لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة، فقاتل قتالاً عظيماً، وضرب فيهم بسيفه، وفرّق جمعهم، وجُرح عدة جراح. فرأيته قد حملوه إلىٰ العسكر، وهو في آخر رَمَقه، ثم عوفي. وقدّمه أبو بكر الدُّبيسي وخلعَ عليه، وجعله من جملة جَنداريته[٣].

١٩٤

[الغسياني يقتل الناس بلا حساب]

كان أتابِك يقول لي: «ثلاثة غلمان: أحدهم يخاف الله تعالىٰ وما يخافني (يعني: زَين الدين علي كوجك[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ. والآخر يخافني، وما يخاف الله تعالىٰ (يعني: نَصير الدين جَقَر[٥] رَحِمَهُ اللَّهُ). والآخر ما يخاف الله، ولا يخافني (يعني: صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[٦] رَحِمَهُ اللَّهُ)».

---

(١) من أمراء العصر العاملين مع الزنكيين، صاحب جزيرة ابن عمر (ت ٥٥٢هـ). انظر: («الروضتين» لأبي شامة ١/ ١١٤).

(٢) يقصد: عُراة لم يلبسوا عدة الحرب، لأنهم لم يكونوا في أهبة القتال.

(٣) الرجال المسلحون (العسكر). وقد وردت من قبل، في عدة فقرات. انظر: الفقرة السابقة (١٩٢).

(٤) وزير قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل. يرد ذكره بعد في بداية الملحق: الفقرة (٨) وانظر: («زامباور» ص ٣٤٤).

(٥) نائب عماد الدين زنكي، والد نور الدين الشهيد ومودود، علىٰ الموصل (ت٥٣٩هـ). كان جباراً يسفك الدماء («وفيات الأعيان» ١/ ٣٦٤).

(٦) من أمراء السلاجقة. العاملين في خدمة الزنكيين. كان ظالماً يسفك الدماء. يرد ذكره كثيراً في الكتاب. وانظر الفقرات التالية أيضاً.

وشهدتُ منه(١)، تجاوز الله عنه، ما يحقق قول أتابك، وذلك أنّا زحفنا يوماً إلىٰ حمص، وقد أصاب الأرضَ في الليل مطر عظيم، حتىٰ ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحل. والرّجّالة يتناوشون، وصلاح الدين واقف، وأنا معه. ونحن نرىٰ الرَّجَّالة بين أيدينا. فعدا واحد من الرَّجَّالة إلىٰ رَجّالة حمص اختلط بهم، وصلاح الدين يراه. فقال لواحد من أصحابه: «هات ذاك الرجل الذي كان إلىٰ جانبه(٢)». فمضىٰ أحضره. فقال له: «من هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل إلىٰ حمص؟» قال: «والله يا مولاي، ما أعرفه». قال: «وسّطوه(٣)!» قلت: «يا مولاي! [٤٨ظ] تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل. فإذا كان يعرفه، أو مَتّه(٤) بنسبٍ، ضربتَ رقبته، وإلا ترىٰ فيه رأيك». فكأنه جَنَح إلىٰ قولي. فقال غلام له من خلفه: «يهرب واحد، يؤخذ الذي كان إلىٰ جانبه تُضرب رقبته أو يوسّط!»(٥) فأحنقه كلامه، وقال: «وسِّطوه!». فرفسوه(٦) كجاري العادة، ووسّطوه! وما له ذنب إلا اللَّجاج(٧) وقِلَّة مراقبة الله تعالىٰ!

١٩٥

[مَثَل آخر على قسوته وتجبّره]

وحضرتُه مرة أخرىٰ، بعد ما وصلنا من مَصافٍّ بغداد(٨)، وأتابك

---

(١) يعني: هذا الأخير: صلاح الدين، محمد بن أيوب الغسياني.

(٢) إلىٰ جانب الرجل المنهزم، الذي اختلط برجّالة حمص!

(٣) اضربوه في الوسْط، فاقطعوه نصفين.

(٤) اتصل به صلة القرابة. والصحيح: مَتَّ إليه.

(٥) قولة من يتعجب أو يسخر أو ينتقد.

(٦) الرفس هو الضرب بالرجل في الصدر.

(٧) التمادي في العناد، من جانب الغسياني.

(٨) سنة ٥٢٦هـ. وأخبار هذا المصف سبقت في القسم الضائع من الكتاب، =

يجتهد يُظهر تجلداً وقوة. وقد أمر صلاح الدين بالمسير إلىٰ الأمير قَفْجاق[1] يكبِسه. فسرنا من الموصل ستة أيام، ونحن في غاية الضعف. فوصلنا موضعه[2]، وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان[3]. فنزلنا علىٰ حصن يقال له: ما سر[4]. ونزلنا عليه طلوعَ الشمس، وامرأة طلعت من الحِصن، قالت:

«معكم خام؟» قلنا: «أي وقت هذا للبيع والشراء؟» قالت:

«نريد الخام نكفّنكم به! فإلىٰ خمسة أيام تموتون كلكم!». تريد: أن ذلك الموضع وَخِم.

فنزل ورتّب الزحف إلىٰ الحِصن من بُكرة. وأمر النقّابين يدخلون تحت بُرج من تلك البِراج[5]. والحِصن كلّه معمور بالطين. والرجال الذين فيه من الفلّاحين. فزحفنا إليه وطلَعْنا إلىٰ تلّةٍ. ونقب الخراسانيّة بُرجاً فوقع، وعليه اثنان[6]: أما الواحد فمات، وأما الآخر فأخذه أصحابنا، وجاؤوا به إلىٰ صلاح الدين. قال: «وسِّطوه»[7] قلت: «يا مولاي! هذا شهر رمضان. وهذا رجل مسلم لا نتقلّد إثمَه». قال:

= ونقلها عنه ابن واصل في «مفرج الكروب» ١/ ٥٠.

(١) أحد أمراء التُّركُمان، ابن أرْسلان شاه، في شمالي العراق (أبو الفداء ٣/ ١٦).

(٢) يقصد: موضع الأمير قفجاق.

(٣) في مقاطعة كرمان من بلاد فارس (قوهستان: «معجم البلدان» ٤/ ٤١٦).

(٤) لم يرد اسمه في كتب المواضع والبلدان. وإن كان ينبغي أن يكون في جبال كوهستان المذكورة

(٥) يجمع البرج علىٰ: بروج وأبراج وأبرجة.

(٦) من رجال الأمير قفجاق.

(٧) اضربوه في الوسط فاقطعوه نصفين. وهو تعبير شائع في الكتاب. انظر: الفقرة السابقة أيضاً (١٩٤).

وسِّطوه حتىٰ يسلّموا الحِصن!» قلت: «يا مولاي! الحِصن الساعةَ تملِكه». قال: «وسِّطوه!» ولجَّ فيه، فوسَّطوه! وأخذنا الحِصن في ساعتنا تلك. فجاء إلىٰ الباب يريد النزول[1] من الحصن. فكان معه جماعة وغَلَبة[2].

فوكل به[3] قوماً من أصحابه. ومضىٰ نزل في خيمته لحظة، بقدر ما تفرّق العسكر الذي كان معه. ثم ركب وقال لي: «اركب!». فركبنا، وطلعنا إلىٰ الحِصن. فجلس وأحضر ناطور الحِصن يعرّفه بما فيه. وأُحضر بين يديه نساء وصبيان، نصارىٰ ويهود.

فحضرتْ عجوز كُردية. فقالت لذلك الناطور: «رأيتَ ابني فلاناً؟» قال: «قُتل! ضربتْه نشّابة». قالت: «فابني فلان؟» قال: «وسَّطَه الأمير!». فصاحت، وكشفت رأسها كالقُطنة المندوفة. فقال لها الناطور: «اسكتي لأجل الأمير!». قالت: «وأي شيء بقي الأمير يعمل بي. كان لي ولدان قتلهما». فدفعوها.

ومضىٰ الناطور فأحضر شيخاً كبيراً مليح الشّيبة، يمشي علىٰ عصاتين[4]. سلّم علىٰ صلاح الدين. قال[5]: «أيّ شيء هو هذا الشيخ؟» قال: «إمام الحِصن». قال: «تقدم يا شيخ! تقدم! تقدم!» حتىٰ جلس بين يديه فمدّ يده قبض لحيتَه وأخرج سكّينة مشدودة في بَنْد قَبائه[6]، وقطع

---

(١) لأنه كان طلع إلىٰ تل الحصن، كما قال قبل قليل.

(٢) الكثرة، علىٰ الدارجة المستعملة في الشام. وفي الكلمة غموض. ولعل فيها تصحيفاً أو تحريفاً. علىٰ أنه يقول بعد قليل: إنه كان معه عسكر انتظرَ أن يتفرق عنه. وقرأها حَتّي: وغلبه».

(٣) بالحصن. (٤) عصوين.

(٥) الأمير الغسياني.

(٦) البند: مثل الزنار، يحيط بالوسط. والقَباء: ثوب يلبس فوق اللباس.

لحيته من حَكَمَته[1]، فبقيتْ في يده مثل البَرْجَم[2] [٤٩و] فقال له ذلك الشيخ: «يا مولاي! بأي شيء استوجبتُ أن تفعل بي هذا الفعل؟» قال: «بعصيانك على السلطان[3]!». قال: «والله! ما علمتُ بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني!».

١٩٦

[مثل آخر على استباحته أموال الناس وحدود الله]

ثم رحلْنا نزلنا على حصن آخر للأمير قَفْجاق[4]، يقال: له الكَرْخيني[5]. أخذناه. فوجدوا فيه خزانة ملأى بثياب خام مخيطة، صدقةً لفقراء مكة[6]. وسبى من كان في الحِصن من النصارى واليهود المُعاهَدين! ونهَبَ ما فيهما[7] نَهْب الروم. فالله سبحانه، يتجاوز عنه!

١٩٧

[ما يفعل طول العمر بالرجال!]

أقف من هذا الفصل، عند هذا الحدّ، متمثلاً بقولي[8]:

دع ذكر من قتلَ الهوى، فحديثهمْ فينا يشيّب ذكره المولودا

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والإسماعيليّة، في حصن شيزر:

---

(١) ما يحيط بالحنكين من الوجه.

(٢) شَعر ذيل عجل البحر (فارسية: پرجم).

(٣) قطب الدين، مودود بن زنكي، صاحب الموصل (٥٤٤هـ). انظر: («زامباور» ص ٣٤١ و٣٤٣).

(٤) انظر: أول الفقرة السابقة (١٩٥).

(٥) قلعة بجوار إربل، في شمال العراق («معجم البلدان» ٤/ ٤٥٠).

(٦) صدقة فقراء مكة من الشام والعراق.

(٧) لعله يريد: الحصن والخزانة.

(٨) لم يرد في الديوان، وورد في «كتاب العصا» ص٢١٤.

اجتاز في ذلك اليوم[1] ابن عم لي، يقال له: أبو عبد الله بن هاشم رَحِمَهُ اللهُ، فرأىٰ رجلاً من الباطنيّة في بُرجٍ من دار عمي، مع سيفه وتُرسه، والباب مفتوح، وبَرّا[2] منه خلق كثيرٌ من أصحابنا. وما يجسر أحد يدخل إليه. فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف: «ادخل إليه!» فدخل إليه. فما أمهله الباطني أن ضربه فجرحه. فخرج وهو مجروح. فقال لآخر: «ادخل إليه!» فدخل إليه. فضربه الباطني فجرحه. وخرج كما خرج صاحبه. فقال ابن عمي: «يا رئيس جواد! ادخل إليه». فقال له الباطني: «يا مؤاجر[3]! أنت ليش ما تَدخل؟ تُداخل[4] إليَّ الناس وأنت واقف! ادخل حتىٰ تُبصر!». فدخل إليه الرئيس جواد، فقتله[5]. وهذا الجواد حَكَم في الثِّقاف[6]، رجل شجاع ثَقِف[7].

وما مَرَّ عليه[8] إلا أعوام قليلة حتىٰ رأيته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وهو علّاف يبيع الشعير والتبن. وقد كبِر حتىٰ صار كالشَّنِّ[9] البالي! يعجز عن دفع الفأر عن عَلَفه، فما بالُ الرجال[10] فكنت أتعجّب من أول أمرَه عند ما صار إليه آخرَ أمره! وما أحال[11] مِن

(١) سنة ٥٠٣هـ، وانظر: الفقر (٩٢، ١٤٤، ١٥١).
(٢) تعبير دارج يكثر استعماله في الكتاب. يقصد: خارج البرج.
(٣) كأنه يؤاجر نفسه (يريد: المأبون) والتعبير شائع معروف.
(٤) كأنه يريد: تعمل علىٰ إدخال الآخرين.
(٥) يعني: قتل الباطنيّ.
(٦) الملاعبة بالسلاح إظهاراً للمهارة والحذق: ثاقفه مثاقفة وثِقافاً.
(٧) حاذق فطن.
(٨) يقصد: الرئيس جواد الذي قتل الباطني.
(٩) القربة الصغيرة الخَلَق.
(١٠) يعني: هو لا يستطيع دفع الفأر فكيف الرجال؟
(١١) أحاله: غيّره، وجعله في حال أخرىٰ.

حاله طولُ عمره! ولم أدر أن داء الكِبَر عامّ، يُعدي كلَّ من أغفله الحِمام[1]! فلما توقّلتُ[2] ذروة التسعين، وأبلاني مرّ الأيام والسنين، صرت كجواد العلّاف لا الجواد المتلاف[3]، ولصِقتُ من الضعف بالأرض، ودخل من الكبَر بعضي في بعض، حتىٰ أنكرتُ نفسي وتحسرتُ علىٰ أمسي وقلت في وصف حالي:

لما بلغتُ من الحياة إلىٰ مدىٰ ... قد كنت أهواه تمنيت الردىٰ
لم يُبق طول العمر مني مُنَّةً[4] ... ألقىٰ بها صرفَ الزمان إذا اعتدىٰ
[٤٩ظ] ضعُفت قُوايَ وخانني الثقتان: من ... بصري وسمعي، حين شارفتُ المَدىٰ
فإذا نهضت حسبت أنيَ حاملٌ ... جبلاً، وأمشي إن مشيتُ مقيَّدا
وأدِبُّ، في كفي العصا، وعهدتها ... في الحرب تحمل أسمراً[5] ومهنَّدا
وأَبِيت في لِين المِهاد مسهَّداً ... قلقاً كأني [ما] افترشت الجَلْمَدا
والمرء يُنكس في الحياة، وبينما ... بلغ الكمال وتَمَّ، عاد كما بدا[6]

وأنا القائل بمصر أذُم من العيش الراحة والدَّعَة، وما كان أعجل تقضّيه وأسرعَه!

انظر إلىٰ صرف دهري كيف عوّدني ... بعد المشيب سوىٰ عاداتيَ الأُوَل
وفي تغاير صرف الدهر مُعْتَبَر ... وأيّ حالٍ علىٰ الأيام لم تَحُل؟[7]
قد كنتُ مِسْعر حربٍ، كلما خمدت ... أذكيتها باقتداح البِيض في القُلَل[8]
همّي منازلة الأقران أحسبهم ... فرائسي، فهُم مني علىٰ وَجَل

(١) الموت.
(٢) تسنّم الذروة بعد الصعود في الجبل.
(٣) الأول: اسم الرئيس جواد المذكور في الخبر. والثاني: الجواد القويّ الذي يتلف من يركبه.
(٤) القوة. والجمع: مُنَن.
(٥) الرمح.
(٦) أوردها أسامة في «كتاب العصا» ٤٥٧.
(٧) تتغير. حالَ: تغير.
(٨) القُلّة: أعلىٰ الجبل.

أمضي علىٰ الهول من ليلٍ، وأهجُمُ من سيلٍ، وأُقدمُ في الهيجاء من أَجَل
فصِرت كالغادة المكسال: مضجعها علىٰ الحشايا وراء السِّجف والكِلل[(١)]
قد كِدت أعفَن من طول الثَّواء كما يُصدي المهنَّدَ طولُ اللَّبْث في الخِلل[(٢)]
أروح بعد دروع الحرب في حُلَلٍ من الدَّبيقي[(٣)] فبؤسىٰ[(٤)]، لي وللحُلل
وما الرفاهة من رأيي ولا أربي، ولا التنعم من شأني ولا شُغُلي
ولست أرضىٰ بلوغ المجد في رَفَهٍ ولا العُلا دون حَطْم البِيض والأَسَل[(٥)]

وكنت أظن أن الزمان لا يبلىٰ جديدُه، ولا يَهي[(٦)] شديدُه، وأني إذ عدت إلىٰ الشام وجدت به أيامي كعهدي، ما غيّرها الزمان بعدي. فلما عدت كذبتني وعود المطامع، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع.

اللهمّ غُفراً: هذه جملة اعتراضية عرَضت، ونفثة همّ أفضتْ ثم انقضتْ.

١٩٨

[ركوب الأخطار لا يَنقُص الأعمار]

أعود إلىٰ المُهمّ، وأدع تعسُّف الليل المدلَهِمّ: لو صفَت القلوب من كدَر الذنوب، وفُوِّضت إلىٰ عالِم الغيوب، علمتَ أن ركوب أخطار الحروب، لا يَنقُص مدّة الأجَل المكتوب. فإنني رأيت يوم تقاتلنا، نحن والإسماعيلية، في حصن شيزر[(٧)]، مُعْتَبَراً يوضح للشجاع العاقل، والجبان

(١) الكِلَّة: الستر الرقيق. (٢) الخِلّة: جفن السيف.
(٣) قماش جيد اشتهرت بصنعه مدينة «دَبيق» من مدن الدلتا بمصر. وهي اليوم مندثرة. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٣٣).
(٤) ضد: النُّعْمىٰ.
(٥) الرماح. والمفرد: أَسَلَة. والأبيات في «ديوان أسامة» ص٢٥٥.
(٦) وَهىٰ، يَهي: ضعف.
(٧) سنة ٥٠٣هـ، وانظر الفقر: (٩٢، ١٤٤، ١٥١).

الجاهل، أن العمر موقّت مقدَّر، لا يتقدم أجله ولا يتأخر. وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال، صاح إنسان من جانب الحِصْن: «الرجال!» وعندي [٥٠و] جماعة من أصحابي معهم سلاحهم فبادرنا إلىٰ الذي صاح، فقلنا: «ما لَكَ؟» فقال: «حِسّ[١] الرجال هٰهنا!» فجئنا إلىٰ إصطبل خالٍ مظلم، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما، فقتلناهما. ووجدنا رجلاً من أصحابنا مقتولاً[٢]، وهو علىٰ شيء، فرفعناه، وجدنا تحته رجلاً من الباطنيّة قد تسجّىٰ ورفع المقتول علىٰ صدره! فحملنا صاحبنا، وقتلنا الذي كان تحته. ووضعنا صاحبنا في الجامع، بالقرب من ذلك المكان، وفيه جراح عظيمة. ولا نشكّ أنه ميّت لا يتحرك ولا يتنفّس، وأنا والله كنت أحرّك رأسه علىٰ بِلاط الجامع برجلي، ولا نشك أنه ميت!

وكان المسكين اجتاز بذلك الإصطبل فسمع حِسّاً. فأدخل رأسه ليحقّق السَّماع، فجذبه واحد منهم[٣]، وضربوه بالسكاكين حتىٰ ظنوا أنه قد مات. فقضىٰ الله، سبحانه، أن خُيّطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه، وعوفيَ وعاد في الصحة إلىٰ ما كان عليه. فتبارك الله مقدّر الأقدار، وموقّت الآجال والأعمار.

١٩٩

[مَثَل آخر على أن الأجلَ حِصن حَصين: ضربة كامل المشطوب]

وشاهدت ما يقارب ذلك: وهو أن الإفرنج، لعنهم الله، أغاروا علينا ثُلثَ الليل الآخِر. فركبنا نريد نتَّبُعهم. فمنعَنا عمي عزّ الدين رَحِمَهُ اللهُ من اتّباعهم، وقال: «هذه مكيدة! والإغارة تكون بالليل!». وخرج من

(١) الصوت الخفي.

(٢) لم يكن مقتولاً، ولكن كانت فيه جراح عظيمة كما يقول بعد قليل.

(٣) من رجال الباطنية.

البلد[1] رَجّالةٌ خلفهم ما علمنا بهم. فوقع الإفرنج ببعضهم[2] عند رجوعهم، قتلوهم، وسلِم بعضهم.

وأصبحتُ أنا واقفاً في بَندرقُنَيْن (قرية عند المدينة)[3]، فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة: أما اثنان فكالناس، وأما الأوسط فما وجهه كوجوه الناس. فلمّا دنوا منا، وإذا الوسطاني منهم قد ضربه إفرنجي بسيف في وسَط أنفه فقطع وجهه إلىٰ أذنيه، وقد استرخىٰ نصف وجهه، صار علىٰ صدره! وبين النصفين من وجهه فَتْح[4] قريب من شبر! وهو يمشي بين رَجُلين. فدخل البلد، وخاط الجرائحي[5] وجهه وداواه، فالتحم ذلك الجرح، وعوفي، وعاد إلىٰ ما كان عليه، إلىٰ أن مات علىٰ فراشه. كان يبيع الدوابّ، ويسمىٰ: ابن غازي المشطوب[6].

وإنما سُمّي: المشطوب، بتلك الضربة.

٢٠٠

[في بقاء أسامة أوضح مُعْتَبر]

فلا يَظُنَّ ظانٌ أن الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدّة الحذر، ففي بقائي أوضح مُعْتَبَر. فكم لقِيتُ من الأهوال، وتقحّمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيتُ الفرسان، وقتلتُ الأسود، وضُربتُ بالسيوف، وطُعنتُ بالرماح، وجُرحتُ بالسهام [٥٠ظ] والجُروخ[7]، وأنا من الأجل في حِصن حصين، إلىٰ أن بلغت تمام التسعين، فرأيت الصحة والبقاء،

---

(١) داخل الحصن (شيزر).

(٢) يريد: نالوا بعضهم.

(٣) القسم الواقع عند الجسر، من شيزر.

(٤) يريد: فراغ الضربة.

(٥) الطبيب الجراح، وفي الكتاب ذكر كثير له. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٨٣).

(٦) هو كامل المشطوب الذي تقدم ذكره في الفقرتين (٨٣ و١١٦).

(٧) من آلات الحرب ترمي السهام والحجارة. انظر: (الفقرة (١٩٢) القسم الأخير منها).

كما قال ﷺ: «كفىٰ بالصحّة داء!» فأَعقَبَت النجاةَ من تلك الأهوال، ما هو أصعب من القتل والقتال. وكان الهلاك في كُنْه[1] الجيش أسهلَ من تكاليف العيش! استرجعتْ مني الأيام بطول الحياة، سائرَ محبوب اللذات. وشاب كدَرُ النكَد، صفْوَ العيش الرَّغَد، فأنا كما قلت[2]:

مع الثمانين عاثَ الدهر في جَلَدي[3] ... وساءني ضعف رجلي واضطرابُ يدي
إذا كتبتُ فخطّي جِدُّ مضطربٍ ... كخط مُرتعش الكفين مُرْتَعِدِ
فاعجبْ لضعف يدي من حملها قلماً ... من بعد حَطْم القنا في لَبّةِ[4] الأسد!
وإن مَشَيتُ، وفي كفّي العصا، ثَقُلتْ ... رِجلي، كأني أخوض الوحل في الجَلَدِ[5]
فقل لمن يتمنىٰ طول مُدّته: ... هذي عواقب طول العمر والمُدَدِ!

ضعُفتِ القوة ووَهَت. وتقضّت بُلَهْنِيَة[6] العيش وانتهت، ونكسني التعمير[7] بين الأنام. وإلىٰ الخمود يؤول تَسَعُّر الضرام. حتىٰ أصبحتُ كما قلت[8]:

تناستنيَ الآجال حتىٰ كأنني ... رذيّة سَفْرٍ[9] بالفلاة، حَسيرُ[10]
ولمّا تدعْ مني الثمانون مُنّةً[11] ... كأني، إذا رُمْتُ القيام، كسيرُ
أؤدي صلاتي قاعداً، وسجودها ... عليّ، إذا رُمْتُ السجود، عسيرُ
وقد أنذرتْني هذه الحال: أنني ... دنَتْ رِحلةٌ مني وحان مَسيرُ!

---

(١) القلب أو الوجه.
(٢) أورد أسامة الأبيات التالية في «كتاب العصا» ٢٠٧.
(٣) الصلابة والصبر. (٤) صفحة الصدر.
(٥) جلِد المكان جلَداً: أصابه الجليد. (٦) هناءة العيش.
(٧) طول العمر (الفعل: عُمّر).
(٨) لم ترد الأبيات التالية في «ديوان أسامة»؛ ونقلها العماد الأصفهاني في («الخريدة» ١/ ٤٩٩).
(٩) المسافرون (اسم جمع). ورَذِيَ: ضعف وأثقله المرض. ورَذِيَت الناقة: حسرها السَّفَر فهي رَذِيّة: ضعيفة لا تقوم.
(١٠) الكليل الضّعيف. (١١) قوة. والجمع: مُنَن.

[خاتمة الكتاب]

أعجزني وهْن السنين عن خدمة السلاطين، فهجرت مغشيَّ أبوابهم، وقطعت أسبابي من أسبابهم، واستقلت من خدمتهم، ورددت عليهم ما خَوَّلوني من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوىٰ علىٰ تكاليف الخَدَم، وأن سُوق الشيخ الكبير لا ينفُق علىٰ الأمير. ولزمت داري، وجعلت الخمول شعاري. ورضيتُ نفسي بالانفراد في الغربة، ومفارقة الأوطان والتربة، إلىٰ أن تسكن نِفارتها عن مرارتها. وصبرت صبر الأسير علىٰ قِدِّهِ[1] والظمآنِ ذي الغُلَّة[2] عن وِرْدِهِ. فناداني إليه مكاتبةً مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان [٥١و] الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الإيمان، قامع عَبَدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان، محيي دولة أمير المؤمنين، أبو[3] المظفر يوسف بن أيوب. جمَّل الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه، وأيّدهم بماضي سيوفه وآرائه، وأضفىٰ عليهم وارف ظله، كما أصفىٰ لهم من الأكدار موارد فضله. وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه. وحكَّم صوارمَه في أعناق أعاديه: برحمةٍ نَقَّبَ عني في البلاد، ودوني الحَزْن[4] والسهل،

---

(١) السَّيْر من الجلد. والجمع: أَقُدّ.

(٢) الغُلّة: شدّة العطش وحرارته.

(٣) سَها المحقق الفاضل الدكتور قاسم السامرائي فخطّأ الأصل، والأصل صحيح، إذ جعلها (أبي)، ونصّ علىٰ التصحيح! فصلاح الدين (وهو أبو المظفر يوسف بن أيوب) ليس أمير المؤمنين، وإنما هو محيي دولته.

(٤) الأرض الغليظة الخشنة المرتفعة.

بمضْيَعةٍ من الأرض، لا مال لديَّ ولا أهل، فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل، وحملني إلىٰ بابه العالي بإنعامه الغامر الجزيل، وجبر ما هاضه الزمان مني، ونفَق علىٰ كرمه ما كسَد عليَّ من سواه، من علو سني. فغمرني بغرائب الرغائب[١]، وأنَهبني من إنعامه أهنأ المواهب[٢]، حتىٰ رعىٰ لي بفائض الكرم ما أسلفتُ سواه من الخِدَم[٣]. فهو يَعْتَدُّ لي بذلك ويرعاه رعاية مَن كأنه شاهدَه ورآه. فعطاياه تطرقني وأنا راقد، وتسري إليَّ وأنا مُحْتَبٍ[٤] قاعد. فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد، وإكرام كتكرِمة الأهل وأنا أقل العبيد. أمَّنني جميلُ رأيه حادثَ الحادثات، وأخلف لي إنعامُه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات. وأفاض عليَّ من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنّته، ما تعجِز الأعناق عن حمل أيسر مِنَّته. ولم يُبق لي جوده أملاً أرجو نَيله. أقضي زماني بالدعاء له نهارَه وليله. والرحمةِ التي تدارك بها العباد، وأحيا ببركاتها البلاد. والسلطان الذي أحيا سنّة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه، والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه؛ فلا زالت الأُمّة من سيوفه في حمًىٰ منيع ومن إنعامه في ربيع مَريع[٥]. ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظُلَم المظالم، وتكُفُّ بسطةَ يد المعتدي الغاشم، ومن دولته القاهرة في ظل وارف، وفي سُعود

---

(١) الرغيبة: العطاء الكثير. والجمع: رغائب.

(٢) يريد: الهِبات (أما المواهب: فجمع موهبة). انظر: في (عطاء الملك الناصر: المقدمة).

(٣) يريد: الخِدْمات (ج: خِدْمة).

(٤) الحَبْوة: الجلوس علىٰ الإليتين مع ضم الفخذين والساقين إلىٰ البطن بالذراعين.

(٥) الخصيب المُعْشِب (مَرِع يمرَع مَرَعاً).

متتابع آنف، في أثر سالف، ما تَعاقبَ الليل والنهار، ودارَ الفلك الدوّار:

دعوتُ وقد أَمَّن الحافظان ... وذو العرش ممن دعاه قريبْ

وقد قال سبحانه للعباد: ... سلوني فإني سميع مجيب

الحمد لله

رب العالمين

وصلواته على سيدنا

محمد وعلى آله أجمعين

وحسبنا الله

ونعم الوكيل.



[الملحق في كتاب الاعتبار]

فصل[1]: [١٥٥ظ] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[2] قال أسامة بن مرشد بن علي بن مقلَّد بن نصر بن منقذ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

هذه طُرَف أخبار حضرتُ بعضها وحدثني ببعضها من أثق به، جعلتها إلحاقاً في الكتاب، إذ ليست مما قصدتُ ذكره فيما تقدم. وبدأتُ منها بأخبار الصالحين، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) ورد عنوان الملحق في أصل الكتاب، على هذا النحو، ومنه ومما بعده استمددنا عنوان الملحق وتقسيمه إلى بداية ونهاية.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٣.

[بداية المُلحق]

[في]

[طُرَفِ أخبارِ الصَّالحين]



١

[الإمام أبو عبد الله محمد الطبري يقرأ المجهول]

حدثني الشيخ الإمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم خطيب مدينة أَسْعَرْد[١] بها[٢]، في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمسمائة قال: حدثني أبو الفرج البغدادي[٣] قال: «شهدتُ مجلس الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد الطبري[٤] ببغداد، وحضرتْه امرأة فقالت: «يا سيدي! إنك كنت ممن شهد في صَداقي[٥]، وقد فقَدتُ كتاب المَهْر، وأسألك أن تتفضل عليَّ تُقيم الشهادة بمجلس الحُكْم». فقال: «ما أفعل حتىٰ تأتِيني بحلاوة!». فوقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله. فقال: «لا تُطيلي، لا أمضي معك إلّا أن تأتِيني بالحلاوة!». فمضت، ثم عادت فأخرجت من جيبها، من تحت الإزار، قرطاساً فيه حلاوة يابسة! فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه. فأخذ القرطاس وفتحه ورمىٰ بالحلاوة قطعةً قطعةً حتىٰ فرَغ

---

(١) في ديار بكر («معجم البلدان» ٢/ ٣٣١). وكانت في حوزة عماد الدين أتابك زنكي، منذ سنة ٥٣٨هـ.

(٢) يريد: حدثه فيها.

(٣) ابن الجوزي، (واسمه عبد الرحمٰن بن محمد الجوزي) صاحب «تاريخ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، توفي في بغداد سنة ٥٩٨هـ («أعلام الزركلي» ومراجعه الكثيرة ٤/ ٨٩).

(٤) من عجبٍ أن هذا الشيخ الإمام لم تحفل به كتب التراجم! وهو ممن يحضر ابن الجوزي مجلسهم!

(٥) الصَّداق: مهر الزوجة، الجمع: صُدُق.

القرطاس. ونظره[1] فإذا هو كتاب صَداق المرأة الذي فقَدته! فقال: «خذي [كتاب] صَداقكِ، فهذا هو!». فاستعظم مَن حضره ذلك، فقال: «كُلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثرَ منه»[2]!

٢

[عبد الله بن القُبيس يسمع في الكوفة صوت الداعي من حماة، ويلبيه]

حدثني الشيخ أبو القاسم الخَضِر بن مُسلِم بن قاسم الحمَوي، بها[3]، يوم الاثنين سَلْخ ذي الحِجة سنة سبعين وخمسمائة، قال: «قدِم علينا رجل شريف من أهل الكوفة، فحدثنا قال: حدثني أبي قال: كنت أدخل علىٰ قاضي القضاة الشامي الحمَوي[4] فيُكرمني ويُجلّني، فقال لي يوماً: أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم. كنت بحماة وأنا شاب، وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحمَوي رحمه الله، فقالوا له: أوصِ، فقال: إذا أنا مِتُّ وفرَغتم من جهازي، أخرجوني إلىٰ الصحراء، ويطلُع إنسان علىٰ الرابية التي تشرف علىٰ المقابر وينادي: يا عبد الله بن القُبيس! مات عبد الله بن ميمون، فاحضرْه[5] وصلِّ عليه. فلما مات فعلوا ما أمرهم به. فأقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر

(١) يريد: نظر فيه. ويكثر مثله في الكتاب.

(٢) الجملة موردها مورد الشرط. يعني: إن جعلتم أكلكم حلالاً فعلتم مثل هذا وأكثر منه!

(٣) يقصد أيضاً: حدثه فيها (في مدينة حماة).

(٤) اسمه: أبو بكر محمد بن المظفر بن بكر الحموي (ت٤٨٨هـ). ذكره اليافعي في: («مرآة الجنان» ٣/ ١٤٨).

(٥) يقصد: فاحضر جهازه وتشييعه. ويفهم من الكلام أن ابن القُبيس يلزم أن يكون من أهل الكوفة.

صوف، من الجانب الذي نادىٰ منه المنادي. وجاء حتىٰ صلىٰ عليه، والناس قد بُهتوا لا يكلمونه! فلما فرَغ من الصلاة انصرف راجعاً من حيث جاء. فتلاوموا إذ لم يتمسكوا به ويسألونه[1]: فسعَوا [٥٢و] في إثره، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة!».

٣

[الشيخ محمد البستي يحقق أمنيةً من ظاهر الغيب]

وقد حضرتُ ما يقارب ذلك في حصن كيفا[2]. وكان في مسجد الخَضِر[3] رجل يُعرف بمحمد السَّماع، له زاوية إلىٰ جانب المسجد، يخرج وقت الصلاة يصلي جماعةً وينصرف إلىٰ زاويته. وهو رجل من الأولياء. فَحَضَرَتْهُ، وهو بالقرب من منزلي، الوفاةُ، فقال: «كنت أشتهي علىٰ الله تعالىٰ أن يحضُرني شيخي محمد البُسْتي»[4]. فما جُمع له جهاز غسْله وكفَنه إلّا وشيخه محمد البُسْتي عنده! فتولىٰ غَسْله، وخرج خلفَه تقدَّمَنا صلّىٰ عليه!

ثم نزل[5] في زاويته، فأقام بها مُدَيدَة وهو يزورني وأنا أزوره.

---

(١) الصحيح: ويسألوه.

(٢) في ديار بكر. بين آمد وجزيرة ابن عمر. كانت تشرف علىٰ نهر دجلة. («معجم البلدان» ٢/ ٢٦٥) سكنها أسامة وكتب فيها بعض كتبه. انظر المقدمة. ولحصن كيفا ذكر كثير في الكتاب. وقد درستْ اليوم. أخذتها المياه. حدثني بهذا من أراد زيارتها.

(٣) ارجع إلىٰ القرآن الكريم سورة الكهف: الآيات ٥٩ ـ ٨١، (قصته مع موسىٰ عليه السلام).

(٤) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد البُستي. من رجال الصوفية المعروفين في العصر (ت٥٨٤هـ). («سير أعلام النبلاء للذهبي» ٢٠/ ٢٨٣) انظر كلام أسامة في وصف سلوكه في الأسطر التالية.

(٥) يعني: الشيخ البستي نفسه.

وكان رحمه الله عالماً زاهداً ما رأيت ولا سمعت بمثله. كان يصوم الدهرَ، ولا يشرب ماء، ولا يأكل خبزاً ولا شيئاً من الحبوب، إنما يُفطر علىٰ رُمّانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين. ويأكل، في الشهر، مرةً أو مرتين، لُقَيماتٍ من لحم مَقْليٍّ. فقلت له يوماً: «يا شيخ أبا عبد الله! كَيف وقع لك أن لا تأكل خبزاً ولا تشرب وأنت صائم أبداً؟» قال: «صُمت وطوَيتُ[1] فوجدتُني أقوىٰ علىٰ ذلك. فطويتُ ثلاثاً وقلت: أجعل ما آكله كالمَيتة التي تحُلّ للمضطر بعد ثلاث[2]. فوجدتني أقوىٰ علىٰ ذلك. فتركت الأكل وشرب الماء فألفتْ النفس ذلك وسكنتْ إليه، فاستمررتُ علىٰ ما أنا عليه!».

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاويةً في بستان جعله[3] له. فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال: «قد جئت مودعاً». قلت: «والزاوية التي قد أُعدَّت لك والبستان؟» قال: «يا أخي! ما لي حاجة فيهما، ولا أقيم»[4]. وودعني ومضىٰ رحمه الله. وذلك سنة سبعين وخمس مئة.

٤

[رجل يختصر المسافات ويتعدى الأزمان]

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخَضِر بن مسلم بن قاسم الحمَوي[5] بحماة، في التأريخ المتقدم، أن رجلاً كان يعمل في بستان لمحمد بن مِسْعَر رحمه الله. أتىٰ أهلَه وهم جلوس علىٰ أبواب دورهم بالمعرة، فقال:

---

(١) يومي وليلتي.

(٢) انظر: الآية ١٧٣ من سورة البقرة، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

(٣) جعل البستان للشيخ البُستي.

(٤) لعله يعني: لا يقيم في مكان واحد.

(٥) سقطت من الاسم في نشرة السامرائي كلمتا «ابن مسلم».

«سمعت الساعة عجباً!». قالوا: «وما هو؟» قال: «مرّ بي رجل معه رِكوة طلب مني فيها ماء فأعطيته، فجدَّد وضوءه. وأعطيته خيارتين فأبىٰ أن يأخذهما». فقلت: «إن هذا البستان نصفه لي بحق عملي، ولمحمد بن مِسْعَر نصفه بالمُلْك». فقال: «أَحَجَّ العام؟». قلت: «نعم». قال: «البارحةَ، بعد انصرافنا من الوقفة، مات وصلّينا عليه!». فخرجوا في إثره ليستفهموا منه، فرأوه علىٰ بُعدٍ لا يُمكنهم لَحاقه. فعادوا وورَّخوا[1] الحديث، فكان الأمر كما قال!

٥

[من كرامات الإمام علي بن أبي طالب: يشفي رجلاً في الحلم!]

حدثني الأجلُّ شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود بن بَختكين بن سَبُكْتَكين مولىٰ معز الدولة ابن بويه بالموصل، في ثامن عشر شهر رمضان، سنة خمس وستين وخمسمائة، [٥٢ظ] قال: «زار المقتفي لأمر الله[2] أمير المؤمنين رَحِمَهُ اللهُ مسجد صندوديا[3] بظاهر الأنبار[4]، علىٰ الفرات الغربي، ومعه الوزير وأنا حاضر. فدخل المسجد، وهو يُعرف بمسجد أمير المؤمنين علي، رضوان الله عليه، وعليه ثوب دمياطي[5]، وهو متقلِّد سيفاً حِلْيته حديد. لا يَدري أنه أمير

(١) أرّخوا. لغة فيها.

(٢) جاء بعد الراشد، وهو أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر (٥٣٠ _ ٥٥٥هـ).

(٣) هي صندوداء («معجم البلدان» ٣/ ٤٢٥). في الطريق من العراق إلىٰ الشام.

(٤) علىٰ الفرات، غربي بغداد، جدد بناءها السفاح وأقام فيها («معجم البلدان» ١/ ٢٥٧)، وما تزال هذه المدينة القديمة قائمة آثارها. أما الأنبار الحديثة فمحافظةٌ قاعدتها: الرمادي.

(٥) كانت دمياط في دلتا مصر تعرف بجودة أثوابها. في («معجم البلدان» =

المؤمنين إلّا مَن يعرفه. فجعل قيِّم المسجد يدعو للوزير. فقال الوزير: ويحك ادعُ لأمير المؤمنين. فقال له المقتفي رَحِمَهُ الله: سلْه عما يَنفع، قل له ما كان من المرض الذي كان في وجهه؟ فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر[1] رَحِمَهُ الله، وبه مرض في وجهه. وكان في وجهه سَلْعة[2] قد غطَّت أكثر وجهه؛ فإذا أراد الأكل شَدَّها بمنديل حتىٰ يصل الطعام إلىٰ فمه. فقال القيِّم: كنتُ كما تعلم، وأنا أتردد إلىٰ هذا المسجد من الأنبار. فلقيَني إنسان فقال: لو كنتَ تتردد إلىٰ فلان ـ يعني مُقَدَّم الأنبار ـ كما تتردد إلىٰ هذا المسجد لاستدعىٰ لك طبيباً يُزيل هذا المرض من وجهك. فخامرَ قلبي من قوله شيءٌ ضاق له صدري. فنِمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وهو في المسجد يقول: ما هذه الخُضْرة؟ ـ يعني خُضْرةً في الأرض ـ فشكوت إليه ما بي، فأعرضَ عني. ثم راجعتُه وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل، فقال: أنت ممن يريد العاجلة[3]. ثم استيقظتُ والسَّلعة مطروحة إلىٰ جانبي، وقد زال ما كان بي. فقال المقتفي رَحِمَهُ الله: صدق! ثم قال لي: تحدثْ معه، وأبصرْ ما يلتمسه، واكتب به توقيعاً وأَحضرْه لأعَلِّم عليه. فتحدثتُ معه. فقال: أنا صاحب عائلة وبنات. وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير. فكتبتُ عنه مطالعة وعنونتُها: الخادم، قيِّم مسجد عليْ. فوقَّعَ عليها بما طلبَ وقال لي: امض ثَبِّتْها في الديوان. فمضيتُ

= ٢/ ٤٧٢) حديث طويل عنها.

(١) جاء بعد أبيه المقتدي، وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ).

(٢) الشَّجَّة في الرأس، علىٰ أي نحو تكون. وقد تكون في مواضع أخرىٰ من الجسم، فهي حينذاك كالشق.

(٣) انظر الآية الكريمة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ سورة الإسراء: الآية ١٨.

ولم أقرأ منها سوىٰ: يُوقَّع له بذلك. وكان الرَّسم[1]: أن يُكتب لصاحب المطالعة توقيع، ويؤخذَ منه ما فيه خط أمير المؤمنين. فلما فتحها الكاتب ليَنقلها وجد تحت: قيِّم مسجد علي، بخط المقتفي أمير المؤمنين: صلوات الله عليه[2]. ولو كان[3] طلب أكثر من ذلك لَوقِّع له به.

٦

[ينكشف له المجهول وهو نائم]

وحدثني القاضي الإمام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بظاهر حصن كيفا[4]، يوم الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمسمائة، عن من حدثه: «أن شيخاً استأذنَ علىٰ خواجا بُزُرْك[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فلما دخل عليه رآه شيخاً مَهيباً بهيّاً. فقال: من أين الشيخ؟ قال: من غَزْنة[6]. قال: ألك حاجة؟ قال: أنا رسول رسول الله ﷺ [٥٣و] إلىٰ ملك شاه[7]. قال: يا

(١) يعني: المتَبَع في مثل هذه الأحوال.
(٢) يعني أن المقتفي لأمر الله أضاف إلىٰ اسم عليّ الوارد في الرقعة: «صلوات الله عليه»، وقد ظُنَّ هذا المعنىٰ علىٰ ما يبدو في نشرات الكتاب السابقة، دعاء للمقتفي!
(٣) قيّم المسجد.
(٤) يرد اسمها كثيراً في الكتاب. انظر: الفقرة (٣) القريبة.
(٥) لقب نظام الملك الذي قُتل سنة ٤٨٥هـ، وزير ملك شاه السَّلجوقي بعد أن وزر لأبيه أَلب أرْسلان. كان من حسنات الدهر. وبزرك: تعني: العظيم بالفارسية. انظر: («أعلام الزركلي» ٢/ ٢١٩ ومراجعه).
(٦) تقع في طرف خراسان، في الحد الفاصل بين خراسان والهند (تقع اليوم في أفغانستان).
(٧) جلال الدولة معز الدين أبو الفتح. ابن السلطان أَلب أرْسلان السلجوقي، أحد سلاطين السلاجقة الكبار المتقدم ذكره (ت٤٨٥هـ). سيرته ترد في تواريخ العصر. («زامباور» ص٣٣٣).

شيخ! أيُّ شيءٍ هذا الحديث؟ قال: إن أوصلتَني بلّغتُه الرسالة، وإلا فأنا لا أزول حتىٰ أجتمع به وأُبلغه ما معي.

فدخل خواجا بُزُرك علىٰ السلطان، فأعلمه بما قال الشيخ. فقال: أَحضروه. فلما حضر قدَّم للسلطان مِسْواكاً ومشطاً وقال له: أنا رجل لي بنات، وأنا فقير لا أقدر علىٰ جهازهن وتزويجهن. وكل ليلة أدعو الله تعالىٰ أن يرزقني ما أجهزهنّ به. فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا، ودعوت الله سبحانه بمعونتي عليهنَّ. فرأيت رسول الله ﷺ فيما يرىٰ النائم، فقال لي: أنت تدعو الله تعالىٰ أن يرزقك ما تجهز به بناتك؟ قلت: نعم يا رسول الله! فقال: امضِ إلىٰ فلان ـ وسماه بعز [الدين] ملك شاه ـ يعني السلطان، وقل له: قال لك رسول الله ﷺ: جَهِّزْ بناتي! فقلت: يا رسول الله! إن طلب مني علامة ما أقول له؟ قال: قل له بعلامة أنك كلَّ ليلة، عند النوم، تقرأ سورة تبارك[1]. فلما سمع ذلك السلطان قال: هذه علامة صحيحة. وما اطَّلع عليها غير الله تبارك وتعالىٰ. فإن مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند النوم. وأنا أفعل ذلك. ثم أمر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه.

٧

[يرسله النبي ﷺ برسالة إلى علي بن عيسى في الحلم، ينكشف فيها المجهول]

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك المقرئ، قال: «كنت أقرأ يوماً علىٰ أبي بكر بن مجاهد[2] رحمه الله، المقرئ

---

(١) سورة المُلْك رقمها في القرآن الكريم ٦٧.

(٢) المقرئ المشهور وصاحب «كتاب القراءات الكبير» وهو أحمد بن موسىٰ بن العباس بن مجاهد المقرئ (ت٣٢٤هـ)، انظر: («أعلام الزركلي» ١/٢٤٦ ومراجعه).

ببغداد، إذ ورد عليه شيخ عليه عِمامة رثَّة وطيلسان وثياب رثَّة. وكان ابن مجاهد يَعرف الشيخ. فقال له: أيش[1] كان من خبر الصِبْية؟ قال: يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة، فطلبتْ مني أهلي دانِقاً[2] يشترون به سَمْناً وعسلاً يُحنّكونها به، فلم أقدر عليه. فبِتُّ مهموماً. فرأيت النبي ﷺ فيما يرىٰ النائم، فقال: لا تَغتمَّ ولا تحزن. وإذا كان غداً فادخل علىٰ عليّ بن عيسىٰ[3] وزير الخليفة[4]، فأَقرِهِ[5] مني السلام وقل له: بعلامة أنك صلَّيتَ عليَّ، عند قبري، أربعة آلاف مرة، ادفع لي مئة دينار عَيْناً[6].

فقال أبو بكر بن مجاهد: يا أبا عبد الله! في هذا فائدة. وقطع عليٌّ القراءة، وأخذ بيد الشيخ، وقام فدخلِ به علىٰ عليّ بن عيسىٰ. فرأىٰ عليُّ بن عيسىٰ مع ابن مجاهد شيخاً لم يعرفْه فقال: من أين لك يا أبا بكر هذا؟ فقال: يُدْنيه الوزير ويسمعُ منه كلامه. فأدناه وقال: ما خطبك يا شيخ؟ فقال الشيخ: إن أبا بكر بن مجاهد يعلم أن لي ابنتين والبارحة جاءتني ثالثة. فطلبتْ مني أهلي دانقاً يشترون به عسلاً وسمناً يُحنّكونها به، فلم أقدر عليه. فبتُّ البارحة وأنا مهموم. [٥٣ظ] فرأيت النبي ﷺ في المنام، وهو يقول: لا تَغْتَمَّ ولا تحزن. إذا كان غداً[7] فادخلْ علىٰ عليّ بن عيسىٰ، وأَقْرِهِ مني السلام، وقل له: بعلامة أنك

---

(١) أي شيء. ووردت في بعض التراث مختزلة أيضاً. وأهل الشام يكسرون فيها الهمز في دارجتهم.

(٢) كان يعدل سُدس الدرهم. والجمع: دوانق ودوانيق. من الفارسية القديمة: (انظر: «التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٣٢).

(٣) علي بن عيسىٰ بن داود بن الجراح: من وزراء آل العباس المعروفين أصله من فارس، وله كتب كثيرة واتصال وثيق بابن مجاهد المقرئ (ت٣٣٤هـ)، انظر: («الأعلام» ٥/ ١٣٣).

(٤) المقتدر بالله بن المعتضد، واسمه أبو الفضل جعفر (٢٩٥ ـ ٢٩٦هـ).

(٥) أقرِئْه: بتسهيل الهمز.

(٦) العين هنا تعني: الحاضر المرئي.

(٧) نصبها، كما فعل قبل أسطر، علىٰ الحكاية، أو علىٰ حذف الاسم.

صلَّيْتَ عليَّ، عند قبري، أربعة آلاف مرة: ادفعْ لي مائة دينار عَيْناً.
قال [ابن] مجاهد: فاغرورقت عينا عليّ بن عيسىٰ بالدموع. ثم قال: صدق الله ورسوله، وصدقتَ أيها الرجل. هذا شيء ما كان عَلِم به إلّا الله تعالىٰ ورسوله ﷺ. يا غلام! هات الكيس! فأحضَره بين يديه. فضرب بيده، فأخرج منه مائة دينار وقال: هذه المائة التي قال لك رسول الله ﷺ. وهذه مائةٌ أخرىٰ للبِشارة. وهذه مئة أخرىٰ هديةٌ منّا لك. فخرج الرجل من عنده وفي كُمّه[١] ثلاثمائة دينار.

٨

[رؤيا يشفي فيها الإمام علي بن أبي طالب رجلاً من الشلل]

وحدثني القائد الحاج أبو علي[٢]، في شهر رمضان، في سنة ثمان وستين وخمسمائة، بحصن كيفا[٣]. قال: «كنت بالموصل جالساً في دُكّان محمد بن علي بن محمد بن مامة. فاجتاز بنا رجل فُقّاعي[٤]، ضخم غليظ الساقين. فدعاه محمد وقال: يا عبد عليّ![٥] بالله، حدثْ فلاناً حديثَك. قال: أنا رجل أبيع الفُقّاع كما ترىٰ، فبِتّ ليلة أربعاء وأنا صحيح، فانتبهتُ وقد انحلَّ وسْطي، فلا أقدر علىٰ الحركة، ويبست رجلاي ودَقَّتْ[٦] حتىٰ بقيتْ الجلدَ والعظم. فكنت أزحف إلىٰ الوراء لأن رجلي ما كانت تتبعني، ولا كان فيها حركة بالجُملة. فقعدتُ في طريق

---

(١) كانت الأكمام، فيما يبدو، تسع الكتب والأوراق وأكياس الدنانير.
(٢) يكون القائد علىٰ مئة من الرجال والحرس. والحديث كله عن رجال سبق لأسامة أن عرفهم.
(٣) لها ذكر كثير في الكتاب. انظر مثلاً: الفقرة (٣) من هذه البداية. صلتها بأسامة وثيقة جداً.
(٤) الفُقّاع: شراب يصنع من الشعير. تقف في ختامه فقّاعات. ومن هنا اسمه.
(٥) يُفهم من هذا ومما بعده أن الرجل علىٰ مذهب الشيعة.
(٦) علىٰ الدارجة: تسوية المثنىٰ بالجمع. وكذلك «بقيتْ» بعدها.

زين الدين علي كوجك[1] رَحِمَهُ اللهُ. فأمر بحملي إلىٰ داره فحُملْت. وأَحضر الأطباءَ وقال: أريد أن تُداووا هذا. فقالوا: نعم نُداويه إن شاء الله. ثم أخذوا مسماراً فأحمَوه ثم كَوَوا به رجلي، فما حسستُ به. فقالوا لزين الدين: ما نقدر علىٰ دواء هذا ولا فيه حيلة. فوهب لي دينارين وحماراً. فبقي الحمار عندي نحواً من شهر ومات. فعُدتُ قعدتُ في طريقه. فوهب لي حماراً فمات. ووهب لي ثالثاً فمات. فعُدتُ إلىٰ سؤاله. فقال لواحد من أصحابه: اخرجْ بهذا فارْمِهِ في الخندق. فقلت له[2]: بالله ارْمِني علىٰ وَرِكي، فإني ما أُحسّ فيها بما يكون! فقال: ما أرميك إلّا علىٰ رأسك. فإذا رسول زين الدين رَحِمَهُ اللهُ قد جاءني فردَّني إليه، وكان الذي قاله من رمْيي مُزاحاً. فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحماراً.

فبقيتُ علىٰ ما أنا عليه إلىٰ ليلةٍ رأيت فيها، فيما يرىٰ النائم، كأن رجلاً وقف عليَّ وقال: قم! قلت: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب! فقُمت وقفت. فأنبهتُ امرأتي وقلت: ويحكِ! قد أبصرتُ كذا وكذا. فقالت: ها أنت قائم! فمشيتُ علىٰ رجلي، وزال ما كان بي، ورجعتُ كما تراني. فمضيتُ إلىٰ عند زين الدين الأمير علي كوجك رَحِمَهُ اللهُ فقصصتُ عليه منامي. ورآني [٥٤و] قد زال ما رآه بي، فأعطاني عشرة دنانير، فسبحان الشافي المعافي!

٩

[سلسلة من مواقف القدر المحبوكة تتصل أولى حلقاتها بأُخراها]

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن

---

(١) ولي الموصل سنة ٥٣٩هـ، أيام أتابك زنكي وولده سيف الدين غازي بعده (ت٥٦٣هـ)، (انظر «وفيات الأعيان» ٤/ ١١٤، و«زامباور» ص ٣٤٤). وكوجك: تعني: الصغير. تركية.

(٢) الضمير يعود علىٰ من أوصاه زين الدين علي كوجك، برميه في الخندق.

مَعْمَر العَليمي[1] بدمشق، أوائلَ سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. قال: «حكىٰ لي رجل، ببغداد، عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري الفرضي، المعروف بقاضي المارستان[2]، أنه قال: لما حَجَجْتُ، بينا أطوف بالبيت، إذ وجدتُ عِقداً من اللؤلؤ، فشددته في طَرَف إحرامي[3]. فبعد ساعة سمعت إنساناً يَنشدُه[4] في الحَرَم، وقد جعل لِمن يَردّه عليه عشرين ديناراً. فسألته علامةَ ما ضاع له، فأخبرني، فسلَّمته إليه. فقال لي: تجيء معي إلىٰ منزلي لأدفع إليك ما جعلته لك. فقلت: ما لي حاجة إلىٰ ذلك، وما دفعته إليك بسبب الجُعالة[5]. وأنا من الله بخيرٍ كثير. فقال: ولِمْ تدفعْه إلّا لله ﷻ؟ فقلت: نعم! فقال: استقبلْ بنا الكعبة وأَمِّنْ[6] علىٰ دعائي. فاستقبلْنا الكعبة فقال: اللهم اغفرْ له وارزقني مكافأته[7]. ثم ودَّعني ومضىٰ.

ثم اتفق أنني سافرتُ من مكة إلىٰ ديار مصر. فركبت في البحر متوجهاً إلىٰ المغرب، فأخذت الروم المَركب وأُسرتُ، فوقعتُ في نصيب بعض القُسوس. فلم أزل أخدمه إلىٰ أن دنتْ وفاته، فأوصىٰ بإطلاقي.

فخرجتُ من بلد الروم، فصِرتُ إلىٰ بعض بلاد المغرب. فجلستُ أكتب علىٰ دُكّان خباز. وكان ذلك الخباز يُعامل بعض تُنَّاء[8] تلك المدينة. فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانئ إلىٰ الخباز

---

(١) من رجال الحديث الراحل في طلبه ونقله في أنحاء الأرض الإسلامية (ت٥٧٤هـ). («سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢١/٤٩).

(٢) من شيوخ ابن الجوزي. أسرته الروم، موثوق الرواية (ت٥٣٥هـ). انظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٧/٥٤).

(٣) لباس الإحرام.

(٤) يطلبه.

(٥) أجر العمل. والجيم فيه مثلثة.

(٦) قل: آمين، اللهم استجب.

(٧) يعني: أن يرزقه ما يكافئه به.

(٨) تَنَأ بالمكان تنوءاً وتناءةً: أقام به. والتانئ: المقيم، والجمع: تُنَّاء.

فقال: سيدي يدعوك لتحاسبه. فاستصحبَني معه، ومضينا إليه فحاسَبَه علىٰ رِقاعه. فلما رأىٰ معرفتي في الحساب وخطّي، طلبني من الخباز، فغيَّر ثيابي وسَلَّم إليَّ جباية ملكه، وكانت له نِعمة ضخمة. وأخلىٰ لي بيتاً في جانب داره.

فلما مضتْ مُديدة قال لي: يا أبا بكر! ما رأيك في التزويج؟ قلت: يا سيدي أنا لا أطيق نفقة نفسي، فكيف أُطيق النفقة علىٰ زوجة؟ قال: أنا أقوم عنك بالمَهْر والمسكن والكسوة وجميع ما يَلزمك. فقلت: الأمر لك. فقال: يا ولدي! إن هذه الزوجة فيها عيوب شتىٰ، ولم يترك شيئاً من العَيْب في الخِلْقة، من رأسها إلىٰ قدمها، إلّا ذكره لي، وأنا أقول: رضيتُ، وباطني في ذلك كظاهري. فقال لي: الزوجة ابنتي! وأحضرَ جماعة وعَقَدَ العَقد.

فلما كان بعد أيام قال لي: تهيأُ لدخول بيتك. ثم أمر لي بكسوة فاخرة. ودخلتُ إلىٰ دار فيها التجمل [٥٤ظ] والآلات. ثم أُجلستُ في المَرْتبة[١]. وأُخرجتْ العروس تحت النَّمَط[٢]، فقمت لتلقيها. فلما كَشفتُ النَّمَط رأيتُ صورةً ما رأيتُ في دار الدنيا أجملَ منها. فهربتُ من الدار خارجاً، فلقيَني الشيخ وسألني عن سبب هربي. فقلت: إن الزوجة ما هي التي ذكرتَ لي فيها من العيوب ما ذكرت. فتبسم وقال: يا ولدي! هي زوجتك، وليس لي ولد سواها. وإنما ذكرتُ لك ما ذكرتُ لئلا تَستقلَّ ما تراه. فعدتُ وجُلِيَتْ عليَّ.

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ما عليها من الحُليّ والجوهر الفاخر. فرأيت، من جملة ما عليها، العِقْد الذي وجدته بمكة! فعجبت من ذلك، واستغرقني الفكر فيه. فلما خرجت من البناء استدعاني

(١) حيث يهيأ مجلس العروسين قبل الجلوة.

(٢) ما تغطي به العروس وجهها، ويكشفه الرجل.

وسألني عن حالي وقال: «جَدَع الحلال أنف الغَيْرة»[1]. فشكرته علىٰ ما فعله معي. ثم استولىٰ عليَّ الفكْر في العِقد ووصوله إليه. فقال لي: فيمَ تفكر؟ فقلت: في العِقْد الفلاني. فإني حججتُ في السنة الفُلانية فوجدته في الحَرَم أو عِقداً يشبهه! فصاح وقال: أنت الذي رددتَ عليَّ العِقد؟ قلت: أنا ذاك. فقال: أبْشِرْ! فإن الله قد غفر لي ولك، فإني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك، وأن يرزقني مكافأتك. وقد سلّمتُ إليك مالي وولدي، وما أظن أجلي إلّا وقد قرُب. ثم أوصىٰ إليَّ، ومات بعد مُدَيدة قريبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

١٠

[رجل تشفيه، عن غير قصد، شَربة بَيْضٍ نيء]

وحدثني الأمير سيف الدولة زَنكي بن قَراجا[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: دعانا شاهنشاه[3] بحلب (وهو زوج أخته). فلما اجتمعنا عنده نَفَّذْنا إلىٰ صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه، خفيف الروح طيب العِشرة، فاستدعيناه. فحضر. فعرضنا عليه الشُّرْب فقال: «أنا محتمي»[4]. أمرني الطبيب بالحِمْية أياماً حتىٰ تُشَق هذه السَّلْعة»[5]. وكان في مؤخر رقبته سَلْعة كبيرة. فقلنا: «وافِقْنا اليوم وتكون الحِمْية من غد. ففعل وشرب معنا إلىٰ آخر النهار. فطلبنا من شاهنشاه شيئاً نأكله. فقال: «ما

---

(١) مَثَل يقال في هذه المناسبات.

(٢) أخو شهاب الدين محمود، من بني قراجا، وقد تولوا حماة وعرفوا بظلم الناس، وورد ذكرهم في كثير من أخبار الكتاب. انظر: («الكامِل» لابن الأثير ٦١٨/١٠).

(٣) شاهنشاه بن مسعود أخو قَليج أرْسْلان. من السلاجقة. انظر: («زامباور» ص ٢١٥).

(٤) مُحْتَمٍ.

(٥) أثر الشَجَّة في الرأس. علىٰ أي وجه تكون. والجمع: سِلاع.

عندي شيء»، فلاججناه حتىٰ أجابنا إلىٰ أن يُحضر لنا بيضاً نَقليه علىٰ المَنْقَل[1]. فأحضر البيض، وأحضرْنا صحناً، وكسرنا البيض، وأفرغنا ما فيه في الصحن. ووضعنا المقْلي[2] علىٰ المَنْقَل ليَحْمىٰ. فأشرتُ إلىٰ ذلك الرجل الذي في رقبته السَّلْعة أن يَشرب البيض. فرفع الصحن علىٰ فمه ليشرب بعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه، فشربه! وقلنا لصاحب الدار: «عوِّضْنا عن البيض» فقال: «والله ما أفعل!». فشربنا، ثم افترقنا.

فأنا في السَّحَر في فراشي، والباب يُقرع. فخرجتْ جارية تنظر من بالباب، فإذا هو صديقنا ذلك. فقلت: [٥٥و] أَحضريه. فجاءني وأنا في الفراش وقال: «يا مولاي! تلك السَّلْعة التي كانت في رقبتي ذهبتْ، وما بقي لها أثر»! فنظرتُ موضعها، فإذا هو كغيره من جوانب رقبته. فقلت: «أيُّ شيء أذهبها؟». قال: «الله سبحانه! ما عرفتُ أنني استعملت شيئاً ما كنتُ أستعمله غير شُربي لذلك البيض النَّيْء. فسبحان القادر المُبلي المُعافي!».

١١

[قِيلة تُذهبها أكلة فراخ غربانٍ غَذتْها الأفاعي!]

وكان عندنا في شيزر أخوان. اسم الأكبر: مظفر، والآخر مالك بن عِياض، من أهل كفَر طاب[3]. وهما تُجَّار[4] يسافران إلىٰ بغداد وغيرها من البلاد. ومظفر آدرُ[5]، له قِيلةٌ[6] عظيمة؛ فهو منها

(١) شائعة في الشام: آنية تُحمىٰ بالنار من تحتها، كالمقلاة. وتكون للتدفئة أيضاً.
(٢) لعله يريد الصحن الذي أُفرغ فيه البيض المكسور، ولعلها: المقلىٰ، مصحفة.
(٣) بين حماة ومعرة النعمان، ذكرها شائع في الكتاب كله. ويبدو أن أصل آل منقذ أمراء شيزر، منها: انظر: («معجم البلدان» ٤/ ٤٧٠).
(٤) علىٰ الدارجة.
(٥) لعله لقب الأسرة!
(٦) انتفاخ الخصية.

في تعب. فسار في قافلة علىٰ السماوة[1] إلىٰ بغداد. فنزلتْ القافلة بحيّ من أحياء العرب، فضيَّفوهم بطيور طبخوها لهم. فتعشَّوا وناموا. فانتبه أنْبَه رفيقه الذي في جانبه وقال له: «أنا نائم أو مستيقظ؟». قال: «مستيقظ. لو كنتَ نائماً ما تحدثت». قال: «تلك القِيلة ذهبتْ وما بقيَ لها أثر!». فنظر فإذا هو قد عاد كغيره إلىٰ الصحة.

فلما أصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم: «أيَّ شيء أطعموهم؟». قالوا: «نزلتم بنا ودوابُّنا عازبة[2]. فخرجنا أخذنا فِراخ غِربانٍ طبخناها لكم». فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان[3]، وحكَوا لمتولي المارستان حكايته. فنفَّذ حصَّل فراخ غِربان وأطعمها لمن به هذا المرض، فلم تنفعه ولا أثرت فيه. فقال: «تلك الفراخ التي أكلها كان زقَّها أبوها أفاعيَ، فذلك كان نفعها»!

١٢

[أمثلة من حذق ابن بُطلان الطبيب]

أ ـ [مريض بالاستسقاء يشفيه خلّ تهرأت في دنّه أفعيان!]:

ومما يشاكل ذلك: أن رجلاً أتىٰ يوحنا بن بُطلان[4]، الطبيبَ المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب، وهو في دُكّانه بحلب. فشكىٰ[5] إليه مرضه، فرآه قد استحكم به الاستسقاء، وكبِر

---

(١) البادية (بادية الشام). (٢) بعيدة، غائبة.

(٣) يعني: البيمارستان: المشفىٰ. فارسية: (بيمار: مريض).

(٤) طبيب مسيحي أصله من بغداد، عمل في حلب وأنطاكيّة واشتهر أمره. رحل إلىٰ القسطنطينية ومات فيها (سنة ٤٥٨هـ) بعد أن ترهب. انظر: («أعلام الزركلي» ٨/ ٦٩).

(٥) الصحيح: شكا.

بطنه، ودَقَّتْ رقبته، وتغيرت سِحْنته. فقال له: «يا ولدي! ما لي والله فيك حيلة ولا بقي الطب يَنْجَع فيك فانصرفْ».

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دُكانه، وقد زال عنه ما كان به من المرض، وضمَر جوفه وحسُنت حاله. فدعاه ابن بُطلان، فقال: «ما أنت الذي حضرتَ عندي من مدة وبك الاستسقاء، وقد كبِر بطنك، ودَقَّتْ رقبتك، وقلتُ لك: ما لي فيك حيلة؟». قال: «بلىٰ!». قال: «فبماذا تداويتَ حتىٰ زال ما كان بك؟». قال: والله ما تداويتُ بشيء! أنا رجل صعلوك، ما لي شيء، ولا لي مَن يدور بي سوىٰ والدتي عجوز ضعيفة، كان لها في دَنَّيْن خَلٌّ. فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز. فقال له ابن بُطلان: [٥٥ظ] «بقي من الخل شيء؟» قال: «نعم!» قال: «امش معي أرني الدَّنَّ الذي فيه الخلِّ». فمشىٰ بين يديه إلىٰ بيته أوقفه علىٰ دَنّ الخل، فأفرغ ابن بُطلان ما كان فيه من الخلّ فوجد في أسفله أَفْعَيين قد تَهرّأتا. فقال له يا بنيّ!» ما كان يقدر يداويك بخلٍّ فيه أفعيان حتىٰ تبرأ إلا الله ﷻ!»

ب ـ [إدراكه أمراض المهنة]:

وكان لهذا ابن بُطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك أن رجلاً أتاه وهو في دكانه بحلب والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يُفهم منه إذا تكلم فقال له: «ما صنعتك؟» قال: «أنا مُغَرْبل». فقال: «أَحضرْ لي نصف رِطل خلّ حاذق»، فأحضره فقال: «اشربْه!» فشربه، وجلس لحظة، فذرَعَه[١] القيءَ فتقيأ طِيناً كثيراً في ذلك الخل، فانفتح حلْقه، واستوىٰ كلامه. فقال ابن بُطلان لابنه وتلامذته: «لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه. هذا كان قد علِقَ بالمريء، من غبار الغربلة، تراب ما كان يُخرجه إلا الخَلّ»!

---

(١) الذَّرْع: الطاقة والوسع. وفي «المعجم»: أذرعه القيءَ: أخرجه.

ج - [وقوفه علىٰ حقيقة المرض]:

وكان ابن بُطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوَّج مقلَّد بن نصر بن منقذ. فظهر في جَدي أبي الحسن علي بن مقلَّد بن نصر بن منقذ رَحِمَهُ اللَّهُ وَضَح[1]، وهو صبي صغير، فأقلق ذلك أباه، وأشفق عليه من البَرَص. فأحضر ابنَ بُطلان وقال له: «أبْصِرْ ما قد ظهر في جسم عليّ!» فنظره[2] وقال: «أريد خمسمائة دينار حتىٰ أداويَه وأُذهبَ هذا عنه». فقال له جَدّي: «لو كنتَ داويتَ عليّاً ما كنتُ رضيتُ لك بخمس مئة دينار!». فلما رأىٰ الغضب من جدي قال: «يا مولاي! أنا خادمك وعبدك وفي فضلك، ما قلتُ ما قلتُه إلّا علىٰ سبيل المزح. وهذا الذي بِعليٍّ بَهَقُ[3] الشباب، وإذا أَدرَكَ زال عنه، فلا تحمل منه هماً، ولا يقول لك سواي: «أنا أداويه، ويتسوَّق عليك، فهذا يزول عند بلوغه» فكان كما قال.

د - [يشفي نزلات البرد بالكافور]:

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب يقال لها: بَرّة، لحقها بَرْد في رأسها. فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقَلَنْسوة والمُخْمَلة والمناديل حتىٰ تصير كأن علىٰ رأسها عِمامة كبيرة، وهي تستغيث من البرد. فأحضرتْ ابن بُطلان، وشكتْ إليه مرضها، فقال: «حَصِّلي في غدٍ خمسين مثقالاً[4] من كافور رِياحي[5]، عاريّةً أو مُكرىً[6] من بعض

---

(١) بياض أصاب وجهه.

(٢) نظر إليه أو نظر فيه. ويكثر هذا الاستعمال في الكتاب.

(٣) بياض يعتري الجلد يخالف لونه، وليس هو البرص.

(٤) المثْقال في الميزان: مقداره درهم وثلاثة أسباع الدرهم. والجمع: مثاقيل. وانظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٢٩٧).

(٥) تفوح منه ريح شديدة.

(٦) إعارة أو كراء (العاريّة: ما يستعار).

الطِّيبيين، فهو يعود إليه بأسره[1]». فحصَّلتْ له الكافور. ثم أصبح ألقىٰ كلَّ ما علىٰ رأسها، وحشا شعرها بذلك الكافور، وردَّ علىٰ رأسها ما كان عليه من الدِّثار، وهي تستغيث من البرد. فنامت لحظة وانتبهتْ [٥٦و] تشكو الحَرَّ والكَرْب في رأسها. فألقىٰ عنها شيئاً شيئاً مما كان علىٰ رأسها، حتىٰ بقي علىٰ رأسها قِناع واحد. ثم نفض شعرها من ذلك الكافور، وذهب عنها البرد، وصارت تتقنَّع بقناع واحد.

١٣

[حذق الطبيب أبي الوفاء: يشفي الصفراء بأكل البطيخ الهندي]

وقد جرىٰ لي بشيزر ما يقارب ذلك. لحقني برد عظيم وقُشَعريرة من غير حُمَّىٰ، وعليَّ الثياب الكثيرة والفرْو. ومتىٰ تحركتُ في جلوسي ارتَعدتُ وقام شعر بدني وتجمّعتُ. فأحضرتُ الشيخ أبا الوفاء تميماً الطبيب، فشكوت إليه ما أجد فقال: «أحضِروا لي بطيخة هندي»، فأُحضرتْ. فكسرها وقال لي: «كُلْ منها [ما] استطعت» قلت: «يا حكيم! أنا في الموت من البرد، والزمان بارد، كيف آكل هذه مع بردها؟». قال: «كُل كما أقول لك!». فأكلت. فما انتهىٰ أكلي منها حتىٰ عَرِقتُ وزال ما كنت أجده من البرْد فقال لي: «الذي كان بك من غَلَبَة الصفراء، ما كان من برد حقيقي!».

١٤

[من عجائب الأحلام: مربية أسامة يشفيها حُلْم من ألم القولنج]

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام. وقد أوردتُ، في كتابي

---

(١) يعيده إليه لا يَنقصه شيئاً.

المترجم بـ«كتاب النوم والأحلام»[1]، من ذكر النوم والأحلام، وما قيل فيها وفي أوقات الرؤيا، وفي أقوال العلماء فيها. واستشهدتُ علىٰ أقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب، ووسَّعتُ الشرح وأشبعتُ فيها المعنىٰ. فما حاجةٌ إلىٰ ذكر شيء منه هاهنا. لكني ذكرتُ هذا الخبر واستظرفته فأوردته:

كان لجَدّي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلَّد بن نصر بن منقذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جارية يقال لها: لؤلؤة، ربَّتْ والدي مجد الدين أبا سلامة مرشد بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فلما كبِر وانتقل عن دار والده انتقلتُ معه، فَرُزِقَني، فربَّتْني تلك العجوز إلىٰ أن كبِرتُ وتزوجتُ وانتقلت من دار والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فانتقلتْ معي. ورزقتُ الأولادَ فربتْهم. وكانت رحمها الله من النساء الصالحات، صوّامة قوّامة. وكان يَلحقها القولَنْجُ[2] وقتاً بعد وقت. فلحقها يوماً من الأيام، واشتد بها حتىٰ غاب ذهنها وآيسوها[3]، فبقيتْ كذلك يومين وليلتين. ثم أفاقت فقالت: «لا إله إلا الله! ما أعجبَ ما كنتُ فيه! لقيت أمواتنا جميعهم، وحدثوني بالعجائب، وقالوا لي في جملة ما قالوا: إن هذا القولَنج ما يعود يَلحقكِ!» فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولَنْج.

وعاشت حتىٰ قاربت المئة سنة. وكانت محافظة لصلواتها رحمها الله. فدخلتُ إليها في بيتٍ أفردتُه لها من داري، وبين يديها طَست، وهي تغسل منديلاً للصلوات. فقلت: «ما هذا يا أمي؟». قالت: يا بني! قد مَسَكوا هذا المنديل وأيديهم ذَفِرة من الجِبْن. وكلما

(١) ورد ذكره في قائمة كتبه المتناقلة. مخطوط مفقود. انظر: (المقدمة ص ١٨ حاشية ٢).

(٢) مغص يصيب الأمعاء.

(٣) يعني: غابت عن الوعي وأيسوا منها. وفي «المعجم»: آيسه وآيس منه، إيياساً: أيأسه.

غسلتُه قد[1] فاحت [٥٦ظ] منه رائحة الجِبن»! قلت: «أريني الصابونة التي تغسلين بها». فأخرجتْها من المنديل فإذا هي قطعة جِبن، وهي تظن أنها صابون! وكلما عركتْ ذلك المنديل بالجِبن قد فاحت روائحه. قلت: «يا أمي! هذه جِبنة ما هي صابونة!» فنظرتْها[2] وقالت: «صدقتَ يا بنيّ! ما ظننتها إلا صابوناً». فتبارك الله أصدق القائلين: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾»[3].

❁ ❁ ❁

الإطالة تجلب المَلالة. والحوادث والطوارئ أكثر من أن تنحصر. والرغبة إلىٰ الله ﷻ في السَّتْر والعافية، فيما بقي من الحياة، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة. فإنه سبحانه أكرم مسؤول وأقرب مأمول.

الحمد لله وحده

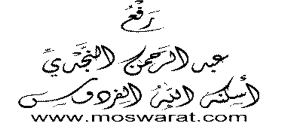
وصلواته علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وسلامه.

---

(١) استعمال درج عليه أسامة في الكتاب.

(٢) نظرت فيها. يكثر هذا الاستعمال أيضاً في الكتاب.

(٣) سورة يس: الآية ٣٦.



[نهاية الملحق]

[في]

[ماحضرته وشاهدته

من الصيد والقنص والجوارح]

[٥٧و] توكلت علىٰ الله تعالىٰ.

ولله مـنـي جـانـب لا أضـيـعـه وللـهـو مني والبَطالة جانب[1]

قـد ذكـرتُ مـن أحـوال الـحـرب ومـا شـاهـدتُـه مـن الـوقَـعـات والمصافّات[2] والأخطار [ما] حضرني ذكرُه، ولم يُنسنيه الزمان ومَرُّه. فإن العمر طال، ولزمتُ الانفراد والاعتزال، والنسيان مُتوارَث مُتقادَم من أبينا آدم عليه السلام.

وأنا ذاكر فصلاً فيما حضرتُه وشاهدتُه من الصيد والقنص والجوارح:

فمن ذلك ما حضرتُه بشيزر في صدر العمر. ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آقْسُنْقُر[3] رحمه الله. ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك[4] رحمه الله. ومن ذلك ما حضرتُه بمصر[5]. ومن ذلك ما حضرتُه مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك زنكي رحمه الله. ومن ذلك ما حضرتُه بديار بكر

---

(١) من شواهد البلاغة في تحقير المسند إليه وتعظيمه. مجهول القائل. ويروىٰ: «والخلاعة جانب».

(٢) المَصفّ: موضع الصف، وموقع القتال، والجمع: مصاف. وشهر استعمال الجمع في موضع المفرد، يكثر ورودها في الكتاب.

(٣) يقصد عماد الدين زنكي، والد نور الدين محمود زنكي الشهيد المدفون في دمشق. انظر نسب الزنكيين في: («زامباور» ص ٣٤٣).

(٤) من ولاة دمشق أيام السَّلجوقيين البوريين. وهو شهاب الدين محمود بن بوري بن طُغدُكين، «وفيات الأعيان» ١/٢٩٦. وانظر: («زامباور» ص ٣٤٠) ففيه خلاف في النسب.

(٥) قضىٰ أسامة في مصر، أيام الفاطميين، تسع سنوات أو تزيد، ارجع إلىٰ مقدمة الكتاب.

مع الأمير فخر الدين قَرا أَرْسْلان بن داود بن أُرتُق[1] رحمه الله.

١

[والد أسامة: نزهته الصيد]

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد رحمه الله؛ وكان مشغوفاً بالصيد لَهِجاً به وبجميع الجوارح، وما يَستكثِر ما يَغرَمُه عليه لفُرْجته. فإنه كان نُزهتَه، فليس له شغلٌ سوىٰ الحرب وجهاد الإفرنج ونسْخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه. وهو رحمه الله صائمُ الدهرَ، مواظب علىٰ تلاوة القرآن. فكان الصيد كما جاء في الخبر: «روِّحوا القلوب تعي[2] الذِكر»[3]. فما رأيت قطُّ مثل صيده وترتيبه.

٢

[ما شهد أسامة من مشاهد الصيد مع عماد الدين زنكي]

أ ـ وقد شاهدتُ صيد ملك الأمراء أتابك زنكي رحمه الله. وكان له الجوارح الكثيرة. فرأيته ونحن نسير علىٰ الأنهار، فيتقدم البازدارية[4] بالبُزاة، ترميها علىٰ طيور الماء؛ وتُدقّ الطبولُ كجاري العادة[5]، فتتصيد[6] منها ما تَصيد، وتُخطئ ما تُخطئ. ووراءهم الشواهين

---

(١) صاحب حصن كيفا في ديار بكر (٤٢٩ ـ ٥٦٢هـ). من الأُرتُقيين أصحاب آمد. («زامباور» ص١٥٤).

(٢) تع: جواب الطلب.

(٣) الذكر الحكيم: القرآن الكريم. ويمكن أن تصرف إلىٰ ذكر الله علىٰ الإجمال. ويروىٰ الخبر بصيغة أخرىٰ: «روّحوا القلوب ساعة وساعة». انظر: «المقاصد الحسنة» ص ٢٣٠.

(٤) البازدار: فارسية (الباز: الطائر + دار: الحافظ والراعي): المتولي أمر البزاة وتدريبها. وأسامة يسميه في الكتاب أيضاً التسمية العربية: البازيار.

(٥) تدق الطبول في حفلات الصيد لإثارة الطيور والحيوان الذي يُبتغىٰ صيده.

(٦) لعلها: تَصيد، لحسن المشاكلة.

الكوهية[1] علىٰ أيدي البازدارية. فإذا اصطادت البُزاة[2] وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية علىٰ الطيور، وقد أبعدتْ دَشْت خِيْز[3]، فتَلحق وتَصيد. وتُرسَل علىٰ الحَجَل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتَصيد. فإنها من سرعة الطيران علىٰ صفة عجيبة.

ب - وشاهدتُه يوماً ونحن في المَغْرقة[4] بظاهر الموصل، نسير في باذنجان[5]، وبين يدي أتابك بازيار علىٰ يده باشق. فطار ذَكَرُ دُرَّاج، فأرسله عليه، فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض فَرَطَ الدُّرّاج من كَفّه وطار. فلَّما ارتفع انتقل البازُ من الأرض، أخذه ونزل وقد ثَبَّته.

ج - ورأيته [٥٧ظ] وهو في صيد الوحش دفَعاتٍ. إذا اجتمعت الحلْقة واجتمع فيها الوحش، لا يقدر أحد يدخل الحلْقة. وإذا خرج من الوحش شيء رمَوه. وكان من أرمىٰ الناس. فكان إذا دنا منه الغزال رماه؛ فنراه كأنه قد عثَر فيَقع ويُذبَحْ. وكان أول غزال يضرِبه في كل صيد أَحضُره، يُنفِذه لي مع غلام من غِلْمانه، وأنا معه.

د - وشاهدته، وقد اجتمعت الحلْقة ونحن في أرض نصيبين علىٰ الهرماس[6]، وقد ضربوا الخيام. فوصل الوحش[7] إلىٰ الخيام. فخرج

---

(١) الشاهين: نوع من الطير شديد الحساسية. والشاهين في اللغة: الميزان. يكثر ورودها في الكتاب. ويعني هنا: الشواهين الجبلية (كوه = جبل بالفارسية).

(٢) البزاة في اللغة جمع «البازي». أما الباز فجمعه «بيزان». أسامة في الكتاب يجمع الباز علىٰ «بزاة»، لا يعدل عن هذا الجمع.

(٣) بعض المفردات الفارسية التي يحفل بها الكتاب: ويعني: قطعت في نهوضها مسافة.

(٤) في ظاهر الموصل كما يقول: ولعلها أن تكون في الأصل، اسم مكان من: الغَرَق.

(٥) كذلك في الأصل. لعله يريد: أرضاً مزروعة بالباذنجان، أو لعل فيها تصحيفاً أو تحريفاً!

(٦) نهر تقع عليه مدينة نصيبين. ونصيبين: من مدن الجزيرة، علىٰ جادة القوافل من الموصل إلىٰ الشام. («معجم البلدان» ٥/ ٢٨٨).

(٧) يريد: ما جاؤوا لصيده من الوحوش.

الغِلمان بالعصيِّ والعَمَد[1]، فضربوا منها شيئاً كثيراً. واجتمع في الحلْقة ذيب[2]، فوثب في وسْطها علىٰ غزال، أخذه وبَركَ عليه، فقُتل وهو عليه.

هـ - وشاهدته يوماً ونحن بسِنْجار[3]، وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: هاهنا ضبْعة نائمة! فسار ونحن معه إلىٰ واد هناك، والضبعة نائمة علىٰ صخرة في سفح الوادي. فترجَّل أتابك ومشىٰ حتىٰ وقف مُقابلَها، وضربها بنشّابة رماها إلىٰ أسفل الوادي. ونزلوا جاؤوا بها إلىٰ بين يديه وهي ميْتة.

و - ورأيته أيضاً بظاهر سنجار وقد جَلَوا[4] أرنباً. فأمر فاستدارت الخيل حولها[5]. وأمر غلاماً خَلْفه [يحمل] الوَشَق[6] كما يُحمل الفهد. فتقدم أرسله علىٰ الأرنب، فدخلت بين قوائم الخيل، وما تمكن منها. وما كنت رأيت الوَشَق قبل ذلك يَصيد.

٣

[بعض مشاهد الصيد في دمشق: مع واليها أيام السلاجقة]

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك[7]،

---

(١) جمع: عمود. ويجمع علىٰ: عُمُد أيضاً: الخشبة الغليظة المستقيمة التي تقوم عليها الخيمة.

(٢) بتسهيل الهمز: ذئب.

(٣) من نواحي الجزيرة، في وسطها نهر جار («معجم البلدان» ٣/ ٢٦٢).

(٤) يعني: أثاروها وأخرجوها من جحرها.

(٥) لفظ «الأرنب» يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ، ويغلب التأنيث عليه (والذكَر: خُزَز).

(٦) حيوان من اللواحم. من فصيلة القط. بين القط والنمر. ذيله قصير. يسكن الغابات. ويصاد لفروه. نقل السامرائي قول «القاموس المحيط» فيه: كلب!

(٧) من ولاة دمشق أيام السَّلجوقيين البوريين. وهو شهاب الدين محمود بن بوري بن طُغدُكين، «وفيات الأعيان» ١/ ٢٩٦. وانظر: («زامباور» ص ٣٤٠) ففيه خلاف في النسب.

للطير والغزلان وحُمُر الوحش[1] واليَحامير[2]. فرأيته يوماً وقد خرجنا إلىٰ شَعْراء بانياس[3]، وفي الأرض عشب عظيم. فتصيَّدْنا كثيراً من اليَحامير. وضُربت الخيام حلْقة ونزلنا. فقام من وسْط الحلْقة يَحمور كان نائماً في العشب، فأُخذ في وسْط الخيام!

ورأيت، ونحن عائدون، رجلاً قد رأىٰ سنجاباً في شجرة. فأعلم به شهابَ الدين، فجاء وقف تحته، ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه، فتركه وسار شبه المغتاظ الذي[4] لم يُصبْه. فرأيت رجلاً من الأتراك جاء رماه فوسَّط النشّابة فيه. فاسترخت يداه وبقي متعلقاً برجليه والنشّابة فيه، حتىٰ هزّوا الشجرة فوقع. ولو كانت تلك النشّابة في ابن آدم كان مات لوقته. فسبحان خالق الخلق!

٤

[بعض مشاهد الصيد في مصر أيام الحافظ]

ورأيت الصيد بمصر[5]. كان للحافظ لدين الله عبد المجيد أبي الميمون[6] رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوارح كثيرة، من البُزاة والصقور والشواهين البحرية.

---

(١) حيوان بري من فصيلة الخيل، لونه مخطط.

(٢) اليحمور: نوع من الوَعْل. ويطلق علىٰ حمار الوحش أيضاً.

(٣) الشعْراء: الروضة يظلها الشجر. وبانياس: بلدة في سورية علىٰ سفح جبل الشيخ. احتلها الإفرنج ٥٢٥هـ = ١١٣٠م واستعادها المسلمون ٥٢٩هـ = ١١٣٤م.

(٤) هذا التعبير ومثله مما يرد في الحديث الدارج، يعني: التعليل للأمر.

(٥) ارجع، في بقاء أسامة بمصر، إلىٰ المقدمة التي قدمنا بها للكتاب. وإلىٰ أولىٰ الفِقَر فيه.

(٦) الخليفة الفاطمي القائم يوم قدم أسامة إلىٰ مصر بين عامي (٥٣٩ ـ ٥٤٩هـ). وقد حضر مقتله (سنة ٥٤٤هـ) واتّهم بالمشاركة في تدبيره، وتولىٰ بعده ابنه الظافر. عد إلىٰ الفِقَر ٥ وما بعدها من الكتاب.

فكان لهم زِمام يخرج بهم في الجمعة يومين، وأكثرهم رَجَّالةٌ علىٰ أيديهم الجوارح. [٥٨و] فكنت أركب يوم خروجهم إلىٰ الصيد لأتفرَّج بنظر صيْدهم. فمضىٰ الزِّمام إلىٰ الحافظ وقال له: «إن الضَّيْف فلاناً يخرج معنا؟» كأنه يستطلع أمره في ذلك. فقال [لي]: «اخرج معه تَفَرَّجْ علىٰ الجوارح».

فخرجنا يوماً، ومع بعض البازيارية بازٌ مُقَرْنَص بيت[1]، أحمرُ العينين. فرأينا كَراكيّ[2]. فقال له الزِّمام: «تقدمْ ارمِ عليها الباز الأحمر العينين!». فتقدم رماه وطارت الكَراكيّ، فلحق منها واحداً علىٰ بُعْدٍ مِنَّا فحَطَّه. فقلت لغلام لي علىٰ حصان جيد: «ادفع الحصان إليه، وانزلْ اغرِزْ منقار الكُركيّ في الأرض، واكتِفْه، واتركْ رجليه تحت رجليك إلىٰ أن نَصِلك». فمضىٰ وعمل ما قلت له، ووصل البازيار ذَبح الكُرْكي وأشبع الباز.

فلما دخل الزِّمام حدَّث الحافظ بما جرىٰ وما قلته للغلام، وقال: «يا مولانا! حديثه حديث صياد» قال: «وأي شيء شُغْل هذا إلا القتال والصيد؟».

وكان معهم صقور يرسلونها علىٰ البلاشين[3] وهي طائرة. فإذا رأىٰ البلشون الصقرَ دار وارتفع، والصقر يدور في جانب آخر حتىٰ يرتفع علىٰ البلشون، ثم ينقلب عليه يأخذه.

---

(١) القرنصة: سقوط الريش في بعض الجوارح، وتُحبس حينذاك دون صيد في البيوت المحكمة، انتظاراً لنبت الريش من جديد، وهذا معنىٰ: مقرنص بيت.

(٢) الكُرْكي: طائر كبير طويل الساق والعنق، أبتر الذنَب، يأوي إلىٰ الماء. والجمع: كَراكي.

(٣) البلشون (والجمع: البلاشين): مالك الحزين من الطيور.

وفي تلك البلاد طيور يسمونها: البُجّ، مثل النُّحام[1]، يصيدونها أيضاً. وطيور الماء في مَقْطَعات النيل[2] سهلة الصيد. والغزال عندهم قليل، بل في تلك البلاد بقر بني إسرائيل[3]، وهي بقر صُفْر، قرونها مثل قرون البقر. وهي أصغر من البقر، تعدو عَدْواً عظيماً. وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغار[4]. وهي جرداء مثل الجاموس، لها أنياب طوال في فكّها الأسفل. وفي فكها الأعلىٰ خُروق[5] لأنيابها. تُخرج رؤوسها من تحت عينيها. وصياحها مثل صياح الخِنزير. ولا تبرح في بِرْكة فيها ماء. وتأكل الخبز والحشيش والشعير.

٥

[مع الأمير معين الدين أُنُر: باز نادر لم يحتمل الغربة]

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين[6] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ عكا، إلىٰ عند ملك الإفرنج فُلْك بن فُلْك[7]. فرأينا رجلاً من الجَنويّة[8] قد وصل من بلاد الإفرنج، ومعه باز كبير مُقَرْنَص، يصيد الكُرْكيّ. ومعه كلْبة صغيرة

---

(١) جمعٌ لنُحامة: طير من طيور الماء علىٰ مثال الإوزّة، رقبته طويلة، ومنقاره معقوف، ورجلاه طويلتان، لونه أبيض ويتورَّد حين يكبر، وأطراف جناحيه سود. يقطن المناطق الحارة والمعتدلة. اسمه في مصر اليوم: البَشَروش. قرأها السامرائي: النَحَّام، وهو البخيل.

(٢) المواضع التي يُقطع فيها النيل (اسم مكان من: قطع بمعنىٰ: اجتاز).

(٣) عد إلىٰ القرآن الكريم: سورة البقرة: الآيات ٦٧ ـ ٧١.

(٤) صغيرتان، علىٰ الدارجة.   (٥) جمع: خَرْق.

(٦) أُنُر: والي دمشق للأتابكة البوريين وصديق أسامة. يرد ذكره كثيراً في الكتاب، (ت ٥٤٤هـ). وانظر: (المقدمة، و«زامباور» ص ٣٤٠).

(٧) FULK V توّج ملكاً علىٰ بيت المقدس سنة ٥٢٦هـ، وكان أسامة يعرفه.

(٨) من جنوَة في إيطالية. من جند الإفرنج الصليبيين يومذاك.

إذا أرسل الباز على الكَراكي عَدَتْ تحته. فإذا أخذ الكُرْكي وحَطّه عضتْه الكلبة فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجَنَوي: إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكُرْكي. فعدَدْنا ذنَب ذلك الباز فكان كذلك!

فطلبه الأمير معين الدين رحمه الله من المَلِك، فأخذه من ذلك الجَنَوي، هو والكلبة، وأعطاه للأمير معين الدين. فجاء [٥٨ظ] معنا. فرأيته في الطريق يَثب إلى الغِزْلان كما يثب إلى اللَّحم. ووصلْنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها، ولا صاد شيئاً، ومات.

٦
[بعض مشاهد الصيد في حصن كيفا]

وشاهدت الصيد في حصن كَيْفا مع الأمير فخر الدين قَرا أَرْسْلان بن داود[١] رحمه الله. وهناك الحَجَل[٢] والزَّرْخ[٣] كثير، والدُّراج. فأما طير الماء فهو في الشَّط. وهو واسع ما يتمكن الباز منها. وأكثر صيدهم الأَراويّ[٤] ومِعْزى الجَبَل، يعملون لها شِباكاً ويَمدّونها في الأودية، ويطردون الأراويّ، فتقع في تلك الشباك. وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيَّد، وكذلك الأرانب.

---

(١) من الأُرتُقيين الأتابكة. والي حصن كيفا ٥٣٩هـ. وهو ابن ركن الدولة داود بن سُقمان. انظر: («زامباور» ص ٣٤٤).

(٢) الحَجَلة: طائر وديع في حجم الحمام. منقاره أحمر، ورجلاه أيضاً. طيب اللحم.

(٣) هو الطَّيْهوج (معرب في الأغلب) طائر يشبه القطاة والحجل الصغير، وهو في العربية ذكَر السُّلْكان (جمع: سُلَكة: فرخ القطاة والحَجَل) وردت تسميته في حاشية المخطوط الأصل.

(٤) الأُرويّة: أنثى الوعل، وتسمى باسم الجمع أيضاً، وكثيرها: أروى.

٧

[مشاهد صيد في أرض حماة وحلب مع نور الدين الشهيد]

أ ـ وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فحضرْتُه ونحن بأرض حماة، وقد جَلَوا له أرنباً. فضربها بنشّابة كشماء[٢]. وقامت وسبقت إلىٰ مَجْحَر دخلَتْه، فركضْنا خلفها. ووقف عليها نور الدين. وناولني الشريف السيد بهاء الدين[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِجْلَها، قد قطعتْها النشّابة، من فوق العُرْقوب[٤]. وشقت جوفَها قُرنة النَّصْلة، فوقع منها بيتُ الولد[٥]. وسبقتْ بعد هذا وانجَحَرت. فأمر نور الدين بعض الوشاقية[٦]: نزل، وقلع خِفافه[٧]، ودخل خلْفَها، فما وصل إليها. وقلت للذي معه بيت الأولاد وفيه خِرْنِقان[٨]: «شُقَّهُ! واطمرهم[٩] بالتراب. ففعل، فتحركوا وعاشوا».

ب ـ وحضرْتُه يوماً وقد أرسل كلْبة علىٰ ثعلب، ونحن علىٰ قَرا حصار[١٠]، بأرض حلب. فركض خلْفَه وأنا معه. فلحقتْ الكلبة.

---

(١) الشهيد: ابن أتابك عماد الدين زَنكي. صلة أسامة به وبأبيه وثيقة، ذكره شائع في الكتاب. وانظر في نسب الزنكيين: («زامباور» ص ٣٤١).

(٢) الكشم: الصَّلم والقطع، والمراد هنا: نشابة غير مَريشة (لا ريش لها).

(٣) من رجال العصر، له نسبه، علىٰ ما يبدو بآل البيت، وله صلة بالملك العادل نور الدين.

(٤) وتر غليظ فوق العَقِب، والجمع: عراقيب.

(٥) الرَّحم عند الأنثىٰ.

(٦) هم (الأوجاقية: أوجاق) حملة المشاعل (تركية).

(٧) يقصد: الخفين من القدمين.

(٨) الخِرنِق: ولد الأرنب.

(٩) علىٰ الدارجة، والمقصود: الخِرْنِقَين، وجاءت الأفعال بعدها كلها لجمع العاقل.

(١٠) مرج كبير شمالي حلب، ويقع الاسم علىٰ أماكن ومدن أخرىٰ، يقع غالبها اليوم في تركية. («معجم البلدان» ٤/ ٣١٥).

أخذتْ ذنب الثعلب، فرجع إليها برأسه، فعضّ خَيْشومها[١]. فصارت الكلبة تعوي ونور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يضحك. ثم خلّاها[٢] وانْجَحر، فما قدِرنا عليه.

ج ـ وجاءه يوماً، ونحن رُكّاب تحت قلعة حلب، من شماليّ البلد، بازٍ. فقال لنجم الدين أبي طالب بن علي كرد[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قل لفلان، يَعنيني، يأخذ هذا الباز يلعب به!» فقال لي. فقلت: «ما أَحسن[٤] له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون، ما تُحسن تُصلح البازِ؟» قلت: «يا مولاي! ما كنا نُصلحها نحن، كان لنا بازياريّة[٥] وغِلْمان يصلحونها ويتصيَّدون بها قُدَّامَنا». وما أخذتُ الباز.

٨

[مشاهد الصيد وآلاته ومواضعه في شيزر، وتهيئة البزاة]

شاهدتُ من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئاً كثيراً، ما اتسع لي الوقت لذكره مفصلاً. وكانوا قادرين علىٰ ما يحاولونه من صيدٍ وآلته وغيره. وما رأيت مثل صيد والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فما أدري: كنت أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحبوب محبوب»[٦]؟ ما أدري: أكان نظري فيه علىٰ التحقيق؟ وأنا أذكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه.

وذلك أن والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قد فرَغ زمانَه [٥٩و] لتلاوة القرآن والصيام

---

(١) الخيشوم: الأنف. أو أقصىٰ الأنف. (٢) يقصد: الثعلب.

(٣) كان أبوه (علم الدين علي كرد) صاحب حماة زمناً في القرن السادس الهجري.

(٤) ما تزال في دارجة الشام اليوم تعني: ما أستطيع. والصحيح: أُحسن.

(٥) مثل البازدارية: حفّاظ البزاة ومدربوها. والمفرد: بازيار وترد في الكتاب كثيراً.

(٦) عجز بيت لمهيار الديلمي. وصدره:

«أرضىٰ وأسخط أو أرضىٰ تلوّنه»

«ديوان مهيار ١/ ٢٤».

والصيد في نهاره، وفي الليل بنسخ كتاب الله تعالىٰ. فكان قد نسخ ستاً وأربعين خِتمةً بخطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. منها خِتمتان بالذهب، جميعَ القرآن. ويركب إلىٰ الصيد يوماً ويستريح يوماً، وهو صائم الدهر.

ولنا بشيزر متصيَّدان: متصيد للحَجَل والأرانب في الجبل قِبْليَّ البلد. ومتصيَّد لطير الماء والدُّراج والأرانب والغِزْلان علىٰ النهر في الأزوار[(١)]، من غربيِّ البلد. وكان يتكلّف في تسيير قوم من أصحابه إلىٰ البلاد لشَرْي البزاة. حتىٰ إنه أنفذ إلىٰ القسطنطينية أُحضِر[(٢)] له منها بزاة. وحمَّلوا الغلمان معهم من الحَمام، ما ظنّوا أنه يكفي البزاة التي معهم. فتغيّر عليهم البحر وتعوَّقوا حتىٰ فرَغ ما معهم من طُعْم[(٣)] البزاة، فاضطُرّوا إلىٰ أن صاروا يُطعمون البزاة لحم السَّمَك. فأثّر ذلك في أجنحتها: صار ريشها ينكسر ويَنقصِف. فلما وصلوا بها إلىٰ شيزر كان فيها بُزاة نادرة. وفي خِدمة الوالد بازيار طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها، يقال له: غنائم. فوصل أجنحتَها واصطاد بها، وقرنَص[(٤)] بعضُها عنده.

وكان أكثرَ ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الأحمر بالعَلاة[(٥)]. فأَحضَر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل

---

(١) الغياض. وتكون علىٰ أطراف النهر. ما تزال مستعملة إلىٰ اليوم في حماة ويقصدون بها كل أرض مزروعة.

(٢) لعلّ الأولىٰ أن تكون سقطت من الفعل واو الجماعة: «أنفذ إلىٰ القسطنطينية أحضروا له منها بزاة». أو يعود فاعل الفعل «أَحضر» إلىٰ «القَوم» أو يُبنىٰ الفعل للمجهول: «أُحضِر» علىٰ نحو ما اخترنا في قراءة النص هنا.

(٣) الطُّعْم في اللغة: الطعام.

(٤) يكثر المصطلح في الكتاب. ويعني: سقوط ريش البازي وطلوعه من بعد مرَّت من قبل.

(٥) في شمالي حماة. مرتفعات معروفة إلىٰ اليوم، يردد أسامة ذكرها في الكتاب.

بشيلا بسمالخ وحلة عارا[1] وتحدث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة، ووهبهم وكساهم. فمضَوا وعملوا بيوت الصيد. فاصطادوا بزاة كثيرة، فراخاً ومُقَرْنَصة وزَرارِق[2]. فحملوها إلىٰ الوالد وقالوا: «يا مولانا! نحن قد بَطَّلنا[3] معايشَنا وزراعتَنا في خدمتك. ونشتهي أن تأخذ مِنَّا كلَّ ما نصيده وتقرر لنا ثمناً نعرفه لا نُجاذِب فيه[4]». فقرر ثمن الباز الفَرْخ: خمسة عشر ديناراً، وثمن الزُرَّق الفرخ: نصفها، وثمن الباز المُقَرْنص: عشرة دنانير، وثمن الزُّرَّق المُقَرْنَص: نصفها. وانفتح للجبليين أَخْذُ دنانير بغير كُلْفة ولا تعب. إنما يعمل له بيتاً بحجارة علىٰ قدر خِلْقته[5]، ويُغطيّه بعيدانٍ ويسترها بقَشّ وحشيش، ويجعل نافذة. ويأخذ طير حَمام يجمع رجليه علىٰ قضيب، ويشدّها إليه، ويُخرجه من تلك النافذة. ويُحَرِّك العود فيتحرك الطير ويَفتح أجنحتَه. فيراه الباز يَنقلبُ عليه يأخذه[6]. فإذا أحسّ به

---

(١) واضح أنها أسماء قرىٰ كانت معروفة يومذاك «في الجبل القريب من شيزر» كما يقول، ولهذا اخترنا أن نترك أسماءها الواردة في الكتاب، دون ضبط، وهذه ومثلها تحتاج إلىٰ تحقيق تاريخي جغرافي علىٰ الأرض، وتكوين خريطة تاريخية مفصلة محققة للمنطقة، ونلاحظ أن صيغ أسماء بعض القرىٰ آرامية قديمة. علىٰ أن حلّة عارا ما تزال قرية معروفة في جبال اللاذقية، في أعالي السفوح الغربية، تابعة لقضاء جبْلة علىٰ بُعد ١٢كم منها، وكذلك بشيلي. وما يزال في بقية الكلام غموض.

(٢) الزُّرَّق: طائر يصيد البازي. ويجمع علىٰ زراريق، علىٰ غير ما في الكتاب من الدارجة.

(٣) بَطَّل العامل: قطعه عن العمل فهو متبطِّل. والمراد هنا: انقطاع موارد الرزق.

(٤) يعني: المفاصلة.

(٥) يقصد: حجم الطائر المَصيد من البزاة والزراريق. والضمير في «يعمل» يعود علىٰ العامل من أهل الجبل.

(٦) يلاحظ تتابع الأفعال بغير روابط، علىٰ نحو ما تكون عليه الحال في الأحاديث.

الصيّاد جذب القضيب إلىٰ النافذة، ومدَّ يده قبض رِجْلَي الباز، وهو[1] قابضٌ للطير[2] الحَمام، وأنزله إليه وخَيَّط عينيه[3]. ويُصبح[4] من الغد يَصِلُنا به[5]، يأخذ ثمنه ويعود إلىٰ بيته بعد يومين!

فكثُر الصيادون، وكثُرت البزاة، حتىٰ صارت عندنا مثل الدَّجاج: فيها ما يُتَصَيَّد به، وفيها ما يموت علىٰ الكَنادر[6] من كثرتها.

٩

[إصلاح البزاة وترتيب ساعات الصيد وأنواعه]

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقّارون وكِلابزيّة[7]. وعلَّمَ قوماً من مماليكه إصلاح البزاة فَمَهَروا فيها. وكان [٥٩ظ] يخرج إلىٰ الصيد ونحن أولاده معه، في أربعة رجال، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا، فإنّا ما كنّا نأمن من الفرنج لقربهم منا. ويخرج معنا بزاة كثيرة من العَشَرة وما حولها. ومعه صقّاران وفهّادان وكِلابزيّان: مع أحدهما كِلاب سَلوقية[8]، ومع الآخر كِلاب زَغاويّة[9]. فيوم خروجه إلىٰ الجبل لصيد الحَجَل، وهو بعيد من الجبل، يقول لنا، إذا خرج إلىٰ طريق الجبل: «تفرّقوا كلُّ من عليه قراءة يقرؤها، ونحن أولاده حفّاظ القرآن. فنفترق

---

(١) أي: الباز. (٢) قابض عليه.

(٣) سترهما بقطعة جلد أو قماش. يهيئه للصيد.

(٤) يقصد: الجبلي الذي ورد ذكره من قبل.

(٥) يريد: يحمله إلينا في شيزر.

(٦) مجاثم البزاة، تصنع من الخشب ونحوه (المفرد في اللغة: كُنْدُرة). يعني: أن البزاة كانت تموت في مواضعها.

(٧) أرادها جمعاً لكِلا بزي (مدرب الكلاب والمعتني بها. ووردت في اللغة: كلَّاب) وكذلك الصقَّار والبازيار (للصقور والبزاة).

(٨) سَلوق: قرية في اليمن، تنسب إليها الدروع الجيدة والكلاب الجياد.

(٩) كلاب منسوبة إلىٰ زغاوة في السودان، يتردد ذكرها في الكتاب.

نقرأ حتىٰ يصير إلىٰ مكان الصيد، يأمر من يستدعينا، فيسألنا: «كم قرأ كل واحد مِنَّا؟». فإذا أخبرناه يقول: «أنا قرأت مائة آية أو نحوها». وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ القرآن كما أُنزل.

فإذا صرنا في المُتَصيَّد أمر الغلمان، فيتفرق بعضهم مع البازيارية، فكيف طارت الحَجَل[1] كان في ذلك الجانب بازٌ يُرسَل عليها، ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبرَ الناس بالصيد. فلا يكاد يطير طيرٌ ولا يثور أرنبٌ ولا غزال إلا اصطَدْناه. وننتهي في الجبل نَصيد إلىٰ العصر، ثم نعود وقد أشبعنا البُزاة وطرحناها علىٰ القُلوت[2] في الجبل، شربتْ واستحمَّتْ. ونعود إلىٰ البلد بعد عَتَمة.

فإذا ركبنا إلىٰ طير الماء والدُّرّاج كان ذلك يومَ فُرْجتنا. نقع في الصيد من باب المدينة، ثم نصل إلىٰ الأزوار[3]، فتقف الفهود والصقور بَرّا[4] من الزَّور، وندخل إليه بالبُزاة. فإن طارت دُرّاجة أخذها الباز. وإن قفزت أرنبٌ أرسلنا عليها بعض البُزاة: فإن أخذها وإلا خرجت إلىٰ الفهود، أُرسلوا عليها. وإن قفز غزالٌ خرج إلىٰ الفهود، أُرسلوا عليه. فإن أُخذ وإلا أَرسلوا عليه الصُّقور، فما يكاد يُفلِتُ منا صيدٌ إلا بفُسْحة الأَجَل.

وفي الأزوار خنازيرُ كثيرة تخرج، فنركض عليها ونقتلها، فيكون فرحنا بقتلها أكثرَ من فرْحة الصيد.

---

(١) أراد (الحجلة)؛ ولهذا أنّث الفعل.

(٢) القُلْت: النقرة في الصخر، يجتمع فيها الماء.

(٣) الزَّور: الأجمة أو البستان، أو الأرض المزروعة. والجمع: أزوار، ما تزال إلىٰ اليوم ترد في حديث الناس، في حماة.

(٤) بمعنىٰ: خارج. يكثر أسامة في استعمالها في الكتاب. وفي «المعجم»: البرّاني: الخارجي والظاهر عكس: الجَوّاني.

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرْب والأمر المهم: لا يشتغل أحد بحديث مع صاحبه، ولا لهم همٌّ إلا التَّبَحُّر في الأرض لنظر الأرانب أو الطير في أوكارها.

١٠

[ترتيب مصادر البزاة وأساليب رعايتها في شيزر]

وكان قد صار بينه وبين بني روبال ـ تروس ولاون[(١)] الأرمن، من أصحاب المَصّيصَة[(٢)] وأنطرطوس[(٣)] وأَذَنة[(٤)] والدروب[(٥)] ـ مصادقة ومُكاتبة أكبر سببها رغبتُه في البُزاة. فكانوا يُنفِذون له كلَّ سنة عِدَّةً من عشَرة بُزاة، أو ما حولها، علىٰ أيدي رَجّالةٍ أَرْمن بازياريّة، ويُنفذون الكلاب الزَّغاويَّة[(٦)]. وينفذ لهم هو الحُصُنَ والطِّيبَ، ومن كِسْوة مصر[(٧)]. فكان يجيئنا من عندهم بُزاة مِلاح نادرة، فاجتمع [٦٠و] عندنا،

---

(١) يريد روبن الأول أمير كيليكية (Rupenid Thoros I)، ولاون أو ابن لاون عند مؤرخينا هو ليون Léon من الأرمن.

(٢) بين أنطاكية وديار الروم، تقرب من طرسوس. وكانت يومذاك في يد ابن ليون («معجم البلدان» ٥/ ١٤٤)، وتعد ثغراً من ثغور الإسلام.

(٣) هي طرسوس اليوم. («معجم البلدان» ١/ ٢٧٠).

(٤) هي (أضنة) أو أدنة اليوم، قريبة من المَصّيصة، كانت تعد أيضاً ثغراً من ثغور الإسلام. ونهرها: سيحان. («معجم البلدان» ١/ ١٣٢).

(٥) تطلق علىٰ الطرق التي تقود إلىٰ بلاد الروم من طرسوس. وردت في شعر كثير من شعراء العصر. («معجم البلدان»: الدرب ٢/ ٤٤٧). وفي «تاج العروس»: أدرب القوم: دخلوا أرض العدو من بلاد الروم.

(٦) ترد في الكتاب كثيراً. يريد الكلاب المنسوبة إلىٰ (زغاوة) في السودان. وردت منذ قريب.

(٧) لعله يريد قطعاً من كسوة الكعبة التي كانت مصر ترسلها سنوياً (المحمل)، قبل أن تتولىٰ السلطة السعودية أمرها، ويتهادىٰ الناس قِطعاً من الكسوات المستبدّلات.

في بعض السنين، بُزاة قد جاءت من الدروب، فيها بازٌ فرخٌ مثل العُقاب وبُزاةٌ دونَه.

وجاءنا من الجبل عدة بُزاةٍ فيها بازٌ كأنه صقر عريض فرخٌ، ما يلحق بتلك البزاة، والبازيار غنائم يقول: «ما في هذه البزاة كلها مثلُ هذا الباز اليَحشور[1]. ما يترك شيئاً إلا يَصيده». ونحن لا نصدِّقه. ثم أصلح ذلك الباز فكان كما ظَنَّ فيه من أفره البزاة وأطْيَرها وأشطرها. وقَرْنَصَ عندنا، وخرج من القِرْناص أجودَ مما كان. وعُمِّر ذلك الباز وقَرْنَصَ عندنا ثلاثَ عشْرة سنةً. فكان قد صار كأنه من أهل البيت يصطاد للخدمة، لا لما جرت به عادة الجوارح: أن يصيدوا لنفوسهم.

وكان مُقامه عند الوالد رَحِمَهُ اللهُ لا يتركه عند البازيار، لأن البازيار إنما يحمل الباز في الليل، ويجوّعه حتىٰ يَصطاد به. وذلك الباز كان يَكفي من نفسه، ويَعمل ما يُراد منه. فكنا نخرج إلىٰ صيد الحَجَل[2] ومعنا عِدّة بُزاةٍ؛ فيدفعه الوالد إلىٰ بعض البازيارية ويقول: «اعتزلْ به ولا تُرسلْه بالجملة». وتَسَتَّرَ[3] في الجبل، فكلما أبصروا حجلةً لابِدَةً في شجرة قد أعلموه بها يقول: «هاتوا اليحشور»! ساعةً يقيم يده له، قد طار من علىٰ يد البازيار وقع علىٰ يده بغير دَعْوٍ[4]. ثم يستشرف برأسه ورقبته، فيقف علىٰ الحَجَلة النائمة ويَرميها بقضيب في يده، فتطير ويُرسِل عليها اليَحشور فيأخذُها في عشَرة أذرع[5]. وينزل إليه البازيار

---

(١) لعله وزن يدل علىٰ التشدد في «حشر الصيد» وكذلك ما يأتي في اللغة علىٰ وزن (يفعول).. يرد الاسم كثيراً في الكتاب (انظر بعد).

(٢) الحَجَل: طير في حجم الحمام، أحمر المنقار والرجلين. طيب اللحم. الواحدة: حَجَلَة.

(٣) يعني: والده.

(٤) الدعاء، ومثله الدعوىٰ: مصدر الفعل (دعا).

(٥) الذراع: مؤنثة (وقد تذكَّر كما وردت في الكتاب). هي هنا مقياس للطول: =

يذبح في رِجْله[1] ويَرفعه. فيقول: «اعتزل به». فإذا رأوا حَجَلة أخرىٰ لابِدَّةً عَمِلَ بها ذلك، حتىٰ يَصِيد خمس ستَّ حَجَلات، كذا يأخذها في عشَرة أذرع. ثم يقول للبازيار: «أَشبعْه!» فيقول له: «يا مولاي! ما تَدَعُه نتصيَّدُ به؟» يقول: «يا بني! معنا عشَرة بُزاة نتصيَّد بها، وهذا قد أصاد[2]، هذه الأطلاق[3] تقطع عمره» فيُشبعه ويعتزلُ به البازيار[4].

فإذا أنهينا[5] من الصَّيْد وأشبَعْنا البزاة، وحطَطْناها علىٰ الماء، شربت واستحمتْ، واليَحشور علىٰ يد البازيار. فإذا استقبلْنا البلد راجعين، ونحن في الجبل، قال: «هات اليحشور»، حَمَلَه علىٰ يده وسار. فإن طارتْ حَجَلة من بين يديه أُرسل عليها صادَها، حتىٰ يَصِيد عشَرة أطْلاق أو أكثر، علىٰ قَدْر ما يطير له من الحَجَل، وهو شبعان لا يحط مَنْسِره في مذبح حَجَلةٍ ولا يذوق دمها. فإذا دخلنا إلىٰ الدار قال: «هاتوا طاسة ماءٍ» فجاؤوا بطاسةٍ فيها ماء، قدّمها إليه وهو علىٰ يده رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيشرب [٦٠ظ] منها. وإن كان يريد يَستحم خَضْخَضَ مَنْسِرَه في الماء، فيدري أنه يريد يَستحم؛ فيأمر بإحضار جَفْنةٍ كبيرة فيها ماء ويقدّمه إليها. فيطير ينزل في وسْطها، ويَدِفّ[6] في الماء حتىٰ يكتفيَ من السباحة، ثم يطلُع. فيحطه علىٰ قُفّاز[7] خشب، قد عُمل له، كبيرٍ، ويُقرّب منه مِنْقَل نارٍ

= قدر ٦٤ سنتيمتراً (والجمع: أذرُع).

(١) يعني فيما يبدو: يذبح ما يصيده وهو معلّق في رِجل اليحشور لا يفلته. ولعلها: «يذبحها» يعني: الحَجَلة.

(٢) صاد، ويرد استعمالها في الكتاب علىٰ هذا النحو. وفي اللغة: أصاد الرجلَ: أغراه بالصيد.

(٣) الطَّلَق: الشوط من السباق. والجمع أطلاق.

(٤) جعل الفاعل للفعلين معاً. والأصل أن يقول: فيشبعه البازيار ويعتزل به.

(٥) جعلها بمعنىٰ (انتهينا). ولعل التحريف دخلها.

(٦) دفّ الطائر دفاً ودفيفاً: حرك جناحيه.

(٧) لعله يريد قُفّازاً من خشب يحميه ويبيت فيه.

فيتمشّق[١] ويتدهّن حتىٰ يَنشَف من الماء. ثم يوضع له فرْوٌ مَطويٌّ فينزل إليه ينام عليه. فلا يزال بيننا علىٰ ذلك الفرو نائماً حتىٰ يتهوَّر[٢] الليل. ويريد الوالد يَدخل إلىٰ دار الحَرَم فيقول لأحدنا: «احمله!» فيُحمل كما هو نائم علىٰ الفرْو حتىٰ يَحطّ إلىٰ جانب فراش الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ.

١١

[عجائب أحد البزاة: اليحشور]

وكان من عجائب هذا الباز، وعجائبه كثيرة، وأنا أذكر منها ما يَحضُرني ذكره. فإن الأمد قد طال، وأنستني السنون كثيراً من أحواله. إن[٣] كان في دار الوالد حمامٌ وطيور ماءٍ خُضْرٌ وإناثُها، وبيضانيات[٤] من التي تكون بين البقر لتلقط الذِّبّان[٥] من الدار. وكان يدخل الوالد وهذا الباز علىٰ يده، يجلس علىٰ دَكَّةٍ[٦] في الدار، والباز علىٰ قُفّاز إلىٰ جانبه، فلا يطلب شيئاً من تلك الطيور ولا يثب إليها، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها.

وكانت المياه تكثُر في ظاهر شيزر في الشتاء، فيصير بَرّا[٧] من سورها نُقاع كبئار[٨] ماء وفيها الطيور. فيأمر الوالد البازيار وغلاماً معه

---

(١) يريد: يمد جسمه ويتطاول. والمَشْق: هو الطول مع الرقة.

(٢) يريد: تقدم الليل إلىٰ نهايته، والتهور: التهدم.

(٣) لعلها: إنه.

(٤) نوع من الطير. والمفرد: بيضاني.

(٥) تجمع الذبابة علىٰ أذِبّة وذِبّان. والذُّباب: اسم جنس.

(٦) هي المِصْطَبة التي تُبنىٰ للجلوس عليها. الجمع: دِكاك.

(٧) ترد علىٰ هذه الصورة في الكتاب، في موضع (خارج)، نسبة إلىٰ (البَرّ). ومنها البرّاني (علىٰ غير قياس) وجعلها حِتّي: (برّاً)!

(٨) النُّقاع: الإناء تُنقع فيه الأشياء. وتجمع البئر علىٰ آبار: وأبآر، وأبؤر، وبئار، والأخيرة هي المقصودة هنا. أوردها حِتّي مصوّرة كما قرأها في الأصل. وجعلها السامرائي: «كبار»!

[أن][1] يخرجا إلىٰ قريب من تلك الطيور. ويأخذ اليَحشور علىٰ يده ويقف به علىٰ الحصن يريه الطيور، وهو شرقيَّ البلد والطيور غربيَّها، فإذا أبصرها أرسله، فينزل يُسفُّ[2] علىٰ البلد حتىٰ يخرج منه وينتهيَ إلىٰ الطيور، فيدقّ له البازيار الطبل، فتطير الطيور، فيصيد منها، وبينها وبين موضعٍ أُرسل[3] منه مسافةٌ بعيدة.

وكنا نخرج إلىٰ صيد طير الماء والدُّرّاج ونرجع بعد عَتَمةٍ، نسمع صوت طيورٍ في خُلْجان كبار، بالقرب من البلد. فيقول الوالد: «هات اليحشور!» فيأخذه وهو شبعان، ويتقدم إلىٰ الطيور يدق الطبل حتىٰ تطير الطيور، ثم يرميه عليها. فإن أصاد[4] وقع بيننا، نزل إليه البازيار ذبح في رجله[5] ورفعه. وإن لم يَصِدْ وقع علىٰ بعض أكناف[6] النهر، فما نراه ولا ندري أين وقع، فَنُخَلِّيه وندخل إلىٰ البلد، ويصبح البازيار من سَحَرٍ، يخرج إليه يأخذه ويطلعُ به إلىٰ الحصن، إلىٰ عند الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويقول له: «يا مولاي! قد صقَلَ هذا الصقيع قفاه طول الليل، وقد أصبح يَقُطُّ البولاد[7]، فاركب أبصِرْ أَيْش[8] يعمل اليوم؟».

---

(١) لا بد من إضافتها حتىٰ يستقيم الكلام بالفعل المنصوب (يخرجا). وعزف حِتّي والسامرائي كلاهما عن إضافتها!

(٢) أسفّ الطير: دنا من الأرض وهو يطير.

(٣) جاءت بهذه الصيغة. فلهذا اخترنا أن نقرأها: «موضعٍ» بالتنكير.

(٤) ترد في الكتاب علىٰ هذا النحو في موضع صاد. ولا بد أن تكون في دارجة تلك الأيام. وليست في دارجة اليوم.

(٥) ذبح الطير قبل أن يفلته الباز من رجله.

(٦) قرأها السامرائي: «أكهاف» ورأىٰ أنها قد تكون مصحفة من (أكتاف)! والكَنَف: الجانب والناحية، وهي الصحيحة.

(٧) قطّ: قطع عرضاً. والبولاد: هو في دارجة أهل الشام الفولاذ: الحديد النقي.

(٨) من أي شيء. وردت في كتب التراث.

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السُّمَانَة[1] إلىٰ الوَزّ السَّمَند[2] والأرنب. وكان البازيار يشتهي أن يَصيد به الكَراكي [٦١و] والحَرْجَل[3]. ما يتركه الوالد ويقول: «الحَرْجَل والكَراكي تَصيدها بالصقور». وكان هذا الباز قد قصّر عما نعهده من صيده سنةً من السنين، حتىٰ إنه كان إذا أُرسل وأَخطأ لا يجيء إلىٰ الدَّعْو[4] وهو عاجز، ولا يستحمّ ولا ندري ما به! ثم صلَح[5] عما كان من تقصيره وصاد. واستحمّ يوماً، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرّق ريشه بالبلل عن جانبه. وإذا في جانبه سَلْعَة[6] في قَدِّ اللوزة. فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال: «يا مولاي! هذه التي قَصَّرت بالباز، وكادت تُهلكه». ثم مسك[7] البازَ وعصرها، خرجت مثلُ اللوزة يابسةً، وخَتَم[8] موضعُها. وعاد اليحشور إلىٰ الطيور بالسيف والنِّطْع![9].

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا[10] صاحبُ حماة، في ذلك الوقت، يُنفذ كل سنة يطلب الباز اليحشور، يَمضي إليه مع البازيار، يُقيم

---

(١) السُّمانىٰ: نوع من الطير، من الفصيلة الطَّيْهوجيّة، ومن رتبة الدَّجاجيات. واحدته سُماناة. والجمع: سُمانيَات.
(٢) الوَزّ: الإوزّ: وليس في المعاجم: «السَّمَند». إلا أن يعني لون الفَرس الغبراء ـ من الفارسية ـ فيكون هو الوز الأغبر، بلون الأرض.
(٣) طير يقرب من الباز. في المعاجم: حَرْجَلَ: عدا يَمنة ويَسرة.
(٤) مصدر (دعا). مثل الدعاء والدعوىٰ.
(٥) لعله أرادها بمعنىٰ: «رجع» عن تقصيره، أو «عوّض» عنه.
(٦) الشَّجّة علىٰ أي صورة كانت. وأصل السَّلْع: الشَّق والصدع.
(٧) مسك مثل أمسك. وتشيع الأولىٰ في أحاديث أهل الشام إلىٰ اليوم.
(٨) التأم: تأتي هكذا في دارجة أهل الشام.
(٩) بساط من جلد يقتل فوقه المحكوم بالقتل. يريد هنا المجاز!
(١٠) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة، من التُّرْكُمان (ت٥١٧هـ). ورد ذكره في الكتاب غير مرة. انظر: («الكامل» لابن الأثير ١٠/٦١٨).

عنده عشرين يوماً يتصيَّد به. ويأخذه البازيار ويعود. فمات الباز بشيزر.

واتفق أنني كنت قد زُرتُ شهاب الدين إلىٰ حماة. وأصبحتُ يوماً وأنا بحماة وقد حضر القُرّاء والمكبِّرون وخلْق عظيم من أهل البلد. فسألت: «من قد مات؟» قالوا: «بنتٌ لشهاب الدين». فأردت الخروج خلْف الجِنَازة فماحَكَني[1] شهاب الدين ومنعني. وخرجوا قَبَرُوا المَيْت في تل صَفْرون[2]. فلما عادوا قال لي شهاب الدين: «تدري من هو المَيْت؟ قلت: قالوا: ولدٌ لك!» قال: «لا والله! بل هو الباز اليحشور. سمعتُ أنه قد مات، أنفذتُ أخذتُه وعمِلت له تابوتاً وجِنازةً وقَبَرْته، فإنه كان يستحق ذلك»!

١٢

[فهدة نادرة من فهود الصيد في شيزر]

وكان للوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهْدة في الفهود، مثل اليَحْشور[3] في البزاة، اصطادوها وهي وحْشيّة[4]، من أكبر ما تكون من الفهود. فأخذها الفهّاد وقَرِمَها[5] واستجابَها[6]. وكانت تركب ولا تُريد الصَّيْد. وكانت

---

(١) يريد: خالفني. والمماحكة في الأصل: المنازعة والمخاصمة.

(٢) في داخل حماة، لا يُعرف اليوم بهذا الاسم إلا في حدود ضيقة، ويعرفه الناس اليوم باسم: تل الدباغة، وكان مقبرة يومذاك. انظر: («تاريخ حماة» لأحمد الصابوني ص ١٠٠ و١٧٧).

(٣) لعله وزن يدل علىٰ التشدد في «حشر الصيد»، وكذلك ما يأتي في اللغة علىٰ وزن (يفعول) مثل يغمور ويعفور وغيرهما. ووردت من قبل.

(٤) ما تزال كما صيدت، لم تأتلف.

(٥) القَرَم: شدة الشهوة إلىٰ الطعام. والمراد هنا: تدريبها علىٰ الأكل وتذليلها للمدرّب. وردت في «المعجم» بهذا المعنىٰ.

(٦) جعلها: تستجيب للمدرّب: ترد في الكتاب متعدّية علىٰ هذا النحو، في مواضع أخرىٰ.

تُصرَع كما يُصرَع المصاب بعقله وتُزْبِد، ويقدَّم إليها الخَشْف[1] فلا تطلبه ولا تريده، حتىٰ إذا شمَّتْه عضَّته، وبقيت كذلك مدَّة طويلة نحواً من سنة. فخرجنا يوماً إلىٰ الأزوار[2]، فدخلت الخيل إلىٰ الزَّوْر وأنا واقف في فم الزَّوْر، والفهّاد بهذه الفَهدة قريب مني. فقام من الزَّوْر غزال وخرج إليَّ، فدفعت حصاناً كان تحتي، من أجود الخيل، أُريد أرُدَّه إلىٰ الفَهْدة، وعاجله الحصان نَدَسَه[3] بصدره رماه، فوثبت الفهْدة صادتْه، فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: [٦١ظ] «خذوا من الصيد ما أردتم!» فكانت مهما قام لها من الغِزْلان أخذتْه، ولا يستطيع الفهّاد ضبطها، فتجذِبه ترميه. ولا تقف كما تقف الفهود في طرَدها[4]، بل وقت أن تقول: «قد وقفتْ تُجَدِّد عَدْواً أو تأخذ الغزال».

وصيَّدنا[5] بشيزر الغزال الأُدْمي[6]، وهو غزال كبير، فكنا إذا خرجنا بها إلىٰ العَلاة[7] والأرض الشرقية[8]، وفيها الغزال الأبيض، لا تترك

---

(١) ولد الظبية حين يولد. مثلثة الخاء، تطلق به علىٰ الذكر والأنثىٰ. الجمع: خشوف وخِشَفة.

(٢) الزّور: الأجمة، وتكون علىٰ الماء فيما يبدو، مثل دير الزور في بلاد الشام. ويجمعها علىٰ: أزوار. ترد في حديث الناس، إلىٰ اليوم في حماة، بالمعنىٰ نفسه.

(٣) دفعه به ونحّاه. والأصل: هو الطعن الخفيف، وهي واحدة من مفردات أسامة المكررة في الكتاب.

(٤) الطَّرَد: مزاولة الصيد والمطاردة فيه.

(٥) لعله يقصد تفعيل الفعل (أصاد: في اللغة): جعلنا الفهدة تصيد هذا الغزال، أطلقناها عليه. وقد يكون أرادها بمعنىٰ «صدنا» من تشديد الفعل، لا غير.

(٦) لعله يقرأ هكذا: من الأُدْمة وهي السمرة (لون التراب ـ آدم) من لون سمرة الأرض.

(٧) جبال العَلاة إلىٰ الشمال من حماة. ترد في الكتاب كثيراً. وما تزال تعرف بهذا الاسم. منها اليوم جبل عز الدين، ومنها جبل كفر راع. يرىٰ المسافر بين حلب وحماة بعض أسمائها في بعض نواحي الطريق.

(٨) من حول حماة علىٰ الأغلب أو من حول شيزر.

الفهّاد يركض بها حتىٰ يمكنها إلا[١] تجذبه ترميه، وتُغير علىٰ الغِزْلان كأنها كانت ترىٰ أنهم خُشوفٌ لصِغَر الغزال الأبيض.

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد رَحِمَهُ اللهُ، وله جارية تخدمها. ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس. وفي الحائط سكة مضروبة. فيجيء الفهَّاد بها من الصيد إلىٰ باب الدار يَحلُّها وفيها المَرَسَة[٢]. وتدخل إلىٰ الدار إلىٰ ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه. وتجيء الجارية تربطها إلىٰ السِّكَّة المضروبة في الحائط. وفي الدار، والله، نحوٌ من عشرين غزال أُدْمي وأبيض وعُجول ومِعْزىٰ وخُشوف قد توالدت في الدار، فلا تطلبهم ولا تُروِّعهم، ولا تزول عن موضعها، وتدخل إلىٰ الدار وهي مُسَيَّبة، فلا تلتفت إلىٰ الغِزْلان.

وشاهدتُ الجاريةَ التي كانت تدور بها، وهي تسرِّح جسمها بالمِشط فلا تمتنع ولا تنفِر. ورأيتها يوماً وقد بالت علىٰ تلك القطيفة المفروشة لها وهي تُتَلْتِلُها[٣] وتضربها حيث بالت علىٰ القطيفة، ولا تَهُرُّ عليها ولا تُضرُّ بها.

ورأيتها يوماً وقد أثارت من بين يدَي الفهّاد أرنبين، وقد لحقت الواحدة وأخذتْها وعضَّتها بفمها، وتبعت الأخرىٰ فلحقتْها وجعلت تضرِبها بيدها، وفمها مشغول بالأرنب الأوَّلة[٤]. فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدَّة ضَرَبات، ومضت الأرنب.

---

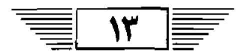
(١) قد يصح أن نقرأ الفعل: يمكّنها (بالتشديد) يريد: يمكنها من صيد الغزال، والمعنىٰ واضح، علىٰ غرابة الاستعمال.

(٢) الحبل، ما تزال في ألسنة أهل الشام. وهي صحيحة في المخطوط الأصل. في حِتّي: «المرتعة». وعند السامرائي: «الرسنة».

(٣) في اللغة: تَلَّه: صرعه، فهو تليل ومتلول، والمعنىٰ هنا مصروف، في أكثره، إلىٰ المداعبة وإلىٰ معنىٰ التكويم.

(٤) يريدها مؤنث (الأول)، يعني: الأرنب (وهي مؤنثة)، وترد كثيراً في الكتاب.




١٣

[ذكرى أبي عبد الله النحوي الطليطلي، سيبويه زمانه، وبعض مشاهد الصيد معه]

أ ـ وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي(١) رَحِمَهُ الله، وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأتُ عليه النحو نحواً من عشر سنين. وكان متولّي دار العلم(٢) بطرابُلُس. فلما أخذ الإفرنج طرابُلُس نفَّذ الوالد والعم، رحمهما الله، استخلصا الشيخَ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ(٣)، وكان قريب الطبقة(٤) في الخط من طريقة ابن البواب(٥). أقام عندنا بشيزر مدة، ونسخ للوالد رَحِمَهُ الله خِتْمتين. [٦٢ظ] ثم انتقل إلىٰ مصر ومات بها.

ب ـ وشاهدتُ من الشيخ أبي عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه، فوجدتُ بين يديه كتب النحو: «كتاب سيبويه»، وكتاب

---

(١) نحوي كبير. كان ينزل شيزر. من رواة صحيح مسلم بن الحجاج. وهو أستاذ أسامة كما يقول، ومن المعجبين به. انظر الفقرة التالية. توفي سنة ٤٥٨هـ. («معجم البلدان» ٤/ ٤٠).

(٢) من دور الكتب المشهورة في تاريخ الإسلام. فيها ما يزيد علىٰ مئة ألف كتاب وقفاً. أنشأها القاضي أبو طالب الحسن بن عمار (ت ٤٦٤هـ). انظر: («زامباور» ص ١٦٠).

(٣) عمل في خزانة الكتب الأفضلية في مصر. وكان لخطه سمعة. انظر: («اتعاظ الحنفا» للمقريزي ٣/ ٥١).

(٤) يقصد: كان في (طبقة) قريباً من طريقة ابن البواب، مثل ياقوت الموصلي. انظر: («الأعلام» للزركلي ٩/ ١٥٦).

(٥) اسمه أبو الحسن علي بن هلال. من أهل بغداد. هذّب طريقة ابن مقلة. نسخ القرآن الكريم أربعاً وستين مرة. إحداهن بالخط الريحاني (ت٤٢٣هـ). انظر: («أعلام الزركلي» ومراجعه ٥/ ١٨٣).

«الخصائص» لابن جني، وكتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسي، وكتاب «اللُّمَع»، وكتاب «الجُمَل»[1]، فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله! قرأتَ هذه الكتب كلَّها»؟ قال: «قرأتُها؟! لا والله إلا كتبتُها في اللوح وحفظتُها. تريد تدري؟ خذ جزءاً وافتحْه واقرأْ من أول الصفحة سطراً واحداً». فأخذت جزءاً وفتحته وقرأتُ منه سطراً. فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتىٰ أتىٰ علىٰ تلك الأجزاء جميعها! فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر!

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث.

ج ـ شاهدته وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة وهو راكب، في رجليه أفدام[2]، وفي الأرض شوك كثير، وقد ضرب رجليه أدماهما، وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحسُّ بتألم رجليه: مشغول بما يراه من تَسلُّلها إلىٰ الغِزْلان وعَدْوِها وحُسْن صيدها.

١٤

[شهرة باز من بزاة والده الفارهة]

وكان الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ محظوظاً من الجوارح النادرة الفارهة، وذلك أنها كانت عنده كثيرة، فيندر منها الجارح الفاره، وكان عنده في بعض السنين بازٌ مُقَرْنَص بيت، أحمر العينين، فكان من أفره البزاة. فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوَّج مقلد رَحِمَهُ اللَّهُ، من مصر، وكان مُقامه

---

(١) هذه الكتب كلها من أمهات كتب النحو واللغة، فـ«كتاب سيبويه» في النحو وكتاب «الخصائص في اللغة» لابن جني فريدان في بابيهما وكتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسي و«اللُّمع» لابن جني و«الجمل» للزجّاجي في النحو، عملت كلها علىٰ تقعيد الأصول إلىٰ نهاية القرن الرابع الهجري.

(٢) الفِدام: قماش يكون علىٰ فم الإبريق لتصفية الشراب. والجمع: أفدام. فلعله يريد نوعاً من القماش يحمي قدميه، أو لعله جنس من الأحذية.

بها في خدمة الآمر بأحكام الله[1]، يقول: «سمعت في مجلس الأفضل[2] ذِكْر الباز الأحمر العينين، والأفضل يستخبر المحدِّث عنه وعن صيده». فنفَّذه الوالد، رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع بازياره إلىٰ الأفضل، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال: «نعم يا مولاي!» قال: «أيَّ شيء يصيد؟» قال: «يصيد السُّمانة[3] والحَرْجلة[4] وما بينهما من الصيد. فبقي هذا الباز بمصر مدةً، ثم أفلت وراح؛ وبقي سنةً في البرّيّة في شجر الجُمَّيز، وقَرْنَصَ في البرية. ثم عادوا اصطادوه. فجاءنا كتاب عمي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقَرْنَصَ في الجُمّيْز، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به. وقد أُرسل علىٰ الطير منه مصيبة عظيمة».

١٥

[والده يصلح بازاً من بزاة الإفرنج ويطلقه للصيد]

وكنا يوماً عند الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد جاء إنسان من فلاحي معرة النعمان، معه بازٍ مُقَرْنَص مُكَسَّرُ ريشِ الأجنحة والذَّنَب، في قدْر العُقاب الكبير، ما رأيت قط بازاً مثله. [٦٢ظ] وقال: «يا مولاي! كنت أَصْلي[5]

---

(١) الخليفة الفاطمي، ابن المستعلي بالله. قتل سنة ٥٢٤هـ. انظر: («زامباور» ص ١٤٥).

(٢) أمير الجيوش بدر الجمالي (وإليه ينسب حي الجمالية في القاهرة) توفي سنة ٤٢٨هـ. وابنه اسمه الأفضل أيضاً، وهو المعني هنا، إذ هو الذي وزر للآمر وأبيه، وقتل سنة ٥١٥هـ. انظر: («زامباور» ص ١٤٩)

(٣) السُّمانىٰ: نوع من الطير. واحدته: سُماناة. ترد في الدارجة علىٰ هذه الصورة، ويجعلون الجمع علىٰ: السُّمان.

(٤) طير يشبه الباز. في المعاجم: حرجَلَ: عدا يَمنة ويَسرة.

(٥) الصلْي: الخَتْل والخداع. والفعل: أَصْلىٰ. وينبغي أن يكون المضارع منه: يُصلي.

الدَّلَم[1] بالنادوف[2]. فضربَ هذا الباز على[3] دَلَمةٍ في النادوف، فأخذتُه وحملتُه إليك». فأخذه وأحسن إلى الذي أهداه، ووصَلَ البازيار ريشَه وحمَلَه واستجابه[4]. وإذا الباز صائدٌ مطابقٌ[5] مُقَرْنص بيت، قد أفلت من الإفرنج وقَرْنَصَ في جبل المعرة. فكان من أفره الجوارح وأشطرها.

١٦

[صيد الشواهين، مع والده أيضاً]

وشاهدت يوماً وقد خرجنا معه رحمه الله إلى الصيد، وقد استقبلنا، على بُعْدٍ، رجل معه شيء ما نتحققه، فلما دنا منا وإذا معه شاهين[6] فرْخ، من أكبر الشواهين وأحسنها، وقد خَمَشَ يديه وهو حامله. فدلّاه ومس ساقيه ورجليه، والشاهين مدلّى منشور الأجنحة، فلما وصلْنا قال: «يا مولاي! اصطَدْت هذا الطير وقد جئت به إليك». فسلّمه الوالد إلى البازيار، فأصلحه ووصل ما انكسر من ريشه. ولم يخرج مخبره مثلَ منظره، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به. والشاهين، هو الميزان[7]: أدنى شيءٍ يَعيبه ويُفسده. وكان هذا البازيار صانعاً مجوِّداً في إصلاح الشَّواهين.

كنا نخرج من باب المدينة إلى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد، حتى الشِّباك والفوس[8] والمجارف، والكلاليب لما ينجحر من الصيد،

(١) ذَكَر الدُّرّاج: والمفرد: دَلَمة. (٢) من آلات الصيد. تدسّ في الأرض.

(٣) لاحقها ليصيدها.

(٤) يكثر استعمالها في الكتاب، بمعنى: طلب إجابته، ويريد هنا: طوّعه.

(٥) يعني: يشبه صيده صيد الباز المقَرْنَص بيت. القرنصَة: فصْل الريش ونبْته من جديد. ويكون ذلك في البيت أحياناً وهو أفضل.

(٦) و(٧) الشاهين في اللغة هو: الميزان. وهو هنا نوع من الطير شديد الحساسية. وردت من قبل.

(٨) الفؤوس: وكانوا في الدارجة يسهلون الهمز.

ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب. فإذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران علىٰ الموكب. فإذا خرج أحدهما عن القصد تنحنح البازيار وأشار بيده إلىٰ النحو الذي يريده، فيرجع والله الشاهين من وقته إلىٰ ذلك النحو! ورأيته وقد أدار شاهيناً علىٰ قطعة من الصَّلاصل[1] نازلةٍ في مرْج. فلما أخذ الشاهين طبقته[2]، دَقَّ لها الطبل فطارت، وانقلب عليها الشاهين: ضرب رأس صُلصُلة قطعه[3]، وأخذها ونزل. فدرنا والله علىٰ ذلك الرأس ما وجدناه. وأراه قد وقع علىٰ بُعد في الماء، لأننا كنا بالقرب من النهر.

١٧

[مشهد من صيد اليحشور من البزاة]

وقال له يوماً غلام يقال له: أحمد بن مجير، لم يكن ممن يركب معه: «يا مولاي! اشتهيت أُبصرُ الصيد». قال: «قدّموا لأحمد فرساً يركبُه ويخرجُ معنا». فخرجنا إلىٰ صيد الدُّراج، فطار ذَكَرٌ ونَتَر[4] كما جرت العادة، وعلىٰ يد الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ اليحشور. فأرسله عليه فطار مع الأرض والحشيش، يضرب صدره، والدُّرّاج قد ارتفع [٦٣و] ارتفاعاً كبيراً، فقال له أحمد: «يا مولاي! وحياتك كان يتلاهىٰ به حتىٰ أخذه!».

١٨

[مشهدان من مشاهد صيد الكلاب الزغاويّة]

وكان يجيئه من بلاد الروم الزَّغاوية: كلابٌ جيادٌ ذكور وإناث. فكانت تتوالد عندنا، وصيدها الطيرَ طَبْع فيها.

---

(١) المفرد: صُلصُلة: الحمَام. والجمع: صلاصل.

(٢) تهيأ ليطير ويصيد.

(٣) في الأصل: «قطعة»، وهو تصحيف يلزم تصحيحه في نشرة حِتّي والسامرائي معاً.

(٤) يعني: طَفَر من يده.

أ ـ شاهدت منها جَرْوَةً صغيرة قد خرجت خلْفَ الكلاب التي مع الكِلَابزي[1]، فأرسل بازاً علىٰ دُرَّاجة، فنبَجَت[2] في غَلْفاء[3] في جُرْف النهر. فأرسلوا الكلاب علىٰ الغَلْفاء لتطير الدُّرّاجة، وتلك الجَرْوة واقفة علىٰ الجُرْف. فلما طارت الدُّرّاجة وثَبَت الجَرْوة خلفَها، من علىٰ ذلك الجُرْف، فوقعتْ في وسْط النهر، وما تعرف الصيدَ ولا صادت قط!

ب ـ ورأيت كلباً من هذه الزَّغاويَّة وقد نَبَجَت حَجَلةً في الجبل، في نَبَج[4] صعب، وقد دخل إليها الكلب وأبطأ. ثم سمعنا حَشْكَةً[5] في داخل النَّبَج. فقال الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في النَّبَج وحشٌ وقد قَتَل الكلب. ثم بعد ساعة خرج الكلْب يجر رجل ابن آوىٰ، وكان في النَّبَج قد قتله وجرَّه أخرجه إلينا!

١٩

[والده يتفرج بصحبة الجوارح]

وكان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سار إلىٰ أصبهان[6] إلىٰ دَركاه[7] السلطان ملك شاه[8] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحكىٰ لي قال: «لما قضيتُ أشغالي من عند السلطان،

---

(١) مدرب الكلاب (الكَلّاب). ويجمعها أسامة علىٰ (كِلابزيّة).

(٢) صاحت وخرجت من وكرها.

(٣) الأرض التي لم تزرع وانتشر فيها الكلأ.

(٤) النَّبَجة: الأَكَمة. ولعل أسامة يريدها أو يريد جمعها (نَبَج). والصحيح في الجمع: نِباج.

(٥) صوت ضجة واختلاط أصوات. وربما قُصد بها اليوم: الزحام الشديد والتدافع، ما تزال في دارجة أهل الشام، والأصل (حوشكة).

(٦) كانت في سلطة السلاجقة.

(٧) البَلاط (فارسية)، وأصل معناها السُّدّة أو الباب.

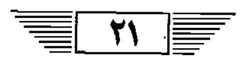
(٨) ابن السلطان ألب أرْسلان: من السلاجقة العظام. انظر: («زامباور» ص٣٣٣ ـ ٨).

وأردت السفر، أردت أستصحب معي جارحاً أتفرج به في طريقي. فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عُرْس مُعَلَّم، يُخرج الطيورَ من النَّبَج. فأخذت صقوراً تَصيد الأرانب والحُبارىٰ. واستصعبتُ مُداراةَ البُزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة.



[مشاهد من انشغال والده بالصيد]

وكان عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلاب السَّلوقية[1]، كلاب جِياد، أرسل يوماً الصقور علىٰ الغِزْلان، والأرض غِبَّ مطرٍ ثقيلةٌ بالوحل، وأنا معه صغير علىٰ بِرْذَون[2] لي، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين، وبرذوني، لخفَّتي عليه، مستظهِر، وقد صَرَعت الصقور والكلابُ الغزالَ، فقال لي: «يا أسامة! الحقْ الغزال وانزلْ امسك رجليه إلىٰ أن نجيء!»، ففعلت. ووصل هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فذبح الغزال، ومعه كلْبة صفراء جواد[3]، يسمونها الحَمَوية[4]، وقد صَرَعت الغزال، وهي واقفة. وإذا قطعة الغِزْلان التي اصطَدنا منها قد عادت عابرةً علينا. فأخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قلادة[5] الحَمَوية وخرج يهرول بها حتىٰ رأت الغِزْلان. وأرسلها عليها اصطادت غزالاً آخر.



[يقظة والده وحسن إدراكه ونشاطه في الصيد]

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع ثقل جسمه وكبر سِنّه وأنه لا يزال صائماً، يركض

---

(١) نسبة إلىٰ (سَلوق) اليمنية، ومرت من قبل.

(٢) غير الأصيل من الخيل والبغال، وجمعه: براذين.

(٣) يريد: جيدة.

(٤) نسبة إلىٰ مدينة (حماة).

(٥) يبدو أنه اسم الكلبة.

نهارَه كلَّه. وكان لا يتصيد إلا علىٰ حصان أو إكديش جواد، ونحن معه، أربعة أولاده[1]، نتعب ونَكِلّ، وهو لا يضعُف [٦٣ظ] ولا يَكَلّ ولا يتعب. ولا يقدِر وَشاقيّ[2] ولا صاحب جَنيب[3] ولا حامل سلاح يقصِّر في الركض علىٰ الصيد.

وكان لي غلام اسمه يوسف، معه رمحي ودَرَقَتي[4] ويَجنب حصاني، فلا يركض علىٰ الصيد ولا يتبعه. فيَحْرَد الوالد عليه: فعل ذلك مرة بعد مرة. فقال له الغلام: «يا مولاي! ما ينفعك أحد من الحاضرين، والعياذ بالله، مثل ابنك هذا، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه، إن احتَجْتَه وجدته، واحسِبْ أني ما أنا معكم». فما عاد يلومه ولا ينكر عليه كونه ما يركض علىٰ الصيد.

٢٢

[غارات الإفرنج لا تقطع والده عن الصيد]

ونزل علينا صاحب أنطاكية[5] وقاتلَنا ورحلَ عن غير صُلْح. فركب الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ الصيد، وآخرهم ما أَبْعَدَ عن البلد، فتبعتْهم خيلنا، فعادوا عليهم والوالد قد أَبْعَدَ عن البلد. ووصل الإفرنج إلىٰ البلد والوالد قد طلعَ علىٰ تل سكين[6] يراهم وهم بينه وبين البلد. وما زال

---

(١) أولاده الأربعة. وفي «زامباور» أسماء ثلاثة منهم: أسامة ومحمد وعليّ («زامباور» ص١٦٥).

(٢) في لغة اليوم (وجاقي) حامل المشعل. تركية. يذكرها أسامة في غير موضع.

(٣) في اللغة: الجنيبة: الدابة التي تقاد ولا تركب. والجمع: جنائب.

(٤) تُرس من جلد، لا خشب فيه. والجمع: دَرَق. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٣٥).

(٥) تنكرد Tinkerd.

(٦) إلىٰ الجنوب الغربي من شيزر. ما يزال قائماً ويعرف بهذا الاسم. وفي الخرائط: غسكين. ولعلها هي الأصل.

واقفاً علىٰ التل إلىٰ أن انصرفوا عن البلد وعاد إلىٰ الصيد.

٢٣

[فِعْل الخيل العربية]

وكان رَحِمَهُ اللهُ يطرد اليَحامير[١] في أرض حصن الجسر[٢]، فصرَعَ منها يوماً خمسةً أو ستةً علىٰ فرس له دَهْماء[٣]، تسمىٰ «فرس خُرْجي»، باسم صاحبها الذي أباعها[٤]. كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً. فطرد آخرَ اليحامير، فوقعتْ يدها في حُفْرة مما تُحْفَر للخنازير[٥]، فانقلبت عليه كسرت تَرْقُوَته، ثم قامت ركضت قدْر عشرين ذراعاً وهو مطروح. ثم عادت وقفت عند رأسه تَنْحَب وتصهَل حتىٰ قام، وجاءه الغلمان أركبوه. فهذا فِعْل الخيل العربية.

٢٤

[بأس البراذين وشدة مراسها]

وخرجتُ معه رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ نحو الجبل لصيد الحَجَل. فنزل غلام له اسمه: لؤلؤ رَحِمَهُ اللهُ لبعض شغله، ونحن قريب[٦] من البلد، من بُكْرَةَ[٧]، وتحته بِرْذَون. فرأىٰ ظِلَّ تَرْكَشه[٨]، أجفِل منه فرماه وانفلت. فركضتُ والله عليه

---

(١) اليَحمور: نوع من الوعْل، ويطلق علىٰ حمار الوحش أيضاً. يرد كثيراً في الكتاب.

(٢) الحصن القائم عند الجسر. بناه آل منقذ لحماية الجسر وحراسة القلعة معاً.

(٣) سوداء.

(٤) أباعه إباعة: عرضه للبيع.

(٥) من طرائق صيدها.

(٦) تنصرف إلىٰ قياس الأرض. وما تزال في دارجة أهل الشام إلىٰ اليوم.

(٧) يريد: خرجا مبكرَيْن. والبُكرة: أول النهار إلىٰ طلوع الشمس.

(٨) كنانة السهام (فارسية). وهي في «صبح الأعشىٰ»: (تركاش). انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٧٦).

أنا وبعض الغلمان، من بُكْرَة إلىٰ بعد العصر، إلىٰ أن ألجأناه إلىٰ جِشار[1] في بعض الأزوار. وقام الجِشاريّة مَدّوا له الحبل وقبضوه[2] كما يُقبض الوحش. وأخذتُه وعُدتُ، والوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واقف في ظاهر البلد ينتظرني، ما يَصيد ولا نزل في داره. فالبراذين بالوحش أشبهُ مما هي بالخيل.

٢٥

[شيخ يرق قلبه لحَجلة كانت قاربت أن تنجو]

حكىٰ لي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنت أخرج إلىٰ الصيد، ويخرج معي الرئيس أبو تراب حَيْدرة بن قطرمير[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان شيخَه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية. فكنا إذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس علىٰ صخرة يقرأ القرآن ونحن نتصيّد حوله. فإذا فَرَغْنا من الصيد ركب وسار معنا. فقال[4] يوماً: يا سيدنا! أنا جالس علىٰ صخرة وإذا [٦٤و] حَجَلة قد جاءت وهي تتهنكف[5]، وهي مَعيبة[6]، إلىٰ تلك الصخرة التي أنا عليها، دخلتْ، وإذا الباز قد أتىٰ خلفَها وهو بعيد منها. فنزل مُقابلي ولؤلؤ يصيح: عينَك عينَك[7] يا سيدنا! وجاء وهو يركض وأنا أقول: اللهم استُر عليها! فقال: يا سيدنا! أين الحَجَلة؟ قلت: ما رأيت شيئاً، ما جاءت إلىٰ هاهنا! وترجَّلَ عن فرسه ودار حول الصخرة وطلَّع[8] تحتها فرآها. فقال: أقول: الحَجَلة هاهنا؟ تقول: لا!

---

(١) دواب ترعىٰ خارج البيوت. وهو معنىٰ الجَشْر في اللغة.
(٢) يريد: أمسكوه (قبضوا عليه).
(٣) يلزم أن يكون من علماء العصر وشيوخه، ويبدو أنه كان من أساتذة والده، وكانت له الرئاسة فيهم.
(٤) أبو تراب حيدرة بن قطرمير المذكور في أول الفقرة.
(٥) الهنكفة: الإسراع في العدو أو المشي.
(٦) يريد: مُصابة.
(٧) يريد: عينك عليها فلاحظها.
(٨) بمعنىٰ تطلَّع. دارجة تستعمل إلىٰ اليوم عند أهل الشام.

وأخذها يا سيدنا كسرَ رجليها ورماها إلىٰ الباز، وقلبي يتقطع عليها!».

٢٦

[نجاة أرنب عن طريق الرغبة في الفرجة]

وكان هذا لؤلؤ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخْبرَ الناس بالصيد، شاهدتُه يوماً وكان جاءتنا من البريّة أرانب جالية[١]، فكنّا نخرج نصطاد منها شيئاً كثيراً. وكانت أرانب صغاراً حُمْراً. فشاهدته يوماً وقد جلىٰ[٢] عشرة أرانب، طعن التسعة بالبالة[٣] أخذها، ثم جلىٰ أرنباً عاشرة. فقال له الولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دعها! تقيموها[٤] للكلاب نتفرج عليها». فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب فسبقت الأرنبُ وسلمت. فقال لؤلؤ: «يا مولاي! لو كنت تركتَني طعنتها وأخذتها!».

٢٧

[كلبة تلسعها حيّة في مجحر أرنب]

وشاهدت يوماً أرنباً قد ثوّرناها[٥] وأرسلنا عليها الكلاب، فانجحرت في أرض الخَبيبَة[٦]. فدخلت كلبةٌ سوداء خلفَها في المَجْحر ثم خرجت في الحال وهي تتعوّص[٧]. ثم وقعت فماتت. فما انصرفنا عنها حتىٰ تفسَّختْ وماتت وتهرَّأت. وذاك أنها لسعتها حيَّةٌ في المَجْحَر.

---

(١) خرجت من جحورها (جلا) وترد كثيراً في الكتاب.
(٢) جلاها: أخرجها من جحرها: (جلا).
(٣) الحربة (من پالا التركية).
(٤) بمعنىٰ: دعوها للكلاب، ووردت علىٰ الدارجة.
(٥) أثرناها وأخرجناها.
(٦) أرض كانت تعرف بهذا الاسم، من حول شيزر أو حماة علىٰ ما يبدو، وتكون في بطن الوادي.
(٧) تعوّص الكلب: عوىٰ من الألم.



[الباز الرحيم]

ومن عجيب ما رأيت من صيد البُزاة أنني خرجت مع الوالد رَحِمَهُ اللهُ عُقَيب مطر وقد تتابع ومنعَنا من الركوب أياماً. فأمسك المطرُ، فخرجنا بالبزاة نريد طيرَ الماء، فرأينا طيوراً مُمْرِجة[1] في مَرْج تحت شَرَف[2]. فتقدم الوالد أرسل عليها بازاً مُقَرْنَص بيت. فطلع مع الطيور أصاد منها ونزل، فما رأينا معه شيئاً من الصَّيد. فنزلنا عنده وإذا هو قد أصاد زُرزوراً وطَبَقَ كفَّه عليه فما جرحه ولا أذاه[3]. فنزل البازيار خلَّصه وهو سالم.

٢٩

[حميّة الوزّ السَّمَند غير حميّة الحُبارى]

ورأيت من الوز السَّمَند[4] حميَّة وشجاعة كحميَّة الرجال وشجاعتهم. وذلك أننا أرسلنا الصقور على رف[5] وزّ سَمَند، ودقَقْنا الطبول. فطار، ولحقت الصقور تعلقت بوَزّة حطتْها من بين الوز، ونحن بعيد منها، فصاحت. فترجَّلَ من الوَز إليها خمسة ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها. فلولا نبادرهم كانوا خلّصوا الوزّة وقصّوا أجنحة الصقور بمناقيرهم!

[٦٤ظ] وهذا ضد حمية الحُبارى[6]. فإنها إذا قرُب منها الصقر نزلت

---

(١) تدور في المرج.

(٢) الشَّرَف من الأرض: ما ارتفع وعلا، يشرف على ما حوله.

(٣) آذاه، ولعلها مصحفة عنها.

(٤) نوع من الإوز لم تذكره المعاجم. انظر: (الفقرة ١١ ح٩ من نهاية الملحق).

(٥) التَسرّب من الطير.

(٦) طائر أكبر من الدَّجاج الأهلي وأطول عنقاً. رمادي اللون يضرب به المثل في البلاهة، لأنها تنسى عُشها فتحضن بيض غيرها. والجمع: حُباريات. وردت من قبل: الفقرة ١٩.

إلىٰ الأرض، وكيف دار استقبلته بذنبها. فإذا دنا منها سلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطارت. وإن أخطأته بما تفعله به أخذها.

٣٠

[بسالة طير العيْمة]

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه كان علىٰ يده بازٌ غطراف[١] فرخ، وعلىٰ خليج ماءٍ عَيْمةٌ[٢]، وهي طير كبير مثل لون البلشون[٣] إلَّا أنها أكبر من الكُرْكي: من طرف جناحها إلىٰ طرف جناحها الآخر أربعة عشر شِبْراً. فجعل الباز يطلبه. فأرسله عليه ودَقّ له الطبل. فطار ودخل فيه الباز أخذه ووقعا في الماء. فكان ذلك سبب سلامة الباز، وإلَّا كان قتله بمنقاره. فرمىٰ غلام من الغِلْمان نفسه في الماء بثيابه وعُدَّتِه، مسك العَيْمة وأطلعها. فلما صارت علىٰ الأرض صار الباز يُبصرها ويصيح ويطير عنها، وما عاد يَعرض لها، ولا رأيت بازاً سوىٰ ذلك اصطادها. فإنه كما قال أبو العلاء بن سليمان[٤] في العنقاء: (أرىٰ العنقاء تَكبُر أن تُصادا).

٣١

[من الأُسْد الذليل]

وكان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمضي إلىٰ حصن الجسر[٥] وهو كثير الصيد،

---

(١) عامية الغِطريف: فرخ البازي.

(٢) نوع من الطير، تجد وصفه في الكلام نفسه.

(٣) مالك الحزين، وردت من قبل في الكتاب. ويجمع علىٰ: «البلاشين».

(٤) أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، وهو صدر البيت، من مطلع القصيدة التي قالها في الفخر. وبعده: «فعاند من تطيق له عنادا». انظر: («سقط الزند» ص ١٩٧).

(٥) الحصن القريب من الجسر. أنشأه بنو منقذ لحراسة الجسر.

فيقيم فيه أياماً. ونحن معه نَصيد الحَجَل والدُّرّاج وطير الماء واليَحامير والغِزْلان والأرانب. فمضىٰ يوماً إليه وركبْنا إلىٰ صيد الدُّرّاج، فأرسل بازاً، يحمله ويُصلحه مملوك، اسمه: نقولا، علىٰ دُرّاجةٍ. ومضىٰ نقولا يركض وراءه وقد نبج الدُّرّاج في غَلْفاء[1]. وإذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض. قلنا: «ما لك»؟ قال: «السبع خرج من الغَلْفاء التي وقع فيها الدُّرّاج، فخلَّيتُ الباز وانهزمتُ». وإذا السَّبُع أيضاً ذليل مثل نقولا: لما سمع أجراس الباز خرج من الغلْفاء منهزماً إلىٰ الغاب!

٣٢

[الفُرْجة على صيد السمك تعدل الفرجة على الصيد بالبزاة]

وكنا نتصيَّد ونعود ننزل علىٰ بوشمير[2]؛ نهر صغير بالقرب من الحصن، ونُنفِذ نُحضِر صيّادي السمك، فنرىٰ منهم العجب. فيهم من معه قصَبة في رأسها حَرْبة، لها جُبّة[3] مثلَ الخُشوت[4]. ولها في الجُبّة ثلاث شُعَب حديد، طول كل شُعْبة ذراع. وفي رأس القصَبة خيط طويل مشدود إلىٰ يده، يقف علىٰ جُرْف النهر، وهو ضيق المدىٰ، ويبصر السمكة فيزرُقُها[5] بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يُخطئها. ثم يَجذبها بذلك الخيط فتطلعُ والسمكة فيها. وآخرُ من الصيّادين معه عُود قدْر قبضة، فيه شوكة حديد، وفي طرفه الآخر خيط مشدود إلىٰ يده. ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يَخطَفها بتلك الشوكة ويُخلّيها فيها ويطلُع.

(١) الغلفاء: الأرض الخصبة يكثف فيها النبت. ونبج: ارتفع وتورّم.
(٢) لا يُعرف اليوم، لعله جفّ. والأغلب أن يكون رافداً صغيراً كان يصب في العاصي أو يتفرع عنه، تلك الأيام.
(٣) ما يدخل من السنان في الرمح.
(٤) الخُشْت: الحربة (فارسية) وتجمع علىٰ (خُشوت).
(٥) يرميها. والمزراق في الأصل: الحربة القصيرة. والجمع: مزاريق.

ويجذِبها بذلك الخيط يُطْلع الشوكة والسمكة. [٦٥و] وآخر ينزل يسبح، ويُمرّ يده، تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف، علىٰ السمكة حتىٰ يُدخلَ أصابعَه في خواشيم[١] السمكة وهي لا تتحرك ولا تنفِر. ويأخذها ويطلُع. فكانت تكون فُرْجتُنا عليهم كفُرْجتنا علىٰ الصيد بالبُزاة.

٣٣

[غنائم البازيار وظرفه وطول خبرته بالجوارح]

وتوالىٰ المطر والهواء علينا أياماً ونحن في حصن الجسر. ثم أمسك المطر لحظة، فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد: «البُزاة جياع جيّدة للصيد. وقد طابتْ وكفَّ المطر. ما تركب؟» قال «بلىٰ!». فركبنا فما كان بأكثرَ من أن خرجنا إلىٰ الصحراء وتفتحت أبواب السماء بالمطر. فقلنا لغنائم: «أنت زعمت أنها طابتْ وَصَحَتْ حتىٰ أخرجْتَنَا في هذا المطر!» قال: «ما كان لكم عيون تبصر الغيوم ودلائل المطر؟ كنتم قلتم لي: تكذب في لحيتك ما هي طَيّبة ولا صاحية».

وكان هذا، غنائم، صانعاً جيداً في إصلاح الشواهين والبزاة، خبيراً بالجوارح، ظريفَ الحديث، طيب العِشْرة، قد رأىٰ من الجوارح ما نعرف وما لا نعرف.

خرجنا يوماً إلىٰ الصيد من حِصن شيزر فرأينا عند الرَّحا الجلالي[٢] شيئاً. وإذا كُرْكيّ مطروح علىٰ الأرض. فنزل غلام قَلَبه وإذا هو ميْت، وهو حارّ ما بَرَد بعد. فرآه غنائم قال: «هذا قد اصطاده اللُّزَيق»[٣].

(١) يريد: خياشيم. الخيشوم: الأنف أو أقصىٰ الأنف.
(٢) طاحون كان قائماً عند حصن الجسر، تعمل رحاه بالماء. والجلالي: نهر يصب في العاصي، وتدير مياهه الرحا. ورد في الكتاب من قبل.
(٣) جارح يجيء وصفه بعد قليل.

فَتَّشَ تحت جناحيه وإذا جانب الكُرْكيّ مثقوب، وقد أكل قَلْبَه. فقال غنائم: «هذا جارح مثل العَوْسَق[1]، يلحق الكُرْكيَّ يَلْصَق تحت جناحيه، يثقب أضلاعه ويأكل قلبه!».

وقضىٰ الله سبحانه أنني صِرْتُ إلىٰ خِدمة أتابك زنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجاءه جارح مثل العَوْسق، أحمر المَنْسِر والرِّجلين، جُفون عينيه حُمْر، وهو من أحسن الجوارح. فقالوا: هذا اللُّزَّيق، فما بقي عنده إلَّا أياماً قلائل وقرض السُّيور بمَنْسِره وطار.

٣٤

[فرس جيدة العَدْو يقتلها الشِّكال]

وخرج الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوماً إلىٰ صيد الغِزْلان، وأنا معه صغير، فوصل وادي القناطر[2]، وإذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق. فأخذهم وكَتَفَهم وسلَّمهم إلىٰ قوم من غلمانه يوصلونهم إلىٰ الحبس بشيزر. فأخذتُ أنا خُشْتاً[3] من بعضهم وسرنا في الصيد، وإذا عانة[4] حُمُر وَحْش. فقلت للوالد: «يا مولاي! ما أبصرتُ حمير الوَحْش قبل اليوم. عن أمرك أركض أبصرهم؟»[5] فقال: «افعل!» وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل. فركضتُ وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذتُه من الحراميّة. فصرتُ وسْط العانة؛ فأفردتُ منها حماراً وصِرْت أطعنه

---

(١) جارح يشبه اللُّزيق في قول أسامة.

(٢) يبدو أنه قريب من شيزر، لا يعرف اليوم بهذا الاسم. ولكن في الجهة الغربية من شيزر موضعاً يسمىٰ «قناطر العشارنة». ربما كانت له صلة بتل البَلول أيضاً. انظر: الفقرة (٨٥ح٥).

(٣) الحربة (فارسية). والجمع: خُشوت. ترد كثيراً في الكتاب، ووردت في الفقرة السابقة.

(٤) القطيع من حمر الوحش.

(٥) أنزلها منزلة العاقل، علىٰ الدارجة.

بذلك الخُشت، فلا يعمل فيه[1] شيئاً [٦٥ظ] لضعف يدي وقِلّة مَضاء الحرْبة. فرددتُ[2] الحمار حتىٰ رددته إلىٰ أصحابي، فأخذوه. وعجب الوالد ومن معه من عدْو تلك الفرس.

فقضىٰ الله سبحانه أنني خرجت يوماً أتفرج علىٰ نهر شيرز، وهي[3] تحتي، ومعي مقرئ ينشد مرة ويقرأ مرة ويغنّي مرة. فنزلت تحت شجرةٍ ودفعت الفرس إلىٰ الغلام فعمل فيها شِكالاً[4]، وكان إلىٰ جانب النهر. فنفرتْ ووقعتْ في النهر علىٰ جنْبها. وكلما أرادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشِّكال. وكان الغلام صغيراً لا يقدر علىٰ تخليصها، ونحن لا نعلم ولا ندري. فلما قاربتْ الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق. فقطعنا شِكالها واطلعناها، فماتت. وما كان الماء يصل إلىٰ عَضُدها الذي غرقت فيه. وإنما الشِّكال أهلكها.

٣٥

[رجل يجهل قُدُرات الباز]

وخرج يوماً الوالد رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ الصيد. وخرج معه أمير يقال له: الصمصام، من أصحاب فخر المُلْك بن عمار[5] صاحب طرابلس، علىٰ سبيل الخِدْمة، وهو رجل قليل الخبْرة بالصيد. فأرسل الوالد بازاً علىٰ طيور ماء، فأخذ منها طيراً، ووقع في وسط النهر. فجعل الصمصام يدق يداً علىٰ يدٍ ويقول: «لا حول ولا قوة إلّا بالله! كيف كان خروجي في هذا اليوم؟». فقلت له: «يا صمصام! تخاف علىٰ الباز أن يغرق؟». قال:

---

(١) في الأصل: (فيها) واختار السامرائي إبقاءها.

(٢) يريد دفعه وساقه.

(٣) أي: الفرس.

(٤) العِقال: القيد. والجمع: شُكُل.

(٥) من بني عمار أصحاب طرابلس زمن الأيوبيين، وهو ولد محمد بن عمار. ولي طرابلس سنة ٤٩٤هـ. انظر: («زامباور» ص١٦٠).

«نعم! قد غرق. بَطّةٌ هو حتىٰ يقع في الماء ولا يغرق؟». فضحكتُ وقلتُ: «الساعةَ يطلُع». فأخذ الباز رأس الطير وسبح وهو معه حتىٰ طَلَع به. فبقي الصمصام يتعجب من ذلك، ويسبِّح الله سبحانه ويحمَدُه علىٰ سلامة الباز!

٣٦

[صور مختلفة من منايا الحيوان]

أ ـ ومنايا الحيوان، مختلفة الألوان، قد كان الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ أرسل زُرَّقاً[١] أبيض علىٰ دُرّاجة، فوقعت الدُّراحة في غَلْفاء[٢]، ودخل معها الزُّرَّق. وفي الغلفاء ابن آوىٰ أخذ الزُّرَّق قطع رأسه. وكان من خيار الجوارح وأفْرَهها.

ب ـ ورأيتُ من منايا الجوارح، وقد ركبتُ يوماً وبين يديَّ غلام لي معه باشِق[٣]. فرماه علىٰ عصافير، فأخذ عصفوراً. وجاء الغلام ذَبح العصفور في رِجْل[٤] الباشق. فنفض الباشق رأسه وتقيّأ دماً، ووقع ميتاً. والعصفور في كَفِّه مذبوح. فسبحان مقدِّر الآجال.

ج ـ واجتزت يوماً من بابٍ فتحناه في الحصن، لعِمارةٍ كانت هناك، ومعي زَرْبطانة[٥]. فرأيت عصفوراً علىٰ حائطنا، وأنا واقف تحته. فرميته ببُنْدُقةٍ[٦] فأخطأتُه. وطار العصفور وعيني إلىٰ [٦٦و] البُنْدُقة.

---

(١) الزُرَّق: طائر يصيد البازي. جمعه: زراريق، علىٰ غير ما في الكتاب من الدارجة.

(٢) الأرض الخصبة يكثف نباتها وشجرها، ترد كثيراً.

(٣) طائر من الجوارح. من فصيلة العُقاب، أصغر من البازي. يشبه الصقر.

(٤) يعني: ذبحه وهو في رجل الباشق لم يفلته.

(٥) في «صبح الأعشىٰ»: زبطانة، وهي البندقية في لغة عصرنا. وقد ترد اليوم في دارجة أهل الشام، علىٰ قلّة. وتكون من خشب، مستطيلة، مجوفة من الداخل.

(٦) رمية الزربطانة. وتكون من طين، صغيرة، يضعها الصياد في فمه وينفخ في =

فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نُقب في الحائط، فوقعت البُنْدُقة علىٰ رأسه فَقَتَلَتْه! ووقع بين يدي فذبحته. وما كان صيده عن قَصْدٍ ولا اعتماد!

د ـ وأرسل رَحِمَهُ اللَّهُ يوماً الباز علىٰ أرنبٍ قامت لنا في زَوْر كثير الشوك، فأخذها وانفَرطتْ منه، فجلس علىٰ الأرض. وراحت الأرنب فركضتُ أنا فرساً دَهْماء تحتي، من جياد الخيل، لأردَّ الأرنب. فوقعت يد الفرس في حُفْرة فانقلبت عليَّ، فملأتْ يدي ووجهي من ذلك الشوك، وانفسخت رِجْل الفَرَس. ثم انتقل الباز في الأرض بعد ما أبعدتِ الأرنبُ، لحقها أصادها. فكأنه كان قصدُه إتلافَ فرسي وأذيتي بالوقوع في الشوك!

٣٧

[بأس الخنازير في الصيد]

وأصبحنا يوماً في أول يوم من رجب صياماً. فقلت للوالد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشتهي أخرجُ أتشاغل بالصيد عن الصيام». قال: «اخرج!» فخرجتُ أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ رَحِمَهُ اللَّهُ، ومعنا بعض البُزاة إلىٰ الأزوار، فدخلنا في سُوس[1]. فقام لنا خِنزير ذَكَر، فطعنه أخي جرحه، ودخل ذلك السوس. فقال أخي: «الساعةَ يُكربه الجُرح ويخرج، أَستقبلُه أطعنه أقتله». قلت: «لا تفعل! يضرب فرسك يقتلها» نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زَوراً آخر. فالتقاه أخي طعنه في سَنامه[2]، انكسرت فيه عالية القُنطارية التي طعنه بها، ودخل تحت

= الزبطانة فتخرج مندفعة فتصيب الطير. انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ١٦٩).

(١) نبات عشبي برّي، طويل الجذور عميقها. يصنع من شراب عرق السوس.

(٢) الأصل في السَّنام للإبل: حدبة في ظهره. لعله يريد هنا: وسط ظهر الخنزير.

فرس شقراء تحته[١]، عُشَراء[٢] مُحَجَّلة[٣] شعلاء[٤]، ضربها رماها ورماه. فأما الفرس فانفسخت فخذها وتلِفت. وأما هو فانفكتْ إصبَعُه الخِنْصَر، وانكسر خاتَمه.

وركضتُ أنا خلف الخِنْزير. فدخل في سوس مُخْصِب، وَخبَّاب[٥] فيه باقورة[٦] نائمة ما أراها من ذلك الغاب. فقام منها ثور في صدر حصاني فندسه، فوقعتُ ووقع الحصان وانكسر لجامه. وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمىٰ نفسه في النهر، فوقفت علىٰ جُرْف[٧] النهر وزَرَقته بالرمح، فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين، وبقيت الحربة وكُسر الرمح فيه، وسبح إلىٰ ناحية النهر. فصحِنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لَبِناً[٨] لعِمارة بيوت في قريةٍ لعمّي. فجاؤوا ووقفوا عليه وهو تحت جُرْف لا يقدر يطلع منه. فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتىٰ قتلوه. وقلت [٦٦ظ] لرِكابيٍّ لي: «انزل إليه!» فقلع عُدّته وتعرّىٰ، وأخذ سيفه وسبح إليه تمّم قتله. وسَحَب برجله وأتىٰ به وهو يقول: «عرَّفكم الله بركات صيام رجب، استفتحناه بنجَس الخنازير».

ولو كان للخِنزير ظفر وناب مثل الأسد كان أشد بأساً من الأسد، فلقد رأيت منها خِنزيرة قد أقمناها عن جُرَيّات[٩] لها،

---

(١) يعني: أنه دخل تحت الفرس وهي ما تزال تحته.
(٢) العُشَراء: ما مضىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر.
(٣) في قوائمها بياض.
(٤) شعلاء: ذات بياض في الذنب، وفي ناحية من الناصية.
(٥) نبات مرتفع. خبّ النبات: طال وارتفع.
(٦) جماعة البقر (اسم جمع).
(٧) الجُرْف: والجُرُف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله.
(٨) جمع: اللَّبِنة: طين يضرب في القالب ويجفف ليبنىٰ به.
(٩) الجُرَيّة: يريدها تصغيراً للجروة.

وواحدٌ منها يضرب حافر فرس غلامٍ معي بفمه وهو في قدِّ جرْو القط. فأخذ الغلام من تَرْكَشه[1] نشّابةً ومالَ إليه طعنه بها، ورفعه في النشّابة. فعجبت من قتاله[2] وضرْبه حافر الفرس وهو بحيث يُحمَل في سهم نشّاب!

٣٨

[حيوية الكلّاب بطرس]

كان من عجائب الصيد: أننا كنا نخرج إلىٰ الجبل إلىٰ صيد الحَجَل ومعنا عشَرة بزاة نَتَصَيَّد بها النهار كله، والبازيارية مفترقة في الجبل، ومع كل بازيار فارسان ثلاثةٌ من المماليك. ومعنا كِلابزِيّان[3]: اسم الواحد بطرس والآخر زُرزور بادية. وكلما أُرسل البازيار علىٰ حَجَلة ونبجت[4] قد صاحوا: يا بطرس! يعدو إليهم مثل الهَجين[5]. كذلك النهارَ كله يعدو من جبل إلىٰ جبل، هو ورفيقه. فإذا أشبعْنا البزاة ورجعنا، أخذ بطرس قلاعه[6] وعدا خلف واحد من المماليك ضربه بها. أخذ[7] الغلام قلاعه وضرب بطرس. فلا يزال يطارد الغلمان، وهم رُكّاب وهو راجل، ويراميهم بالقِلاع من الجبل إلىٰ باب المدينة، ما كأنه نهارَه كلَّه يعدو من جبل إلىٰ جبل!

---

(١) الكنانة: (تركاش: فارسية). انظر: («التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ» ص ٧٦).

(٢) يعني: جرو الخنزير، وهو كما يقول «في قدّ جرْو القط».

(٣) الكِلابزي في لغة العصر هو الكَلَّاب: مدرب الكلاب.

(٤) صاحت أو خرجت من وكرها.

(٥) الهجين: ضرب من النوق، سريع السير، خفيف الجسم.

(٦) لعله يريد: المقلاع: آلة ترمىٰ بها الحجارة. والقِلاع، في الأصل: شراع السفينة.

(٧) واضح أن الجملة سيقت مساق الحديث المتتابع الدارج.

٣٩

[من عجائب الكلاب الزَّغاويّة]

ومن عجائب الكِلاب الزَّغاوية[١]: أنها ما تأكل الطيور، ولا تأكل منها إلّا رؤوسها وأرجلها التي ما عليها لحم، والعظام التي قد أكلت البُزاة لحمها.

وكان للوالد رَحِمَهُ الله كلبة سوداء زغاوية، يضع الغلمان بالليل علىٰ رأسها السراج، ويقعدون، ويلعبون بالشطرنج وهي لا تتحرك ولا تزول حتىٰ عَمِشت عيناها! وكان الوالد رَحِمَهُ الله يحرد علىٰ الغلمان ويقول: قد أعميتم هذه الكلبة ولا ينتهون عنها[٢].

وأهدىٰ الأميرُ شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة[٣] للوالد كلبة عَروفاً[٤] تُرسل تحت الصقور علىٰ الغِزلان. فكنا نرىٰ منها العجب.

٤٠

[وصف صيد الصقور]

وصيد الصقور بالترتيب: يُرسل في الأول [٦٧و] المقدَّم، فيعلق بأُذُن غزال يضربه. ويُرسل العَونَ بعده، فيضرب غزالاً آخر. ويُرسل العَون الآخر فيفعل كذلك. ويُرسل الرابع كذلك، فيضرب كلُّ صقر منها علىٰ[٥]

---

(١) كلاب منسوبة إلىٰ (زغاوة) في السودان. ترد كثيراً في الكتاب.

(٢) في نشرة السامرائي: «عنا».

(٣) شهاب الدولة مالك بن علي بن سالم، من بني عقيل، صاحب قلعة جعبر علىٰ الفرات. عزله عنها نور الدين الشهيد (٥٦٤هـ). انظر: («زامباور» ص٢٠٦).

(٤) من المبالغة في المعرفة: يعني حسن التدريب.

(٥) يعني: السيطرة عليه.

غزال. فيأخذ المقدَّم أُذُن غزال ويُفرده من الغِزلان، فترجع الصقور جميعها إليه، وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها. وهذه الكلبة تحت الصقور، لا تلتفت إلىٰ شيء من الغِزلان إلَّا ما[1] عليه الصقور. فيتفق أن يظهر العُقاب، فتحِلّ[2] الصقور عن الغزال فيمضي الغزال، وتدور الصقور، فكنا نرىٰ تلك الكلبة قد رجعت عن الغِزلان وقت رجوع الصقور، وهي تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حَلْقةً، ولا تزال تدور تحتها حتىٰ تنزل الصقور إلىٰ الدَّعْو[3] فحينئذٍ تقف وتمشي خلف الخيل.

٤١

[كثافة الغزلان في أرض القلعة: قلعة جعبر]

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد، رحمهما الله، مودة ومواصلة بالمكاتبات والرُّسُل. فنفَّذ إليه يوماً يقول له: خرجتُ إلىٰ صيدِ الغِزلان فاصطَدنا منها ثلاثة آلاف خِشْف[4] في يوم. وذلك أن الغِزلان عندهم في أرض القلعة كثيرة. وهم يخرجون وقت وِلاد[5] الغِزلان خَيّالةً ورَجّالة، فيأخذون منها ما قد وُلد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث، يقشّونها[6] كما يُقَشّ الحطب والعُشْب.

والدُّرّاج عندهم كثير في الأزوار علىٰ الفرات. وإذا شُقّ جوف الدُّرّاجة وأُزيل ما فيه وُحشي بالشعر لا تتغير رائحتها أياماً كثيرة.

---

(١) يقصد: الغزال الذي اجتمعت عليه الصقور.
(٢) بمعنىٰ: تتخلّىٰ. علىٰ نقيض: حلَّ في. توسع في اللغة.
(٣) دعا بالشيء دعْواً ودعوةً ودعاءً ودعوىٰ: استدعاه وطلب حضوره.
(٤) الخِشْف: ولد الظبية أول ما يولد.
(٥) مصدر (ولد) مثل الولادة.
(٦) من كثرتها.

٤٢

[بعض مشاهد الصيد النادرة]

ورأيت يوماً درّاجة قد شُق جوفها وأخرج قانصتها[١]، وفيها حَيّة قد أكلتها، نحواً من شبر[٢].

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حيّة خرج من جوفها حَيَّةٌ قد بلعتها صحيحةً دونها بيسير. ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي علىٰ الضعيف.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعـفـة فـلـعِـلَّـةٍ لا يـظـلـمُ[٣]

❀ ❀ ❀

حَصْرُ ذكر الصيد، وقد شهدته سبعين سنة من عمري، غير ممكن ولا مستطاع. وتضييع الأوقات في الخرافات، من أعظم عوارض الآفات. وأنا [٦٧ظ] أستغفر الله تعالىٰ من تضييع الصُبّابة[٤] الباقية من العمر، في غير طاعةٍ واكتساب ثوابٍ وأجر. وهو، تبارك وتعالىٰ، يغفر الخطية ويُجزل من رحمته العطية. فهو الكريم الذي لا يُخيِّب آمِله ولا يَرد سائلَه.

والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد نبيه،

وعلىٰ آله الطاهرين أجمعين وسلَّم تسليماً.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) جزء من معدة الطير يتم فيه جرش الغذاء وطحنه.

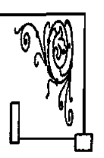
(٢) يقصد: طول الحية.

(٣) انظر «ديوان المتنبي»، طبعة دار المعرفة، ص٢٦٢، من قصيدته في هجاء ابن كَيْغَلَغ التي مطلعها:

لهوىٰ النفوس سريرة لا تُعلم عرضاً نظرتُ وخِلت أنيَ أسلمُ

(٤) الصُبابة في اللغة: ما بقي في الإناء من الماء ونحوه.





[سَماع الكتاب]

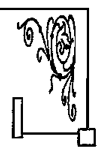
قرأت هذا الكتاب[1] من أوله إلىٰ آخره، في عدة مجالس، علىٰ مولاي جدّي الأمير الأجل، العالم الفاضل، الصدر الكامل، عضد الدين، جليس الملوك والسلاطين، حجة العرب، خالصة أمير المؤمنين، أدام الله سعادته، وسألته أن يُجيزني روايته عنه، فأجابني إلىٰ ذلك، وسطّر خطّه الكريم به، وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر، سنة عشر وستمائة.

صحيحٌ ذلك، وكتب جَدّه مرهف بن أسامة بن منقذ حامداً ومصلّياً[2].

(١) يعني: نسخة الكتاب التي نُسخت عنها هذه النسخة.

(٢) صورة الإجازة الأصلية التي يلزم أن يكون ولد المؤلف مرهف بن أسامة بن منقذ قد خطّها بقلمه علىٰ النسخة الأصلية الأولىٰ.





قائمة المراجع(١)

* **ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)**: الكامل في التاريخ. مطبعة الاستقامة، القاهرة، دون تاريخ.
* **ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)**: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد (الدكن) ١٣٥٧هـ.
* **ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)**: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م.
* **ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)**: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٤٨م.

تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨م. الجزء الأول ص ١٧٥ ـ ١٩٩، وفيها رواية عن وفاة أسامة بن منقذ سنة ٥٨٤هـ.

---

(١) اقتصرنا، في هذه القائمة، على ما ورد ذكره في الكتاب، ونصصنا فيه على الطبعة التي عدنا إليها. ورتبناه على حروف الأسماء الشائعة للكتّاب ومؤلّفيه. ولم نفصل بين الكتب والبحوث والمقالات في الصحف. وطوينا مصادر المعلومات الشفهية وأسماء المراجع العامة كالمعاجم والمؤلفات الذائعة الصيت، وإن ذكرنا مؤلفيها (مثل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، وول ديورانت: قصة الحضارة، وزيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب). واستعضنا أحياناً بذكر مؤلف الكتاب عن الكتاب نفسه، التماساً للاختصار (مثل، «زامباور»: لمعجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي). فالذي أردناه من هذه المراجع أن تكون دليلاً مركزاً فحسب، لما أردنا شرحه أو ضبطه أو التعريف به. فلهذا كثر ورود أسماءٍ بينها في حواشي الكتاب (مثل: معجم البلدان لياقوت، وأعلام الزركلي، ومعجم الأنساب والأسر الحاكمة لزامباور. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى للبقلي).

* ابن العديم (ت ٦٦٠هـ): أ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب (ترجمة أسامة بن منقذ). مصورة: المجلدة الثانية من مخطوطة مكتبة أحمد الثالث في إستانبول. تحقيق: علي سويم، أنقرة ١٩٧٦م.
* **ابن عساكر (ت ٥٧١هـ):** تاريخ دمشق، مختصره المسمىٰ (تهذيب تاريخ ابن عساكر)، (سبعة أجزاء). اختصره: الشيخ عبد القادر بدران. مطبعة روضة الشام ١٣٢٩هـ.
* **ابن واصل (ت ٦٩٧هـ):** مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (خمسة أجزاء). تحقيق: جمال الدين الشيال. مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧م.
* **أبو شامة (ت٦٦٥هـ):** أ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (ثلاثة أجزاء). تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢م.

  ب ـ ذيل كتاب الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع). تصحيح: محمد زاهد حسن الكوثري. الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.
* **أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ):** سقط الزند. دار صادر، بيروت ١٩٥٧م.
* **أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ):** المختصر في أخبار البشر (أربعة أجزاء). المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.
* **أحمد بن إبراهيم الصابوني (ت ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م):** تاريخ حماة. حماة ـ المطبعة الأهلية، دون تاريخ.
* **أسامة بن منقذ:** كتاب الاعتبار، تحت عنوان بالفرنسية: (أسامة بن منقذ، أمير سوري من القرن الأول للحروب الصليبية)[1] (١٠٩٥ ـ ١١٨٨م). تحقيق: هرتويغ ديرنبورغ H.Derenbourg. ليدن، باريس ١٨٨٤ ـ ١٨٨٦م.
* **أسامة بن منقذ:** كتاب العصا (من نوادر المخطوطات). تحقيق: عبد السلام هارون. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م.

---

(١) Ousâma ibn MUNKIDH. UN Emir Syrien au premier Siècle des croisades, Liden, Paris 1095-1188.

* **أسامة بن منقذ**: ديوان أسامة بن منقذ. تحقيق: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. المطبعة الأميرية (وزارة المعارف، الإدارة العامة للثقافة)، القاهرة ١٩٥٣م.
* **أسامة بن منقذ**: كتاب الاعتبار. تحقيق: فيليب حِتّي. مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة ١٩٣٠م. طبعة الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٨١م.
* **أسامة بن منقذ**: كتاب الاعتبار. تحقيق: قاسم السامرائي. دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).
* **أسامة بن منقذ**: من كتاب الاعتبار (المختار من التراث العربي). اختيار وتقديم وتعليق: عبد الكريم الأشتر. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٠م.
* **أسامة بن منقذ**: المنازل والديار.

(مخطوطة مصورة في روسية). بعناية: أنس خالدوف، أكاديمية العلوم للاتحاد السوفياتي ١٩٦١م.

تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وتقديم: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، دمشق ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

تحقيق: مصطفىٰ حجازي. لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

* **جمعه الحلفي**: مقالة بعنوان: صورة المثقف الخائن في سيرة أسامة بن منقذ. جريدة الحياة، لندن ٢١/١١/١٩٩٩م.
* **خير الدين الأسدي (ت ١٩٧١م)**: موسوعة حلب المقارنة (سبعة مجلدات). إعداد: محمد كمال. حلب، معهد التراث العلمي العربي ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.
* **خير الدين الزركلي (ت ١٩٧٨م)**: الأعلام، الطبعة الثانية (عشرة أجزاء). مطبعة كوستاتسوماس، القاهرة ١٩٥٩م.
* **الذهبي (ت ٧٤٨هـ)**: سير أعلام النبلاء. إشراف شعيب الأرناؤوط (٢٣ جزءاً). مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م وما بعدها.
* **راتب سكر**: أسامة بن منقذ في مؤلفات القرنين السادس والسابع الهجريين. مجلة جامعة البعث بحمص، المجلد ٢٢، العدد الأول، ذو القعدة ١٤٢١هـ ـ آذار ٢٠٠٠م.

* **راتب سكر**: صورة الأوروبيين في أدب أسامة بن منقذ (بحث مطبوع لم ينشر في كتاب).
* **زامباور (ت ١٩٤٩م)**: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي. إخراج: زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود. مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١م.
* **زهير بن أبي سُلمىٰ (ت نحو ٦٢٧م)**: شعر زهير بن أبي سُلمىٰ. تحقيق: فخر الدين قباوة. حلب، دار القلم العربي ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
* **زهير الشاويش**: الملحوظات على الموسوعة الفلسطينية. المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
* **سامي الدهان (ت ١٩٧١م)**: قدماء ومعاصرون. دار المعارف، القاهرة ١٩٦١م.
* **السمعاني (الحافظ) (ت ٥٦٢هـ)**: الأنساب. تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي. دار الجنان، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* **شاكر مصطفىٰ (ت ١٩٩٨م)**: بين الأدب والتاريخ (وجوه من العهد الصليبي) ص ٥٣، سلسلة أوراق من التاريخ رقم ٣. دار طلاس، دمشق ١٩٩٦م.
* **عبد الرحمن بن شعيل**: (رده علىٰ مقالة محمد علي العبد الآتي ذكرها). مجلة العرب، ملحق الجزء ٣. الرياض ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
* **عبد الكريم الأشتر**:

أ ـ فواصل صغيرة في الفكر والثقافة العربية. دار طلاس، دمشق ٢٠٠١م.

ب ـ نصوص مختارة من الأدب العباسي. المكتبة الحديثة، دمشق ١٩٦٧م.

* **العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ)**: جريدة القصر وجريدة العصر.

(قسم شعراء الشام) تحقيق: شكري فيصل (ثلاثة أجزاء). دمشق ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(قسم شعراء العراق) تحقيق: محمد بهجة الأثري. بغداد ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

* **عنترة بن شداد (ت حوالي ٦١٥م)**: ديوان عنترة بن شداد. تحقيق: محمد سعيد مولوي. المكتب الإسلامي، دمشق ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
* **فيليب حِتّي (ت ١٩٧٨م)**: ورفيقاه (ادورد جرجي وجبرائيل جبور): تاريخ العرب المطوَّل. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٣٧١ ـ ١٣٧٣هـ = ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤م.

* **الفِنْد الزِّماني**: مجموع شعره. بتحقيق: حاتم صالح الضامن. فصلة من مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٣٧ الجزء ٤، ربيع الأول ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
* **الفيروزآبادي**: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. دار الهجرة، بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* **القلقشندي (ت ٨٢١هـ)**: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، ثلاثة عشر مجلداً. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٠م.
* **قيس بن الخطيم**: ديوان. بتحقيق: ناصر الدين الأسد. دار صادر، ط ٢، بيروت ١٩٦٧م.
* **كامل شحادة**: قلعة شيزر في الماضي والحاضر. منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق ١٩٨٥م.
* **المتنبي (ت ٣٥٤هـ)**: ديوان المتنبي. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ.
* **محمد علي العبد**:

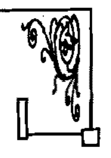
أ ـ «أسامة بن منقذ». التعليق الأول، مجلة العرب، الجزء ١. الرياض ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

ب ـ (رده علىٰ عبد الرحمن بن شُعيل). مجلة العرب، الجزء ٦. الرياض ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.
* **محمد قنديل البقلي**: التعريف بمصطلحات صبح الأعشىٰ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣م.
* **محمد نور أفاية**: صور الإفرنجي في كتاب الاعتبار، مقالة في جريدة (الحياة). لندن ٩/ ١٠/ ١٩٩٩م.
* **المقريزي (ت ٨٤٥هـ)**:

أ ـ المواعظ والاعتبار (خطط المقريزي). تصحيح: الشيخ محمد قطة العدوي. القاهرة ١٢٧٠هـ ـ ١٨٥٣م.

ب ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق: جمال الدين الشيال. دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

* **مهيار الديلمي** (ت ٤٢٨هـ): ديوان مهيار الديلمي. تصحيح: أحمد نسيم. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م - ١٩٢٦م.
* **الميداني** (ت ٥١٨هـ): مجمع الأمثال (الجزء الأول). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٠٠م.
* **اليافعي** (ت ٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان. مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدرآباد (الدكن) ١٣٣٧هـ - ١٩١٨م.
* **ياقوت الحموي** (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان (خمسة أجزاء). دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.



فهرس الأعلام والمواضع والبلدان

- أ -

- ب -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ن -

- هـ -

- و -





الكتب الصادرة

للدكتور عبد الكريم الأشتر

١ ـ **فنون النثر في المهجر (النثر المهجري).**

ـ الكتاب الأول: المضمون وصورة التعبير، الطبعة الأولى (معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٦١)، الطبعة الرابعة (دار الفكر بلبنان ١٩٨٣).

ـ الكتاب الثاني: القوالب الفنية، الطبعة الأولى (معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٦١)، الطبعة الثانية (دار الفكر الحديث بلبنان ١٩٦٤).

٢ ـ **تعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه**، الطبعة الأولى (جامعة دمشق ١٩٨٣).

٣ ـ **معالم في النقد العربي الحديث**، الطبعة الأولى (دار الشرق ببيروت ١٩٧٤)، الطبعة الثالثة (جامعة دمشق ١٩٨٣): تمت بطريق التصوير (الاتحاد الوطني لطلبة سورية).

٤ ـ **الرواية في أدب النكبة**، الطبعة الأولى (دار الفكر بدمشق ١٩٦٧)، طبعة مستقله. الطبعة الثانية (جامعة دمشق ١٩٨٣): ملحقة بكتاب تعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه.

٥ ـ **شجرة الدر**: دراسة صغيرة للرواية التاريخية، الطبعة الأولى (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٥م).

٦ ـ **دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت**، الطبعة الأولى (دار الفكر بدمشق ١٩٦٤)، الطبعة الثالثة (دار الفكر بدمشق ١٩٨٤).

٧ ـ **شعر دعبل بن علي الخزاعي**، الطبعة الأولى (مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٤)، الطبعة الثانية (مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣).

٨ ـ **كتاب (الاعتبار)** لأسامة بن منقذ (اختيار وتدقيق وتفصيل وتقديم)، الطبعة الأولىٰ (وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٠). الطبعة الثانية ـ كاملة ومنقحة ـ (المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣).

٩ ـ **نصوص مختارة من النثر العربي الحديث** (أعلام الرواد)، الطبعة الأولىٰ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٦).

١٠ ـ **نصوص مختارة من الأدب العباسي**، الطبعة الأولىٰ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٥)، الطبعة الثانية (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٩).

١١ ـ **غروب الأندلس**: دراسة صغيرة للمسرحية الشعرية، الطبعة الأولىٰ (المكتبة الحديثة بدمشق ١٩٦٥).

١٢ ـ **الملتقىٰ**: دراسات في التراث الإسلامي، الطبعة الأولىٰ (المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ٢٠٠١).

١٣ ـ **الصدىٰ**: صور تارخية من حياة الجامعة والثقافة والفكر في دولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ (مذكرات)، الطبعة الأولىٰ (دار الثريا بحلب ٢٠٠١).

١٤ ـ **مسامرات نقدية**، الطبعة الأولىٰ (دار القلم العربي بحلب ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢).

١٥ ـ **المقتطف**: من مجالس الوجد وأحاديث الألفة والسمر، الطبعة الأولىٰ (دار الثريا بحلب ٢٠٠٢).

١٦ ـ **فواصل صغيرة**: في قضايا الفكر والثقافة العربية، الطبعة الأولىٰ (دار طلاس بدمشق ٢٠٠٢).

١٧ ـ **أوراق مهجرية**: بحوث ومقاربات. أحاديث وحوارات. رسائل، الطبعة الأولىٰ (دار الفكر بدمشق ٢٠٠٢).

* قيد الإصدار والطبع *

١٨ ـ **ألوان**: قراءات في بعض المواقف الإنسانية والحركات الأدبية.

١٩ ـ **مراجعات في النقد**: خطوط متوازية.

٢٠ ـ **أحاديث الاثنين**: خواطر وأحاديث (خمسة أجزاء مستقلة).

٢١ ـ **ديوان العرب**: الشعر والشعراء من عصر الجاهلية إلىٰ العصر الحديث (خمسة أجزاء).



المحتوى

الفقرة	الصفحة

الفقرة	الصفحة

الفقرة	الصفحة

الفقرة | الصفحة

الفقرة	الصفحة

بداية الملحق
في طُرَف أخبار الصالحين والمتطببين

نهاية الملحق في ما حضرته وشاهدته
من الصيد والقنص والجوارح

الفقرة	الصفحة

الفقرة	الصفحة





هذا الكتاب

إنَّ غايةَ ما أبتغيهِ من نشره، في طبعته الكاملة هذه، بعد أن أعدت النظر فيه إعادة شاملة، أن تقع الإفادةُ منه في هذه الأيام الحرِجة التي نُواجِهُ فيها غزواً استيطانياً جديداً يُذَكِّر بِغزوِ الإفرنج أيام الحروب الصليبية، في عصرِ أسامة، فَيُعينُ نشر نصوصه، علىٰ إشاعَةِ الإصرارِ علىٰ دحرِه في نفوس الناس، عامة الناس، وتقوِيَةِ روحِ المقاومة فيهم، وبَثِّ الثِّقة، والاعتبارِ بما تَمَّ لنا تحقيقه تلك الأيام. واستخلاص الدروس منه.

ذلك أنَّ الكتاب، في جملته، يُعدّ فوق مزاياه الفنية، وثيقةً حيّة قلّ نظيرها في رصد إحساسنا بالتفوّق الحضاري العام في القرون الوسطىٰ، وخطرِه في ردّ غزو الإفرنج ديارنا أيام تلك الحروب.